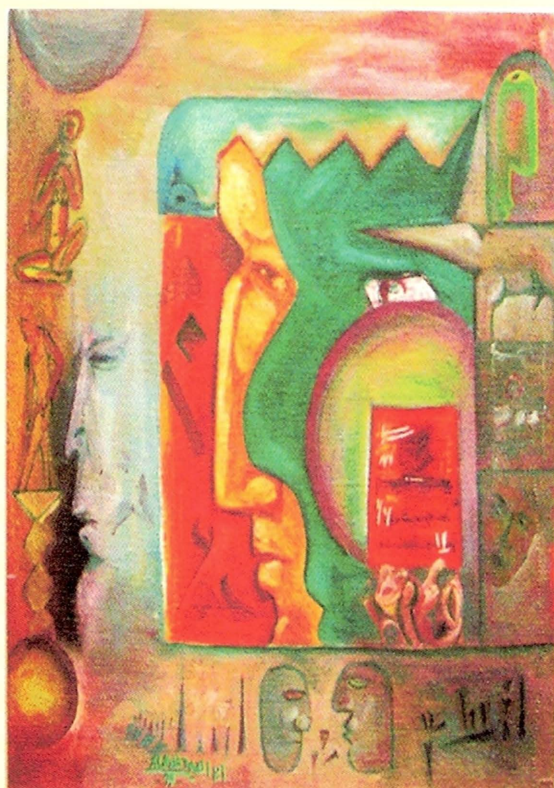
خوسه أورتغا إي غاسيت

# تمرّد الجماهير



ترجمة: علي إبراهيم أشقر

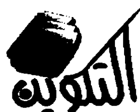
التكوين

# تمرد الجماهير

خوسه أورتِغا إي غاسيت

# تمرُّد الجماهيرْ

ترجمة: علي إبراهيم أشقر



La Rbelión de las Masas
Por
Ortega y Gasset

خوسه أورتِغا إي غاسيت؛ تمرّد الجماهير

ترجمة : علي إبراهيم أشقر

الطبعة الأولى2011



هاتف: 00963 112236468

فاكس:00963112257677

ص. ب:11418دمشق. سوريا

www.attakwin.com
info@attakwin.com

# خوسه أورتغا إي غاسيت

ولد عام 1883 في مدريد لأسرة تعمل في الصحافة. وحصل على الإجازة في الفلسفة عام 1902، ثم على الدكتوراه عام 1904، برسالة عنوانها: مخاوف السنة الألفية: نقد أسطورة.

ورحل بعد ذلك إلى ألمانيا. وحضر هناك المحاضرات التي كانت تُلقى في جامعة ليبتسك وبرلين ومايربورغ حتى عام 1907. فدرس هناك على دلتاي ودريش (صاحبي الفلسفة الحيوية)، وعلى هرمان كوهن وإرنست كاسيرر، وناتورب ممثّلي النزعة الكانطية الجديدة. ولمّا عاد إلى وطنه شغل كرسي ما بعد الطبيعة في جامعة مدريد حتى عام 1936.

وأسّس في عام 1915 مجلّة "إسبانيا"، ثم مجلّة الغرب Revista de Occidente. وكانت أثمن مجلّة أدبيّة وفكريّة عرفتها إسبانيا، ومن خير المجلات الأدبية والثقافية في العالم.

دخل ميدان السياسة في عهد ديكتاتورية بريمودي ريبيرا 1923 ــ 1930، مكافحاً هذه الديكتاتورية داعياً في مجلّته إلى الحريّات الديمقراطية وعودة الحياة النيابية، وقيامة الجمهور. ولمّا سقطت الديكتاتورية وأُعلنت الجمهورية عام 1931 أسّس جمعية العمل السياسي تحت اسم "في خدمة الجمهورية". وانتُخب نائباً في الجمعيّة التأسيسية. لكنّه سرعان ما خاب أمله في الجمهورية وما رجاه منها، ثم أصبح على غير وفاق مع أصحاب السلطة الناشئة فيها.

ولمّا قامت الحرب الأهلية في إسبانيا عام 1936 غادر البلد وراح يتجوّل في فرنسا وهولندا والبرتغال والأرجنتين حتى عام 1945، فعاد إلى إسبانيا التي ظـلّ يتنقّل بينها وبين البرتغال وبعض الدول الأوروبية حتى وفاته 1955.

من مؤلفاته: إسبانيا اللافقرية ـ تأمّلات الكيخوته ـ تمرّد الجماهير ـ موضوع عصرنا ـ دراسات في الحب ـ دروس في الميتافيزيقا، الخ... جُمعت مؤلفاته في مجلدات سُمّيت: المشاهد. وقد طُبع كثير من مؤلفاته بعد وفاته.

* * *

# ملاحظة توضيحية

تمرّد الجماهير أكثر أعمال أورتِغا إي غاسّيت شهرة. وهو بانتشاره في ترجمات إلى كل لغة ذات ثقافة، شمل منطقة العالم الغربي وتجاوزها. وموضوعه، كما كتب مؤلّفه عام 1929، يتناول: "أهم واقعة في عصرنا". وهذه الواقعة جليّة وثورية: "إنها وصول الجماهير إلى سدّة السلطة الاجتماعية". وكانت شهرة الكتاب وانتشاره بالغين حتّى تحوّل إلى أهمّ كواشف عصرنا.

وإن إعادة طبع النصّ في ترجماته المختلفة برهان على أن صفحاته تستجيب لاهتمامات تمسّ الأجيال الجديدة، وعلى أنّ نفوذ أفكاره يمكن أن يوجه المستقبل. وهذه الشهرة حملت ذكر أورتِغا على أن يتلقّى أعظم جزاء، ألا وهو تحوّل أفكاره إلى أفكار عامّة مطروقة، لكنها جعلته يعاني في آن واحد مخاطر ينطوي عليها هذا التحوّل، وقادت إلى أن يُفهم فهماً غير دقيق، بل حتّى إلى أن يُعدّل ويُبدّل جذرياً؛ كفكرة "الجمهور" مثلاً ومدى تمرّده التاريخي. ولئن كان أورتغا يستبق فيحذّر من ذلك في صفحات كتابه الأولى، فإن السياسة التي هي منظور سطحي دائماً أعاقت فهم أفكاره فهماً صحيحاً. وإن تمرّد الجماهير هو أكثر وقائع القرن العشرين إيجابية، لكن قوّته غير المسبوقة قد جلبت في آن واحد وبالقوّة، مخاطر هامّة وجديدة جدّاً. وإنّ تحقّق توقّعات أورتغا حالياً ـ وهي توقّعات تعود إلى نصف قرن ـ يمكن أن تُساهم في أن يُقرأ الكتاب اليوم بإمعان أكبر، وأن يُنتفع بصفحاته لفهم اللحظة التاريخية التي نعيشها.

ولا ينسَ القارئ أن الكاتب ليس سياسيّاً، ولا عالم اجتماع، بل فيلسوف. وإن جوهر الكتاب حسبما يلاحظ أورتغا في خاتمته، وإن جاءت إضافة إليه، منبثّ في ثنايا صفحاته كلها ويقوم على "مذهب حول الحياة البشرية".

لاحظتُ عند إعداد هذه الطبعة الجديدة بعض التصويبات والأخطاء التي استقرّت في الطبعات السابقات واستطعت إصلاحها. لكني نسخت، فضلاً عن ذلك، في هذه الطبعة الجديدة "خاتمة من أجل الإنكليز" كاملة ووفق موضوعها الدقيق، وألحقتُ بالكتاب نصّ محاضرة لم تُطبع من قبل ألقاها المؤلِّف في لندن عام 1951 حول تمرّد الجماهير، وكذلك نصّاً آخر غير مطبوع.

**الناشر**

**باولينو غرّاغوري**

* * *

# مقدّمة من أجل الفرنسيّين

## I

هذا الكتاب ـ على فرض أنّه كتاب ـ يعود إلى... لقد بُدئ بنشره في صحيفة مدريدية يوميّة عام 1927. والموضوع الذي يتناوله إنساني للغاية حتّى ينال منه الزمن بإفراط(1). هناك عصور يتسارع فيها على وجه خاصّ الواقع الإنسانيّ المتحرّك دائماً، ويندفع في سرعات تبعث على الدوار. وعصرنا من هذا الصنف لأنه عصر انحدار وسقوط؛ لذلك، خلّفت الوقائع الكتابَ وراءها. فكثير ممّا أُعلن فيه سرعان ما صار حاضراً، وهو الآن ماضٍ. وإذْ انتشر الكتاب فوق ذلك، انتشاراً كبيراً هذه السنوات خارج فرنسا، فقد وصلت صيغ منه غيرُ قليلة إلى القارئ الفرنسي بطرق مجهولة، وهي صيغ مسطّحة على شكل خالص. إذاً، لربّما كانت مناسبة رائعة لممارسة عمل إحسان أخصّ بعصرنا، وهو عدم كتابة كتب سطحية. وأنا قمت بكلّ ما يمكنني في هذا الاتّجاه. فمنذ خمسة أعوام طلبت مني دار ستوك Stock ترجمته، لكنّها بيّنت لي أن نظام الأفكار المُعبّر عنها في هذه الصفحات لا يروق للقارئ الفرنسي، وأنه قد يكون نافعاً إخضاعها إلى رأيها الفكري ونقدها، سواء أكان ذلك صواباً أم خطأ.

ولم أكن مقتنعاً جداً بذلك، لكن لا داعي للاستياء. ومع ذلك، يهمّني ألاّ يشرع القارئ في قراءته بأوهام غير مسوّغة. فلْيُعلم إذاً، أن الأمر يتعلق ببساطة بسلسلة من المقالات المنشورة في صحيفة يومية مدريدية واسعة الانتشار. وقد كانت هذه الصفحات مثل كلّ ما كتبته تقريباً، موجّهة إلى الإسبان كافة الذين وضعني القدر في مقدّمتهم. أليس أمراً بعيد الاحتمال للغاية أن تستطيع كلمات، وقد غيّرت وجهتها، أن تقول للفرنسيين ما تزعم الإفصاح عنه؟ يصعب عليّ أن

---

(1) [ الطبعة الأولى من تمرّد الجماهير ظهرت عام 1930، وكان الفصل الأوّل منه قد نُشر في صحيفة إيل صول El sol (الشمس) بتاريخ 24 تشرين الأول 1929، لكن هذه الصفحات هي إعادة صياغة صفحات أخر من عام 1927. ] الناشر.

آمل حظّاً خيراً من ذلك، خاصّة إذا كنت مقتنعاً أن الكلام عملية فيها من المخاتلة أكثر مما يُظنّ عادة، بالتالي مثل كلّ ما يصنعه الإنسان تقريباً.

نحن نعرّف الكلام أنه الوسيلة التي تخدمنا للإعراب عن أفكارنا. لكن تعريفاً إنْ كان صادقاً، إنْ كان ساخراً يفرض تحفّظات مضمرة، وإذا لم يُفسر هكذا، فإنّه يُنتج نتائج مشؤومة. هذا هو الوضع. واللغة في الأقلّ تخدمنا أيضاً لإخفاء أفكارنا، تخدمنا في الكذب. وقد يكون الكذب محالاً لو لم يكن الكلام الأساس والعاديّ صادقاً. والعملة المزوّرة تسري مدعومة بالعملة السليمة. وأخيراً، تبدو الخديعة طفيليّاً بسيطاً من طفيليات السذاجة.

كلا؛ بل أخطر ما في ذلك التعريف الإضافة المتفائلة التي اعتدنا سماعها. لأنه، هو بنفسه، لا يضمن لنا من خلال اللغة التعبير عن أفكارنا كلها بدقّة كافية. وقد لا يكون بهذا الخطر، لكنه لا يبيّن لنا أيضاً الحقيقة الناصعة على شكل صريح. أي، إذا كان مُحالاً على المرء أن يتفاهم مع أشباهه لأنّه محكوم عليه بوحدة قاسية، فإنه يُضني نفسه في بذل جهود وصولاً إلى الغير. ومن هذه الجهود اللغة التي تنجح أحياناً في أن توضّح بتقريب أكبر بعض الأمور التي تحدث في داخلنا، ولا شيء آخر. لكننا لا نستعمل هذه التحفّظات في العادة. بل العكس، إذا ما شرع امرؤ في الكلام فهو يصنع ذلك ظنّاً منه أنه يستطيع أن يقول كلّ ما يفكّر فيه. إذاً، هذي هي الخديعة، فاللغة ليس لها هذه القدرة. إنها تقول إلى حدّ ما جانباً ممّا نفكر فيه ثم تضع حاجزاً لا يمكن اجتيازه لنقل بقيّة الأفكار. إنها تصلح صلاحية كافية من أجل تعابير وبراهين رياضية. ثم تأخذ عند الكلام عن الفيزياء أن تصبح ملتبسة وغير كافية. لكن الحديث كلّما اهتمّ بمواضيع أهمّ من هذه، وأكثر إنسانية، وأكثر "واقعية"، فإن عدم دقّتها وتعثّرها وغموضها تكون في ازدياد. وإذْ كنّا خاضعين للحكم المسبق المتهافت أننا عند الكلام نتفاهم، فإننا نقول ونستمع إلى بعضنا بثقة جدّ كبيرة حتى ننتهي في أحيان كثيرة إلى أن نسيء فهم بعضنا أكثر كثيراً ممّا لو كنّا خُرْساً فنحاول أن نخمّن ما نقول تخميناً.

وننسى كثيراً أن كل قول حقيقي لا يقول شيئاً فقط، وإنما يقوله أحدٌ ما إلى أحد. وفي كل قول هناك مُرسل ومُستقبل، وهما ليسا غير مكترثين بمعنى الكلمات، وهذا المعنى يتغيّر بتغيّرهما:

Duo si idem dicunt non est idem، "إذا قال اثنان قولاً واحداً، فهو ليس ذات القول". وكل مفردة بنت مناسبة. واللغة بماهيّتها حوار، وكل الأشكال الأخرى من الكلام تُضعف من فعاليّتها. لذلك أحسب كتاباً جيّداً فقط بمقدار ما يجلب إلينا من حوار كامن، وبمقدار ما نحسّ فيه بأن المؤلّف يعرف أن يتصوّر قارئه بدقّة، وبمقدار ما يلمح هذا القارئ كأنّ يداً ذات جبلّة عجيبة تخرج من بين السطور وتلامس شخصه وتريد أن تداعبه، أو بالحريّ أن تلكمه بشكل مهذّب جدّاً.

لقد أسيء استعمال الكلمة، لذلك تدنّت سمعتها. وسوء الاستعمال هذا يقوم كما في أشياء أخرى كثيرة، على الاستعمال من غير اهتمام ومن غير وعي بقصور الأداة. ولقد حسِب الناس منذ قرنين تقريباً أن الكلام كلام urbi et orbi، أي، كلام إلى كل الناس، وليس لأحدٍ منهم. وأنا أكره هذه الطريقة في الكلام وأعاني إذا لم أعرف بدقة شديدة إلى من أتحدّث.

يُروى، من غير إلحاح على صحّة الواقعة، أنه لمّا احتُفل بعيد فيكتور هوغو V. Hugo الخمسين، أقيمت حفلة كبرى في قصر الإليزيه حضرها ممثّلو الدول كلهم مقدّمين تهانيهم. كان الشاعر الكبير يقف في قاعة الاستقبال الكبرى بجلال تمثال، مستنداً بمرفقه إلى طيّة حرف مدفأة جدارية. وكان ممثّلو الأمم يتقدّمون أمام أعين الجمهور ويقدّمون تهانيهم لشاعر فرنسا. وكان حاجب يعلن عنهم بصوت جهوري:

(السيّد، ممثّل إنكلترا!) وكان فيكتور هيغو يقول بصوت درامي مرتعش وعيناه في الفراغ: (إنكلترا، آه شكسبير!) ثم تابع الحاجب: (السيّد ممثّل إسبانيا) وفيكتور هيغو يقول: (إسبانيا! آه، ثربانتس!) ثم يتابع الحاجب: (السيد، ممثّل ألمانيا!) وفيكتور هيغو: (ألمانيا، آه غوته!).

لكن، لما جاء دور سيد بسيط ربع القامة، ضخم الجثّة ومتعثّر المشية صاح الحاجب: (السيد ممثّل ما بين النهرين!).

وبدأ التلجلج على هيغو الذي ظلّ حتى ذلك الحين رابط الجأش وواثقاً بنفسه. ودار بؤبؤا عينيه القلقان دورة دائرية كبرى وكأنه يبحث في الكون عن شيء ما كان يجده. لكنه سرعان ما لُمحَ أنه وجده، ثم عاد إليه الإحساس بأنه سيّد الموقف، وردّ على تحيّة الممثل الضخم باللهجة المؤثّرة ذاتها وبقناعة لا تقلّ عمّا سبق، قائلاً: (ما بين النهرين! آه، الإنسانية!).

لقد ذكرت هذه الحادثة كيما أوضّح، من غير فخامة فيكتور هيغو، أنّي لم أكتب ولم أتكلّم قطّ من أجل ما بين النهرين، وأني لم أتوجّه قطّ إلى الإنسانية. وهذه العادة في الكلام عن الإنسانية، التي هي شكل الديماغوجية الأمثل والأجدر بالازدراء، تبنّاها حوالي عام 1750 مفكرون تائهون جاهلون بحدودهم ذاتها. إنهم، بحكم وظيفتهم، رجال القول، رجال "اللوغوس" Logos، قد استعملوا الكلمة من غير احترام ولا حذر، ومن غير أن يدروا أن الكلمة سرّ مقدّس تدبيرُه دقيق للغاية.

* * *

# II

وهذه النظرية التي تدلّ على ضآلة مدى العمل الفعّال المُعطى للكلمة، تبدو فاقدة الصلاحية بواقعة أن هذا المؤلَّف وجد قرّاء في لغـات أوروبـا كلـها. وأنـا أحسب، مع ذلك، هذه الواقعة عَرَضاً لشيء آخر. لشيء آخر أكثر خطراً، عرضاً لتجانس مخيف في المواقف سقط فيه الغرب كلّه. ومنذ ظهور هذا الكتـاب نمـا هذا التماثل بالآلية الموصوفة في الكتاب، بشكل مقلق. أقـول: مقلـق، لأنّ مـا يُحَسّ به في الواقع في كلّ بلد على أنه ظرف مؤلم، يضاعف حتى اللانهاية أثـره المُحبط إذا لاحظ من يعانيه أنه لا يوجد مكان في القارّة تقريباً إلا ويحـدث فيـه الحدث ذاته بدقّة. إذْ كان بالإمكان من قبل أن يُهـوّى الجـوّ المحـصور في بلـد بفتح نوافذه المطلّة على بلد آخر. لكنّ هذه الوسيلة أصبحت غير مجدية اليـوم، لأن الجوّ في البلد الآخر غير صالح للتنفّس كما الهواء في بلده ذاتـه. ومـن هنـا الإحساس الضاغط بالاختناق. وقد كان أيوب الـساخر مـن غـير أن يظهـر عليـه pince-sans-rire ، يسأل أصدقاءه المسافرين والتجار ممّن طاف أرجاء العالم:

" Unde sapientia venid et quis est locus intellegentiae?"

"أتعلمون بمكان في العالم حيث العقل موجود؟"

من الملائم، مع ذلك، أن نميّز في هذا التماثل في الظروف بُعدين مختلفين وذوي قيمة متناقضة.

وقد تميّز هذا الثول[1] من الشعوب الغربية، الذي انطلق طائراً فوق التاريخ بدءاً من خرائب العالم القديم، بشكل مزدوج للحياة دائماً. إذْ كلّما شرع شعب منـها في تكوين عبقريّته الخاصّة، كانت تُخلق بينها ومن فوقها جملة مـن الأفكـار والطرائـق والمشاعر المشتركة. بالحري، ينبغي لنا أن نفهم هذا المـصير الـذي كـان يجعلـهم متجانسين باطّراد ومختلفين باطّراد في آن واحد، بشيء من المفارقة الـضخمة. لأن التجانس فيهم لم يكن غريباً عن التنوّع (أو الاختلاف). بل على العكس، كـان كـلّ

(1) الطرد، أو الطائفة من النحل ـ المترجم.

مبدأ موحِّد يخصب التعـدّد. فقـد ولّـدت الفكـرة المـسيحية الكنـائس القوميـة؛ وذكـرى الإمبراطورية الرومانية ألهم أشكال الدولة المختلفة؛ "وإعـادة إرسـاء الآداب" في القـرن 15 أطلق الآداب المتباينة؛ والعلم ومبدأ الإنسان الموحّد "كعقل محض" خلق الأساليب الفكرية المختلفة التي كيّفت على شكل تفاضلي حتى التجريدات القصوى في العمل الرياضي. وللاستزادة أخيراً: حتى الفكرة الغربية في القرن 18 التي تقـضي أن يكـون لكل شعب تكوينٌ ذو هويّة واحـدة، أيقـظ بـشكل رومانـسي الـوعي بـالفرق بـين القوميات، الذي كان يحثّ كلاً منها صوب رسالته الخاصّة.

ذلك أن العيش لدى الشعوب المسمّاة أوروبية كان دائماً ـ بالطبع منذ القرن 11، أو منذ أوتون III ـ حركة ونشاطاً في مجال وبيئة مشتركين؛ أي أن العـيش لـدى كلّ شعب منها تعايش مع الآخرين. وكان هذا التعايش يتّخذ مظهراً سلميّاً أو حربيّـاً على حدّ سواء. وقد أظهرت الحروب بين الأوروبيين أسلوباً طريفاً جعلها أقرب كثيراً إلى النزاعات العائلية. لقد تجنّبت إفناء العدوّ، وهي بـالحري مباريـات وصـراعات تنافسٍ كصراعات الفتيان داخل قرية، وأقرب إلى منازعات الورثة مـن أجـل تقـسيم تركة عائلية. إنهم يسعون إلى الهدف ذاته بشكل مختلف، Edem sed alliter: في ذات الطريق لكن بشكل آخر. أو كما كان يقول كارلوس V عن فرانسوا الأول: (ابن خالي فرانسوا وأنا متفقان تمام الاتفاق: كلانا يريد ميلان).

وهذا المجال التاريخي المشترك حيث ناس الغـرب جميعـاً كـانوا يحسّون بأنفسهم كأنهم في بيوتهم يطابقه في حدّه الأدنى مجال مـاديّ تـسمّيه الجغرافيـا أوروبا. وهذا المجال التاريخي الذي أشـير إليـه يقـاس بمـدى التعـايش الفعّـال والطويل. إنـه مجـال اجتمـاعي. والتعـايش والمجتمـع همـا حـدّان متكافئـان. والمجتمع هو ما ينتج آلياً بواقعة التعايش ببساطة. ومن طبيعة التعـايش أن يفـرز على شكل محتوم عاداتٍ وأعرافاً ولغة وحقوقاً وسلطة عامّـة. وإن أحـد أخطـر أخطاء الفكر "الحديث" الذي مازلنا نعاني لطخاته، كانت خلط المجتمع بالرابطة الاجتماعية asociación[1]، التي هي عكس الأول تقريباً. فلا يتكوّن مجتمـع مـن

(1) كلمة لها معان عدّة، منها: رابطة صداقة أو زمالة ـ جمعيّة (كجمعيّة غرف التجارة والـصناعة...) ـ اتّحاد (كاتحاد نواد ـ ومصارف..) وكلها روابط مجتمعية ـ. المترجم.

اتفاق الإرادات. والعكس صحيح، كل اتفاق إرادات يتضمّن وجود مجتمع، وجود ناس يتعايشون. والاتفاق لا يمكن أن يقوم إلا على تحديد هذا الشكل أو ذاك من التعايش، أو المجتمع السابق الوجود. وإن فكرة المجتمع أنه اجتماع تعاقدي، بالتالي، قانوني، هو أسخف بحث عُمل لوضع العربة أمام الثورين. لأن القانون، أي حقيقة القانون، وليس أفكار الفيلسوف أو القانوني أو الديماغوجي حوله، إنْ سُمح لي بتعبير بارّوكي، إفراز تلقائي يفرزه المجتمع، ولا يمكن أن يكون شيئاً آخر. وإذا أريد أن يحكم القانون العلاقات بين كائنات لم تكن تعيش من قبل في مجتمع، يبدو لي ذلك - واغفروا لي جرأتي - فكرة غامضة جداً ومضحكة عمّا هو القانون.

ويجب ألاّ تدهشنا، من جهة أخرى، هيمنة هذا الرأي الغامض والمضحك عن القانون. لأن إحدى مصائب عصرنا هي أن سكان الغرب لمّا ارتطموا في النزاعات العامة الرهيبة الراهنة، وجدوا أنفسهم مزوّدين بأدوات متهافتة وغبيّة في المعاني حول ماهيّة المجتمع والجماعة والفرد والأعراف والقانون والعدالة والثورة، الخ... وإن جانباً كبيراً من الاضطراب الحالي جاء من فقدان الانسجام ما بين كمال أفكارنا حول الظاهرة الفيزيائية، والتخلّف المخجل في مجال "العلوم الإنسانيّة Ciencias Morales". فالوزير والأستاذ والفيزيائي اللامع والروائي لديهم في العادة تصوّرات عن هذه الأشياء جديرة بحلاّق في حيّ ضاحية. أو ليس ابتذالاً على شكل كامل أن يكون حلاق ضاحية من يمنح العصر نغمة لحنه؟[1].

لكن، لنعدْ إلى ما كنّا فيه. كنت أريد أن أوحي أنّ الشعوب الأوروبية هي، منذ مدّة بعيدة، مجتمع وجماعة بالمعنى ذاته الذي لهاتين الكلمتين، إذا طُبّق على كل أمّة من الأمم التي تشكل ذلك المجتمع. وهذا المجتمع الأوروبي

---

(1) من العدل أن نقول أنه في فرنسا وحدها، كانت بداية إيضاح هذه التصورات كلها. وسيجد القارئ في مكان آخر دلالة على ذلك، فضلاً عن سبب إخفاق هذه البداية. ولقد حاولت من جهتي، أن أساعد في هذا الجهد الإيضاحي منطلقاً من التقليد الفرنسي الحديث الذي يتفوّق في هذا المجال من المواضيع على ما عداه. ونتيجة أفكاري متضمّنة في الكتاب: الإنسان والناس، الذي سيصدر قريباً. وفيه يجد القارئ نشر كلّ ما قلته منذ قليل وتسويغه. (المؤلف).

يُفصح عن كل صفات المجتمع: فهناك عادات أوروبية، وأعراف أوروبية ورأي عام أوروبي، وقانون أوروبي وسلطة عامة أوروبية. لكنّ هذه الظواهر الاجتماعية كلّها توجد بشكل يلائم حالة التطوّر التي يجد المجتمع الأوروبي نفسه فيها، وهي بالطبع، ليست حالة متقدّمة كما هي حالة أعضائه المكوّنين له، أي الأمم (الدول).

مثال على ذلك: إن شكل الضغط الاجتماعي الذي هو السلطة العامة، يعمل في كل مجتمع حتى في المجتمعات البدائية حيث لا يوجد بعدُ جهاز خاص مكلّف بإدارة تلك السلطة. وإذا أُريد تسمية ذلك الجهاز المميّز الذي توكل إليه ممارسة السلطة العامة دولةً، فقلْ إن بعض المجتمعات تخلو من دولة، لكن لا تقلْ إنها تخلو من سلطة عامة. فإذا وُجد رأي عام، فكيف يُمكن أن تُفتقد سلطة عامّة، إذا لم تكن هذه السلطة غير العنف الجماعي منطلقاً من ذلك الرأي؟ وإن وجود رأي عام أوروبي منذ قرون بوتيرة متنامية، فضلاً عن وجود تقنية للتأثير فيه، مسألة صعب إنكارها.

لذلك أُوصي القارئ أن يتجنّب خبث بسمة إذا وجد في الفصول الأخيرة من هذا المؤلَّف إقامة دليل بشيء من الحماس، على أن وحدة دول أوروبا ممكنة ومحتملة على الرغم من المظاهر الحالية المعاكسة. ولا أنفي أنّ الولايات المتحدة الأوروبية هي أحد الأخيلة القائمة الأكثر تواضعاً، ولا أوافق على ما فكّر فيه آخرون في ظل هذه الإشارات اللفظية. لكن، من غير المحتمل للغاية من جهة أخرى، ألا يقترب مجتمع أو جماعة جد ناضجة كالجماعة التي تشكّلها شعوب أوروبا الآن، من خلق آلة دولة تصوغ بها ممارسة السلطة العامة الأوروبية القائمة من قبل. وما يدفعني إلى أن أفكّر هذا التفكير ليس الضعف إذاً، إزاء إغراءات الخيال، ولا هو ميل إلى "مثالية" أمقتها، وقد كافحتها طيلة حياتي كلّها. لقد كانت الواقعية التاريخية من علّمني أن أرى في الوحدة الأوروبية مجتمعاً، وهو ليس "مثالاً أعلى"، بل حدثٌ ذو واقعية يومية قديمة جداً. واليوم، إذا نُظر إلى ذلك مرة واحدة فإن احتمال قيام دولة أوروبية عامّة يفرض نفسه بالضرورة. والمناسبة التي قد تؤدّي فجأة إلى إنجاز العملية يمكن أن تكون

أيّة مناسبة؛ كظهور مذنّب صيني يطلّ من جبال الأورال، أو هزّة ضخمة من اهتزازات الماغما الإسلامية.

بالطبع، سيكون شكل هذه الدولة فوق ـ القومية مختلفاً عن الأشكال المعروفة، كما كانت الدولة القومية مختلفة جداً عن دولة - المدينة التي عرفها القدماء، حسبما حاولت تبيانه في هذه الفصول ذاتها. لقد حاولت في هذه الصفحات أن أفتح الأذهان كيما تعرف أن تكون وفيّة لتصوّر الدولة والمجتمع، الذي أعدّه لنا التراث الأوروبي، تصوّراً دقيقاً.

فلم يكن سهلاً على الفكر الإغريقي الروماني أن يتصوّر الواقع تصوراً ديناميكيّاً. فما كان يستطيع الاستغناء عن المرئيّ وبدائله، مثل طفل لا يفهم من كتاب سوى الصور. وقد ذهبت سدىً جهود فلاسفتهم الأصلاء كلها لتجاوز هذا التقييد. وقد مثّل إلى حدّ ما موضوعُ الجسد الذي هو عندهم "الشيء" بامتياز، نموذجاً قاعدةً في مساعيهم كلّها من أجل الفهم ووفِّقوا في رؤية (مجتمع) فحسْب، في رؤية دولة حيث الوحدة لها طابع يلامس البصر مباشرة، كمدينة، مثلاً. أمّا قابليّة الأوروبي الذهنية، فهي مناقضة لذلك. فكلّ شيء مرئي يبدو له، بصفته تلك، قناعاً بسيطاً ظاهرياً لقوّة كامنة، هي في حالة إنتاج له مستمرّ. وهي واقعه الحقيقي. فحيثما تنشط القوّة، الديناميس La Dynamis، توحيدياً، فثمّة وحدة حقيقية، وإن تجلّت لنا في الظاهر بأشياء مختلفة.

قد يكون سقوطاً في التقييد القديم إذا لم نكتشف وحدة السلطة العامّة إلا حيث تتخذ أقنعة دولة صارت معروفة ومتحجّرة؛ أي، الدول المستقلة في أوروبة. وإني أرفض رفضاً صريحاً أن تكون السلطة العامة الحاسمة والفاعلة في كلّ منها قائمة حصراً على سلطة عامة داخلية أو قومية. ويجدر بنا أن ندرك مرة واحدة أن شعوب أوروبا كلها تعيش منذ قرون كثيرة، وبوعي بهذا العيش منذ أربعة قرون، خاضعة لسلطة عامّة، هي بنقائها الدينامي ذاته لا تسمح بتسمية أخرى إلا بالتسمية المستنبطة من علم الميكانيك: "التوازن الأوروبي"، أو توازن القوى Balance of powers.

هذي هي حكومة أوروبا الحقيقية التي تنظّم عبر التاريخ طيران ثول الشعوب العاملة المقاتلة كالنحل، هاربة من خرائب العالم القديم. ووحدة أوروبا ليست (فانتازيا) بل هي الواقع ذاته. أمّا الفانتازيا فهي بالضبط الشيء الآخر: هي الاعتقاد بأن فرنسا وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا وقائع حقيقية ومستقلّة.

ومعلوم، مع ذلك، أنْ ليس كل الناس يحدّدون بوضوح واقع أوروبا، لأن أوروبا ليست "شيئاً"، بل هي توازن. ولقد سبق للمؤرّخ روبرتسون Robertson أن سمّى في القرن 18 التوازن الأوروبي: سرّ السياسيّين العصريّين الكبير. The great secret of modern politics.

ويا له من سرّ كبير ومتناقض بلا ريب! لأن التوازن، أو ميزان القوى هو واقع يقوم جوهرياً على وجود تعدّدية. فإذا فُقدت هذه التعدّدية، فإن تلك الوحدة الدينامية تتلاشى. أوروبا هي في الواقع ثول: كثير من النحل وطيران واحد.

وهذا الطابع التوحيدي للتعدّدية الأوروبية الرائعة هو ما أسميه التجانس الحسَن، التجانس الخصب والمرغوب فيه، التجانس الذي جعل مونتسكيو Montesquieu يقول: أوروبا ما هي غير أمّة مكوّنة من أمم عدّة[1]. L'Europe n'est qu'une nation compose de plusieurs

وجعلت بلزاك Balzac يتحدث برومانسية أكثر، عن العائلة القارية الكبرى التي تتجه جهودها كلها إلى مالا أدري من سرّ حضاري.

La grande famille continentale, dont tous les efforts tendent à je ne sais quel mystere de civilization.

* * *

(1) النظام الملكي العالمي: في مصنّفين صغيرين 1891 ـ ص36 ـ المؤلف.
Monarchie Universelle: deux opscules 1891-pag.86.

## III

إن هذا الحشد من الصيغ الأوروبية، الذي ينبع من وحدتها الأساسية على شكل دائم، ويرتدّ إليها مُبقياً عليها، هو كنز الغرب الأكبر. أمّا البشر ذوو الرؤوس الجافّة فلا يستطيعون أن يتصوّروا فكرة جدّ بهلوانية كهذه التي يجب فيها القفز من غير راحة، من التأكيد على التعدّدية إلى الاعتراف بالوحدة والعكس بالعكس. إنها رؤوس ثقيلة وُلدت لتكون تحت راية طغيان الشرق الأبدي.

يسود اليوم المنطقة القاريّة على وجه خاصّ شكل من التجانس يهدّد بأن يستهلك استهلاكاً كاملاً ذلك الكنزَ منذ أن طلع في كلّ مكان، الإنسان ـ الجمهور الذي يهتمّ به هذا الكتاب؛ وهو نموذج من البشر صُنع على عجل، ولا يقوم على شيء سوى بعض المجرّدات البائسة، لذلك هو متماثل من هذا الطرف في أوروبا إلى الطرف الآخر، وإليه يعود هذا المظهر الحزين من الرتابة الخانقة، الذي اتّخذته الحياة في القارة كلّها. وهذا الإنسان الجمهور، إنسان أُفرغ مسبقاً من تاريخه ذاته، ومن غير مضمون ماضٍ، لذلك هو طوع بنان كل المذاهب المسمّاة دولية؛ هو ليس إنساناً بل قشرة إنسان مكوّن من "أصنام سوق"[1] محضة، ويخلو من "داخل"، ومن حميمية قوية لا تقبل التبديل؛ يخلو من ذات لا يمكن تعديلها. لذلك هو في جاهزية دائمة كيما يتظاهر بأن يكون كل شيء. ولديه شهوات فقط، ويؤمن أنّ له حقوقاً فحسْب، ولا يؤمن بأن عليه واجبات؛ إنه الإنسان من غير نُبل مُلزم Sine nobilitate ـ أي، سنوب Snob[2].

وقد أعْمتْ هذه (السنوبية Snobismo) التي تبرز على شكل جلي جدّاً لدى العامل الحالي مثلاً، أعمت النفوس عن أنْ تفهم أنه إذا كان من الواجب تجاوز

---

(1) أو idola fori كما سمّاها ف. بايكون، لأنها تتعلق باللغة وسيلة التفاهم كما البضائع وسيلة التبادل في السوق. والخطأ في اللغة ناجم عن: 1- اشتراك معاني الألفاظ. 2- أن نعدّ الألفاظ من الأشياء، فنستغني بها عن الوقائع والأفعال. ـ المترجم نقلاً عن الموسوعة الفلسفية. د. عبد الرحمن بدوي.

(2) كانت لوائح الأحياء في انكلترا تشير إلى وظيفة الشخص ومرتبته تكتب إلى جانب اسمه. لذلك كان يظهر إلى جانب أسماء بسطاء البرجوازية الرمز المختصر: S. nob ، أي من غير نبالة. وهذا هو مصدر كلمة Snob ـ المؤلف.

كلّ بنية معطاة من بنى الحياة القاريّة، فإن هذا التجاوز يجب أن يتمّ من غير فقدان خطير في مضمون تعدّديتها. وإذْ كان (السنوب) مفرغاً من مصيره الخاص، وإذْ كان لا يشعر أنه موجود على سطح الأرض كيما يصنع شيئاً معيّناً وغير قابل للاستبدال، فهو عاجز عن أن يفهم أنه توجد رسالات خاصة، ودعوات نوعيّة. لذلك هو معاد لليبرالية بعداء شبيه بعداء الأصمّ للكلمة. فقد كانت الليبرالية تعني دائماً في أوروبا منطقة حرّة كيما نكون حقّاً ما نحن. وندرك أن من يتطلّع إلى الاستغناء عنها هو من ليس لديه ما يصنعه حقاً.

وقد اتّفق الناس جميعاً بسهولة عجيبة على محاربة الليبرالية القديمة والحطّ من شأنها. والأمر يدعو للريبة. لأن الناس ليس من عادتهم أن يتّفقوا إلا على الخسيس من الأمور أو التي فيها شيء من الحماقة. ولا أزعم أن الليبرالية القديمة فكرة معقولة بالمعنى التام: وكيف تكون كذلك إذا كانت قديمة وهي ismo، أي مصدر صناعي! لكني، نعم، أحسبها مذهباً اجتماعياً أعمق وأوضح كثيراً مما زعمه منتقدوها من أنصار الجماعية Colectivistas الذين يبدؤون بتجاهلها. وفيها ـ في الليبرالية ـ، فضلاً عن ذلك، حدس فيما كانت أوروبا عليه من فطنة عالية جداً.

لما قارن غيزو Guizot مثلاً، الحضارة الأوروبية بالحضارات الأخرى مبيّناً أنه لم ينتصر فيها مبدأ قطّ بشكل مطلق ولا فكرة ولا فئة أو طبقة تدين لها بنموّها الدائم وبطابعها التقدّمي، فإنّنا لا نستطيع إلا أن نصيخ السمع[1]. لأن هذا الرجل كان يعلم ماذا يقول، وإن تكن عبارته غير كافية لأنها سلبية، لكنّ كلماته تصلنا محمّلة برؤى هي بنت الحاضر. ونرى أن هذا الرجل يجيء حقاً من عمق ماضي

---

(1)" التعايش ومعركة المبادئ المختلفة "، غيزو ـ تاريخ الحضارة في أوروبا ـ ص 35. ونجد الفكرة ذاتها عند رجلٍ جدّ مختلف عن غيزو مثل رانكه Ranke. "إذا ما مبدأ كائناً ما كان هذا المبدأ، حاول كما في أوروبا أن يفرض سيطرته المطلقة، فإنه يلقي دائماً مقاومة تطلع لمعارضته من أعمق أعماق الأحشاء الحيوية". الأعمال الكاملة ـ 38 ـ ص 110. وفي مجلّد آخر (الثامن والعاشر ص3): "العالم الأوروبي مكوّن من عناصر ذات مصدر مختلف؛ ومن تباينها وصراعها الكبير تحديداً نمت التغيّرات في الحقب التاريخية". ألا يوجد في كلمات رانكه هذه أثر واضح من غيزو؟ إنّ أحد العوامل التي تمنع من رؤية الطبقات العميقة من القرن 19، هو أن تبادل الأفكار ما بين فرنسا وألمانيا لم يُدرس دراسة كافية، لنقلْ منذ عام 1790 حتى 1830. وقد تكشف هذه الدراسة عن أنّ ألمانيا تلقّت في هذه الحقبة من فرنسا أكثر ممّا تلقّت الأخيرة منها. ـ المؤلف.

أوروبا الذي عرف أن يغوص فيه، كما تتصاعد روائح الأعماق من غوّاص طفا على سطح الماء. في الواقع نكاد لا نصدّق أن يؤلّف كتاب ككتاب: تاريخ الحضارة في أوروبا في السنوات الأول من القرن 19، وهو عصر بلاغي وفيه غموض كبير. ومازال بإمكان إنسان اليوم أن يتعلّم منه كيف أن الحرية والتعدّدية أمران متضايفان، وكيف يشكّلان كلاهما مضمون أوروبا الدائم.

لكن غيزو كان ذا شهرة رديئة كما هم بعامة المذهبيّون Doctrinarios، وهذا لا يدهشني. فإذا ما رأيت التصفيق يتّجه بسهولة وإلحاح صوب رجل أو فئة، ينبع في داخلي الشك الحادّ أن في هذا الرجل أو هذه الفئة شيئاً غير نظيف وإن ضمّ إلى جانب ذلك مواهب فذّة. وربّما كان هذا خطأ أعانيه، لكنّ من واجبي أن أقول إني لم أبحث عنه بحثاً، وإنما أشاعته التجربة في داخلي. على كل حال، أريد أن تكون لي الشجاعة فأؤكد أن هذه الفئة من الليبراليين المذهبيّين الذين ضحك منهم العالم كله وجعل منهم مواضيع سخريته الوقحة، هي في رأيي أثمن ما في سياسة القارة خلال القرن 19. لقد كانوا وحدهم من رأى بوضوح ما كان ينبغي له أن يُصنع في أوروبا بعد الثورة الكبرى؛ وكانوا فوق ذلك رجالاً خلقوا في أشخاصهم علامة كرامة بعيدة المدى وسْط شعوذة ذلك القرن وتفاهته النامية. ولمّا أصبحت من غير صلاحية أو تكاد القواعدُ التي تمدّ الفرد بالتماسك، فقد أصبح هذا الفرد لا يستطيع أن يكوّن لنفسه كرامة إذا لم يستنبطها من عمق ذاته، ويصعب عليه أن يصنع ذلك من غير مبالغة، وإن يكن ذلك فقط من أجل أن يحمي نفسه من الاستسلام الماجن الذي يحيا فيه محيطه. ولقد عرف غيزو أن يكون كما بوستر كيتون Buster Keatôn، الرجلَ الذي لا يضحك[1] ولم يستسلم. وقد تكثّفت فيه أجيال من البروتستانت النيميّين[2]، الذين عاشوا في حذر دائم من غير أن يستطيعوا أن يطفوا كيفما اتفق على سطح الجوّ الاجتماعي، ومن غير أن يستطيعوا الاستسلام. وقد صار لديهم غريزةً الشعورُ

---

(1) يشير بشيء من الرضا إلى مدام ده غسباران: إن البابا غريغوريو 16 قال في أثناء حديثه إلى سفير فرنسا مشيراً إليه: "إنه وزير عظيم. يقال إنه لا يضحك قط". مراسلاتي مع مدام ده غسباران. ص 283. ـ المؤلف.

(2) نسبة إلى مدينة نيم Nîmes الفرنسية مسقط رأس غيزو ـ (المترجم).

الجذري بأنّ الوجود مقاومة، وتثبيت الأكعاب في الأرض لمقاومة التيّار. وفي عصر كعصرنا عصر "التيّارات" البحتة والاستسلام، يُستحبّ الاحتكاك برجال "لا يدَعون أنفسهم ينجرفون". والمذهبيون حالة استثنائية من المسؤولية الفكرية، أي، مما افتقر إليه المفكرون الأوروبيون منذ عام (1750)، نقص هو بدوره أحد الأسباب العميقة للاضطراب الحالي.

لكني لا أدري إن كنت أستطيع، وإن اتجهتُ إلى قرّاء فرنسيين، الإشارة إلى المذهبيين على أنهم ذوو أهمية معروفة. لأن هناك حالة فاضحة لعدم وجود كتاب واحد حاول فيه صاحبه أن يحدّد ما كانت تفكر فيه هذه الفئة[1]. ولا يوجد أيضاً، وإن بدا شيئاً لا يُصدّق، كتاب واحد متوسّط الجودة حول غيزو ولا رويِّه ـ كويار[2]. والحقّ أنّ لا هذا ولا ذاك حاول نشر قصيدة واحدة قط. لكنهما، آخر الأمر، فكّرا وفكّرا بعمق وأصالة في أخطر مشاكل الحياة العامّة الأوروبية، وبنيا مذهباً سياسياً كان أكثر المذاهب احتراماً في القرن كله. وقد لا يكون ممكناً إعادة بناء هذا القرن إذا لم يكن المرء على اتصال حميم بالشكل الذي جرى فيه التفكير في المسائل الكبرى المطروحة على هؤلاء الرجال. ولم يكن أسلوبهم الفكري يختلف نوعاً عن سائر الأساليب الأخرى السائدة في أوروبا من قبلهم ومن بعدهم، بل هو من صنف آخر ومن ماهيّة أخرى غيرها. لذلك لم يُفهموا على الرغم من وضوحهم التقليدي. ومع ذلك يُحتمل جداً أن ينتمي المستقبل إلى اتجاهات فكرية شبيهة جداً باتجاهاتهم. وإني أضمن على الأقل، لمن ينوي أن يصوغ بدقّة منهجية أفكار المذهبيين(*) ملذّات فكريةً غير منتظرة، ورؤية للواقع

(1) إذا حاول المرء أن يستعلم عنهم، وجد نفسه مرة بعد أخرى إزاء الصيغة المتهرّبة، بأن المذهبيين ليس لديهم مذهب موحّد، وإنّما هو يختلف من واحد إلى آخر. وكأن ذلك لا يحدث في كل مدرسة فكرية ولا يشكل الفرق الأهمّ بين مجموعة من البشر ومجموعة من الغراموفونات. ـ المؤلف.

(2) في هذه السنوات الأخيرة أخذ السيد م. تارل.هـ بوتا على عاتقه المهمة الصعبة في جرد أرشيف غيزو وقدمه لنا في سلسلة من المجلدات من دونها ربما سيكون محالاً على المتأخرين مباشرة إعادة البناء. الخ.. ـ المؤلف.

(*) مذهب سياسي فلسفي نشأ في عهد عودة الملكيّة إلى فرنسا. يجعل مبدأ السيادة في العقل البشري، ويضع صيغاً مجرّدة قَبْليّة لحكم الشعوب. ـ المترجم نقلاً عن معجم Vox.

الاجتماعي السياسي مختلفة تمام الاختلاف عمّا هو مألوف. فقد ظلّ حيّاً فيهم خير تقاليد العقلانية التي يورّط المرء فيها نفسه في البحث عن أشياء مجرّدة؛ لكنّهم، خلافاً للعقلانيين الإنسكلوبيديين والثوريين الكسولين Linfáticos الذين يجدون المطلق في مجرّدات رخيصة bon marché، يكتشفون هم أن التاريخي هو المطلق الحقيقي. فالتاريخ هو واقع الإنسان، وليس له واقع آخر، وبه بلغ أن يكون ما هو وكما هو. وإن إنكار الماضي غير معقول ووهم. لأن الماضي هو "الطبيعي في الإنسان الذي يستأنف الجري". والماضي ليس غائباً، ولم يعمل على أن يمضي كيما ننكره، وإنما من أجل أن ندمجه فينا. وكان المذهبيون يزدرون "حقوق الإنسان"، لأنها مجرّدات "ميتافيزيقية"، وتجريدات وغير وقائع. أمّا الحقوق الحقيقية فهي ما يوجد على شكل مطلق، لأنها أخذت تظهر وتتعزّز في التاريخ: كالحريات والشرعية والقضاء و "القدرات". ولو أعيد توكيدها (توكيد هذه الحقوق)، لربّما أقرّت بحق الإضراب (غير السياسي) والعقد الجماعي. وكل هذا يبدو لإنكليزيّ واضحاً غاية الوضوح. لكننا ـ أبناء القارّة لم نصل بعدُ إلى هذا الوضع. لعلّنا نعيش منذ عصر الكوينو Alcuino(1) متخلّفين خمسين سنة عن الإنكليز.

وإن جهلاً شبيهاً بالجهل بالليبرالية القديمة يعانيه أنصار الجماعيّة اليوم حين يفترضون كشيء لا يقبل المناقشة، أنها كانت مذهباً فردياً. ويسود هذه المواضيع كما قلت، أفكار شديدة الاضطراب. لقد اعتاد الروس في السنوات الأخيرة أن يسمّوا روسيا بلداً "اشتراكياً". ألا يكون هامّاً أن نتحرّى أية أفكار أو صور كانت تنداح برقْيّة هذه المفردة، في ذهن غائم إلى حدٍّ ما، ذهن إنسان روسي هو في العادة كالضابط الإيطالي الذي تحدّث عنه غوته: أيحتاج إلى أن يكونَ رأسه في اضطراب؟

Besogna avere una confusione nella testa? إزاء ذلك كلّه، أرجو القارئ أن يدرك القضايا التالية، لا من أجل أن يقبل بها، وإنّما من أجل أن تكون موضع مناقشة ثم يصدر حكمه:

---

(1) 735 ـ 804 م. عالم إنكليزي كان أحد معلّمي مدرسة البلاط التي أسسها شارلمان. ـ المترجم.

القضية الأولى: إن الليبرالية الفردية تنتمي إلى القرن 18؛ وقد ألهمت جزئياً الثورة الفرنسية تشريعها، لكنها ماتت بموتها.

القضية الثانية: إن الإبداع المميّز للقرن 19 كان الجماعيّة colectivismo تحديداً. إنها الفكرة الأولى منذ مطلعه، ولم يصنع شيئاً مدى أعوامه المئة سوى تنميتها حتى أغرقت الأفق كله.

القضية الثالثة: إن هذه الفكرة ذات أصل فرنسي. وقد ظهرت أول مرة لدى رجعيَّيْن هما ده بونال، وده ميتر. وقد قبلها الناس جميعاً في جوهرها فوراً، ومن غير استثناء سوى بينجامين كونستان أحد "متخلّفي" القرن السابق. لكنها انتصرت عند سان سيمون وبلاّنش وكونت(1)، وتكاثرت في كلّ مكان. مثلاً سيتكلّم الطبيب آ. آرمار A.Armard عام 1821 عن الجماعيّة في مواجهة الشخصانية(2). واقرؤوا المقالات المنشورة في مجلة L'Avenir (المستقبل) بين عامي 1830 و 1833 ضد المذهب الفردي.

لكنّ الأهم من ذلك كلّه شيء آخر. فإذا تقدّمنا في القرن حتى نصل إلى منظّري الليبرالية الكبار: ستيورات ميل وسبنسر، يدهشنا أن دفاعهما المزعوم عن الفرد لم يكن في التدليل على أن الحرية تنفع الفرد وتهمّه، وإنما على العكس من ذلك كله، في التدليل على أنها تنفع المجتمع وتهمّه. وقد كان

---

(1) يزعم الألمان أنهم هم من اكتشف المجتمع كواقع مختلف عن الأفراد وسابق عليهم. وVolksgeist يبدو لهم أنه إحدى أفكارهم الأكثر أصالة. هذه إحدى الحالات التي تتطلّب دراسة دقيقة لتبادل الأفكار الفرنسي ـ الألماني من 1790- 1830 التي أشرت إليها في ملاحظة سابقة. لكن مصطلح وVolksgeist يدل بوضوح على أنه ترجمة للمصطلح الفولتيري: روح الأمم Eaprit des nations ـ أصل الاشتراكية الفرنسي لم يكن مصادفة ويخضع للأسباب ذاتها التي جعلت من فرنسا مهد علم الاجتماع ونشوءه حوالي عام 1890 على يدي دوركايم ـ المؤلف.

(2) انظر مذهب سان سيمون مع مقدمة وملاحظات بروئي Broglie، وي. هاليفي. (ص204 ـ ملاحظة). إن العمل المتراكم في ملاحظاتهما، إلى جانب عرض مذهب سان سيمون، أكثر الأعمال عبقرية في ذلك القرن ويشكل إحدى المساهمات التي أعرفها في الإفصاح الفعلي عن الروح الأوروبية بين عامي 1800 ـ 1830 ـ المؤلف.

العنوان الحربي الذي اختاره سبنسر لكتابه: الفرد ضد الدولة، سبباً في أن يسيء فهمه بعناد أولئك الذين لا يقرؤون من الكتب سوى عناوينها. لأن الفرد والدولة تعنيان في هذا العنوان ببساطة جهازين لذات واحدة، هي المجتمع. وما يجري الجدال حوله هو إن كانت بعض حاجات المجتمع تتلقّى عناية أكبر من هذا العضو أو ذاك ولا شيء آخر. وكانت "فردية" سبنسر المشهورة تصارع باستمرار في جوٍ مناصر للجماعية داخل علم اجتماعه. ويتضح في النهاية أن سبنسر كما ستيورات ميل كانا يعاملان الأفراد لتأهيلهم للمجتمع بقسوةٍ هي ذاتها التي تعامل بها الأَرَضَةُ بعضاً من بنات جنسها التي تطعمها كيما تمتصّ مادتها بعد ذلك. وكانت الأولويّة حتى هذه النقطة للعنصر الجماعي، وهو الأرضيّة الواضحة بذاتها التي ترقص فوقها أفكارهم بسذاجة!

ومن هنا يُستنتج أنّ دفاعي اللوهِنْغريني[1] Lohingrinesco عن الليبرالية القديمة دفاع نزيه تمام النزاهة ومجاني. وذلك لأني لست "ليبرالياً قديماً". وإن اكتشاف العنصر الاجتماعي والجماعي ـ وهو اكتشاف عظيم وجوهري بلا ريب ـ كان اكتشافاً حديثاً جداً. وكان أولئك الرجال يتلمّسون أكثر مما يرون أن الجماعة هي واقع مختلف عن الأفراد وعن مجموعهم البسيط، لكنهم ما كانوا يعلمون جيّداً علامَ تقوم، وما هي خصائصها الفعلية. ومن جهة أخرى، كانت الظواهر في ذلك العصر تموّه اقتصاد الجماعة الحقيقي، لأن الجماعة كان يناسبها أن تهتمّ حينئذ "بتسمين" الأفراد، ولمّا يحنْ وقت التسوية والنهب والتوزيع في كلّ المجالات.

لذلك انفتح "الليبراليون القدماء" من غير حذرٍ كافٍ على المبدأ الجماعي الذي كانوا يتنسّمونه، لكن، لمّا رُؤي بوضوح ما في الظاهرة الاجتماعية، وما في الواقعة الجماعية من منفعة في جانب، ومن أمر رهيب ومخيف في جانب آخر، أصبح المرء لا يستطيع الانضمام إلاّ إلى ليبرالية جديدة على شكل جذري، ليبرالية أقلّ سذاجة وأصوب كفاحاً، ليبرالية كانت آخذة في التبرعم، وقريبة من الإزهار على خط الأفق ذاته.

---

(1) نسبة إلى لوهِنغرين أحد الفرسان الباحثين عن الكأس المقدّسة وابن بارسيفال، حسب الأسطورة ـ المترجم.

وقد كان محالاً على رجال كهؤلاء يفيض عنهم الذكاء، ألاّ يلمحوا من حين لآخر القلق الذي كان يدّخره لنا عصرهم. وخلافاً لما يُعتقد عادة، كان مألوفاً في التاريخ أن يتنبّأ الناس بالمستقبل[1]. وإننا لنجد صورة عصرنا قد رسمها من قبل ماكولي وتوكفيل وكونت. لاحظ مثلاً ما كتبه منذ ما يزيد على ثمانين عاماً ستيورات ميل: "إذا نحّينا المذاهب الخاصة بالمفكرين الفرديّين، فإننا نجد في العالم ميلاً قوياً ونامياً لبسط سلطة المجتمع بشكل متطرّف، على سلطة الفرد، سواء بقوّة الرأي أم بالتشريع. أمَا وإنّ كل التغيّرات التي تحدث في العالم تؤثّر في زيادة السلطة الاجتماعية وإنقاص سلطة الفرد، فإن تجاوز الحدّ هذا ليس شرّاً يميل إلى الاختفاء تلقائياً؛ بل على العكس، هو يميل إلى أن يصبح كل مرة أكثر قوة؛ وإن قابليّة البشر أكانوا أسياداً أم مواطنين، ليفرضوا على الآخرين آراءهم وأذواقهم كقاعدة للسلوك، يأتيها الدعم الفعّال جدّاً من خير المشاعر اللصيقة بالطبيعة البشرية، ومن بعض أسوئها، طبيعة تكاد لا تُكبح إلا بفقدان السلطة. وإذْ يبدو أن السلطة ليست في سبيلها للانحدار، وإنما للازدياد، فعلينا أنْ نتوقّع أنّ هذه القابلية في الشروط الحالية لعالمنا لن تكون إلا في ازدياد، اللهم إذا لم ينهض في مواجهة الشرّ سدّ من القناعة الخلقية"[2].

لكن أكثر ما يهمّنا لدى استيورات ميل، انشغالُ باله بالتجانس من الصنف الرديء الذي كان يراه ينمو في الغرب كله. وهذا ما جعله يحتفي بفكر همبولت Humboldt في شبابه. فمن اللازم، في رأي همبولت، وجود "تنوّع في المواقف"[3]، كيما يُثرى الإنسانيّ ويتعزّز ويكتمل. فإذا أُخذت الأمم بمجملها كان لزاماً أن يكون داخل كلّ أمة ظروف مختلفة. وهكذا، إذا فُقد أحدها ظلّت إمكانات أُخَر مفتوحة. وإنها لحماقة أن تكون الحياة الأوروبية رهن خارطة

(1) عمل سهل ومفيد ينبغي لأحد ما أن يباشره، وجمع التشخيصات التي وضعها كل عصر حول المستقبل القريب. وأنا جمعت ما يكفي منها حتى دُهشت من أنه وُجد دائماً بعض الرجال الذين يتنبؤون بالمستقبل. - المؤلف.

(2) ستيورات ميل: الحرية ـ ترجمة ديبون وايت White_Dupont ـ ص(131 ـ 132) ـ المؤلف.

(3) Gesanmelt Schriften 1-106-.

وحيدة، ونمط واحد من البشر، و "موقف" وحيد . وقد كان سرُّ نجاح أوروبا في تفادي هذا الأمر حتى اليوم، والوعيُ بهذا السرّ، ما حرّك دائماً بطلاقةٍ أم بتلعثمٍ، شفاهَ الليبرالية الأوروبية الدائمة. وفي هذا الوعي تتعرّف التعدّدية القاريّة إلى نفسها، على أنها قيمة إيجابية، وعلى أنّها خير لا شرّ. وكان يهمّني أن أوضّح ذلك كيلا تضطرب فكرة دولة قوميّة عليا أوروبية يزعمها هذا المؤلف.

وإذا سرنا كما نسير واضمحلالاً مطّرداً في "تنوّع المواقف"، فإننا نتجّه بخطٍّ مستقيم صوب الإمبراطورية الرومانية المتأخّرة. وقد كان ذلك العصر عصر جماهير وتجانس مخيف أيضاً. ونلاحظ بوضوح ظاهرة غريبة في عصر آل أنطونيو، وهي أن الناس أصبحوا حمقى؛ وقد جاءت العملية من زمن سابق. وقيل بشيء من الصواب إن الرواقيّ بوزيدونيو، معلّم شيشرون، كان آخر رجل بين القدماء قادر على الوقوف إزاء الحوادث بذهن منفتح ونشيط ومستعدّ للبحث فيها. ثم تسطّحت العقول بعده، وباستثناء آل إسكندر، لم تفعل شيئاً إلا التكرار والاختزال.

لكنّ العَرَض والوثيقة الأرهب لهذا الشكل من التجانس والحماقة في آن واحد، كليهما أو أحدهما الذي اتخذته الحياة في الإمبراطورية من أقصاها إلى أدناها، نجده حيثُ أقل ما يُمكن أن يُتوقّع وجوده، وحيث لم يقم أحد على علمي بالبحث عنه: ألا وهو اللغة. اللغة التي لا تخدمنا كيما نقول ما يرغب كلٌّ منا أن يقول على شكل مُرضٍ، تكشف في المقابل وتعلن صارخة، من غير أن نريد، عن أخفى أوضاع المجتمع الذي يتكلّمها. وكانت اللغة السارية في القسم غير "المتهلّن" من الشعب الروماني، ما أُطلق عليه "اللاتينية الشعبية" الرحمُ الذي طلعت منه لغاتنا الرومانث الحديثة. وهذه اللاتينية الشعبية غير معروفة معرفة جيّدة، وفي جانب كبير منها، لا يُوصل إليها إلا بإعادة بنائها. لكنّ ما يُعرف منها خصيصتان من خصائصها تكفيان وتفيضان كيما تثيرا الذُعر فينا؛ إحداهما تبسيط ميكانيزم النحو فيها تبسيطاً مفرطاً مقارنة باللاتينية الكلاسيكية. وقد حلّ محلَّ التعقيد الهندي ـ أوروبي الذي كانت تحتفظ به لغة الطبقات العليا، لغة شعبية ذات ميكانيزم سهل جداً، لكنها في آن واحد، أو للسبب عينه ميكانيكية بشكل

فظّ كما هو مادي: فنحوها متذبذب والتفافيّ وتجريبي وموارب كنحو الأطفال. هي في الواقع، لغة صبيانية أو متلعثمة لا تسمح بشعاع سنبلة التعليل، ولا بشاعرية عبّاد الشمس. إنها لغة من غير ضوء ولا دفء ولا وضوح ولا حرارة روح، لغة حزينة تتلمّس طريقها تلمّساً. ومفرداتها تشبه عملة نحاسية قديمة متّسخة من غير استدارة فيها وكأنها تعبت من الدوران في حانات البحر المتوسّط. وما أبأسها حيوات مُفرغة من ذاتها وحزينة ومحكوماً عليها بواقع يومي دائم، تُلمح وراء هذه الآلة اللغوية الجافّة!

والخاصيّة الأخرى المخيفة في اللاتينية الشعبية هي بالضبط تجانسها. ولا يبدو على علماء اللغة الذين هم ربّما بعد الطيّارين أقلّ الناس فزعاً إزاء شيء كهذا، أنهم قد تأثّروا بواقعةِ أن يتكلّم الناس الكلام ذاته في بلدان متباينة كقرطاج، وبلاد الغال وتينجيتانيا (موريتانيا) ودلماسيا وإسبانيا ورومانيا. أمّا أنا الذي يحسّ بالخجل إلى حدّ ما، ويرتعد حين يرى الريح تعصف بالقصب، فإني لا أستطيع أن أكبح إزاء هذه الواقعة رعشة في لبّ العظام. إذْ تبدو لي فظّة ببساطة. والحقّ أني أحاول أن أتمثّل كيف هو في داخله ما يبدو لنا باطمئنان تجانساً إذا نُظر إليه من خارجه؛ أحاول أن أكشف في الواقع الحي أن هذه الواقعة بصمة ثابتة. وأنا أعلم بالطبع، أن فيها مفردات إفريقية وإسبانية وفرنسية. لكني إذْ أكدّت ذلك، فهذا يعني أن جذع اللغة كان مشتركاً ومتماثلاً على الرغم من المسافات وضآلة التبادل وصعوبة المواصلات، وأن الأدب لم يكن يسهم في تثبيتها. وكيف يصل إلى حدّ التماثل السلتيُّ الإيبري والبلجيكي وجارهيبونا وابن لوتثيا والموريتاني والداثي إن لم يكن بسبب تقزّمٍ عام وتقلّصِ الوجود إلى قاعدته الأوليّة ملغياً حيواتهم؟ وها هي اللاتينية الشعبية تقبع في الأراشيف متحجّرة مقشعرّة، شاهدة على أن التاريخ احتُضر ذات مرّة في ظلّ الإمبراطورية المتجانسة في الابتذال لغياب "تنوّع المواقف" الخصيب.

* * *

## IV

هذا المؤلَّف ليس في السياسة، ولا أنا سياسي؛ بل إن الموضوع الذي يخوض فيه سابق على السياسة وينتمي إلى ما تحت أرضها. وعملي عمل غامض كالذي يقوم به عامل منجم تحت الأرض. والرسالة المسمّاة "فكرية" هي بشكل ما معاكسة لرسالة السياسي. لأن العمل الفكري يتطلّع في الغالب عبثاً، إلى إيضاح الأشياء قليلاً، بينما عمل السياسي على العكس من ذلك، يقوم عادةً على جعلها مضطربة أكثر مما هي عليه. واليسار كما اليمين، إحدى الطرائق اللامحدودة التي يمكن للمرء أن يختارها كيما يكون أبله. كلاهما في الواقع، شكل من أشكال الشلل النصفي الأخلاقي. وإن استمرار هذين التصنيفين يسهم بشيء غير قليل في تزوير "الواقع" الراهن أكثر مما هو مزوّر بذاته، لأن التجارب السياسية العائدة لهما قد اكتملت، يدلّ على ذلك واقعة أن اليمين اليوم يعِدُ بالثورات واليسار يميل إلى الطغيان.

يجب أن ينصبّ العمل على مسائل العصر. هذا حق لا ريب فيه. وهذا ما صنعتُه طيلة حياتي، وقد كنت دائماً في حلبة الصراع. لكن أحد الأمور الذي يُسمّى اليوم تياراً ـ يقوم على أن الناس كلهم ينبغي لهم أن يمارسوا السياسة بالمعنى الحرفيّ لها Sensu stricto، ولو على حساب الوضوح الذهني. يقول ذلك، بالطبع أولئك الذين ليس لديهم شيء آخر يصنعونه. بل يدعمون قولهم ذاكرين قول باسكال بوجوب التبلّه abêtissement. لكني تعلّمت منذ بعيد أن أكون على حذر إذا ذُكر باسكال. إنه حذر تقضي به أوّليات السلامة.

إن التسييس الشامل، وامتصاص السياسة الأشياء كلها، والإنسان كله، يستوي وظاهرة تمرّد الجماهير الموصوفة هنا. لقد فقد الجمهور المتمرّد كل قدرة على التديّن والمعرفة. وما كان يتسع صدره إلا للسياسة، لسياسة مفرّطة، مجنونة خارجة من ذاتها، لأنها تطمح إلى أن تحلّ محل المعرفة والدين والحكمة، وأخيراً محلّ الأشياء الوحيدة التي هي بجوهرها معدّة كيما تحتلّ مركز ذهن الإنسان. والسياسة تفرغ المرء من الوحدة والحميمية. لذلك كان

التبشير بالتسيّيس الشامل إحدى التقنيات التي تستعمل لتشريكه. وإذا سألَنا أحدٌ ماذا نحن في السياسة، أو إذا استبقَنا بالوقاحة التي تنتمي إلى أسلوب عصرنا، فيُلحقنا بسياسة ما، ينبغي لنا أن نسأل المزعج عوضاً عن أن نجيبه: ماذا يحسب هو الإنسان والطبيعة والتاريخ، وما هو المجتمع والفرد، والجماعة والدولة والعرف والحق. لأن السياسة تبادر إلى إطفاء الأضواء كيما تبدو هذه القطط كلها رمادية قاتمة.

من اللازم أن يسلّط الفكر الأوروبي ضوءاً جديداً على هذه المواضيع، لذلك هو موجود لا ليتبختر في الاجتماعات الأكاديمية كالطاووس. ويجب أن يصنع ذلك فوراً، أو أن يجد مخرجاً كما كان دانتي يقول:

… Studiate il passo

Mentre que l'occidente non s'annera.

(المطهر purg. XXVII)ـ27

(ابحثوا عن مخرج بينا الغرب يكاد يغرق في الظلام).

وقد يكون ذلك الأمر الوحيد الذي يؤمل منه بشيء من الاحتمال الغامض، حلّ المشكلة الرهيبة التي تطرحها الجماهير الحالية.

وهذا المؤلَّف لا يدّعي، ولا من بعيد شيئاً كذلك. وهو كما تثبت كلماته الأخيرة اقتراب أولّي من مشكلة الإنسان الحالي. ولا توجد وسيلة للكلام عنه بجدّ أكبر وبعمق أكثر إلا بالغوص إلى الأعماق، مرتدين بدلة الغوص، نازلين إلى أعمق أغوار الإنسان. وينبغي لنا أن نصنع ذلك من غير أوهام، لكن بتصميم. وأنا قد حاولت ذلك في كتاب سيصدر وشيكاً في لغات أخر تحت عنوان: "الإنسان والناس".

وما إن نعرف جيّداً كيف هو هذا النمط من البشر المهيمن اليوم، والذي سميّته الإنسان ـ الجمهور، حتى ينبعث من الأسئلة أخصبها وأكثرها دراميـة، أيمكن إصلاح هذا النمط من البشر؟ أي: أيسمح بتصحيح العيوب الخطيرة الموجودة فيه، جد خطيرة حتى إذا لم تُستأصل فلسوف ينجم عنها فناء الغرب على شكل محتوم؟ لأننا، كما يرى القارئ، إزاء إنسان مغلق تحديداً وغير منفتح في الحقيقة على أية مرجعية عليا.

أما السؤال الآخر الحاسم الذي تُناط به في رأيي كلّ إمكانية للسلامة، فهو: أتستطيع الجماهير وإن أرادت، أن تستيقظ على الحياة الشخصية؟ ولا يمكننا أن نطوّر هذا الموضوع الرهيب لأنه حديث جدّاً، ولا تثبت المفردات التي يجب أن يُطرح بها، في الوعي العام. حتّى لم يُبدأ بدراسة هامش الفردية المُميّز الذي خلّفه كل عصر من عصور الوجود البشري. إنها عطالة ذهنية في "التقدّمية" الافتراضُ أنه كلما تقدّم التاريخ زادت الفسحة المعطاة للإنسان كيما يستطيع أن يكون فرداً شخصياً كما كان يحسب هربرت سبنسر المهندس المحترم، لكنه غير مؤرّخ قطّ. لأن التاريخ طافح بالتراجعات في هذا المجال، وربّما حالت بُنية الحياة في عصرنا بإفراط بين الإنسان وبين استطاعته العيش كشخص.

وإذا تأمّلت ما في المدن الكبرى من هذه الجموع الضخمة من الكائنات البشرية التي تروح وتجيء في الشوارع، ينهض في داخلي التفكير الملحّ: أيستطيع اليوم إنسان في العشرين من عمره أن يكوّن لنفسه مشروع حياة له طابع فردي، ويحتاج بالتالي، إلى أن ينجزه بمبادراته المستقلة واعتماداً على جهوده الخاصة؟ وعند محاولته نشر هذه الصورة في خياله، ألا يُلاحظ أنها، إن لم تكن محالة، فهي تكاد تكون غير محتملة، لأنه لا يجد تحت يده مكاناً يستطيع أن يضعه فيه ويتحرك حسب رأيه الخاص؟ وسرعان ما يلحظ أن مشروعه يصدم الغير، كما أن حياة الغير تهصر حياته. وسوف يقوده الإحباط إلى رفض ليس فقط كل فعل وإنما رفض كل رغبة بسهولة تكيّف عمره الخاص، وسوف يبحث عن حلّ معاكس: فيتخيّل لنفسه حياة قياسية Standard مكوّنة من رغبات مشتركة بين الجميع، ويرى أنه مضطر إلى نيلها، وإلى أن ينشدها أو يلجّ في طلبها في الجماعة مع الآخرين. وهذا هو العمل ركاماً (كتلة).

الأمر رهيب، لكني لا أحسبه يفاقم الوضع الفعلي الذي يجد فيه الأوربيون أنفسهم جميعاً تقريباً. وفي سجن كهذا تراكم فيه سجناء أكثر مما يسع، لا يستطيع أحد أن يحرّك ذراعاً ولا ساقاً بمبادرة خاصة منه، لأنه سوف يصدم أجسام الآخرين. وينبغي للحركات في ظرف كهذا الظرف، أن تُنفّذ بشكل مشترك، حتى عضلات التنفّس لا بدّ لها من أن تعمل بإيقاع منتظم. وهذا ما

سيكون وضع أوروبا إذا تحوّلت إلى عشّ أَرَضَة. لكن، حتّى هذه الصورة لن تكون حلاًّ. فعشّ الأَرَضَة البشري محال، لأنّ ما يُسمّى "الفردية" هو الذي أثرى العالم والناسَ جميعاً في العالم. وقد كانت هذه الثروة ما أخصب النبتة البشرية بشكل أسطوري. وإذا ما اختفت بقايا هذه الفردية، فسوف تظهر في أوروبا مجاعة الإمبراطورية المتأخّرة، الضخمة، وسوف ينهار عشّ الأرضة وكأنه تحت وطأة نفخة إله غاضب منتقم. وسوف يقلّ عدد البشر كثيراً حتى لا يوجد فيهم ما يغني من جوع.

وإزاء هذا الوضوح الشديد في المسألة التي هي شئنا أم أبينا، بادية للعيان، فإن موضوع "العدالة الاجتماعية"، على كونه جديراً بالاحترام، يبهت ويتدهور حتى يصبح بلاغة وزفرة رومانتيكية غير صادقة. لكنه يُرشد في آن واحد إلى طرق موثوقة تحقيقاً لما هو ممكن وعدلٌ تحقيقُه من "عدالة اجتماعية"، طرق لا تبدو أنها تمر عبر "تشريك" بائس، وإنما تتّجه بخطّ مستقيم صوب حركة تضامنية عظيمة. وهذه المفردة الأخيرة (تضامنية) غير فاعلة فيما يتعلّق بالمسائل الأخرى، لأنه لم يتركّز فيها حتى تاريخه منظومة فعّالة من الأفكار التاريخية والاجتماعية، بل بالحري ترشح بنزعة محبة للبشر غامضة، فحسْب.

والشرط الأول لتحسين الموقف الحالي هو إدراك صعوبته الكبيرة. وهذا وحده يقودنا إلى مهاجمة الشرّ في الطبقات العميقة حيث منشؤه الحقيقي. وإنه لأمر صعب جداً في الواقع، إنقاذ حضارة حين تحين ساعة سقوطها تحت سلطة الديماغوجيين. وكان الديماغوجيون كبار خانقي الحضارات. فقد انهارت الحضارتان الإغريقية والرومانية بيدي هذه المملكة الحيوانية المقزّزة التي جعلت مكولي يصيح: "إن أحطّ الأمثلة عن الطبيعة البشرية في كل العصور نجدها لدى الديماغوجيين"[(1)]. لكن الإنسان لا يكون ديماغوجياً ببساطة لأنه يصرخ أمام الجمهور. بل قد تكون ذلك في بعض المناسبات، هيئةُ قضاء مقدّسة. وديماغوجية الديماغوجيّ الجوهرية هي داخل ذهنه، وتكون في لا مسؤوليته إزاء الأفكار التي يتلاعب بها ولم يبدعها، بل تلقّاها من مبدعيها الحقيقيين.

---

(1) تاريخ جاك II1- ـ 643.

والديماغوجية ضرب من الانحطاط الفكري؛ وقد ظهرت كظاهرة في التاريخ الأوروبي في فرنسا حوالي عام 1750. ولِمَ في ذلك الوقت؟ ولِمَ في فرنسا؟ هذي هي إحدى النقاط العصبيّة في المصير الغربي، والمصير الفرنسي خاصّة.

ذلك أنّ فرنسا أحسّت منذ ذلك الحين، ومعها وبإشعاع منها القارّةُ كلّها أن منهج حلّ المشاكل الإنسانية الكبرى، هو منهج الثورة، ويُفهم من هذا النهج ما كان ليبنيتز يسمّيه "ثورة شاملة"[1]، وإرادة بتحويل كل شيء وفي كل مجال بضربة واحدة[2]. ونتيجة لذلك وصلت فرنسا هذه الأعجوبةُ في ظروف رديئة، إلى الوضع الحالي الصعب. لأنّ لهذا البلد، أو يُحسب أن له تقليداً ثورياً. فإذا كانت الثورة أمراً خطيراً، فما أكبر خطرها بمفارقةِ تقليداً! يقيناً قامت في فرنسا ثورة كبرى، وثورات أُخرى مخيفة أو مضحكةً؛ لكننا لو تنبّهنا إلى حقيقة الحوليّات العارية، فإنّ ما نجده هو أن هذه الثورات أدّت أساساً إلى أن تعيش فرنسا طيلة قرن كامل ما خلا أياماً أو أسابيع، تحت أشكال من الحكم استبدادية ومعادية للثورة بجرعات مختلفة أكثر مما عاشه أيّ شعب آخر. وإن الهوّة الخلقية التي شكلتها في التاريخ الفرنسي السنوات العشرون من حكم الإمبراطورية الثانية، تعود بخاصّة وبوضوح كبير إلى طيش ثوار عام 1848[3]؛ وقد كان جانب كبير منهم من عملاء أسباي، حسب اعترافه هو ذاته.

وفي الثورات يحاول التجريد أن يتمرّد على التعيّين؛ لذلك كان الإخفاق

---

(1) "إني أجد آراء متقاربة تُستوحى شيئاً فشيئاً من روح رجال المجتمع الراقي، الذين ينظّمون الآخرين وتُناط بهم الأمور. وبانزلاق هذه الأفكار إلى الكتب الدارجة، فإنّها تعدّ كل شيء من أجل الثورة الشاملة التي تهدّد أوروبا". (بحوث جديدة حول الذكاء البشري IV-chap.16) وهذا يدلّ على شيئين. الأول: أن رجلاً كان في حوالي عام 1700 ـ وهو التاريخ الذي كتب فيه ليبنيتز هذا تقريباً، قادراً على أن يتنبّأ بما حدث بعد قرن. والثاني: أن أمراض أوروبا الحالية تنشأ في مناطق أعمق زمنياً وأعظم قوّة كامنة ممّا يُزعم عادة. ـ المؤلف.

(2) "...عصرنا الذي يحسب نفسه مكرّساً لتغيير القوانين من كل صنف.." دالمبير ـ مقال افتتاحي للإنسكلوبيديا.1 ـ 56 (1821) ـ المؤلف.

(3) "كان من نتائج ثورة 1848 الشريفة النقية، لكن الطائشة والسطحية، أنْ سُلمت خلال ما يقل عن عام السلطة إلى أمقت العناصر، وأقلها حسن بصيرة، وأكثر المحافظين تعنتاً في بلادنا". رينان: مسائل معاصرة XVI. رينان الذي كان شاباً عام 1848 ومتعاطفاً مع تلك الحركة رأى نفسه في كهولته مضطراً إلى إبداء بعض التحفظات الهيّنة إزاءها مفترضاً أنها كانت "شريفة ونقية". - المؤلف.

قائماً في صميم الثورات. لأنّ المشاكل البشرية ليست مجرّدات كما هي المشاكل الفلكية والكيميائية. إنها مشاكل معيّنة أقصى تعيين، لأنها تاريخية. والمنهج الوحيد في التفكير الذي يهيّء إمكانية نجاح ما في معالجتها هو "العقل التاريخي". فإذا تأمّلنا على شكل بانورامي الحياة العامة في فرنسا خلال السنوات المائة والخمسين الماضية نرى بوضوح أن علماء الرياضيات والطبيعة فيها، وأطباءَها كانوا مخطئين دائماً تقريباً في أحكامهم السياسية، أمّا مؤرّخوها، فعلى العكس منهم، كانوا على صواب. لكن العقلانية الفيزيقية الرياضية كانت ذات مجد عريض في فرنسا حتى طغت على الرأي العام. وقد قاطع مالبرانش صديقاً له لأنه رأى على منضدته تمثالاً لتوثيديدس.

لقد دفعتني الوحدة إلى شوارع باريس في الأشهر الفائتة، فأدركت أني لا أعرف أحداً في المدينة الكبيرة ما عدا التماثيل. وكان بعض هذه التماثيل أصدقاء قدامى، ومشجعين قديمين أو معلمين دائمين حميمين. وإذْ ما كنت أجد أحداً أكلّمه، فقد تحدّثت إليها حول مواضيع إنسانية كبرى ولا أدري إن كانت سترى النور ذات يوم "أحاديث التماثيل" هذه التي أضفت حلاوة على مرحلة عقيمة ومؤلمة من حياتي. فيها تحدّثت إلى الماركيز "ده كوندورسيه" Condorcet في كيه كونتي، عن فكرة التقدّم الخطرة؛ وإلى تمثال كونت Comte النصفي الصغير المقام في شقته في شارع: مسيو لوبرانس، عن السلطة الروحية غير الكافية التي يمارسها معلّمو الأدب وجامعة ظلّت بكاملها خارج مركز حياة الأمم، الفعّال. وكان لي الشرف في الوقت ذاته، أن تلقّيت عبء رسالة قوية وجهها هذا التمثال النصفي إلى النصف الآخر الكبير والمقام في ساحة السوربون، وهو تمثال نصفي لكونت المزيّف، كونت الرسمي ليتّره Littré. لكن، كان طبيعياً أن أهتمّ خاصّة بالاستماع مرّة أخرى إلى كلمة معلمّنا الأعظم ديكارت، الرجل الذي تدين له أوروبا بأعظم ما تدين.

لقد عملت المصادفة المحضة التي تزعزع وجودي، أن أُنشيء هذه السطور ونصب عيني المكان الذي سكنه في هولندا عام 1642 مكتشف العقل الجديد. وقد صار اليوم المكان المسمّى إندِجست Endegeist، الذي تُلقي أشجاره

بظلالها على نافذتي، مصحّاً عقلياً. وإني أرى مرتين في اليوم عن قرب مهدّد مرور المعتوهين والمجانين الذين يعرضون مدى لحظة للهواء في الطقس البارد رجولتهم المنكسرة.

إن ثلاثة قرون من التجربة "العقلانية" ترغمنا على التفكير في عظمة ذلك العقل الديكارتي العجيب وفي حدوده. وهذا العقل رياضيات وفيزياء وبيولوجيا فحسْب. وإن انتصاراته الأسطورية على الطبيعة التي تفوق كلّ ما يمكن أن يُحلم به، تُبرز بالمقدار ذاته إخفاقه في الشؤون الإنسانية حقاً، وتدعو إلى دمجه بعقل آخر أكثر أهمية، هو "العقل التاريخي".

وهذا يثبت لنا عبث كلّ ثورة عامة، وعبث كلّ محاولة لتحويل المجتمع تحويلاً فجائياً، والبدء بتاريخ جديد كما يزعم مثيرو اضطراب 89. ويعارض منهج الثورة فقط من هو جدير بالتجربة الطويلة التي يختزنها الأوروبي وراءه. والثورة في عجلتها المتهوّرة والنبيلة برياء، من أجل إعلان الحقوق، خرقت دائماً واغتصبت وحطمت حقّ الإنسان الأساسي، جدّ أساسي حتى يُعرّف جوهره ذاته به: حقّ الاستمرارية. والفرق الجذريّ الوحيد ما بين التاريخ البشري و"التاريخ الطبيعي" هو أن الأوّل لا يمكن له أن يبدأ من جديد قط. فقد بيّن كوهلر وآخرون كيف أن الشمبانزي والأورانغ أوتان لا يختلفان عن الإنسان، إذا تكلمنا بدقّة، في ما نسمّيه الذكاء، وإنما في أن ذاكرتهما أدنى من ذاكرتنا كثيراً. لأن البهيمتين البائستين تجدان نفسيهما كل صباح وقد نسيتا تقريباً كلّ ما عاشتاه في اليوم السابق، وينبغي لعقلهما أن يعمل على مادّة دنيا من التجارب. والنمر اليوم طِبقُ النمر أيضاً منذ ستة آلاف عام. لأن كلّ نمر مضطرّ إلى أن يبدأ من جديد كيما يكون نمراً، وكأنما لم يوجد نمر من قبلُ قطّ. أمّا الإنسان، فيراكم بفضل قدرته على التذكّر ماضيَه ذاته ويمتلكه ويفيد منه. والإنسان ليس أوّل إنسان قط؛ فهو يبدأ بالوجود من مستوى عالٍ من الماضي المتراكم. وهذا هو كنز الإنسان الوحيد وامتيازه وعلامته. وإن الثراء الأدنى في هذا الكنز قائم على ما يبدو فيه ناجحاً وجديراً بالحفاظ عليه. والأمر الهامّ تذكّر الأخطاء الذي يسمح لنا ألاّ نقترف الأخطاء ذاتها دائماً. وكنز الإنسان الحقيقيُّ كنز أخطائه، والتجربة الطويلة الحيوية المطوّرة قطرة قطرة خلال آلاف السنين.

لذلك يُعرّف نيتشهِ الإنسان أنه الكائن "الأطول ذاكرة". وإن قطع الاستمرار مع الماضي، والرغبة في البدء من جديد هو تطلّع إلى النزول إلى مستوى الأورانغ أوتان وانتحال صفته. ويسرّني أن يكون فرنسي - هو ديبون وايت - من تجرأ على الصراخ حوالي عام 1860:

" La continuité est un droit de l'homme ; elle est un hommage à tout ce qui le distingue de la bête ".

"الاستمرارية حقّ للإنسان؛ وهي تكريم لكل ما يميّزه من البهيمة".

أمامي صحيفة يوميّة أنهيت فيها لتوّي قصّة الاحتفالات التي أقامتها إنكلترا بمناسبة تتويج الملك الجديد. يُقال منذ مدّة بعيدة إن الملكية الإنكليزية مؤسسة رمزية محضة، وهذا حق. لكننا إذا قلنا هكذا قول، فإننا نسمح أن يفرّ منا خير ما في الأمر. لأن الملكية لا تمارس في الواقع، في الإمبراطورية البريطانية أية وظيفة ماديّة ملموسة. ودورها ليس في أن تحكم، ولا في أن تدير العدالة، ولا أن تأمر الجيش. لكنها ليست بسبب ذلك مؤسسة فارغة خالية من العمل. بل الملكية في إنكلترا تمارس وظيفة حاسمة جداً وذات فعالية عالية: وظيفتها في أن تكون رمزاً. لذلك أضفى الشعب البريطاني عن قصد مقصود جلالاً غير معهود على طقس التتويج. لقد أراد أن يؤكد القواعد الدائمة التي تنظّم حياته في مواجهة الاضطراب الحالي في القارّة. لقد علّمنا درساً آخر. ولئن بدا القاريّون دائماً - وأوروبا بدت دائماً فوجاً من الشعوب - أقول بدوا مفعمين ذكاء، لكنهم خالون من الصفاء الذهني، ولم ينضجوا قط، وظلّوا أطفالاً دائماً، فإن إنكلترا تبدو في الخلفية وراءهم... كأنها حاضنة أوروبا.

هذا هو الشعب الذي كان سبّاقاً دائماً لبلوغ المستقبل، الشعب الذي تقدّم الآخرين في كل المجالات تقريباً. وينبغي لنا أن نحذف كلمة "تقريباً". بذلك يرغمنا هذا الشعب بشيء من إزعاج الدلال المفرط، على حضور حفلة عنيفة، ونرى أداتين من أقدم أدوات تاريخه وأكثرها سحراً كيف تعملان الآن - لأنهما لم تكفّا عن أن تكونا حاضرتين -، أولاهما التاج والصولجان اللذان يتحكم بهما عندنا المصادفة والحظّ. والإنكليزي يبذل جهده ليعلمنا أن ماضيه، تحديداً لأنه

مضى، لأنه مضى عليه، ما يزال موجوداً في نظره. ويُرينا من مستقبل لم نبلغه، قوّة ماضيه النافذة [1]. وإن هذا الشعب يسري ملء زمنه كلّه. إنّه حقّاً سيّد عصوره التي يحافظ عليها بالإحاطة بها إحاطة فاعلة. وإن شعباً من الرجال هو أن يستطيع اليوم أن يتابع أمسه من غير أن يكفّ لذلك عن العيش تطلّعاً للمستقبل، أن يستطيع الوجود في الحاضر الحقيقي، لأن الحاضر ما هو غير حضور الماضي والمستقبل، ما هو غير المكان الذي يوجد فيه الماضي والمستقبل على شكل فعّال.

وقد عارضت إنكلترا باحتفالات التتويج الرمزية مرّة أخرى، المنهج الثوري بمنهج الاستمرارية، المنهج الوحيد الذي يستطيع أن يتحاشى في مسيرة الأمور البشرية هذا المظهر المرضي الذي يجعل من التاريخ صراعاً شهيراً دائماً بين المشلولين والمصروعين.

* * *

(1) هي لسيت مجرد طريقة بسيطة في الكلام، بل حقيقة بالمعنى الحرفي للكلمة، لأنها تصلح في المجال الذي فيه لكلمة "نفاذ" اليوم، معناها الأقرب، أي في مجال القانون. ففي إنكلترا "لا يوجد حاجز ما بين الحاضر والماضي. ويعود القانون الوضعي تاريخيّاً حتّى أزمنة سحيقة من غير انقطاع فيه. فالقانون الإنكليزي قانون تاريخي. وإذا تكلّمنا بلغة حقوقية، لا يوجد قانون إنكليزي قديم". "إذاً القانون في إنكلترا قانون راهن، أيّاً يكنِ العصر". ليفي ـ أولمان ـ النظام القانوني في إنكلترا. I ـ ص (38 ـ 39) ـ المؤلف.

".. aucune barrière entre le prèsent et le passé. Sans discontinuité, le droit positif remonte dans l'histoire jusqu 'aux temps _ immemorieux. Le droit anglais , juridiquement parlant ; est un droit historique". "Donc'en Anglerre tout droit est actuel quelqu'en soit l'âge". Levy-Ullmann.

## V

وإذْ قمتُ في هذه الصفحات بتشريح الإنسان المهيمن اليوم، فإني أعمل انطلاقاً من مظهره الخارجي، انطلاقاً من جلده إذا صحّ القول، ثم أتغلغل أكثر قليلاً باتّجاه حشاه. لذلك كانت الفصول الأولى هي ما تقادم العهد بها أكثر من غيرها. فلقد تغيّر جلد الزمان. ويجب على القارئ عند قراءتها أن يرجع إلى أعوام 1926 ـ 1928. والآن بدأت الأزمة في أوروبا، لكنها ما تزال تبدو واحدة من أزمات. وما زال الناس يشعرون بطمأنينة تامّة. وما زالوا يتمتّعون بترف التضخّم، ويفكرون خاصة: "هاكم أمريكا! أمريكا الرخاء الأسطوري".

والأمر الوحيد في كل ما قلته في هذه الصفحات ويمدّني ببعض الفخر هو أني لم أعانِ الخطأ الذي لا يمكن تصوّره في الرؤية، وعاناه الأوروبيون كلّهم تقريباً، حتى الاقتصاديون أنفسهم، لأنه لا يلائمنا أن ننسى أن الناس كانوا يفكرون بشكل جاد جداً أن الأمريكيين اكتشفوا تنظيماً آخر للحياة يُلغي إلى الأبد مصائب الإنسانية التي هي الأزمات. أمّا أنا فكان يُخجلني أن الأوروبيين مبدعي أرفع ما أُبدع حتى اليوم، وهو الحسّ التاريخي، بيّنوا في تلك المناسبة أنهم يفتقرون إلى ذلك الحسّ افتقاراً كاملاً. وإنّ الرأي المبتذل القديم القائل إن أمريكا هي المستقبل قد عتّم على حسن بصيرتهم. وقد كانت لي الشجاعة حينئذ، أن أعارض انزلاقاً كهذا مؤكّداً أن أمريكا بعيداً عن أن تكون المستقبل، كانت في الواقع ماضياً سحيقاً، لأنها بدائية. بل إن أمريكا الشمالية كانت وما تزال في الواقع ماضياً أكثر مما هي أمريكا الجنوبية الهسبانية خلافاً لما يُظن. وصارت المسألة اليوم واضحة إذْ أصبحت الولايات المتحدة لا ترسل، كما قالت لي إحداهن عن حقّ، آنسات كيما "يقتنعن أن أوروبا لا تمتلك شيئاً هامّاً"[1].

(1) انظر بحثنا: "هيغل وأمريكا"، 1928 والمقالات حول "الولايات المتحدة" المنشورة بعيد ذلك. (المؤلف).

وقد أخذتُ نفسي بالشدّة فعزلتُ في شبه الكتاب هذا، عاملاً وحيداً من المشكلة الكليّة التي تشكل مستقبل الإنسان القريب أو الإنسان الأوروبي خاصة، ألا وهو: طبيعة الإنسان السُوقة[1] الذي أخذ اليوم يسيطر على كل شيء. وقد أرغمني هذا على زهد قاس، على الامتناع عن التعبير عن قناعتي في كلّ ما أتناوله عرضاً. بالحري، على أن أقدّم الأشياء في الغالب بشكلٍ إنْ كان أفضل الأشكال لإيضاح موضوع هذه الدراسة حصراً، فقد كان أسوأها كيما أبيّن رأيي في هذه الأشياء. لقد قدّمت الإنسان السوقة الحالي على قدْر مقدرته على الاستمرار في الحضارة الحديثة، وعلى قدر التصاقه بالثقافة. قد يقول امرؤ إن هذين الأمرين ـ الحضارة والثقافة ـ ليستا قضية لي. الحقيقة أنّهما تحديداً ما جعلته قضية لي منذ كتاباتي الأولى تقريباً. لكن ليس عليّ أن أعقّد الأمور. أيّاً يكن موقفنا من الحضارة والثقافة نجد الانحراف المتمثّل في الإنسان الجمهور كعامل من الطراز الأول الذي يجب الاعتداد به. لذلك كان مُلحّاً أن نعزل سماته بقسوة.

إذاً، لا ينبغي للقارئ الفرنسي أن ينتظر أكثر من ذلك من هذا الكتاب الذي ما هو في النهاية غير بحث عن الهدوء وسط العاصفة (*).

خوسه أورتغا إي غاسيت

mayo 1937._ Holanda _" Het Witte huis ". Oegstgeest

* * *

---

(1) الرعيّة من الناس وأوساطهم (للواحد والجمع والمذكر والمؤنّث). ـ المترجم، نقلاً عن المعجم المدرسي.

(*) [ نُشرت الطبعة الأولى من هذه المقدمة في نصّ مترجم في La hèvolte de masses (ستوك ـ باريس 1937) وفي نص أصيل في الطبعة الإسبانية لدى سلسلة أوسترال ـ بوينوس آيريس 1937.] ـ الناشر.

# الجزء الأول

## I
## واقعة التجمهر[1]

هناك واقعة هي أهمّ وقائع الحياة العامّة الأوروبية في الوقت الراهن، سواء أكانت خيراً أم شرّاً. وهذه الواقعة هي وصول الجماهير إلى سدّة السلطة الاجتماعية. أمَا وإنّ الجماهير بالتعريف، لا ينبغي لها ولا تستطيع أن تقود وجودها ذاته، وأقلّ من ذلك قدرتها على إدارة المجتمع، فهذا يعني أن أوروبا تعاني اليوم أخطر أزمة يمكن أن تعانيها شعوب وأمم وثقافات. وقد حدثت هذه الأزمة أكثر من مرّة في التاريخ. وكانت ملامحها ونتائجها معروفة، وكذلك نعرف اسمها، ألا وهو تمرّد الجماهير.

ومن الملائم لفهم الواقعة الضخمة أن نتحاشى من ثمّ إضفاء معنى سياسيٍّ حصري وأولّيّ على كلمات "تمرّد" و "جماهير" و "سلطة اجتماعية". فالحياة العامّة ليست سياسة فقط. وإنّما هي في آن واحد، بل ومن قبلُ، حياة فكرية وخلقية واقتصادية ودينية؛ وهي تشمل العادات الجماعية كلها وحتى الطريقة في الملبس والمتعة.

ربّما كانت خير وسيلة للاقتراب من هذه الظاهرة التاريخية قائمة في إشارتنا إلى تجربة بصرية، مبرزين ملمحاً من ملامح عصرنا نراه بأمّ العين.

---

(1) في كتابي: إسبانيا اللافقرية، المنشورة عام 1922، وفي مقالي المعنون "الجماهير"، المنشورة في مجلة إيل صول عام 1927، وفي محاضرتين ألقيتهما في: رابطة أصدقاء الفن في بونيوس آيرس 1928، شُغلت بالموضوع الذي يطوّره هذا البحث الحالي. وهدفي الآن أن أجمع وأُكمل ما قلته بشكل يبدو فيه مذهباً عضوياً حول أهم واقعة في عصرنا. ـ المؤلف.

وإن التعبير عنها في غاية البساطة، وإنْ لم يكن تجلّيها كذلك. وأنا أسميها واقعة التجمهر و "الامتلاء". فالمدن ملأى بالناس، والبيوت ملأى بالقاطنين، والفنادق مملوءة بالنزلاء والقطارات بالمسافرين، والمقاهي بالمستهلكين، والمنتزهات بالمرتادين، وقاعات الأطبّاء المشهورين غاصّة بالمرضى. وأماكن الفرجة ما لم تكن مزعجة، ملأى بالمتفرّجين، والشواطئ بالمستجمّين. وما لم يكن في العادة مشكلة أخذ يصبح كذلك دائماً تقريباً: وهي العثور على موضع، ولا شيء آخر. أو توجد واقعة أبسط وأسطع وأكثر دواماً في الحياة الحالية؟ تعالوا الآن نطعن جسم هذه الظاهرة البسيطة، ولسوف ندهش أن نرى كيف ينبثق منها ينبوع غير منتظر حيث ضوء النهار الأبيض، ضوء هذا اليوم والحاضر يتفكّك إلى طيْفه الداخلي الثرّ كله.

فأيّ شيء نراه، وإذا رأيناه ندهش له كثيراً؟ نرى الجمهور الحاشد يستولي على الأمكنة والأدوات التي خلقتها الحضارة. وإذا ما فكرنا في ذلك، ندهش من دهشتنا. ماذا إذاً، أوليس هو المثال الأعلى؟ فللمسرح أماكنه كيما تُشغل، وبالتالي كيما تمتلئ القاعة. ومثلها كذلك مقاعد القطار وحجرات الفندق. نعم، ولا شكّ في ذلك. لكنّ الواقع هو أنّ أيّاً من هذه المؤسسات والعربات ما كانت تُملأ في العادة، والآن صارت غاصّة، ويظلّ خارجها ناس راغبون بحُرقة في الانتفاع بها. لئن تكن الواقعة منطقية وطبيعية فلا يمكننا أن نجهل أنها لم تكن تحدث من قبل، وصارت تحدث اليوم. وبالتالي حدث تغيّر وتجديد، وهذا ما يسوّغ على الأقل في الوهلة الأولى دهشتنا.

وإن الدهشة والعَجَب بداية الفهم. إنها قوّة المفكّر وترفه النوعي. لذلك يقوم سلوكه على النظر إلى العالم بعينين وسّعتهما الدهشة. وكل ما في العالم مدهش وعجيب لعينين مفتّحتين جدّاً. وهذه الأعجوبة محظورة على لاعب كرة القدم، لكنها في المقابل تنقل المفكّر عبر العالم، وهو في سكْرة متنبّئ دائمة. وسِمتُها العينان وهما في حالة الدهشة. لذلك أطلق القدماء على مينيرفا Minerva اسمَ البومة، الطائر ذي العينين المبهورتين دائماً.

فلا التجمهر ولا الامتلاء كانا مألوفين من قبل. فلِمَ هما كذلك اليوم؟ ومكوّنو هذه الجماهير الحاشدة لم يطلعوا من العدم. فقد كان يتوّفر العدد نفسه من الناس منذ خمسة عشر عاماً تقريباً. ويبدو طبيعياً أن يقلّ العدد بعد الحرب. وهنا نعثر مع ذلك على أوّل ملاحظة هامّة. فالأفراد الذين يشكّلون هذه الجموع كانوا موجودين من قبل، لكن، ليس كجمع، كانوا موزّعين في العالم في فرق صغيرة أو معزولة، ويسلكون حياة كما يبدو، متباينة متباعدة وغير مترابطة. وكان كلّ منهم أكان فرداً أم مجموعة صغيرة يحتلّ موضعاً، ربّما موضعه ذاته، في الحقل وفي القرية وفي البلدة، وفي أحد أحياء مدينة كبرى.

واليوم يظهرون فجأة تحت سمة التجمهر، وترى عيوننا جموعاً في كلّ مكان. في كل مكان؟ لا، ثم لا. وإنما تحديداً في الأماكن المُثلى، المكرّسة من قبل لمجموعات صغيرة وإلى أقليّات في نهاية الأمر. وهذا إبداع راقٍ نسبيّاً أبدعته الثقافة البشرية.

وصار الجمهور بادياً للعيان فجأة واستقر في الأماكن المفضّلة في المجتمع. وإذا كان ذلك موجوداً من قبل، فإنّما على شكل غير ملحوظ، وكان يحتلّ خلفيّة المسرح الاجتماعي واليوم تقدّم إلى مواقع الضوء، وهو الشخص الرئيس. وأصبح لا يوجد أبطال، بل جوقة فقط.

إن مفهوم الجمهور (الحشد) كمّي وبصري. وإذا ترجمناه من غير تغيير فيه إلى مصطلحات علم الاجتماع نجد حينئذ فكرة الجمهور الاجتماعي، فالمجتمع هو دائماً وحدة من عاملين اثنين: أقليّات وجماهير. والأقليّات أفراد أو مجموعة أفراد مؤهلون كيفيّاً (نوعياً) على شكل خاص. والجماهير مجموعة من الأشخاص غير مؤهّلين كيفياً على شكل خاص. ولا يُفهم، إذاً، من كلمة جماهير، الجماهير العمالية فقط وعلى شكل رئيسي. فالجمهور هو "الإنسان العادي". وبهذه الطريقة يتحوّل الكمّ ـ الجمهور ـ ببساطة إلى حدّ كيفي. إنه الكيف المشترك، والمشاع الاجتماعي، هو الإنسان مادام لا يختلف عن البشر الآخرين، وإنّما يكرّر في ذاته نموذج الجنس. فماذا ربحنا بهذا التحول من الكمّ إلى الكيف؟ ببساطة شديدة: ندرك بوساطة هذا الكيف نشأة ذاك الكم. وهو

واضح حتى التفاهة أنَّ تكوّن جمهورٍ تكوناً طبيعياً يستلزم توافق رغبات الأفراد الذين يكوّنونه وأفكارهم وطرز وجودهم. وقد يُقال إن هذا ما يحدث لكل مجموعة اجتماعية مهما تدّعِ الاصطفاء. هذا صحيح. لكنّ هناك فرقاً جوهرياً.

لأن التوافق الفعلي بين أعضاء المجموعات التي تتصف بأنها ليست حشداً ولا جمهوراً يقوم على رغبة ما، وعلى فكرة أو مثال ينفي بذاته كثرة العدد. ومن اللازم لتشكيل أقليّة أيّاً تكنْ هذه الأقلية، أن ينفصل أوّلاً، كلّ فرد منها عن الجمهور لأسباب نوعية وفردية نسبيّاً. وإنّ توافقه مع الآخرين الذين يشكّلون أقليّة، هو إذاً، ثانوي ولاحقٌ لتفرّد كل منهم. وهو بالتالي توافق بعدم التوافق في جانب كبير منه. وهناك حالات تظهر فيها هذه الخاصيّة المفرّدة في المجموعة عادية: كالمجموعات الإنكليزية التي تسمّي نفسها غير امتثالية، أي تجمّع أولئك الذين يتّفقون على عدم امتثاليّتهم حيال جمع من الناس غير محدّد. وهذا العنصر باجتماع الأقلّ عدداً للانفصال تحديداً عن الأكثر عدداً، يشتمل عليه تشكيل كلّ أقليّة. يقول مالارّمِه بظرف في حديثه عن الجمهور المقلّص الذي كان يستمع لموسيقى راقية إن ذلك الجمهور يفوق بحضور ندرته غياب الأكثرية الكاثرة.

ويمكن تعريف الجمهور أنه واقعة نفسيّة من غير حاجة لانتظار ظهور الأفراد في تجمّع. ونستطيع إزاء شخص واحد أن نعرف إن كان جمهوراً أم لا. فالجمهور هو كلّ من لا يقوِّم نفسه، إن خيراً أو شرّاً، بأسباب نوعية، وإنما يحسّ بنفسه مثل "سائر الناس"، وهو لا يقلق مع ذلك، ويُحس بنفسه على ما يُرام عند إحساسه بأنه طِبْق الآخرين. فتصوّرْ رجلاً متواضعاً يحاول أن يقوّم نفسه بأسباب نوعيّة، وعند سؤاله إن كان يمتلك مزيّة من أجل هذا السبب أو ذاك، أو إن كان مبرّزاً في مجال ما، تلاحظ أنه لا يمتلك أية صفة مميّزة، وقد يحسّ هذا الرجل بنفسه أنه عادي وعاميّ وسيءُ الموهبة، لكنه لا يحس بنفسه "جمهوراً".

وإذا تكلّمنا عن "الأقليّات المختارة"، فإن الضحالة المألوفة تزعزع معنى هذه العبارة، متظاهرة بالجهل أن الرجل المختار ليس ذاك العجرفيّ الذي يحسب نفسه أعلى من الآخرين، وإنّما هو الذي يطلب من نفسه أكثر مما يطلبه منه الآخرون، وإن كان بشخصه لا يستطيع أن يفي بتلك المطالب العليا. ولا ريب

أن التفريق الأعمق الذي يمكن القيام به بين البشر هو التفريق بين طبقتين من المخلوقات. بين أولئك الذين يتطلّبون من أنفسهم كثيراً ويراكمون على أنفسهم صعوبات وواجبات، وبين أولئك الذين لا يطلبون من أنفسهم شيئاً نوعيّاً. وإنّما العيش عندهم هو أن يكونوا في كل لحظة كالعوّامات تلعب بها الأمواج، من غير جهد للتحكم بنفسها.

وهذا الأمر يذكّرني بالبوذيّة الأرثوذكسيّة التي تتكوّن من دينين مختلفين، أوّلهما أشدّ صرامة وصعوبة؛ والآخر أكثر تراخياً وابتذالاً: الماهيّانا، أو "عربة النقل الكبيرة"، أو "سكّة كبيرة"، والهِينَيّانا ــ "عربة النقل الصغيرة" أو "سكّة صغيرة". والحاسم هو إن كنّا نضع حياتنا في هذه العربة أو تلك، في أقصى المطالب أو أدنى المطالب.

إذاً، ليس انقسام المجتمع إلى جماهير ونُخب مميّزة انقساماً إلى طبقات اجتماعية وإنما إلى طبقات من البشر، ولا يمكن له أن يكون طِبق تسلسل هرمي من طبقات عليا وطبقات دنيا. بالطبع، إذا انتهت الطبقات العليا إلى أن تكون عليا، وما دامت كذلك حقاً، فهناك احتمال أكبر في أن نجد لديها رجالاً يتّخذون "العربة الكبرى"، بينا الطبقات الدنيا مكوّنة بالطبع من أفراد من غير سمة نوعية. لكن، يوجد بالضرورة داخل كلّ طبقة اجتماعية جمهور أقليّة حقيقية. وإن من خصائص عصرنا، كما سنرى، هيمنة الجمهور والعامة حتى في المجموعات التي تراثها نخبوي. وكذلك الحال في الفئات الباقية من "النبالة" الذكرية والأنثوية. وعلى العكس من ذلك، ليس من النادر اليوم أن نجد بين العمال الذين كانوا يفخرون أنهم النموذج الأنقى لما نسمّيه "جمهوراً" نفوساً منضبطة على شكل ممتاز.

والآن: توجد في المجتمعات عمليات وأنشطة ووظائف في مختلف المجالات هي بطبيعتها ذاتها نوعية. وبالتالي لا يمكن أن تنفّذ تنفيذاً جيّداً من غير مزايا نوعية أيضاً. ومثال على ذلك: بعض المتع ذات الطابع الفنّي والترفي، أو وظائف الحكومة والرأي السياسي في الأمور العامّة. وكان يمارس هذه الأنشطة النوعية من قبل أقليّات مؤهلة على الأقل، بالادّعاء. وما كان الجمهور يتطلّع إلى

التدخّل فيها: إذْ كان يدرك أنه إذا أراد التدخّل، ينبغي له أن يمتلك بشكل مناسب هذه المزايا النوعيّة ويكفّ عن أن يكون جمهوراً، وكان يعرف دوره في ديناميّة اجتماعية سليمة.

وإذا رجعنا اليوم إلى الوقائع التي أعلنّا عنها في البدء، لبدا لنا بجلاء أنها بشائرُ تغيّرٍ في موقف الجمهور. وكلّها تشير إلى أنّ هذا الجمهور عزم على أن يتقدّم إلى الصفّ الأوّل الاجتماعي، ويحتلّ الأمكنة، ويستعمل الأدوات، ويتمتّع بالملذّات التي كانت مقصورة على القلّة من قبل. وجليّ أن الأمكنة مثلاً ليست مصمّمة من أجل الجموع الغفيرة، لأن حجمها مُقلّص جداً والناس يفيضون عنها باستمرار، مبرزة للعيان وبلغة مرئيّة الواقعة الجديدة: وهي أن الجمهور حلّ محلّ الأقليّة من غير أنْ يتخلّى عن أن يكون جمهوراً.

ولا أحسب أحداً يتذمّر من أن يتمتّع الناس اليوم بمقياسٍ وعددٍ أكبر من ذي قبل، إذْ تتوفّر لديهم من أجل ذلك الرغبة والوسائل. والشرّ هو في أنّ هذا القرار الذي تتخذه الجماهير بتولّي الأنشطة الخاصّة بالأقليّات لا يتجلّى ولا يمكن له أن يتجلّى في مجال الملذّات فقط، وإنّما هو نمط عام لهذا الزمن. وأحسب، إذا استبقنا ما سوف نراه من بعدُ، أنّ الإبداعات السياسية في الأعوام الأحدث عهداً لا تعني شيئاً آخر سوى سيطرة الجماهير السياسية. وإذْ كانت الديمقراطية القديمة تمتاز بالاعتدال بفعل جرعة عالية من الليبرالية والحماس للقانون، فقد كان الفرد مضطرّاً عند إطاعته هذه المبادئ إلى أن يدعم في داخله نظاماً صعباً. وكانت الأقليات تستطيع أن تعمل وتحيا في حماية مبدأ الليبرالية والقاعدة القانونية. وكانت الديمقراطية والقانون مترادفين، وهما في تعايش شرعي. واليوم نشهد انتصار ديمقراطية مُفرطة يعمل فيها الجمهور مباشرة من غير قانون بوسائل ضغط ماديّة فارضاً تطلّعاته وأذواقه. وإنه لتزوير أن نفسّر المواقف الجديدة وكأن الجمهور ملّ السياسة وأوكل إلى أشخاص آخرين ممارستها. بل الأمر على العكس من ذلك كلّه. نعم، هذا ما كان يحدث من قبل، وهكذا كانت الديمقراطية الليبرالية. فقد كان الجمهور يظنّ أنّ الأقليّات السياسية على الرغم من عيوبها ونواقصها، كانت تفهم المشاكل السياسية أفضل قليلاً ممّا يفهمها هو.

أمّا اليوم، فعلى العكس، فإن الجمهور يؤمن أنّ لـه الحـقَّ في فـرض مقـولات المقهى بمنحها قوّة القانون. وأنا أشكّ في وجود عصور أخرى في التاريخ وصل فيها الجمهور إلى الحكم المباشر مثلما هو الحال في زماننا. لذلك أتحـدّث عـن ديمقراطية مفرطة.

والأمر ذاته يحدث في المجالات الأخرى، وخاصّـة في المجـال الفكـري. وقد أكون مخطئاً؛ لكنّ الكاتب إذا أمسك بالقلم ليكتـب حـول موضـوع درسـه طويلاً، ينبغي له أن يفكّر أنّ القارئ العادي الذي لم يهتمّ قط بالأمر، إذا قـرأه، فلا يقرؤه بغاية أن يتعلّم منه شيئاً، وإنّما على العكس من ذلك كيمـا يدينـه، إنْ كان لا يوافق الابتذال الذي يختزنه هذا القارئ في رأسه. وإذا ما حـسب الأفـراد الذين يشكلون جمهوراً أنفسهم موهوبين على شكل نوعي فلن نكـون إزاء حالـة خطأ شخصي فقط، وإنّما إزاء تمرّد اجتماعي. وإن الطابع المميّز للحظة الراهنـة هو أن النفس السوقيّة، وإن عرفت نفسها سوقيّة، تملك الشجاعة لتأكيـد الحـقّ بالابتذال. وتفرض ذلك أينما كان. والاختلاف كمـا يُقـال في شمـالي أمريكـا، وقاحة. فالجمهور يهاجم كلّ ما هو مختلف وجليـل وفـردي ونـوعي ونخبـوي. ومن ليس مثل "كل الناس"، ومن لا يفكر كما يفكّر الناس كلهم يتعرض لخطـر الإقصاء. وإن "كلّ الناس" ليسوا بالطبع "كل الناس". وقد كان "كل الناس" عـادةً الوحدة المركبّة من الجمهور والأقليات المتخالفة نوعياً. واليوم "كل الناس" صار الجمهور فقط.

***

## II

# ارتفاع المستوى التاريخي

هذي هي واقعة زماننا الرهيبة الموصوفة من غير إخفاء فظاظة مظهرها. وهي فضلاً عن ذلك، ذات جدّة مطلقة في تاريخ حضارتنا. ولم يحدث شيء شبيه بها قطّ خلال مجرى تطوّرها كلّه، وإذا كان لا بدّ من إيجاد شبيه بها، فربّما نُضطرّ إلى القفز خارج تاريخنا والغوص في مدار وعنصر حيوي غريب غربةً كاملة عن مدارنا؛ وربّما نُضطر إلى استيحاء العالم القديم وصولاً حتى ساعة انحطاطه. فتاريخ الإمبراطورية الرومانية هو أيضاً تاريخ التمرّد، تاريخ سيطرة الجماهير التي تبتلع الأقليات القائدة وتلغيها وتحلّ محلّها. وتحدث حينئذ ظاهرة التجمهر والامتلاء أيضاً. ولذلك وكما لاحظ اشبنغلر جيداً جداً، كان لا مناص من تشييد أبنية ضخمة على غرار أبنية يومنا هذا. وعصر الجماهير هو عصر الضخامة[1].

نحن نعيش تحت هيمنة الجماهير الفظّة. لا بأس! لقد سبق لنا أن وصفنا هذه الهيمنة بالفظاظة مرتين، وها قد دفعنا ضريبتنا لآلهة الابتذال، والآن، وقد صارت بطاقة الدخول في يدنا، نستطيع أن نلج الموضوع بفرح، ونرى المشهد من الداخل. أمْ كان يُظنّ أنني سأكتفي بهذا الوصف الصحيح ربّما، لكنه خارجي، والذي ما هو غير السطح والمنحدر اللذين تمثُل تحتهما الواقعة الرهيبة إذا نُظر إليها من الماضي؟ ولو تخلّيت عن هذا الأمر وخنقت بحثي الحاضر من غير اعتبار ما، لظنّ القارئ وعن حقّ كبير أن وصول الجماهير الأسطوري إلى سطح التاريخ، لم يوحِ لي شيئاً آخر سوى بعض كلمات باردة مزدرية، مع شيء من الكره، وشيء آخر يسير من الاشمئزاز. يوحي إليّ أنا المشهود له بتأييده

(1) المأساة في تلك العملية هي بينما كانت تتشكّل هذه التجمّعات، بدأ إفراغ الريف من السكان الذي كان لا بدّ له من أن يجلب معه تناقص عدد سكّان الإمبراطوريّة. ـ المؤلف.

الجذريّ لتفسير التاريخ تفسيراً أرستقراطياً[1]. إنه جذري لأني لم أقل قطّ إن المجتمع البشري يجب أن يكون أرستقراطيّاً، بل قلت فوق ذلك شيئاً كثيراً. لقد قلت ومازلت أعتقد باقتناع يزداد قوّة كل يوم، إنّ المجتمع البشري، بماهيّته ذاتها، أرستقراطيٌّ دائماً، شئنا أم أبينا، حتى حدّ القول إنه مجتمع بمقدار ما يكون أرستقراطياً، ويكفّ عن أن يكون كذلك بمدى ما تُنزع عنه أرستقراطيته. بالطبع، أنا أتكلّم عن المجتمع وليس عن الدولة. ولا يستطيع أحدٌ الزعم إزاء هياج الجماهير الكبير، أنّ الأرستقراطيّة تكون بقيام المرء ببعض الحركات الخفيفة المتكلّفة كأنه سيّد صغير من فرساي. وفرساي ـ فرسايْ الحركات الخفيفة ـ ليست أرستقراطية، بل على العكس من ذلك، هي موت أرستقراطية رائعة وتعفنّها. لذلك، لم يبق من تلك الأرستقراطية حقاً لدى تلك الكائنات سوى الظرف الموقّر الذي يعرفون أن يتلقّوا به على رقابهم زيارة المقصلة، ويقبلون بها كما يقبل الورم مِشرط الجرّاح. كلا! بل من يحسّ برسالة الأرستقراطية العميقة، فإن مشهد الجمهور يحثّه ويلهب حماسه كما يلهب حماسَ النحّات حضورُ المرمر البكر. أمّا الأرستقراطية الاجتماعيّة فلا تشبه في شيء هذه الفئة الضئيلة التي تزعم اتّخاذها لنفسها اسمَ "مجتمع" كاملاً، وتسمّي نفسها "المجتمع" والتي تعيش ببساطة ممّا تتطفّل عليه أو لا تتطفّل. وإذا كان لكلّ الناس فضيلة أو رسالة، فإنّ لهذا "العالم الأنيق" الصغير فضيلة ورسالة، لكنّها رسالة ضحلة جداً، ولا يمكن مقارنتها بالمهمّة العملاقة التي تقوم بها الأرستقراطيات الحقيقية؛ وقد لا أجد عقبة في الكلام عن المعنى الذي تتضمنّه هذه الحياة الأنيقة الخالية جداً من المعنى في المظهر. لكنّ موضوعنا اليوم

---

(1) انظر إسبانيا اللافقرية 1921، تاريخ طبعته الأولى كسلسلة من المقالات في صحيفة إيل صول (ملاحظة أضعها من أجل الأجانب الذين يفيضون في الكتابة عن كتبي ويجدون صعوبة أحياناً في تحديد تاريخ أول طبعة لها. ذلك أن أعمالي كلها تقريباً تخرج إلى العالم مستخدمة قناع مقالات صحفية. وقد تأخر جانب كبير منها طيلة سنوات حتى واتته الشجاعة فأصبح كتاباً.) ـ المؤلف.

موضوع آخر وذو أبعاد كبيرة. ويفترض بهذا "المجتمع المميّز" أن يساير العصر أيضاً. ولقد جعلتني أفكّر كثيراً سيّدة صغيرة في ريّق الصِّبا، وكلها شباب وعصرنة ونجم من القدْر الأوّل في قبّة فلك الأناقة المدريدية، لأنها قالت لي: "أنا لا أطيق رقصاً لم يُدع إليه أقل من ثمانمائة شخص". ورأيت من خلال هذه العبارة أن أسلوب الجمهور يسيطر اليوم على منطقة الحيّاة كلها، حتّى على أواخر الزوايا التي كان يبدو أنها مقصورة على بعض السعداء happy few.

إذاً، أنا أرفض أيضاً كل تفسير لزماننا لا يكتشف المعنى الحقيقيّ المخفيّ تحت جناح سيطرة الجماهير الراهنة والتي ترضى بهذه السيطرة بسعادة من غير أن ترتعد ذعراً. وكل مصير هو دراميٌّ ومأساوي في بعده العميق. ومن لا يحس في يده بخطر الزمن يخفق، فهو لم يبلغ حشا (أو عمق) المصير، ولم يصنع شيئاً سوى مداعبة وجنته المريضة. أمّا العنصر الرهيب في مصيرنا فيمثّله تمرد الجماهير المقتحم العنيف والمهيب والعصيّ والملتبس كما كل مصير. فإلى أين يقودنا؟ أهو شرّ مطلق أم خير ممكن؟ ها هو يستقر بضخامته فوق عصرنا كعلامة مقصلة أو مشنقة، لكنه يلتبس أيضاً مع شيء يريد أن يكون قوس نصر.

والواقعة التي نحتاج إلى إخضاعها للتشريح يمكن أن تُصاغ تحت عنوانين اثنين: الأول، هو أن الجماهير تمارس اليوم جملة أعمال حيويّة تتطابق في جانب كبير منها مع ما كان يبدو من قبل مكرّساً للأقليّات حصراً؛ والعنوان الثاني هو أن الجماهير أصبحت في آن واحد عصيّة على الأقليّات؛ فهي لا تطيعها ولا تتبعها ولا تحترمها وإنّما على العكس، تُعرض عنها وتحلّ محلّها.

فلْنحلّل العنوان الأول، وأعني به أن الجماهير تتمتّع بالملذّات وتستعمل الأدوات التي اخترعتها فئات مختارة كانت من قبل تنتفع بها وحدها. هي تحسّ بالرغبات والحاجات التي كانت تصنّف من قبل راقية، لأنها كانت ملك قليلين. والمثال المطروق على ذلك: كان في باريس عام 1820، عشرة حمّامات منزلية خاصة؛ وانظرْ مذكّرات الكونتيس بوان؛ بل ما بعد ذلك. أمّا جماهير اليوم فتعرف وتستعمل باكتفاء نسبيّ كثيراً من التقنيات التي كانت من قبلُ بتصرّف أفراد معيّنين فقط.

وليس التقنيات الماديّة فحسب، بل ما هو أهمّ من ذلك، التقنيات التشريعية والاجتماعية. فقد اكتشفت بعض الأقليّات في القرن 18 أنّ كلّ فرد بشري يمتلك بمجرّد واقعة الولادة، ومن غير حاجة إلى تأهيل نوعي، بعضَ الحقوق السياسية الأساسية، المسمّاة حقوق الإنسان والمواطن، وأن هذه الحقوق المشتركة بين الناس جميعاً هي في الواقع، الحقوق الوحيدة الموجودة. وكلّ حقّ آخر له صلة بمواهب (مزايا) نوعية يظلّ محكوماً عليه بأنه امتياز. وقد كان هذا أوّلاً نظريّةً محضة وفكرة أقليّة، ثمّ أخذت هذه الأقليّة باستعمال هذه الفكرة عمليّاً، وتفرضها وتطالب بها: إنّها الأقليّات الفُضلى. والجمهور الذي كان متحمّساً خلال القرن 19 لفكرة هذه الحقوق ويعدّها مثالاً أعلى، ما كان يحسّ بها مع ذلك في نفسه، وما كان يمارسها وما كان يجعلها نافذة، وإنّما كان يعيش فعلاً، ويحسّ بنفسه في ظلّ التشريعات الديمقراطية كما كان يعيش ويحسّ في ظلّ النظام القديم. وكان "الشعب" ـ كما كان يسمّى حينئذ ـ يعرف أنه سيّد؛ لكنّه ما كان يصدّق ذلك. وقد تحوّلت هذه الفكرة اليوم إلى واقع، ليس في التشريعات فقط، التي هي مخطّطات مُجملة خارجية للحياة العامّة، وإنّما هي في قلب كلّ فرد، أيّاً كانت أفكاره، حتى لو كانت أفكاراً رجعيّة؛ أي، حتّى لو سُحقت وطُحنت المؤسسات حيث تُسنّ تلك الحقوق. ومن لا يفهم موقف الجماهير المعنوي الطريف هذا، لا يستطيع في رأيي، أن يفهم شيئاً ممّا أخذ يحدث في عالم اليوم. وانقلبت سيادة الفرد غير المؤهّل، الفرد الإنساني العام، وبصفته تلك، من فكرةٍ ومثالٍ أعلى قانوني، لتصبح حالة نفسية في تكوين الإنسان العادي. ولاحظْ جيّداً: إذا شيء كان مثالاً ثم صار عنصراً من عناصر الواقع، فإنّه يكفّ لا محالة عن أن يكون مثالاً. ويتبخّر صيت المثال وسحره النفّاذ، وهما خاصيّتان له يؤثر بهما على الإنسان. وتحوّلت الحقوق التسوويّة ذات الإلهام الديمقراطي النبيل إلى رغبات وتصوّرات لا واعية.

ولم يكن معنى لتلك الحقوق سوى إخراج نفوس البشر من عبوديّتها الداخلية، والإعلان داخلها عن وعي ما بالسيادة والكرامة. أوليس هو المطلوب أن يحسّ الرجل العادي في نفسه بأنه مالك أمره، ومسيطر عليه وسيّد نفسه

وحياته؟ وها هو ذا قد حصل على ذلك. فلِمَ يشكو الليبراليّون والديمقراطيّون والتقدّميون منذ حوالي ثلاثين عاماً؟ أم أنّهم كالأطفال يريدون شيئاً، لكنهم لا يريدون نتائجه؟ يُراد أن يكون الرجل العادي سيّداً. إذاً، لا غرابة في أن يعمل من تلقاء نفسه، وأن يطالب بالملذّات كلها، ويفرض إرادته عازماً، ويرفض كلّ عبوديّة، ولا يظلّ خاضعاً لأحد، وأن يرعى شخصه وأوقات فراغه ويستعرض ملابسه: إنها بعض السمات الدائمة التي ترافق الوعي بالسيادة. والآن نجدها تسكن الإنسان العادي، تسكن الجمهور.

رأينا إذاً، أنّ حياة الإنسان العادي مكوّنة من جملة أعمال حيوية كانت من قبل من خصائص الأقليّات الرفيعة وحدها. وصار الإنسان العادي يمثّل المنطقة التي يتحرّك فوقها تاريخ كلّ عصر. وهي في مجال التاريخ ما يساوي مستوى سطح البحر في الجغرافيا. وإذا كنّا نجد المستوى المتوسّط اليوم في وضع كان من نصيب الأرستقراطيّات فقط، فهذا يعني ببساطة أنّ مستوى التاريخ قد ارتفع فجأة إثر تحضيرات تحتيّة طويلة، لكنّه في تجلّيه الفجائيّ، ارتفع بقفزة واحدة وفي جيل واحد. وقد ارتقت الحياة البشرية بمجملها. فجنديّ اليوم، مثلاً، فيه كثير ممّا لدى القائد. وصار الجنس البشري يتكوّن من القادة. ويكفي أن نرى القدرة والتصميم والطلاقة التي يتحرّك بها اليوم أيُّ فرد من أجل الوجود، ويتشبّث باللّذة التي تمضي ويفرض بها قراره.

وكلّ خير الحاضر، وكلّ شرّه، وكذلك المستقبل القريب يجد علّته وجذره في ارتفاع المستوى التاريخي العامّ.

لكن، تخطر في بالنا الآن ملاحظة مرتجلة. وهي: إنّ مستوى الحياة المتوسّط، ببلوغه مستوى الأقليّات القديمة، صار واقعة جديدة في أوروبا. لكنّها واقعة فطرية تكوينيّة في أمريكا. وليفكّرْ القارئ، كيما يدرك قصدي، في الشعور بالمساواة الحقوقية. فهذه الحالة النفسية في شعور المرء بأنه مالك أمره وسيّد نفسه ومساوٍ لكلّ فرد آخر، والتي ما كان يستطيع بلوغها في أوروبا غير الفئات البارزة، هو ما كان يحدث عمليّاً وعلى شكل دائم في أمريكا منذ القرن 18. وها هو توافق جديد أكثر طرافة. إذْ لمّا ظهرت هذه الحالة من الإنسان المتوسط،

ولمّا ارتفع مستوى وجوده الكليّ، فقد اكتسب لونُ الحياة وطريقتها في كل المجالات في أوروبا ملمحاً جعل كثيرين يقولون: "إن أوروبا في سبيلها لتتأمرك". أولئك الذين يقولون هذا القول، ما كانوا يولون الظاهرة أهميّة كبرى؛ بل كانوا يحسبون أنهم إزاء تغيّر بسيط في العادات والدُرجة. وإذْ ضلّلهم الشبه الخارجي فقد كانوا يعزون ذلك إلى ما لا يُعلم من تأثير أمريكي على أوروبا. وبذلك، كما أرى، ابتُذلت المسألة التي هي أدقّ كثيراً وأعمق وأبعث على الدهشة.

وتحاول الحذلقة أن ترشوني اليوم كيما أقول لأناس ما وراء البحار إن أوروبا قد تأمركت فعلاً، وإنّ هذا عائد إلى تأثير أمريكا على أوروبا. لكن، كلا: فالحقيقة تدخل اليوم في صدام مع الحذلقة، ولا بدّ للحقيقة من أن تنتصر. فأوروبا لم تتأمرك ولم تتلقّ حتى اليوم تأثيراً كبيراً من أمريكا. ولعلّ هذا وذاك يبدأان في يومنا هذا. لكنهما لم يحدثا في الماضي القريب الذي انبثق منه الحاضر. ونجد هنا ركاماً موئساً من الأفكار الزائفة تعيقنا عن رؤية هؤلاء وأولئك، رؤية الأمريكيين والأوروبيين. فانتصار الجماهير وارتفاع مستوى الحياة الرائع الناجم عنه، حدثا في أوروبا لأسباب داخليّة بعد قرنين من تربية الجموع المجمّعة تربية تقدميّة، وبعد إثراء المجتمع ثراء اقتصادياً موازياً. لكنّ ذلك أدّى إلى أن تتطابق هذه النتيجة والسمة الأكثر حسماً في الوجود الأمريكي. لذلك، فإن تطابق موقف الإنسان العادي الأوروبي خلقياً، مع الموقف الأمريكي جعل الإنسان الأوروبي لأوّل مرّة يفهم الحياة الأمريكية التي كانت له من قبل لغزاً وسرّاً. إذاً، ليس الأمر أمر تأثير قد يبدو غريباً، وقد يبدو انكماشاً، وإنّما هو أمر ما يزال بعيداً عن التخمين: إننا بصدد تسوية. كان الأوروبيون يرون دائماً بشكل غامض أن مستوى الحياة المتوسط في أمريكا أعلى من مستوى الحياة في القارّة العجوز. وإن حدس هذه الواقعة، الذي فيه قليل من التحليل، لكنه واضح، أفسح المجال لفكرة مقبولة دائماً، ولم توضع موضع الشكّ قطّ، وهي أن أمريكا كانت المستقبل. ونعلم أن فكرة واسعة جدّاً ومتجذّرة جدّاً لا يمكن أن تأتي من الهواء، كما كان يقال إن الأوركيديا تنمو في الهواء من غير جذور. وكان الأساس رؤية مستوى حياة متوسّط أعلى في بلاد ما وراء البحار يتناقض

ومستوى أخفض للأقليّات المختارة في أمريكا مقارنة بالأقليّات الأوروبية. لكنّ التاريخ كما المزروعات يستمدّ الغذاء من الوديان وليس من القمم، من مستوى ارتفاع اجتماعي متوسط وليس من الذُرا.

إنّنا نعيش في أوج التسويات: فيُسوّى ما بين الثروات، وتُسوِّي الثقافة فيما بين الطبقات الاجتماعية المختلفة، ويُسوَّى ما بين الجنسين. ويُسوَّى أيضاً فيما بين القارّات. ولئن كان الأوروبي يجد نفسه في مستوى أدنى، فقد كان رابحاً في هذه التسوية. لذلك، إذا نظرنا من هذا الوجه، فإن تمرّد الجماهير زيادةٌ ضخمة في الحيوية والإمكانات. إذاً، كل هذا نقيض ما نسمعه كثيراً حول انحطاط أوروبا. وهي جملة غامضة وجافية، لا يُعلم منها جيّداً عمّا يجري الحديث، سواء إن كان عن الدول الأوروبية أو عن الثقافة الأوروبية. أو عمّا هو تحت ذلك كله ويهمنا بشكل كبير أكثر من ذلك كله، أي الحيوية الأوروبية، ولربما كانت الجملة المذكورة سابقاً شافية بشأنها. أمّا بشأن الحيويّة، فمن الملائم أن نؤكّد أنّ في الأمر خطأً كبيراً. وبصيغة أخرى، ربّما بدا تأكيدي أكثر إقناعاً أو أقلّ بعداً عن الصدق. أقول إذاً، إن إيطاليّاً عادياً اليوم، أو إسبانياً عادياً، أو ألمانياً عادياً أقلّ اختلافاً اليوم في طرز حياتهم عن أمريكي أو أرجنتيني، عمّا كانوا عليه منذ ثلاثين عاماً. وهذا هو المُعطى الذي ينبغي للأمريكيين ألا ينسوه.

* * *

## III

# مستوى العصور

إنّ هيمنة الجماهير يمثّل إذاً، منعطفاً ملائماً مادام يعني ارتفاعاً في المستوى التاريخي كلّه، ويكشف عن أن الحياة المتوسطة تتحرك اليوم في مستوى أعلى من المستوى الذي كانت فيه أمس. وهذا يجعلنا ندرك أن الحياة يمكن أن يكون لها مستويات مختلفة، وأنها لجملة ملأى بالمعنى تلك التي تتردّد عادة من غير معنى إذا تناول الحديث مستوى العصور. ومن المناسب أن نقف عند هذه النقطة لأنها تقدّم لنا طريقة في تحديد إحدى أكثر الخصائص إدهاشاً في عصرنا.

يقال إن هذا الشيء أو ذاك ليس ملائماً لمستوى العصور. في الواقع، ليس العصر المجرّد التاريخي، وهو مستوٍ كله، وإنّما العصر الحيويّ الذي يسميّه كل جيل: "عصرنا"، هو ما له دائماً مستوى ما، فيرتفع اليوم على ما كان عليه أمس، أو يظلّ موازياً له، أو ينحطّ عنه. وصورة السقوط المغلّفة بكلمة انحطاط، تأتي من هذه الرؤية. وهكذا يحسّ كلّ امرئ بوضوح كبير أو صغير، بالعلاقة التي تربط حياته الخاصّة بمستوى العصر الذي تجري فيه هذه الحياة. فهناك من يحسّ في نفسه بأنماط الوجود الحالي، كغريق لا يستطيع الخروج إلى سطح الماء. وسرعة الحركة (el tempo) التي تسير بها الأشياء اليوم، والاندفاع والقوّة التي يحدث بها كلّ شيء تقلق الإنسان ذي الطبع المتهافت؛ وهذا القلق هو مقياس التفاوت ما بين مستوى نبضه ومستوى العصر. ومن يعشْ، من جهة أخرى، تمام العيش وبراحة أشكال الحاضر هو على وعي بالعلاقة القائمة ما بين عصرنا ومستوى مختلف العصور الماضية. فما هي هذه العلاقة؟

وكان خطأ الافتراض أن إنسان عصر ما يحسّ دائماً بالعصور الماضية أنها أدنى من مستوى عصره، لأنها ببساطة عصور ماضية، ويكفي أن نتذكر:

كل زمن ماض
كان أفضل،

حَسَب رأي خورخِه مانريكه. لكن، ولا هذا حقيقة أيضاً. ولا كـل العـصور أحسّت بنفسها أدنى من أيّ عصر مضى، ولا كلّها أحسّت بنفسها أعلى من كـل ما كان ويُتذكر. فكل عصر تاريخي يُبدي إحساساً مختلفاً إزاء هذه الظـاهرة مـن المستوى الحيوي؛ ويدهشني أن المفكّرين وعلماء التاريخ لم يمعنوا النظـر قـطّ في واقعة جدّ واضحة وهامّة كهذه.

والانطباع الذي يعبّر عنه خورخِه مانريكه كان يقيناً الانطبـاع الأعـم، علـى الأقلّ إذا أُخذ بمعنى إجمالي grosso modo. فلم يبدُ لمعظم العصور أن عـصرها أرفع مستوى من عصور أخرى قديمة. بل على العكس؛ إن العـادة الغالبـة عنـد البشر أن يتصوّروا عصوراً أفضل وذوات وجود أكمل وقائمة في ماض غـامض: "العـصر الـذهبي"، كمـا نقـول نحـن ـ المـثقّفين ـ عـن اليونـان ورومـا، أو الألْشيرينغا، حسب قول البدائيين الأستراليين. وهذا يبيّن أن أولئك البـشر كـانوا يحسّون بنبض حياتهم ذاتها خالياً من الكمال إلى حدّ ما، وهابطاً وعاجزاً عن أن يمـلأ ملئـاً كـاملاً بحـر العـروق. لـذلك كـانوا يحترمـون الماضـي والعـصورَ "الكلاسيكية" التي كان يمثّل وجودها عندهم شيئاً أضخم وأغنى وأكمل وأصعب من الحياة في عصرهم. وإذا ما نظروا إلى الخلف وتصوّروا هذه العصور الثمينـة بدا لهم أنهم لا يبزّونها، بل على العكـس هـم دونهـا، مثـل درجـة حـرارة لـو امتلكت وعياً، لربّما أحسّت أنها لا تحتوي في ذاتها الدرجة العليا، بالحريّ، إنّ في هذه الدرجة العليا من الحريرات أكثر مما فيها هي ذاتها. وقد نمـا في الإمبراطوريـة الرومانية باطّراد شعور بالانكماش الحيوي والنظرة الدونيّة إلى النفس، والانحطـاط وفقدان النبض بعد مئة وخمسين عاماً من ميلاد المسيح. لقد سبق لهوراس أن غنّى: "آباؤنا وهم أسوأ من أجدادنا، أنجبونا نحـن الأكثـر فـساداً. وسـننجب نحـن ذريـة ستكون أكثر عجزاً". (أغاني، الكتاب III ـ 6 ـ 6 , Odas , libre III).

Aetas parentum peior avis tulit
Nos nequiores mox daturos
Progeniem vitiosrem.

وبعد قرنين من ذلك، لم يكـن في الإمبراطوريـة الرومانيـة مـا يكفـي مـن الطليان متوسّطي الشجاعة تُغطّى بهم شواغر قادة الكتائـب، وكـان لا مفـرّ مـن

استئجار الدلماسيين لهذه الوظيفة، ثمّ بعد ذلك برابرة الدانوب والراين. وقد أصبحت النساء إبّان ذلك عقيمات وأُفرِغت إيطاليا من السكّان.

لنرَ الآن طبقة أخرى من عصور حظيت بشعور حيوي مناقض، كما يبدو أشدّ المناقضة لذلك الشعور. ونعني بذلك ظاهرة طريفة جداً يهمّنا كثيراً أن نعرفها. ذلك أنّ رجال السياسة لمّا كانوا يخطبون في الجماهير منذ ثلاثين عاماً كانوا يرفضون هذا الإجراء أو ذاك، أو هذا التصرّف السيء أو ذاك، قائلين إنه غير ملائم لكمال العصور. ومن الطريف أن نذكر أن هذه الجملة استعملها تراجان في رسالة مشهورة لبلينيو يوصيه فيها ألا يضطهد المسيحيين استناداً إلى وشايات مجهولة المصدر: ذلك لا يليق بعصرنا Nec nostri seculi est. إذاً، وُجدت عصور شتّى في التاريخ أحسّت بنفسها أنها بلغت مستوى كاملاً ونائياً: عصور حَسِب أهلها أنهم بلغوا فيها نهاية سفر به تُنجز رغبة، ويكتمل أمل. إنه "كمال العصور"، ونضج الحياة التاريخية التامّ. منذ ثلاثين عاماً والأوروبي يؤمن أنّ الحياة البشرية قد بلغت أن تكون ما كان ينبغي لها أن تكون، أن تكون ما كان مرغوباً فيه بشدّة منذ أجيال كثيرة، ما كان يجب أن يكون دائماً. ويُحسّ بعصور الكمال دائماً أنها نتيجة عصور أُخَر تحضيريّة كثيرة، عصور أُخَر من غير كمال، وأدنى من عصر الكمال ذاته، عصور تربّعت فوقها هذه الساعة الناضجة جداً. وإذا ما نُظر من مستواها (مستوى هذه الساعة) إلى تلك العصور التحضيرية لبدا أن الناس عاشوا فيها برغبة محضة، وحلم خادع لم يتحقّق؛ إنها عصور رغبة واحدة لم تُشبع، وروّاد متحمّسين، و (ليسَ بعدُ)، وتناقض مرهق بين تطلّع واضح، وواقع لا يلبّي هذا التطلّع. هكذا يرى القرن التاسع عشر العصور الوسطى. وأخيراً، يحلّ يوم يبدو فيه أن هذه الرغبة القديمة الألفيّة أحياناً، قد تنجز؛ فيتلقّاها الواقع ويستجيب. لقد بلغنا المستوى المنتظر، والهدف المتوقّع وقمّة العصر! وخلَف ألـ "ليس بعدُ" ألـ "وأخيراً".

هكذا كان إحساس آبائنا بحياتهم ذاتها وبذلك القرن كلّه. ولا تنسَ هذا: إن عصرنا عصر يجيء بعد عصر من الكمال. لذلك، من يظلّ مرتبطاً ارتباطاً لا فكاك منه، بالضفّة الأخرى وبهذا الماضي الكامل القريب وينظرْ إلى كلّ شيء

بمنظاره، يعانِ سراب الإحساس بالعصر الحاضر على أنه سقوط من الكمال، على أنه انحطاط.

لكنّ عجوزاً من هواة التاريخ متعنّتاً في جسّ نبض العصور لا يسمح لنفسه بأن يكون مهووساً.

وكما قلت، فإن جوهر الأمر كيما يوجد "كمال عصور"، هو رغبة قديمة شيّقة شاكية وهي تزحف منذ قرون، فتشبع أخيراً ذات يوم. وهذه العصور الكاملة راضية عن نفسها، في الواقع. وتكون أحياناً في غاية الرضا كما في القرن 19 (1). لكننا ندرك الآن أن هذه العصور الراضية جدّاً والناجحة جداً هي ميتة من الداخل. "الكمال الحيوي الحقيقي لا يقوم على الإشباع (أو الرضا) والكسب والوصول". وقد سبق لثربانتس أنْ قال: "الطريق خير دائماً من الفندق". وإذا عصر أشبع رغبته ومثاله الأعلى فقد يصبح غير راغب في شيء ويجفّ ينبوع الرغبة لديه. وهذا يعني أن الكمال المشهور هو في الحقيقة خاتمة ونهاية. وهناك قرون تموت من الإشباع لعدم قدرتها على تجديد رغباتها كذكر النحل المحظوظ بعد طيران الزفاف (2).

ومن هنا هذا المعطى المدهش بأن مراحل ما يُسمّى الكمال أحسّت دائماً في قاعها ذاته بحزن مميّز جدّاً.

والرغبة المحضّرة ببطء شديد، ويبدو أنها تحقّقت أخيراً في القرن 19، هو ما يُسمّي نفسه باختصار "ثقافة معاصرة". وقد أصبحت التسمية مقلقة: إنّ عصراً يسمّي نفسه "معاصراً"، يعني عصراً أخيراً، نهائياً، إزاءه سائر العصور هي

---

(1) على نقش عملة أدريان Adriàn تُقرأ أشياء كهذه Italia felix (إيطاليا السعيدة) Seculun aureum = العصر الذهبي = Tellun Stabilita = بلد الاستقرار ـ Temporum felicitas = عصور السعادة. انظر إضافة إلى مجموعة عملات كوهن الضخمة ـ بعض العملات المنسوخة لدى روستو تزيف ـ تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي عام 1926. ــ المؤلف.

(2) لا تتخلّوا عن قراءة صفحات هيغل الرائعة عن:" الأزمنة المشبعة "، في: فلسفة التاريخ.- المؤلف.

محض ماضية وتحضيرات متواضعة سعياً إليه! إنها سهام من غير بريـق وتخطـئ الهدف [1].

أوُلا نلمس هنا الفرق الجـوهري بـين عـصرنا والعـصر الـذي ولّـى حـديثاً وارتحل؟ عصرنا في الواقع، لا يحسّ بنفسه نهائيّاً ومطمئنّاً ومتبلوراً إلى الأبـد؛ بل الزعم أنّ نموذج حيـاة يُـسمّى "الثقافـة المعاصـرة" كـان نهائيّـاً، يبـدو لنـا، بالعكس، عمى قلب وضيقاً لا يُصدّق في مجال الرؤية. وعنـد إحـساسنا بـذلك ينتابنا شعور لذيذ بأننا قد تخلّصنا من حجرة ضيّقة مطبقة، بأننا هربنا وخرجنا مرة أخرى تحت النجوم إلى العالم الحقيقي العميـق الرهيـب اللامتوقّـع واللامنتـهي حيث كل شيء فيه ممكن: من خير أو شرّ.

وإنّ الإيمان بثقافة عصرية كان حزيناً: كان أن يعرف المرء أنّ غـداً سـيكون في جوهره كله مثلما هو اليوم، وأن التقدّم كان يقوم في السير الدائم قدُماً علـى طريق طِبْق الطريق الذي نطؤه اليوم. وإن طريقاً كهذا هو بالحري سجن يـستطيل لمرونته، من غير أن يحرّرنا.

لمّا كان يأتي روما في بدايات الإمبراطورية، أحـدُ أبنـاء الأقـاليم الـراقين ـ كليوكانو مثلاً، أو سينيكا ـ ويرى مباني الإمبراطورية الجليلة، رمز القوّة النهائية، كان يحسّ بانقباض في قلبه. فلا شيء جديداً يمكن أن يحـدث قـطّ في العـالم. وروما خالدة. وإذا كانت توجد كآبة آثار تنبعث منها كما ينبعث البخار من المياه الراكدة، فإنّ ابن الأقاليم الحسّاس كان يشعر بكآبة لا تقلّ صـلابة، وإن بمعـنى عكسي، إنها كآبة المباني الخالدة.

---

(1) إن المعنى الأصيل لِـ (عصري moderno)، و (عصرنة modernismo) الذي دشّنت به نفسها العصورُ الأخيرة، يبيّن على شكل حادّ جداً الإحساس بمستوى العـصور الـذي أحلّـه الآن. و moderno، هو ما يكون حسب نمط (العصر). ويُعـرف الـنمط الجديـد أنـه تغـيير أو دُرْجـة، انبثقت في حاضر ما إزاء أنماط قديمة تقليدية استعملت في الماضي. وكلمة "عصري" تعبّـر إذاً، عن الشعور بحياة جديدة أعلى من القديمة وفي آن واحـد عـن الواجـب الملـزم بـأن يكـون في مستوى العصور. وفي نظر الإنسان العصري، إذا لم يكن كذلك، فهـذا يـساوي الـسقوط إلى مـا تحت المستوى التاريخي ـ المؤلف.

إزاء هذه الحالة العاطفية، أليس واضحاً أن الإحساس بالعصر يشبه أكثر ما يشبه فرح الأطفال وصخبهم وقد فرّوا من المدرسة؟ وأصبحنا اليوم لا نعرف ما سوف يحدث غداً في العالم، وهذا يفرحنا في السرّ؛ لأن هذا اللامتوقّع، هذا الأفق المفتوح على كل إمكانية، هو الحياة الحقيقية، هو كمال الحياة الحقيقي.

ويتناقض هذا التشخيص الذي ينقصه يقيناً نصفه الآخر، مع شكوى الانحطاط التي تذرف الدموع في صفحات كثير من المعاصرين. إننا إزاء خطأ في الرؤية، يصدر عن أسباب متعدّدة، وسوف نرى بعضها؛ لكنني أريد أن أستبق أوضحَها، وهو ناجم عن أنّ هؤلاء المعاصرين الأوفياء لإيديولوجية منحرفة في رأيي، ينظرون إلى التاريخ على أنه سياسة أو ثقافة فقط، ولا يلحظون أن ذلك كلّه ما هو غير سطح التاريخ، وأن الواقع التاريخي هو قبل هذا وأعمق من هذا، محض رغبة في العيش، وقوة تشبه القوى الكونية؛ هي ليست قوة طبيعية، لكنها، نعم، شقيقة القوّة التي تجعل البحر يضطرب، وأنثى الضواري تخصب، والزهرَ ينبت على الشجر، وتجعل النجم يرتعش.

وإزاء تشخيص الانحطاط أوحي بالتعليل التالي:

الانحطاط، بالطبع، تصوّر مقارن. والانحطاط يكون من حالة عليا إلى حالة دنيا. إذاً، يمكن لهذه المقارنة أن تتمّ انطلاقاً من وجهات نظر جدّ مختلفة ومتعدّدة يمكن تخيّلها. فالعالم في نظر صانع مباسم من عنبر هو في انحطاط لأن الناس أصبحوا لا يدخّنون بمباسم من عنبر. وقد تكون وجهات نظر أخرى أكثر وقاراً من هذه، لكنها لا تخلو في الواقع من أن تكون متحيّزة ومتعسّفة وبعيدة عن الحياة ذاتها التي نحاول تقدير قراريطها بدقة. ولا توجد سوى وجهة نظر واحدة مسوّغة وطبيعية، وهي أن نقيم في قلب هذه الحياة ونتأملّها من الداخل وننظر إن كانت تحسّ في نفسها بالانحطاط، أي أنها ضحلة وضعيفة وتافهة.

لكن، حتى لو نظرت الحياة إلى نفسها من الداخل، فكيف السبيل إلى معرفة أن هذه الحياة تحسّ بنفسها، أو أنها لا تنحطّ؟ في نظري، لا يوجد شكّ حيال التشخيص الحاسم، وهو: إن حياة لا ترى حياة أخرى من قبلُ، ولا أيّما قبلُ، أفضلَ منها، بالتالي، ترى لنفسها الفضل، لا يمكن لنا أن نسمّيها بأي

معنى منحطّة. وإلى هنا تنصبّ جولتي حول مشكلة مستوى العصور. وقد حظِي عصرنا تحديداً بهذه النقطة من الإحساس الغريب جداً والفريد حتى اليوم، حَسَب علمي، في التاريخ المعلوم.

وكانت تأتي على (صالونات) القرن 19 ساعة من الدهر من غير خلل ما، تطرح فيها السيدات وشعراؤهن المدرّبون على بعضهم البعض هذا السؤال: في أي عصر كنت تودّ أن تعيش؟ وها هو كلّ واحد منهم يتصوّر شكل حياته الخاصّة، فينكبّ على الهيمان خيالياً في دروب التاريخ بحثاً عن عصر يحشر فيه، حسبما يهوى، صورة وجوده. ذلك أنّ القرن 19، وإن كان يحسّ بنفسه بالكمال، فقد كان يحسّ في الواقع، بارتباطه بالماضي الذي كان يؤمن أنه يقف على كتفيه؛ وكان يرى نفسه تتويجاً للماضي. وبذلك كان ما يزال يؤمن بعصور كلاسيكية نسبياً ـ عصرا بركليز والنهضة ـ حُضِّرت فيها القيم المعمول بها. وهذا كافٍ كيما يثير فينا الريبة في عصور الكمال؛ إنها تلتفت بوجهها إلى الخلف، وتنظر إلى الماضي الذي يتمّ فيها.

حسن جداً: ماذا عساه يقول بصراحة أي إنسان يمثّل الحاضر لمن يسأله هكذا سؤالاً؟ وأحسب أنه يتردّد: كل ماضٍ من غير استثناء يثير فيه شعوراً بحجرة ضيّقة قد لا يستطيع التنفّس فيها. أي، أن إنسان الحاضر يحس أن حياته أكثر حياة من كلّ حياة قديمة، أو بقول معكوس، إن الماضي بكامله ابن الإنسانية الحاليّة الصغير. وهذا الحدس في حياتنا اليوم يُلغي بوضوحه الأولّي كل تخمين ما لم يكن حيلة كبيرة.

إننا نحسّ بحياتنا اليوم أنها ذات حجم أكبر من كلّ الحيوات. فكيف نشعر بالانحطاط؟ وما حدث كان على العكس من ذلك كله، وهو أنه لفرط شعور بالحياة فُقد كلّ احترام للماضي، وكل التفات إليه. وهكذا نجد أنفسنا لأوّل مرة، أمام عصر يُلغي كلّ كلاسيكية، ولا يعترف بماضٍ ما أنه نموذج وقاعدة، عصر وإنْ أتى غبّ قرون طويلة من غير انقطاع في التطوّر، يبدو مع ذلك فاتحةً وفجراً وبداية وطفولة. وإذا نظرنا إلى الخلف، لبدا لنا عصر النهضة المشهور عصراً شديد الضيق وريفيّاً وذا دلالات تافهة، ولِمَ لا نقول، متحذلقاً؟

وقد لخّصت منذ بعض الوقت هذا الموقف على الشكل التالي: "إن انفكاك الماضي من الحاضر الخطير، هو أشمل واقعة في عصرنا. وينطوي هذا الانفكاك في داخله على الشبهة الغامضة إلى حدّ ما في أنه يولّد الاضطراب المميّز للحياة في هذه الأعوام. إننا نشعر اليوم أننا صرنا وحيدين على الأرض، نحن ـ أبناء البشر الحاليّين ـ وأن الموتى لم يموتوا مُزاحاً وإنما موتاً كاملاً، وأصبحوا لا يستطيعون مدّ يد العون لنا. وقد تبخّر ما تبقّى من الروح التقليدية. ولا تنفعنا الأنماط والقواعد والنماذج؛ وعلينا أن نحلّ مشاكلنا بأنفسنا من غير معونة فاعلة من الماضي وفي معاصرة كاملة سواء أكانت فنيّة علمية أو سياسية. فالأوروبي يقف وحده من غير أموات أحياء إلى جانبه، كما فقد بدرو اشْلِمْهيل ظلّه. وما يحدث هو أن النهاية تجيء دائماً.

فما هو مستوى عصرنا باختصار؟

ليس هو كمال العصور. ومع ذلك يشعر بنفسه أنّه فوق العصور الكائنة كلّها، وأعلى من كلّ كمال معروف. وليس سهلاً صياغة الشعور الذي يملكه عصرنا عن نفسه: هو يؤمن أنه أكبر من العصور الأخرى، ويحسّ بنفسه في آن واحد أنّه بداية، من غير أن يكون واثقاً بألا يكون احتضاراً. فأي تعبير نختار؟ ربّما هذا التعبير: هو أرفع من العصور الأخرى، ودون ما في نفسه. هو قويّ للغاية وغير مطمئنّ إلى مصيره في الوقت ذاته. وهو فخور بقواه ويخشى هذه القوى أيضاً.

***

## IV

# نـموّ الحياة

إن هيمنة الجماهير وارتفاع المستوى، مستوى العصر الذي تبّشر بـه، ليسا بدورهما غير عرضين لواقعة أكمل وأعمّ. وهـذه الواقعـة تكـاد تكـون فظّـة ولا تصدّق في ذاتها، وبديهية بسيطة. ذلك أن العالم نما ببساطة فجأة، ونمـت معـه وفيه الحياة. وهذه الحياة قد تعولمت أوّلاً على شـكل فعلـي؛ أي، أن محتـوى الحياة لدى كل امرئ من نموذج متوسّط (عادي) هو اليوم الكرة الأرضية كلّهـا. وأن كلّ فرد يعيش العالم كلّه على شكل عادي. فمنذ ما ينوف علـى عـام، كـان الإشبيليّون يتابعون ساعة بساعة في صحفهم الشعبية، ما كان يحدث لبعض مـن الرجال قرب القطب؛ أي، أنّهم كانوا يستعرضون على خلفيّة حارقة مـن ريـف وادي الكبير، كتلة جليد في مهبّ الريح. وإن كلّ قطعة من الأرض ليـست الآن منزوية في مكانها الصحيح. وإنّما هي تعمل عملها لغايات كثيرة حيويّة في أماكن أخَر من الكوكب الأرضي. وإذا كانت الأشياء حَسَب المبدأ الفيزيائي هي حيـث تعمل عملها، فإننا نقرّ لأيّة نقطة من الأرض بـأكبر حـضور فعّـال. وإن تقريـب البعيد وحضور الغياب زاد بنسبة ضخمة من أفق كلّ حياة.

ونما العالم أيضاً زمنيّاً. فقد اكتشف علم ما قبـل التـاريخ والآثـار مجـالات تاريخيةً ذات مدى أسطوريّ. وإن حضارات كاملة وإمبراطوريات ما كنّـا نخمّـن اسمها منذ عهد قريب، ضُمّت إلى ذاكرتنا على أنها قارات جديدة، وقد جلبـت الصحافة المصوّرة والشاشة هذه القطع الموغلة في القدم مـن العـالم إلى مجـال رؤيةِ ابن الشعب المباشر.

لكن زيادة العالم الزمكانيّة قد لا تعني شيئاً في ذاتها. لأن المكـان والزمـان الفيزيائيّين هما حماقة الكون المطلقة. والسرعة المكوّنة من المكـان والزمـان لا تقل حماقة عن عنصريها لكنها تصلح كيما تلغيهما. إذْ لا يمكـن الـسيطرة علـى

حماقة إلا بحماقة أخرى. وكان الانتصار على الزمان والمكان الكونيّين [1] اللذين يخلوان من المعنى خلوّاً تامّاً، مسألة شرف عند الإنسان. فلا موجب للدهشة أن يثير فينا لذّةً صبيانية تشغيلُ السرعة الفارغة التي نقتل بها مكاناً ونذبح بها زماناً. وإذا ألغيناهما، نحيْيهما ونجعل استغلالهما الحيوي ممكناً، ونستطيع أن نكون في أماكن أكثر ممّا ذي قبل، ونتمتّع بذهاب وإياب أكثر، ونستهلك زمناً كونيّاً في زمن حيويّ أقلّ.

لكن نموّ العالم نمواً جوهريّاً لا يقوم في النهاية على أبعاده الكبرى، وإنما على ما يحتويه من أشياء أكثر. وكلّ شيء ـ ولنأخذ الكلمة بمعناها الأوسع ـ يمكن أن يكون رغبة في أمر، ومحاولةً، وعملاً وتخريباً وإيجاداً واستحساناً أو كرهاً. أسماء كلّها تعني أنشطة حيوية.

ولنأخذ أيّاً من أنشطتنا؛ وليكن الشراء، مثلاً. ولْنتصوّر رجلين أحدهما من الحاضر والآخر من القرن 18 يملكان ثروة متساوية بالتناسب مع قيمة النقد في العصرين كليهما، ولنقارن جملة الأشياء المعروضة للبيع لهذا الرجل أو لذاك. وسوف يكون الفرق مذهلاً تقريباً. لأن كميّة الإمكانات التي تنفتح أمام المشتري الحالي تكاد تكون غير محدودة عمليّاً. فلا نستطيع تخيّل شيء مرغوب فيه غير موجود في السوق. وقد يُقال لي إنّ إنسان اليوم لا يستطيع بثروة مساوية نسبيّاً لثروة ابن القرن 18، أن يشتري من الأشياء أكثر مما يشتريه الآخر. لكنّ الواقعة زائفة. إذْ بالإمكان اليوم شراء سلع أكثر كثيراً، لأن الصناعة أرخصت أسعار الموادّ كلها تقريباً. لكني لا أهتمّ في النهاية أن تكون الواقعة صحيحة؛ بل بالحريّ، هي تزيد في التشديد على ما أحاول قوله.

إن نشاط الشراء يُختتم برسوّ القرار على غرضٍ ما. لذلك كان خياراً قائماً من قبلُ، والاختيار يبدأ من إدراك الإمكانات التي يعرضها السوق. ونستنتج من ذلك أنّ الحياة في شكل "الشراء" تقوم أوّلاً على عيش إمكانات الشراء كما هي.

(1) لأنّ زمن الإنسان الحيوي محدود، ولأن الإنسان فانٍ فهو بحاجة إلى الانتصار على المسافة والبطء. أمّا إله سرمدي، فهو يخلو من معنى الحركة الذاتية. ـ المؤلف.

وإذا ما تحدّثنا عن حياتنا ننسى في العادة هذا الأمر الذي يبدو لي جوهريّاً للغاية: لأنّ حياتنا هي في كلّ لحظة وقبل كلّ شيء، وعي بما هو ممكن لنا. فإذا لم يكن أمامنا في كلّ لحظة غير إمكانية واحدة، فإنّها تخلو من معنى تسميتها بهذا الاسم. بل، بالحري، قد تكون ضرورة محضة. لكنْ هنا بيت القصيد: أنّ هذه الواقعة الغريبة جدّاً في حياتنا تمتلك شرطاً أساسيّاً بأن تجد أمامها دائماً مخارج متعدّدة تكتسب لكونها متعدّدةً، طابع الإمكانيات وسْط إمكانات يجب أن يقرّ عليها قرارنا [1].

وإنّ قولنا: نحن نعيش يستوي والقول إننا نجد أنفسنا في محيط من الإمكانات المحدّدة. ونسمي هذا المحيط في العادة: "الظروف". فكلّ حياة تجد نفسها داخل "الظرف" أو العالم، لأن هذا هو المعنى الأصيل لفكرة "العالم". والعالم جملة من الإمكانات الحيوية. إذاً، هو ليس شيئاً معزولاً وغريباً عن حياتنا، وإنما هو محيطها الحقيقي ويمثّل ما نستطيع أن نكون؛ وبالتالي، يمثّل قوتنا الممكنة حيوياً. وهذه القوّة ينبغي لها أن تتعيّن كيما تتحقّق، أو بقول آخر نبلغ فنكون جزءاً بسيطاً مما يمكننا أن نكون. لذلك يبدو لنا العالم شيئاً ضخماً جدّاً، ونبدو نحن داخله شيئاً ضئيلاً جداً. والعالم أو حياتنا الممكنة هو دائماً أكبر من مصيرنا أو حياتنا الفعليّة.

لكن، يهمّني الآن فقط أن أُبرز كيف نمت حياة الإنسان في مدى الإمكان. فهي تعتمد على مجال من الإمكانات أضخم بشكل أسطوري ممّا ذي قبل. ففي المجال الفكري تجد أمامها طرقاً ذات إمكانية للتخيل أكثر، ومشاكل أكبر ومعطيات وعلوماً ووجهات نظر أكثر. فبينا الوظائف أو المهن في الحياة البدائية تُعدّ على أصابع اليد الواحدة تقريباً ـ كالراعي والصيّاد والمحارب والساحر ـ فإنّ برنامج الأعمال الممكنة اليوم هو أكبر بمقياس ضخم. ويحدث في مجال المتع شيء شبيه بذلك، وإن يكن فهرسها ليس طافحاً كما في وجوه الحياة الأخرى.

---

(1) في أسوأ الأحوال، إذا بدا العالم قد قُلِّص إلى مخرج وحيد، فهناك دائماً مخرجان: هذا المخرج (الوحيد)، والخروج من العالم. لكن الخروج من العالم يشكّل جانباً من هذا العالم، كما الباب من الحجرة. ـ المؤلف.

والظاهرة ذات طابع أخطر مما يُظنّ. ومع ذلك، زادت أمام الإنسان الذي يسكن المدن ـ والمدن تمثيل للوجود الحالي ـ إمكانيّات المتعة فيما مضى من هذا القرن بشكل خيالي.

لكنّ نموّ القوة الكامنة الحيوية لا تقتصر على ما قلنا حتى الآن. فقد زادت أيضاً في مجالٍ أكثر مباشرة وغموضاً. ففي مجال الجهد الجسدي والرياضي تتمّ أعمال عظيمة تفوق كلّ ما عُرف في الماضي، وهذه واقعة ثابتة وملحوظة. إذ لا يكفي الإعجاب بكلّ عمل منها والإقرار بالرقم القياسي الذي يحطّمه، وإنّما ملاحظة الشعور الذي يخلّفه في النفس تكرارها، حتى تقتنعنا بأن العضوية البشرية تمتلك في عصرنا قدرات أعلى مما امتلكته من قبل. وشيء شبيه بذلك يحدث في مجال العلم. ففي عقدين من الزمان وسّع هذا العلم بشكل لا يًصدّق أفقه الكوني. وهكذا فيزياء إينشتاين تتحرّك في مجالات جدّ واسعة تشغل فيها فيزياء نيوتن القديمة سقيفة فقط [1]. وهذا النموّ الشامل يعود إلى نموّ شديد في الدقّة العلمية. وفيزياء إينشتاين تتنبّه إلى أدقّ الفروق التي كانت تُهمل من قبل، ولا تدخل في الحساب لأنها كانت تبدو لا أهميّة لها. فالذرّة التي كانت حدّ العالم أمسِ، تبدو اليوم أنها تضخّمت حتى تحوّلت في كل شيء إلى نظام يشمل الكرة الأرضية. ولا أشير في كل هذا إلى ما يمكن أن يصنعه ذلك من إنجاز ثقافي، وذلك لا يهمّني الآن، وإنما أشير إلى نموّ القوى الذاتية الذي يفترضه ذلك كله. ولا أشدّد على أن فيزياء إينشتاين أصحّ من فيزياء نيوتن، وإنّما إلى أن الرجل إينشتاين يتمتّع بقدرة على الدقّة والحرية الفكرية [2] أكثر من قدرة الإنسان نيوتن؛ كما أن بطل الملاكمة يسدّد اليوم لكماتٍ من عيار أكبر مما كان يُسدّد من

---

(1) عالم نيوتن غير متناه؛ لكن هذه اللانهاية ليست سعة، إنما هي تعميم فارغ ويوتيوبيا مجرّدة وضعيفة. أمّا عالم إينشتاين فهو متناه، لكنه ملآن ومعيّن في كل جزء من أجزائه؛ لذلك هو عالم أغنى بالأشياء، وذو سعة أكبر فعلياً. ـ المؤلف.

(2) حرية الفكر، أي قدرة العقل، تقاس بالقدرة على تفكيك الأفكار التي لا تقبل الانفصال عن بعضها تقليدياً. وتفكيك الأفكار يكلّف أكثر كثيراً من ربطها ببعضها كما بيّن كوهلر في بحوثه على ذكاء الشمبانزي. ولم يمتلك العقل البشري قط قدرة كما يمتلك اليوم على التفكيك. ـ المؤلف.

قبلُ، وإذا كانت السينما والتصوير تضع أمام عيني الإنسان العادي أبعد الأماكن على الأرض، فإن الصحف والمناقشات توصل إليه خير تلك الإنجازات العقلية التي تؤكّدها الأجهزة التقنية المبتكرة حديثاً والمعروضة في الواجهات. كلّ ذلك يبثّ في ذهنه انطباعاً بقوّة جبّارة.

إني لا أعني بهذا القول أنّ الحياة البشرية خير من الحياة في عصور أخرى. فأنا لم أتحدّث عن نوعيّة الحياة الحاضرة وإنما عن نموّها فحسّب، وعن تقدّمها الكمّي أو المحتمل. وأحسبني أصف بذلك بدقّةٍ شعور الإنسان الحالي، وشكل حياته الذي يقوم على إحساسه بإمكانية أكبر من ذي قبل حتى يبدو له كل ماضٍ مصاباً بالتقزّم.

وكان هذا الوصف لازماً لتوضيح التصوّرات حول الانحطاط، وخاصة، انحطاط الغرب، تصوّرات تكاثرت في الهواء خلال العقد الأخير. وتذكّروا الاستنتاج الذي قمت به ويبدو لي جد بسيط كما هو واضح. إذْ لا يستقيم الكلام عن الانحطاط من غير تحديدِ ما الذي ينحطّ. أتشير الكلمة المتشائمة إلى الثقافة؟ أيوجد انحطاط في الثقافة الأوروبية؟ أم بالحري هو انحطاط فقط في المنظّمات الوطنية الأوروبية؟ لنفرض ذلك صحيحاً. أيكفي ذلك للكلام عن انحطاط الغرب؟ ولا بأيّ شكل. لأنّ هذه الأنواع من الانحطاط الهزيلة جزئيّة مضافة إلى عناصر ثانوية في التاريخ، كالثقافة والأمم. إنّما الانحطاط هو الانحطاط المطلق فقط. لهذه توقفت لأتأمّل ظاهرة لا يُنتبه إليها في العادة، ألا وهي شعور كل عصر أو إحساسه بمستواه الحيوي.

وهذا ما قادنا إلى الحديث عن "الكمال" الذي أحسّت به بعض عصور إزاء عصور أخرى رأت نفسها على العكس من الأولى، أنها انحطّت من مستويات أعلى، من عصور ذهبية قديمة ومتلألئة. واختتمتُ بإبراز الواقعة شديدة الوضوح، وهي أن عصرنا يمتاز بادّعاء غريب أنه أعظم من كل عصر ماضٍ؛ بالحري، يمتاز بإعراضه عن كل ماض، وبعدم إقراره بعصور كلاسيكية ومعيارية، وإنما برؤية نفسه أنه حياة جديدة أعلى من الحيوات القديمة كلّها ولا يمكن أن يكون صورة مصغّرة منها.

أشك في أن نستطيع فهم عصرنا ما لم نمعن النظر جيّداً في هذه الملاحظة. لأنها هذه هي مشكلته بالضبط. فإذا ما أحسّ عصر بنفسه أنه منحطّ فسوف يرى عصوراً أخرى أنها أعلى منه. ويتجلّى ذلك في تقديرها والإعجاب بها واحترام المبادئ التي تقوم عليها. وإنّ عصرنا يمتلك مُثُلاً عليا واضحة وراسخة، وإن يكن غير قادر على تحقيقها. لكنّ الحقيقة هي نقيض ذلك بدقّة: إننا في عصر يشعر بنفسه شعوراً ضخماً أنه قادر على الإنجاز، لكنه لا يعرف ماذا ينجز. وهو يسيطر على الأشياء كلها، لكنه لا يسيطر على نفسه، ويحسّ أنه ضائع وسْط وفرته ذاتها. وعالمنا الحالي، وإن يمتلكْ من الوسائل والمعرفة والتقنيات أكثر من ذي قبل، يبدو أتعس من كل عصر كان: إنه في مدرجة الرياح بشكل خالص.

ومن هنا هذه الازدواجيّة في القوة المفرطة وعدم الأمان الذي يعشّش في الروح المعاصرة. ويحدث له كما كان يُقال عن الوصيّ على لويس الخامس عشر إبّان طفولته: إنه يملك كل المواهب ما عدا موهبة استخدامها. فهناك أشياء جمّة كانت محالة في القرن 19 الراسخ الإيمان بالتقدّم. واليوم، لفرط ما يبدو لنا كلُّ شيء ممكناً، نستشعر أن الأسوأ ممكن أيضاً: أي، التقهقر والبربريّة والانحطاط[1]. وهذا ليس عَرَضاً سيّئاً في ذاته: فربّما يعني أن نعود إلى الاحتكاك بعدم الأمان الملازم لجوهر كل حياة، وبالقلق المؤلم واللذيذ في آن واحد، قلق تنطوي عليه كل لحظة إذا عرفنا أن نعيشها حتى نقطة المركز منها، حتى وعاءها الصغير الخافق والدامي. إننا نفرّ في العادة من جسّ هذا النبض المخيف الذي يجعل من كل لحظة صادقة قلباً صغيراً عابراً؛ ونبذل جهدنا كيما نحصل على الأمان، ونفقد الإحساس بدرامية مصيرنا الهامة ساكبين العادة والعرف والتفاهة والكلوروفورم كله فوقها. وإنه لأمر نافع إذاً، أن ندهش بعد ثلاثة قرون تقريباً من إدراكنا أننا لا نعلم ماذا سيحدث غداً.

ومن يضع نفسه إزاء الوجود في موقف جادّ ويجعل نفسه مسؤولاً مسؤولية

---

(1) هذا هو أصل تشخيص الانحطاط، الجذري، ليس لأننا في حالة انحطاط، وإنما لأننا مستعدّون لقبول كلّ احتمال فلا نستبعد الانحطاط. ـ المؤلف.

كاملة عنه، يشعر يقيناً بنوع من عدم أمان يحثّه ليظلّ يقظاً. فقد كانت الإشارة التي تفرضها لائحة القانون الروماني على حارسٍ قطعة عسكرية إبقاء سبّابته على شفتيه ليتجنّب النعاس ويبقى متيقّظاً. ليست سيئةً هذه الحركة التي يبدو أنها تفرض صمتاً أكبر على صمت الليل كيما يمكن سماع تبرعم المستقبل برعَمة خفيّة. وإن أمان عصور الكمال ـ كما في القرن الماضي ـ خداع في الرؤية يقود إلى إهمال الاهتمام بالمستقبل ملقياً بأمر قيادته إلى آليّة الكون. كما أنّ الليبراليّة التقدميّة واشتراكية ماركس تفترضان أن المستقبل الأمثل المرغوب فيه عندهما، سيتحقّق بحتمية شبيهة بالضرورة الفلكية. وهما باحتمائهما بهذه الفكرة إزاء ضميرهما يطلقان العنان للتاريخ ويكفّان عن أن يكونا يقظين ويفقدان المهارة والفعالية. وبذلك تفرّ الحياة من بين أيديهما وتصبح مستعصية استعصاء كاملاً، وهي اليوم شاردة من غير اتجاه معروف. والتقدّمي المتقنّع بقناع مستقبليّته النبيلة لا يهتم بالمستقبل؛ وهو إذْ كان على اقتناع أنه لا يجد مفاجآت ولا أسراراً ولا تقلّبات ولا إبداعات جوهرية، وأنه على ثقة أن العالم سيسير في طريق مستقيمة لا عوج فيها ولا تراجع، فإنه يطوي قلقه على المستقبل ويستقرّ في حاضر نهائي. فلا عجب أن يبدو العالم اليوم مفرغاً من المشاريع والتوقّعات والمثل العليا، ولا يهتم أحد أن يُعدَّ لها عدّتها. وهكذا كان فرار الأقليّات القائدة، الذي كان دائماً في الوجه الآخر لتمرّد الجماهير.

لكن، حان الوقت كيما نتكلّم مرة أخرى عن هذا التمرد. فبعد أن ألححنا على الجانب الملائم الذي يمثّل انتصار الجماهير، فمن المناسب أن ننزلق على السفح الآخر الأكثر خطراً.

* * *

V

# معطى إحصائي

يريد هذا البحث أن يكشف عن تشخيص عصرنا وحياتنا الراهنة. وقد كُشف عن الجانب الأوّل منه الذي يمكن تلخيصه: إن حياتنا بصفتها جملة من الإمكانات رائعة وفيّاضة وأرفع من كل حياة معروفة تاريخيّاً. لكن، إذْ كان حجمها كبيراً، فقد فاضت عن كلّ المجاري والمبادئ والقواعد المرتبطة بالتراث. إنها حياة فيها من الحياة أكثر من الحيوات كلها، ولذلك هي أكثر إشكالاً، ولا تستطيع الاتجاه صوب الماضي [1]. بل عليها أن تبدع مصيرها الخاصّ بها. لكن، يجب علينا الآن أن نكمل التشخيص. وإذا كانت الحياة قبل كلّ شيء، ما نستطيع أن نكون، أي الحياة الممكنة، فهي أيضاً وللسبب عينه اتخاذ قرار وسْط إمكانات بما سنكون في الواقع. فالظروف والقرار هما عنصران هامّان تتكوّن منهما الحياة. والظرف ـ أي الإمكانات ـ هو ما أُعطي لنا وفُرض علينا في حياتنا. وهذا ما يشكّل ما نسمّيه العالم. والحياة لا تختار عالمها، وإنما هي أن تجد نفسك من ثمّ في عالم محدّد وغير قابل للتبديل: أي في عالم اليوم هذا. وعالمنا هو حجم الحتمية التي تتمّم حياتنا. لكن هذه الحتمية الحيوية لا تشبه الحتمية الميكانيكية: فنحن لم يُقذف بنا إلى الوجود كرصاصة بندقيّة مسارها محدّد من قبل على شكلٍ مطلق. والحتمية التي نقع فيها عند حلولنا في هذا العالم ـ والعالم هو دائماً: هذا، أي، عالم اليوم هذا -، قائمة على عكس ذلك تماماً. فعوضاً عن أن تفرض علينا مساراً واحداً، تفرض علينا مسارات عدّة، وبالتالي ترغمنا على أن نختار. ما أعجب هذا الوضعَ، وضع حياتنا! فالعيش هو إحساسنا بأنفسنا مرغمين على أن نمارس الحريّة، ونقرّر ما سوف نكون في هذا العالم. فليس متاحاً لنشاطنا في اتخاذ القرار أن يستريح لحظة واحدة. حتى إذا استسلمنا يائسين لما هو قادم، فقد قرّرنا ألا نقرر.

---

(1) سنرى، مع ذلك كيف يمكن أن تتلقّى من الماضي نصائح سلبية وليس توجيهاً إيجابياً. فلا يقول لنا الماضي ما ينبغي لنا أن نعمله، وإنما يقول لنا ما ينبغي لنا أن نتجنّبه. ـ المؤلف.

إذاً، هو زائف القول إن الحياة "تقرّرها الظروف". بل الظروف، على العكس، هي الإشكال الجديد دائماً الذي ينبغي لنا أن نقرّر إزاءه. لكنّ ما يقرّر هو طبعنا.

كلّ هذا يصلح أيضاً للحياة الجماعية. ففي هذه الحياة أيضاً أفق من الإمكانات أوّلاً، ثم تصميم يختار ويقرّر الشكل الفعلي للوجود الجماعي. وينبثق هذا التصميم من الطابع الذي يمتلكه المجتمع، أو من نموذج الإنسان المهيمن فيه، وهما سواء. والهيمنة في عصرنا للإنسان ـ الجمهور؛ فهو صاحب القرار. ولا يُقلْ لنا إن هذا ما كان يحدث في عصر الديمقراطية، عصر الاقتراع العام. فالقرار في الاقتراع العام ليس بيد الجماهير، وإنّما دورها قائم على الانضمام إلى قرار هذه الأقليّة أو تلك. فهذه الأقليّة تطرح "برامجها"، وما أروعها لفظة! والبرامج كانت في الواقع برامج حياة جماعية. وفيها كان يُدعى الجمهور إلى القبول بمشروع قرار.

واليوم يحدث شيء مختلف جداً. فلو راقبنا الحياة العامة في البلدان حيث انتصار الجماهير أحرز تقدّماً كبيراً ـ كالبلدان المتوسطية -، لدُهشنا أن نراها مُستنفدة سياسياً. والظاهرة مدهشة للغاية. إذْ نجد السلطة في يد ممثّل الجماهير. وهذه الجماهير جدّ قويّة حتى تقضي على كلّ معارضة ممكنة. إنها صاحبة السلطة العامة بشكل متصلّب ومفرط حتى يصبح صعباً أن نجد في التاريخ مواقف حكم جدّ قوية كهذه. والسلطة العامّة أو الحكم مستنفدة مع ذلك. فلا تمثُل كشيء قادم جليّ، ولا تعني إعلاناً واضحاً عن مستقبل، ولا تظهر كبداية شيء يبدو انتشاره أو تطوّره ممكناً تخيُّله. هي باختصار تعيش من غير برنامج حياة، ومن غير مشروع ما، ولا تعلم إلى أين تسير لأنها في الواقع لا تسير، وليس لها طريق محدّد سلفاً ولا مسار متوقّع. وإذا ما حاولت هذه السلطة أن تسوّغ نفسها فلا تشير بشيء إلى المستقبل، وإنما على العكس، تنكمش في الحاضر وتقول بصراحة تامّة: "أنا نمط غير طبيعي من الحكم فرضته الظروف". أي، فُرض بضرورة الحاضر وليس بحسابات المستقبل. لذلك يقتصر عملها على تحاشي النزاع القائم في كلّ ساعة؛ ولا تعمل لحلّه وإنّما للفرار منه في الوقت

الحاضر مستعملة الوسائل أيّاً تكنْ، حتى لو كان استعمالها على حساب تراكم النزاعات في الساعة القادمة. وهكذا كانت السلطةُ العامّة دائماً إذا مارستها الجماهير مباشرة: كليّة القدرة وسريعة الزوال. والإنسان ـ الجمهور إنسان حياته تخلو من مشاريع ويسير متخبِّطاً. لذلك هو لا يبني شيئاً وإن تكن إمكانياته وقدراته ضخمة.

وهذا النموذج من البشر صاحب القرار في عصرنا. فجدير بنا إذاً، أن نحلّل طبعه. ونجد مفتاح هذا التحليل إذا سألنا نفسنا بالرجوع إلى بداية هذا البحث: من أين جاءت هذه الجماهير كلها التي تملأ الآن المسرح التاريخي وتفيض عنه؟

لقد أبرز الاقتصادي الكبير ويرنر سومبارت Werner Sombart، منذ بضع سنين مُعطى في غاية البساطة، وأعجبُ أنه لم يثبتْ في رأس كلّ من يهتمّ بالشؤون المعاصرة. وهذا المعطى البسيط جدّاً كافٍ في ذاته كيما يوضّح رؤيتنا لأوروبا الراهنة، وإذا كان غير كاف فإنه يضعنا على طريق كل توضيح. والمعطى هو التالي: لم تستطع أوروبا أن تبلغ رقم (180) مليون نسمة منذ أن بدأ التاريخ الأوروبي في القرن السادس حتى عام 1800، بالتالي طيلة اثني عشر قرناً. لكنها منذ العام 1800 وحتى عام 1914 ـ أي في ما ينوف على قرن قليلاً ـ ارتفع عدد سكان أوروبا من 180 مليوناً حتى 400 مليون. وأحسب أن التفاوت بين هذين الرقمين لا يدع مجالاً للشك في مزايا القرن الماضي في قوّة تكاثر السكان. لقد أنتج هذا القرن بشكل ضخم في مدى ثلاثة أجيال، عجينة بشرية أغرقت الرقعة التاريخية، وقد قُذفت فوقها كالسيل. إذ يكفي هذا المُعطى ـ أكرر ـ كيما نفهم انتصار الجماهير وكل ما ينعكس عنه ويُعلن. ويجب إضافته (أي المعطى) من جهة أخرى كمقدار أكثر تعييناً إلى نموّ الحياة الذي بيّنته من قبل.

لكنّ هذا المعطى يبيّن لنا في آن واحد أنْ لا أساس للإعجاب الذي شدّدنا به على نموّ البلدان الحديثة، كالولايات المتحدة الأمريكية. لقد أعجبنا بنموّها السكاني الذي بلغ في قرن واحد مئة مليون من البشر، في حين أن العجيب هو تكاثر السكان في أوروبا. وها هو سبب آخر كيما نصحّح الوهم الذي يزعم أمركة أوروبا. ولا العلامة التي يمكن أن تبدو أوضح ما يميّز أمريكا ـ أي السرعة في

زيادة السكان ـ خاصّة بها. لقد نمت أوروبا في القرن الماضي (أي القرن 19) أكثر مما نمت أمريكة. لأن أمريكة مكوّنة من فائض أوروبا.

لكن، وإن يكن معطى ويرنر سومبارت غير معروف كما يجب، فقد كانت الواقعةُ الغامضة بنموّ سكان أوروبا نمواً هائلاً بارزة باستفاضة فلم نلحّ عليها. إذاً، ليست زيادة السكان المعبّر عنها بالأرقام ما يهمّني، وإنما عاصفة النموّ التي أبرزتْها تلك الأرقامُ بتعارضها مع بعضها. وهذا ما يهمّنا الآن. لأن هذه العاصفة تعني أنه ألقي على مسرح التاريخ وعلى دفعات بأكوام وأكوام من البشر في إيقاع متسارع جداً حتى لم يكن سهلاً جداً إشباعها بالثقافة التقليدية.

ونمط الإنسان الأوروبي العادي حالياً يمتلك في الواقع نفْساً أسلم وأقوى مما كان يمتلكه في القرن الماضي، لكنها أبسط كثيراً. لذلك يحدث الانطباع أحياناً أنه إنسان بدائي طلع على غير انتظار وسط حضارة مغرقة في القدم. ولم تستطع المدارس التي طالما تباهى بها القرن الماضي أن تصنع شيئاً آخر سوى تعليم الجماهير تقنيات الحياة العصرية، لكنها لم تنجح في تثقيفها. لقد أُعطيت هذه الجماهير أدواتٍ لتعيش بكثافة لكنها لم تُعط حساسية للقيام بالواجبات التاريخية الضخمة؛ لقد لُقّنت الغرور بغباء والسيطرة على الوسائل العصرية، لكنها لم تُلقّن روحها. لذلك هي لا تحتاج إلى الروح في شيء، والأجيال الجديدة على استعداد لتولّي قيادة العالم، وكأن العالم كان جنّة من غير آثار قديمة ولا مشاكل تقليدية ولا عقد.

يعود إلى القرن الماضي إذاً، المجدُ والمسؤولية في إطلاق الجماهير على وجه التاريخ. ولهذا السبب ذاته تقدّم هذه الواقعة أفقاً أكثر ملائمة للحكم بإنصاف على هذا القرن. فقد كان فيه ولا بدّ شيء خارق للمألوف ولا نظير له لمّا نَتجت في فضائه هذه المحاصيل من الثمار البشرية. وإن تفضيل مبادئ ألهمت أيّ عصر آخر ماض، أمر تافه ومضحك، إذا لم يبيّن ذلك العصر من قبلُ أنه فهم هذه الظاهرة الرائعة وحاول توجيهها. ويظهر التاريخ كله على أنّه مختبر عملاق أجريت فيه التجارب المُتخيلة كلُّها للحصول على صيغة حياة عامّة تلائم النبتة "الإنسان". وإذا تجاوزنا كلّ سفسطة ممكنة، نجد بالتجربة أنّ النوع

الأوروبي يتضاعف ثلاث مرات في قرن واحد إذا أُخضعت البذرة البشرية للمعالجة بهذين المبدأين: الديمقراطية الليبرالية والتقنية.

إن هذه الواقعة الثرّة جداً تُرغمنا، إذا آثرنا ألا نكون مجانين، على استنتاج هذه النتائج: أولاً، إن الديمقراطية الليبرالية القائمة على الإبداع التقني هي أعلى نمط لحياة عامة، معروف حتى اليوم؛ ثانياً، إن نمط الحياة هذا لن يكون خيرَ ما يمكن تخيّله، لكنّ ما نتخيّله أنه الأفضل، ينبغي له أن يحافظ على جوهر ذاكما المبدأين؛ ثالثاً، إنه انتحار كلّ رجوع إلى أشكال حياة أدنى من أشكال الحياة في القرن 19.

فإذا ما اعترفنا بذلك بكلّ الوضوح الذي يقتضيه وضوح الواقعة ذاتها، فمن الواجب أن ننتفض على القرن 19. فإن اتضح لنا أن فيه شيئاً خارقاً للمألوف وفريداً، فلا يقلّ عن ذلك وضوحاً معاناته بعض العيوب الهامّة، وبعض النواقص التكوينية لمّا أنجب سلالة من البشر، من البشر ـ الجمهور المتمرّد، تضع موضع الخطر الوشيك المبادئ ذاتها التي يدينون لها بالحياة. فإذا ظلّ هذا النمط من البشر سيّد أوروبا وصاحب القرار فيها نهائياً، فسوف تكفي ثلاثون عاماً كيما ترجع قارتنا إلى عهد البربرية. ولسوف تتبخّر التقنيات القانونية والمادية، بالسهولة ذاتها التي ضاعت فيها أحياناً كثيرة أسرار الصنع [1]. وسوف تنكمش الحياة كلّها. وستتحوّل وفرة الإمكانات الحاضرة إلى نقص فعلي وندرة وعجزٍ مقلق؛ أي إلى انحطاط حقيقي؛ لأنّ تمرّد الجماهير هو ما كان يسمّيه راتِنو Rathenau" غزو البرابرة عمودياً "، بعينه.

يهمّنا جداً إذاً، أن نعرف بعمق هذا الإنسان ـ الجمهور الذي هو محض قوة خيرٍ كبير، وقوّة شرّ مستطير.

***

---

(1) كان من عادة هيرمان ويل Hermann Weyl، وهو أحد كبار الفيزيائيين في الوقت الحاضر ورفيق إينشتاين ومتابعه، أن يقول في أحاديثه الخاصّة إنه إذا مات عشرة أشخاص أو اثنا عشر شخصاً معينين، فهو على يقين تقريباً من أن أعجوبة الفيزياء الراهنة سوف تضيع من يد البشر إلى الأبد. لقد احتيج إلى إعدادٍ دام قروناً طويلة لتكييف العضوية الذهنية للتجريد المعقّد في النظرية الفيزيائية. وقد يكون بإمكان أيّ حادث أن يبيد هذه الإمكانية البشرية العجيبة التي هي فضلاً عن ذلك قاعدة التقنية القادمة. ـ المؤلف.

# VI

# بدء تشريح الإنسان ـ الجمهور

كيف هو هذا الإنسان ـ الجمهور الذي يهيمن اليوم على الحياة العامّة ـ الحياة السياسية والحياة غير السياسية؟ ولِمَ هو كما هو، أي كما أُنتج؟

من الملائم الإجابة عن المسألتين معاً، لأنهما تقبلان تفسيراً مشتركاً. فالإنسان الذي يحاول أن يضع نفسه اليوم في مقدّمة الوجود الأوروبي، متميّز جداً من الإنسان الذي قاد القرن 19. لكنه نِتاج القرن 19 ومن إعداده. وكان بإمكان كل ذهن ثاقب في الأعوام 1820، 1850، و1880، لو قام بمحاكمة قبْلية À priori بسيطة، أن يتنبّأ بخطورة الموقف التاريخي الحالي. ولا يحدث شيء جديد في الواقع إلاّ وقد تُنبِّئ به منذ مائة عام. "الجماهير تتقدّم"، هذا ما كان يقوله هيغل Hegel بنبوءة مخيفة. "من غير سلطة روحية جديدة سيسفر عصرنا ـ وهو عصر ثوري ـ عن كارثة"، هذا ما كان يعلنه أوغست كونت. وكان نيتشه ذو الشاربين يصرخ من أعلى صخرة في إنغادينا: "إنّي أرى موج مدّ العدميّة يرتفع"! والقول إن التاريخ لا يمكن التنبّؤ به قول زائف. ولقد تُنبِّئ به مرّات لا تُحصى. فإذا لم يُبدِ المستقبل صفحته للتنبّؤ، فليس بالمستطاع فهمه متى تحقّق وأصبح ماضياً. والفكرة القائلة إن المؤرّخ متنبّئ بالعكس، تلخّص فلسفة التاريخ كلّها. يقيناً، بالإمكان توقّعُ بنية المستقبل العامّة فقط: لهذا السبب، ذلك كان الشيء الوحيد الذي ندركه في الحقيقة من الماضي أو الحاضر. لذلك إذا أردت أن ترى عصرك جيّداً، فانظر إليه من بعيد. لكن، من أية مسافة؟ ذلك يسير جدّاً: بالضبط من المسافة التي تحجب عنك رؤية أنف كليوباطرا.

وما المظهر الذي تبديه الحياة من هذا الإنسان الجميع الذي ولّده القرن 19 بوفرة مطّردة؟ هو في اللحظة الحاضرة مظهر سهولة ماديّة من كلّ طراز. إذْ لم يستطع الإنسان المتوسّط قطّ أن يحلّ بمثل هذه السهولة مشكلته الاقتصادية. فبينا كانت الثروات الكبرى تتناقص ويصبح وجود العامل الصناعي أقسى، كان

الإنسان المتوسط من أية طبقة اجتماعية بجد أفقه الاقتصادي أكثر انفتاحاً. وكـان يضيف كلّ يوم ترفاً جديداً إلى جملة متارفه القياسية الحيوية. وكان وضعه كـل يـوم يصبح أكثر وثوقاً واستقلالاً عن إرادة الغير. وما كان من قبلُ يعدّ بمثابة منفعـة يـأتي بها الحظّ الذي كان يوحي بشكر بسيط للقدر، تحوّل إلى حقّ لا يُشكر عليـه وإنّمـا يُطلب طلباً. وقد أخذ العامل منذ العام 1900 في توسيع حياته وتأمينها. ومع ذلـك، ينبغي له أن يناضل كيما يحصل على ما حصل. وهو لا يشعر كما الإنسان المتوسـط برفاهية أتاحها له مجتمع بعناية؛ مجتمع ودولة هما قوة تنظيمية.

ويضاف إلى هذا اليُسر والأمان الاقتصاديَّيْن، يسر وأمـان جـسديّان: وهمـا الراحة والنظام العام. فالحياة تـسير علـى سـكّة مريحـة ولا توجـد شـبهة في أن يتدخّل فيها شيء عنيف وخطير.

وإن موقفاً بهذا الشكل من الانفتاح والاتّساع، لا بدّ له من أن يبثّ في أعمق طبقة من هذه النفوس المتوسطة شعوراً حيوياً يمكن التعبير عنه بعبارة جدّ طريفة ودقيقة تسيل على لسان شعبنا القديم: "قـشتالة واسـعة". وهـذا يعـني أن الحيـاة تمثّلت للإنسان الجديد خالية من العوائق في هذه المجالات الأساسية والحاسمة كلّها. وإن فهم هذه الواقعة وأهميّتها تبرز آليّاً متى تذكّرنا أن هذه السعة الحيويـة كان يفتقر إليها رجال العامّة في الماضي. بـل علـى العكـس مـن ذلـك، كانـت حياتهم قدراً شديداً اقتصاديّاً وجسديّاً. ولقد أحسّوا بالحياة عند ولادتهـم كومـة من العوائق كان من المحتّم احتمالها من غير أن يُوجِدوا حلاً آخر سوى التكيّف معها، ويستقرّوا في الضائقة التي تخلّفها.

لكن التناقض في المواقف يكون أوضح إذا انتقلنا من الجانـب المـادّي إلى الجانب المدنيّ والخلقي. فلا يجد الإنسان المتوسّط أمامه حواجز اجتماعية منـذ النصف التالي من القرن 19. أي أنه لا يحس أيضاً عند ولادته بقيود وتقييدات في أنماط الحياة العامّة، ولا يُضطرّه شيء إلى كبح حياته. وهنا يصحّ كذلك "قشتالة واسعة". فلا وجود "للطبقـات"[(1)] Estados، ولا "للطوائـف"، ولا امتيـاز مـدنياً لأحد؛ ويتعلم الإنسان المتوسّط أن البشر متساوون أمام القانون.

---

(1) حسب التقسيم القديم: طبقة رجال الدين ـ وطبقة النبلاء ـ وطبقة الفرسان ـ وطبقة العوام. ـ المترجم.

ولم يُوضع الإنسان خلال تاريخه كله قطّ في ظرف أو محيط حيوي يشبه ولو من بعيد ما تحدّده هذه الظروف. نحن في الواقع، أمام تجديد جذري في مصير الإنسان غرسه القرن التاسع عشر. لقد ابتُكر سيناريو جديد لحياة الإنسان، جديد في المجال الفيزيقي وفي المجال الاجتماعي. وقد جعلت ثلاثة مبادئ هذا العالم ممكناً، وهي الديمقراطية الليبرالية والتجريب العلمي والتصنيع. وبالإمكان اختصار المبدأين الأخيرين في مبدأ واحد، هو التقنية. ولم يخترع القرن التاسع عشر أيّاً من هذه المبادئ وإنما جاء بها القرنان السابقان عليه. لكنّ فخر القرن التاسع عشر لا يكمن في إبداعها، وإنما في توطيدها. ولا يجهل أحد هذا الأمر. لكن، لا يكفي الإقرار المجرّد بذلك، بل يلزم إدراك نتائجه المحتومة.

كان القرن التاسع عشر ثوريّاً في الأساس. ولا ينبغي لنا أن نبحث عمّا فيه من الثورة في مشهد متاريسه التي لا تشكّل وحدها ثورة. وإنما نبحث فيه عن وضع الإنسان المتوسط، أي وضع الكتلة الاجتماعية الكبرى، في ظروف حياة مناقضة جذرياً للظروف التي كانت تحيط به دائماً. فقد قُلب وجه الحياة العامّة، والثَورة ليست تمرّداً على النظام الموجود سابقاً؛ وإنما هي غرس نظام جديد يزعزع أسس القديم. لذلك لا مبالغة في القول إن الإنسان وليد القرن 19، هو من جهة وقائع الحياة العامّة إنسان فريد بين البشر الآخرين كلِّهم. وإنّ إنسان القرن 18، وإنْ يختلفْ بالطبع عن الإنسان السائد في القرن 16، لكنهما كليهما يبدوان قريبين شبيهين ببعضهما وحتى متطابقين في الجوهر إذا ما قورن بهما هذا الإنسان الجديد. فقد كانت "الحياة" تعني عند رجل العامة في كل العصور إلزاماً وتبعيّة قبل كل شيء، وبكلمة واحدة: ضغطاً. وإذا شئت فقلْ اضطهاداً، شرط ألا يفهم منها فقط الاضطهاد القانوني والاجتماعي ناسين الاضطهاد بالمعنى الواسع جدّاً. لأنّ هذا المعنى الأخير لم يُفتقد قط حتى منذ مائة عام، تاريخ بدْء توسّع التقنية العلمية ـ الفيزيائية والإدارية ـ اللامحدودة عمليّاً. وقد كان العالم من قبلُ، حتى للغني والقادر، محيطاً من الفقر والمشقّة والخطر [1].

---

(1) وإذْ كان الناس فقراء جميعاً، فإن فرداً مهما يكن ثريّاً قياساً بالآخرين فإن مجال التسهيلات والراحة التي كان بإمكان ثروته أن تتيحها له، مقلّص جدّاً. وأصبحت حياة الإنسان المتوسّط اليوم أسهل وأكثر راحة وأماناً من حياة أقوى إنسان في عصر آخر. وماذا عليه ألا يكون أثرى من الآخرين، إذا كان العالم له، ويعدّ له طرقاً رائعة وسككاً حديدية وتلغرافات وفنادق وأمناً شخصياً وأسبرين...؟ - المؤلف.

والعالم المحيط بالإنسان منذ ولادته لا يدفعه إلى الاقتصار على مجال ما، ولا يضع أمامه حظراً ولا كابحاً ما، وإنما على العكس، هو يثير رغباته التي يمكن لها أن تنمو مبدئياً بلا حدود. وما يحدث ـ وهو هامّ جداً ـ أن عالم القرن التاسع عشر هذا وبدايات القرن العشرين ليس فيه إنجازات واسعة يمتلكها فعلاً، وإنما هو يوحي إضافة إلى ذلك، أنه سيكون أغنى وأكمل وأرحب، وكأنه يتمتّع بنموّ تلقائي لا ينضب. واليوم لا يشك غير عدد قليل جدّاً من البشر في أن السيارات ستكون خلال خمسة أعوام أكثر راحة وأرخص مما هي عليه اليوم، على الرغم من بعض النُذر بحدوث ثغرات في هذا الإيمان الساطع. هو يؤمن بذلك كإيمانه بطلوع الشمس القادم. والتشبيه دقيق. لأن الإنسان العادي إذا أحسّ بهذا العالم التقني والكامل جدّاً اجتماعياً فإنه يؤمن في الواقع، أنّ الطبيعة أنتجته، ولا يفكر قطّ في الجهود العبقرية للأفراد الممتازين الذين يفترضهم إبداعه. وهو أقل قبولاً بالفكرة القائلة إن هذه التسهيلات كلها مازالت تعتمد على بعض المزايا البشرية الصعبة، وإن أقلّ خلل فيها يودي سريعاً بهذا البنيان الرائع.

وهذا يدفعنا لتسجيل علامتين أوّليّتين على الرسم البياني النفسي للإنسان ـ الجمهور، وهما: التوسع الحرّ في رغباته الحيوية، بالتالي في شخصه، ثم جحوده جحوداً متجذّراً كلَّ ما جعل سهولة عيشه ممكنة. وهذه العلامة وتلك تشكّلان سيكولوجية الطفل المدلّل المعروفة. ولا يخطئ في الواقع من يستعمل هذه السيكولوجية كأنها مربعات متتالية للنظر من خلالها إلى نفسية الجماهير الراهنة. فإذا كان ابن الشعب الجديد وارث ماضٍ طويل جدّاً وعبقري ـ عبقري بالإلهام والجهود ـ فإنه يلقى التدليل من العالم المحيط به. والتدليل هو عدم تحديد الرغبات ومنحُ كائن ما شعوراً أنّ كلّ شيء متاح له، وهو بالمقابل ليس ملزماً بشيء. والمخلوق الخاضع لهذا النظام ليس له خبرة بحدوده ذاتها. ويصل به الأمر لفرط تجنيبه كلّ ضغط من المحيط، وكلّ

صدام مع الكائنات الأخرى، إلى أن يحسب نفسه الموجود الوحيد ويعتاد ألا يثق بالآخرين، خاصّة ألا يثق بأن أحداً يتفوّق عليه. وهذا الشعور بتفوّق الآخر لا يمكن أن يُدخله في روعه إلا من يُرغمه ـ لأنه أقوى منه ـ على نبذ رغبة من رغباته، وعلى الانكماش والتزام حدّه. وبذلك يتعلّم هذه القاعدة الأساسية: "هنا أنتهي أنا، ومن هنا يبدأ الآخر الذي قد يكون أقوى منّي. في العالم اثنان هما: أنا والآخر أقوى مني". وكان الإنسان المتوسط في العصور الأُخَر يتعلّم هذه الحكمة الأوّليّة يومياً من عالمه لأنه كان عالماً ذا تنظيم بدائي جدّاً حتى كانت الكوارث مألوفة فيه، ولا يوجد فيه شيء آمن ووافر ومستقر. لكن الجماهير الجديدة تجد نفسها في مجال غاصّ بالإمكانات، وهو فضلاً عن ذلك، آمن، وكلّ ذلك جاهز، وتحت تصرّفها من غير جهد خاصّ منها، كما نجد الشمس في كبد السماء من غير أن نرفعها على أكتافنا. ولا يشكر إنسان لإنسان آخر الهواء الذي يتنفّسه، لأن الهواء ليس من صنع أحد: فهو يخص مجموع "ما هنا"، أي ما نقول عنه "شيء طبيعي" لا يُفتقد. وهذه الجماهير هي من قلّة الذكاء حتى ظنَّت أن هذا التنظيم المادّي والاجتماعي الموضوع بتصرّفها كالهواء، هو مثله من مصدر واحد، لأنه هو الآخر لا يُفتقد في الظاهر، ويكاد يكون كاملاً كالنظام الطبيعي.

أطروحتي هي إذاً، هذه: إنّ كمال التنظيم الذي أضفاه القرن التاسع عشر على بعض مجالات الحياة هو السبب في أن هذه الجماهير المنتفعة منه لم تعدّه تنظيماً وإنما طبيعة. وبذلك نفهم ونحدّد تلك الحالة النفسية اللامعقولة التي كشفت عنها هذه الجماهير: فهي لا يهمّها غير رفاهها، وهي في آن واحد لا تلتزم بأسباب هذا الرفاه. وإذْ لا ترى في مزايا هذه الحضارة، إبداعاً وبناء عجيبين يقومان فقط بفضل جهود ومساعٍ كبيرة، تحسب أنّ دورها يقتصر على المطالبة بهذه المزايا بصرامة، وكأنّها حقوقٌ طبيعية لها. وهذه الجماهير

الشعبية تبحث عادة إبّان العصيان عن الخبز. أمّا الوسيلة التي تستعملها فتكون بتحطيم المخابز. وهذا الأمر يصلح أن يكون رمزاً للسلوك الذي تلجأ إليه الجماهير الراهنة بمدى أوسع وألطف حيال الحضارة التي تتغذّى منها [1].

* * *

(1) إذا تُرك الجمهور سواء أكان شعبيّاً أم أرستقراطيّاً، إلى رغبته الخاصة، فإنه يميل دائماً إلى تحطيم أسباب الحياة لرغبةٍ شديدة في الحياة. وقد بدا لي دائماً كاريكاتوراً طريفاً لهذا الميل إلى فقدان أسباب الحياة بسبب الحياة، ما حدث في فيخار، بلدة قريبة من المرِيّة لما أُعلن كارلوس III ملكاً في 13 أيلول عام 1759. وقد حدث الإعلان في ساحة البلدة. "ثم أُمر بجلب المشروبات إلى ذلك الجمهور الكبير كلّه الذي استهلك 77 ربعاً من النبيذ (حوالي 800 كغ)، وأربعة زقاق من العرق الذي ألهب عقولهم على شكل جعلهم يسيرون حتى مصرف التسليف الزراعي وهم يردّدون الهتاف، فألقوا من نوافذه بالقمح الذي كان موجوداً فيه وبـ 900 ريال من صناديقه. ومن هناك مضوا إلى مستودع بيع التبغ فأمروا بإلقاء نقود بيع الشهر، وبالتبغ. ومارسوا السلوك ذاته في الدكاكين، فأمروا، إضفاءً للأهمية على عملهم، أن تُسكب كل أصناف الخمور والمأكولات الموجودة فيها. وبادر رجال الدين إلى ممارسة الفعالية ذاتها، فصاحوا يحثّون النساء أن يُلقيْن كلّ ما في بيوتهن. وهذا ما قمن به بتهاون كبير حتى لم يبق فيها خبز ولا قمح ولا دقيق ولا شعير ولا صحون ولا طناجر ولا مهاريس ولا هاونات ولا كراسي حتى خربت المدينة المذكورة". حسب وثيقة من ذلك العصر بحوزة السيد سانشيث ديتوكا Sánchez de toca، ذكرها مانويل دانبيلا Manuel Danvila في كتابه مملكة كارلوس III، المجلّد II ـ صفحة 10 ـ ملاحظة 2.- لقد أفنى هذا الشعب نفسه كيما يعيش فرحه الملكي. ما أعجب بلدة فيخار، وهنيئاً لها المستقبل! ـ المؤلف.

## VII

# حياة نبيلة وحياة سوقة

# أو الطاقة والعطالة

لذلك نحنُ ما يدعونا إليه عالمُنا كيما نكون، وإن ملامح نفسنا الأساسية مطبوعة بشكل المحيط وكأنها طُبعت في قالب. بالطبع، الحياة ما هي غير التعامل مع العالم. والوجه العام الذي يبديه لنا هذا العالم قد يكون وجه حياتنا العام. لذلك أُلحّ كثيراً على تبيان أن العالم الذي وُلدت فيه الجماهير الحالية يكشف عن سِحنة جديدة في التاريخ جِدّة جذرية. فإذا كانت الحياة في الماضي تعني للإنسان المتوسّط وجود صعوبات فيما حوله ومخاطر وندرة وتقييد في المصير وتبعيّة، فإن العالم الجديد يبدو كمحيط من الإمكانات غير محدود عمليّاً؛ وآمن ولا يُقيّد فيه المرء بأحد. وسوف يلتفّ حول هذا الانطباع الأوّلي والدائم كل نفس معاصرة، كما التفّت حول الشعور المعاكس النفوس القديمة. لأن هذا الانطباع الأساسي يتحوّل إلى صوت داخلي يهمس من غير انقطاع بأشياء تشبه كلمات في أعمق أغوار الشخص ويلقّنه بإلحاح تعريفاً للحياة هو في آن واحد أمر. وإذا كان الانطباع التقليدي يقول: "الحياة هي الشعور بأننا محدودون، لذلك ينبغي لنا أن نعوّل على ما يحيق بنا"، فإنّ الصوت الجديد غاية الجدّة يصرخ: "الحياة هي ألا نلقى تقييداً ما، بالتالي، أن نُرخي العنان بهدوء لأنفسنا. ولا شيء عملياً محال، ولا شيء خطير، ولا أحد يفوق أحداً مبدئياً".

هذه التجربة الأساسية تغيّر تغييراً كاملاً بنية الإنسان ـ الجمهور التقليدية الدائمة. لأن هذا الإنسان أحس بنفسه دائماً مقيداً تكوينيّاً بحدود مادية وبسلطات اجتماعية عليا. هكذا كان يرى الحياة. وإذا استطاع أن يحسّن وضعه، وإذا ترقّى اجتماعياً فكان يعزو ذلك إلى لعبة حظ كانت موائمة له شخصياً. وإذا لم يعزه إلى ذلك، فكان يعزوه إلى جهد ضخم كان يعلم جيداً جداً كم كلّفه. والأمر في هذه

الحالة أو تلك استثناء في صورة الحياة والعالم المعتادة، استثناء بصفته تلك، كان عائداً إلى سبب خاصّ جداً.

لكن الجمهور الجديد يجد الانطلاقة الحيوية التامّة أنها حالة طبيعية ومستقرة من غير سبب ما خاص. ولا شيء من خارج يحثّه كيما يقرّ بحدوده، وبالتالي كيما يعوّل في كل لحظة على هيئات أخرى، لاسيما هيئات عليا. فقد كان الفلاح الصيني يعتقد حتى عهد قريب أن رفاه حياته مقيّد بالفضائل الفردية التي يحسن بالإمبراطور أن يمتلكها. إذاً، كانت حياته ترجع باستمرار إلى هذه الهيئة العليا التي كان يتبع لها. لكن الإنسان الذي نحلّله اعتاد ألا يرجع من ذاته إلى أيّة هيئة خارجه. وهو راضٍ بوضعه كما هو. وكان ينبغي له أن يؤكد ويعدّ حسناً كل ما في نفسه من آراء وشهوات وأفضليات وأذواق على شكل ساذج وطبيعي جداً من غير حاجة للادّعاء. ولِمَ لا، إذا كان لا شيء ولا أحد، كما رأينا، يرغمه على أن يدرك أنه إنسان من درجة ثانية ومحدود جداً وعاجز عن خلق تنظيم، والحفاظ على التنظيم نفسه الذي يضفي على حياته هذه السعة والرضا اللتين يقوم عليهما توكيد شخصه ذاته؟

وما كان للإنسان الجمهور أن يرجع إلى شيء خارجه ما لم يرغمه الظرف على ذلك بعنف. وإذا كان الظرف لا يرغمه اليوم، فإن هذا الإنسان الجمهور الخالد يتخلّى عن طلب العون انسجاماً مع طبيعته، ويحسّ بنفسه سيّد حياته. أمّا الإنسان النخبة أو الممتاز فعلى العكس منه، مكوّن من حاجة عميقة إلى الرجوع من تلقائه إلى قاعدة تتجاوزه، قاعدة أعلى منه يضع نفسه في خدمتها بحريّة. ولنتذكّر أننا منذ البدء كنا نميّز إنسان النخبة من الإنسان السوقة قائلين: إن الأوّل منهما يطلب كثيراً من نفسه، أمّا هذا الآخر فهو لا يطلب من نفسه شيئاً، بل هو فرِح بما لديه ومفتون بنفسه [1]. إذاً، هو مخلوق النخبة وليس الجمهور مَنْ يعيش في عبودية جوهرية خلافاً لما يُعتقد عادة. فلا تطيب له الحياة إذا لم يجعلها تقوم

(1) هو جمهور فكرياً من يكتفي إزاء كل مشكلة بالتفكير فيما يجده سهلاً في رأسه. وعلى نقيضه هو ممتاز من يزدري ما يجده من غير جهد مبذول سابقاً في ذهنه. ولا يقبل شيئاً جديراً به سوى ما هو أعلى منه ويتطلّب قفزة جديدة لبلوغه. ـ المؤلف.

على شيء متعال. لذلك هو لا يعدّ الحاجة إلى الخدمة ظلماً. وإذا ما فاتته هذه الحاجة عرضاً، أحسّ بالقلق واخترع قواعد جديدة أصعب وأكثر تطلّباً تضغط عليه. هذه هي الحياة، الحياة نظاماً، الحياة النبيلة. وتُعرّف النبالة بما يُطلب منها، وبالواجبات وليس بالحقوق. LA Noblesse oblige، النبالة تُلزم. "الحياة حسب الهوى حياة الرعاع. أما النبيل فيتطلّع إلى النظام وإلى القانون "، حسب غوته. وليست امتيازات النبالة في الأصل تنازلات أو أفضالاً، بل هي على العكس فتوح؛ ويقضي الحفاظ على الامتيازات مبدئياً أن يكون صاحب الامتياز قادراً على استردادها في كل لحظة، إذا ما اضطُرّ إلى ذلك، أو إذا نازعه فيها أحد. ليست الحقوق الخاصة أو privi-legios إذاً، ملكيةً سلبية أو متعة بسيطة، وإنما تمثل الصورة التي بلغها جهد الشخص. يقابلها الحقوق العامة التي هي لكونها حقوق "الإنسان والمواطن" ملكية سلبية وانتفاع محض ومصلحة وهبة كريمة جاد بها القدر الذي يصادفه كل امرئ، وهي ليست لقاء جهد ما، كما التنفّس وتفادي الجنون ليسا لقاء شيء. لكني أقول إن الحق اللاشخصي يقوم بالتبعية، والحق الشخصي يقوم بذاته.

ويغيظ المرءَ التدهورُ الذي عانته في مفردات اللغة الشائعة، كلمةٌ جدّ موحية ككلمة "نبالة". لأنها إذْ عنت لكثيرين "نبالة دم" موروثة، تحوّلت إلى شيء شبيه بالحقوق العامة بصفتها الساكنة السلبية التي تُتلقّى وتنتقل كشيء خامد. لكنّ معنى مفردة "نبالة" الخاص وجذرها دينامي في جوهره. والنبيل تعني الـ"معروف"؛ ويفهم الناس جميعاً من كلمة معروف: المشهور، الذي عرّف نفسه أنْ بزّ الجمهور الغُفل. وذلك يستلزم ضمناً جهداً غير مألوف كان سبب شهرته. والنبيل إذاً، معادل لشجاع وممتاز. وقد صارت النبالة أو شهرة الابن محض منفعة. فالابن معروف لأن أباه استطاع أن يكون مشهوراً، إذاً هو معروف بالانعكاس؛ وللنبالة الموروثة، في الواقع، طابع غير مباشر. إنها ضوء منعكس، إنها نبالة قمرية وكأنما صنعها أموات. ولا يبقى منها حيّاً وأصيلاً وديناميّاً غيرَ الحثّ الذي تحث به الخلف للحفاظ على مستوى الشجاعة الذي بلغه السلف. وحتى بهذا المعنى المتهافت كانت النبالة دائماً تُلزم La Noblesse oblige نعم،

النبالة الأصيلة تُلزم نفسها بنفسها، ووارث النبالة تُلزمه الوراثة. على كل حال، يوجد بعض التناقض في انتقال النبالة من النبيل الأول إلى خلفائه. وقد كان الصينيّون أصوب منطقاً لما قلبوا نظام الانتقال. فليس الأب من يجعل ابنه نبيلاً، لكنّ الابن هو من ينقل النبالة، إذا حصل عليها، إلى أجداده رافعاً بجهده من شأن أصله المتواضع. لذلك تتدرّج رتب النبالة عند منحها حسب عدد الأجيال السابقة المتمتّعة بالشهرة؛ فهناك من يجعل أباه وحده نبيلاً، وهناك من يمدّ شهرته حتى الجدّ الخامس أو العاشر. والأجداد يعيشون على حساب الإنسان الحالي الذي نبالته فعلية وفاعلة. باختصار، هي ما هو قائم وليس ما كان [1].

ولم تظهر كلمة (نبالة) كمصطلح مميّز حتى الإمبراطورية الرومانية، لمعارضتها تحديداً بالنبالة الوراثية الآخذة بالانحطاط.

النبالة في نظري، مرادف للحياة النشيطة المستعدّة دائماً للتفوّق على نفسها، ولتجاوز ما هو قائم باتجاه ما يُعدّ ليكون واجباً ومطلباً. فالحياة النبيلة على هذه الشاكلة، نقيض الحياة السوقية الخاملة التي تنكمش بسكون على نفسها، ويحكم عليها بالانغلاق الذاتي الدائم ما لم ترغمها قوة خارجية على الخروج من ذاتها. لذلك نسمّي هذا النمط من البشر جمهوراً، ليس لأنه حشد وإنما بسبب خموله.

وكلّما تقدّم المرء في الحياة، يأخذه الملل من ملاحظة أن الجانب الأعظم من الرجال ـ ومن النساء ـ عاجزون عن بذل أي جهد آخر إلا ما يُفرض حصراً كردّ فعل على حاجة خارجية. لذلك يزداد عزلةً الأفرادُ القلائل الذين عرفناهم قادرين على بذل جهد تلقائي ومُترف، ويصبحون كالتماثيل في تجربتنا. إنهم رجال النخبة، النبلاء الوحيدون الفاعلون وليس المنفعلين من يرى الحياة توتّراً

(1) إذا كنّا عملنا سابقاً على إرجاع مفردة (نبالة) إلى معناها الأولي الذي يستبعد الوراثة، فلا توجد فرصة لدراسة واقعة ظهور (نبالة الدم) مرات كثيرة في التاريخ. وتظل المسألة إذاً، كما هي. ـ المؤلف.

دائماً ومرانةً لا تنقطع. يراها askesis [1]. وهم قوم نُسّاك.

ولا يدهشك هذا الاستطراد الظاهري، فإذا أريد تعريف الإنسان الجمهور الحالي، الذي هو جمهور اليوم كما كان دائماً لكنه يريد أن يحلّ محلّ الممتازين، فلا مفرّ من معارضته بالشكلين الآخرين النقيّيْن الموجودين فيه: الجمهور العادي، والجمهور الحقيقي النبيل أو الشجاع.

والآن نستطيع السير بعجلة أكبر، لأننا أصبحنا أسياد ما قد يكون في رأيي، مفتاح نفسية النمط الإنساني المهيمن اليوم، أو معادلتها. وكل ما يلي هو نتيجة أو لاحق لهذه البنية الهامّة التي يمكن أن نلخصها بالتالي: إن العالم الذي نظمه القرن 19، لمّا أنتج إنساناً جديداً بشكل آلي، وضع فيه رغبات هائلة ووسائل قوية من كل ضرب لإشباعها، سواء أكانت وسائل اقتصادية وجسدية (العناية الصحية، المتوسّط الصحّي أعلى من كلّ ما كان في العصور كلها)، أم وسائل مدنية وتقنية (أفهم منهما ضخامة المعارف الجزئية والفعالية التي يمتلكها الإنسان المتوسط اليوم والتي كان يفتقر إليها دائماً في الماضي). وبعد أن وضع القرن 19 بين يديه هذه القوى تركه لنفسه، فاتّبع هذا الإنسان المتوسط حينئذ سجيّته، فانغلق على ذاته. وهكذا نشعر بجمهور أقوى من الجمهور في كلّ عصر. لكنّه خلافاً للجمهور التقليدي، مغلق على نفسه، وعاجز عن الالتفات إلى شيء أو إلى أحد، مؤمن أنه يكفي نفسه بنفسه. والخلاصة: هو عاصٍ، وإذا استمرّت الأمور كما هي الآن، فسوف يزداد يوماً بعد يوم الإحساس في أوروبا كلّها ـ بالتالي، في العالم كله ـ أن الجماهير عاجزة عن أن تُسلم قيادها في أيّ مجال. لكن، قد تأتي عليها لحظة من الإرادة الطيّبة في الساعات العصيبة التي تهبّ على قارتنا، فتقلق فجأة وترضى بقيادة الأقليّات العليا لها في بعض المجالات الخطِرة خاصّة.

---

(1) كلمة إغريقية تعني: التمرين ـ الرياضة، ونعرفها من كلمة asceta = ناسك، التي جاءت ـ كما يبيّن المعجم ـ من الإغريقية askètiés، أي الذي يتمرّن. والفعل منها askétieos أو askeo. لذلك قرن المؤلف النبلاء بالنسك. وأطلق المتصوفة العرب على ذلك كله الرياضة الروحية. ـ المترجم.

لكنّ هذه الإرادة الطيّبة قد تُخفق أيضاً. لأن أساس نسيج روحها مصنوع من الانغلاق والعصيان، لأنها تفتقر منذ الولادة إلى مهمّة التطلّع إلى ما يتجاوزها سواء أكانت حوادث أم أشخاصاً. هي تريد أن تتبع أحداً ما ولا تستطيع. تريد أن تستمع وتكتشف أنها صمّاء.

ووهمٌ التفكير من جهة أخرى، أن الإنسان المتوسّط النافذ الرأي، سيتمكّن من إدارة عملية الحضارة بنفسه مهما يرتقِ مستواه الحيوي مقارنة بمستواه في عصور أخر. أقول عمليّة حضارة وليس تقدّمها. لأن عمليّة الحفاظ البسيطة على الحضارة الحاليّة معقدّة بشكل فائق وتتطلّب بصيرة كبيرة. ويصعب التحكم بها على الإنسان العادي الذي تعلم استعمال كثير من أجهزة الحضارة لكنّه يتّصف بالجهل الجذري بمبادئ الحضارة ذاتها.

وإني أكرّر على القارئ الصبور الذي قد يكون قرأني حتى هنا، الفائدة ألا يفهم كلّ هذه المصطلحات بأن يعزو لها معنى سياسيّاً. فالنشاط السياسي، وإن يكن أهمّ وأبرز أنشطة الحياة العامّة، هو الآخر في المقابل، حصيلة أنشطة أخرى أعمق وغير ملموسة. وهكذا قد لا يكون العصيان السياسي خطيراً إذا لم يأتِ من عصيان فكري وخلقي أعمق وأكثر حسماً. لذلك إذا لم نحلّل هذا العصيان فسوف تفتقر نظرية هذا البحث إلى وضوحها الأخير.

***

# VIII

# لِمَ تتدخّل الجماهير في كل شيء،

# ولِمَ تتدخّل بعنف فقط

إذاً، حدث شيء شديد التناقض في الظاهر، لكنه في الحقيقة طبيعي جداً. فما إن انفتح العالم والحياة للإنسان السوقة حتى انغلقت روحه. لا بأس؛ وأنا أؤكّد أنّ في انغلاق الأرواح، الأرواح العاديّة هذا، يكمن تمرّد الجماهير الذي تكمن فيه بدورها المشكلة العملاقة المطروحة اليوم على الإنسانيّة.

أنا أعلم أن كثيراً ممّن يقرؤونني لا يفكّرون كما أفكّر. وهذا أيضاً طبيعي جداً ويؤكّد النظرية. لكن، حتّى لو بدا في النهاية خطأ رأيي، فسوف تظلّ الواقعة أن كثيراً من هؤلاء القراء الغاضبين لم يفكّروا خمس دقائق في مشكلة جدّ معقّدة. وكيف يفكّرون تفكيري؟ لكنهم إذا اعتقدوا بحقّهم في أن يكون لهم رأي حول الأمر من غير جهد سابق لصياغته، فإنهم يكشفون عن انتمائهم المثالي للنمط اللامعقول من البشر الذين سمّيتهم جمهوراً متمرّداً. هذا هو بالضبط طمس الروح وانغلاقها. والمقصود في هذه الحالة الانغلاق الفكري. إذ يعثر الشخص منهم في داخله على ذخيرة من الأفكار. فيقرّر الاكتفاء بها، ويُعدّ نفسه كاملاً عقلياً. وإذا لم يفتقد شيئاً خارج ذاته يطمئن نهائياً إلى تلك الذخيرة.هذه هي آليّة الانغلاق.

الإنسان الجمهور يحسّ بنفسه كاملاً. أمّا الإنسان الصفوة فيحتاج كيما يحسّ بنفسه كاملاً، إلى أن يكون معجباً بنفسه على شكل خاص، والإيمان بكماله ليس مقيّداً به تكوينيّاً، ولا هو أصيل فيه، وإنما يأتيه من تباهيه؛ بل إن لهذا الإيمان طابعاً وهمياً وخياليّاً وإشكاليّاً. لذلك يحتاج المتباهي إلى الآخرين، فيبحث لديهم عن تأكيد للفكرة التي يريد أن تكون له عن نفسه. لذلك لا يستطيع الإنسان النبيل حتى في هذه الحالة المَرَضيّة، و" العمى" بسبب الغرور، أن يشعر

بأنه كامل حقاً. وعلى النقيض منه الإنسان السوقة في أيامنا، آدم الجديد الذي لا يخطر في باله أن يشك في كماله ذاته، وإن ثقته بنفسه كثقة آدم، فردوسيّة. لأن انغلاق روحه يحول بينه وبين ما قد يكون شرطاً سابقاً لاكتشاف نقصه، أي أن يقارن نفسه بالأفراد الآخرين. والمقارنة قد تكون خروجاً للحظة من الذات والانتقال إلى "الغير"، لكن الروح السوقيّة عاجزة عن الارتحال، وهو الرياضة العليا.

نعثر إذاً، على الفرق ذاته الذي يقوم بين الأحمق والذكي. فالذكي يُدهش من نفسه دائماً أنه قَيْدَ إصبعين من أن يكون أحمق؛ لذلك يبذل جهداً ليفرّ من الحماقة الوشيكة، وفي هذا الجهد يكمن الذكاء. أمّا الأحمق، فبخلافه، لا يرتاب في نفسه: ويُخيل إليه أنه حصيف جداً. ومن هنا هذه الطمأنينة المشتهاة التي يركن إليها الأحمق ويستقرّ في غبائه. وكهذه الحشرات التي لا توجد طريقة لإخراجها خارج النفق الذي تسكنه، كذلك لا توجد طريقة لانتشال الأحمق من حماقته والذهاب به في نزهة للحظة خارج عماه وإرغامه على مقارنة رؤيته الغبيّة المألوفة بأشكال أخرى من الرؤية أدق. والأحمق أحمق طيلة الحياة ومن غير فجوات. لذلك كان يقول أناتول فرانس: إن أحمق هو أشأم كثيراً من الشيطان. لأن الشيطان يستريح أحياناً، أمّا الأحمق فليس كذلك قطّ[1].

وليس المقصود أن الإنسان الجمهور أحمق. بل الإنسان الجمهور عكس ذلك؛ فهو أذكى وأقدر عقليّاً من نظيره في أي عصر آخر. لكنّ هذه القدرة لا تخدمه في شيء؛ والإحساس الغامض بامتلاكها يخدمه في الواقع، بأن يزداد انغلاقاً على نفسه، ولا يستعملها. فيقدّس مرة واحدة وإلى الأبد مختلفَ مقولاته المطروقة، وآراءه الضارّة، ونسق أفكاره، أو ببساطة، مفرداته الفارغة التي راكمتها المصادفة في داخله، وبجرأة تفسرها السذاجة وحدها وتفرضها

---

(1) لطالما طرحتُ على نفسي المسألة التالية: لا شك أن أحد العذابات الأبعث على القلق في حياة كثير من الناس هو اضطرارهم منذ الأزل إلى الاحتكاك بحماقة الآخرين، ومصادمتهما. فكيف أمكن مع ذلك، ألا يكون حاول أحد قطّ ـ كما أرى ـ القيام بدراسة حولها، مثل: بحث في الحماقة؟ - المؤلف.

كيفما شاءت. وهذا ما كنت أعبّر عنه في الفصل الأول إنه يميّز عصرنا: لا لأن السوقة يعتقد أنه مبرّز وليس سوقة، وإنما السوقة ينادي بالسوقية ويفرض الحق بالسوقية، أو السوقية كحق.

وإن الهيمنة التي تمارسها السوقية الفكرية على الحياة العامّة ربّما كانت العامل الأجدّ في الموقف الراهن والأقلّ شبهاً بأيّ شيء في الماضي. ولم تكن العامّة تؤمن قط، على الأقلّ في التاريخ الأوروبي حتى يومنا، أن لديها "أفكاراً" حول الأمور. كانت لديها معتقدات وتقاليد وخبرات وأمثال وعادات ذهنية، لكنها ما كانت تتخيّل أنها تمتلك أراء نظرية حول ماهيّة الأشياء، أو حول ما ينبغي لها أن تكون عليه، ولم يكن لها آراء في السياسة ولا في الأدب مثلاً. كانت تؤيّد أو تسحب تأييدها، لكنّ موقفها كان يقتصر على أن يعكس إيجاباً أم سلباً عمل الآخرين الخلاّق. ولم يخطر ببالها قطّ أن تعارض "أفكار" السياسي بأفكارها هي، حتى ولا أن تحاكم "أفكار" السياسيّ انطلاقاً من منبر "أفكار" أخرى تحسب أنها تمتلكها. والأمر ذاته ينسحب على الفنّ وعلى مجالات الحياة العامّة الأخرى. وكان يمنعها من ذلك منعاً كاملاً وعيٌ فطري بمحدوديّتها، وبأنها غير مؤهّلة للتنظير[2]. وينتج عن ذلك آليّاً أن العامّة لم تكن تفكّر ولو من بعيد في أن يكون لها قرار تقريباً، في أيّ من الأنشطة العامة التي هي في معظمها من طبيعة نظرية.

أمّا الإنسان المتوسط (أو العادي) اليوم، فعلى النقيض، لديه أفكار مقصورة أكثر ما يكون، على ما يحدث وما يجب أن يحدث في العالم. لذلك فقَدَ عادة الاستماع. ولِمَ يسمع إذا كان يملك في داخله كلّ ما يحتاج إليه؟ فليس من الحكمة إذاً، أن يستمع، بل على العكس، عليه أن يحاكم ويحكم ويقرّر. ولا توجد مسألة في الحياة العامة إلا ويتدخّل فيها بشكل أعمى وأصم كما هو حاله، فارضاً آراءه.

لكن، أليس في هذا فائدة؟ ألا يمثّل تقدّماً ضخماً أن يكون للجماهير "أفكار"، أي أن تكون مثقّفة؟ ولا في أيّ شكل. لأن "أفكار" هذا الإنسان العادي ليست أفكاراً بحقّ، وليس في امتلاكها ثقافة. والفكرة لعبة شطرنج في الحقيقة.

---

(2) لا يزعمنّ أحد تغييب المسألة: كل إبداء رأي تنظير. ـ المؤلف.

فمن أراد أن يمتلك أفكاراً يحتاج إلى أن يكون مستعداً لحبّ الحقيقة والقبول بقواعد اللعبة التي تفرضها الحقيقة. ولا ينفع الكلام عن أفكار وآراء حيث لا تُقبل هيئة ما تنظّمها أو سلسلة من القواعد التي يُرجع إليها في الجدال. وهذه القواعد هي مبادئ الثقافة، ولا يهمّني أيُّها. ولا وجود لثقافة حيث لا توجد مبادئ تشريع مدني يُرجع إليها. ولا وجود لثقافة حيث لا يوجد امتثال لبعض المواقف العقلية العليا يُرجع إليها في الجدال [1]. ولا ثقافة حيث المجالات الجمالية لا تعترف بالحاجة إلى تفسير العمل الفني.

فإذا غابت كل هذه الأشياء فلا وجود لثقافة، وإنما تكون بربرية بأضيق معاني الكلمة. ولا نخدعنّ أنفسنا، لأن هذا هو ما آخذٌ بالحدوث في أوروبا تحت سطوة تمرّد الجماهير المطّرد. وإذا ما وصل مسافر إلى أحد بلدان البرابرة، يعلم أن هذا المكان لا تسود فيه مبادئ يمكن الرجوع إليها. إذْ لا توجد قواعد بربرية تحديداً، لأنّ البربريّة هي غياب القواعد والمرجعية الممكنة.

وإنّ زيادة الثقافة أو قلّتها يُقاس بمقدار الدّقّة في القواعد كبراً أو صغراً. فإذا قلّت الدقة، نظّمت هذه القواعد الحياة تنظيماً مجملاً؛ وإذا زادت الدقة، تتغلغل القواعد حتى في تفاصيل الأنشطة كلها.

كلّ امرئ يستطيع أن يدرك أن أوروبا أخذت تحدث فيها منذ بضع سنين، "أمور غريبة". وسأذكر مثالاً معيّناً على هذه الأمور الغريبة، بعض الحركات السياسية كالنقابية والفاشية. ولا تقلْ إنهما تبدوان غريبتين لأنهما ببساطة جديدتان. فالحماس للتجديد طبيعي جدّاً لدى الأوروبي حتّى قاده إلى إنتاج تاريخ أشدّ اضطراباً من كلّ التواريخ المعروفة. ولا ننسب إذاً، ما في هذه الحوادث الجديدة من غرابة، إلى ما فيها من جدّة، وإنما إلى الطابع الغريب جدّاً لهذه الجِدّة. فلأوّل مرّة في أوروبا يظهر تحت ضروب النقابية والفاشية نموذج

---

(1) إذا تهاون أحد في الخضوع للحق في النقاش، وإذا لم تكن له إرادة في أن يكون صادقاً، فهو بربريّ فكريّاً. في الواقع، هذا هو الموقف الإنسان الجمهور إذا تكلّم أو ألقى محاضرة أو كتب. ـ المؤلف.

بشري لا يريد أن يجد الصواب عند أحد، ولا يريد أن يكون صوابٌ، وإنما يبدو ببساطة عازماً على فرض آرائه. ها هنا الجديد: الحقّ في ألا يكون على صواب، واستصواب اللاصواب. وأنا أرى في ذلك أعظم تجلٍ ملموس لنمط جديد من الجماهير قد صمّم على قيادة المجتمع من غير قدرة على ذلك. وفي هذا السلوك السياسي تتجلّى بنية روحه الجديدة بأخشن طريقة وأكثرها حسماً؛ لكن المفتاح في الانغلاق الفكري. فالإنسان العادي يجد في داخله "أفكاراً"، لكنه يخلو من عمليّة تصوّر الأفكار، حتى لا يشتبه في وجود أيّ عنصر دقيق للغاية تحيا به الأفكار. هو يريد أن يرتأي، لكنه لا يريد القبول بشروط إبداء الرأي وفروضه. لذلك ليست أفكاره "فعليّاً" سوى رغبات تُرافق بكلمات كالرومانثات الموسيقية [1].

وإن امتلاك فكرة هو الإيمان بامتلاك عللها، وهي بالتالي الإيمان بوجود منطق وعالم من الحقائق المفهومة. وإن تصوّر فكرة أو رأي عن شيء ما يستوي والرجوع إلى هيئة حكم والاعتماد عليها والقبول بقوانينها وحكمها، هو الإيمان أن الشكل الأعلى للتعايش الحوارُ الذي تناقش فيه علل أفكارنا. لكن الإنسان الجمهور يحس بنفسه ضائعاً إذا قبل بالمناقشة ويرفض على شكل غريزي الالتزام باحترام هذه الهيئة العليا التي توجد خارجه. لذلك كان "الجديد" في أوروبا "القضاء على الجدال"، وبغضُ كل شكل من التعايش الذي يُلزم ضمناً بذاته احترام القواعد الموضوعية بدءاً من المحادثة الشائعة حتى البرلمان مروراً بالعلم. وهذا يعني رفض التعايش الثقافي وهو تعايش في ظل القواعد، والتقهقرَ إلى تعايش بربري. فتُلغى الإجراءات الطبيعية كلها، ويُتّجه إلى فرض ما يُرغب فيه مباشرة. ويدفع انغلاق الروح كما رأيناه من قبلُ، الجمهور ليتدخّل في الحياة العامة كلها، وليحمله أيضاً على شكل محتوم إلى عملية فريدة في التدخّل: هي العمل المباشر action directe.

---

(1) تأليف موسيقي صوتي بصورة عامة يرافق بآلة أو أكثر ـ المترجم.

ويوم يُعاد تكوين نشأة عصرنا سيُلاحظ أن "النوتات" الأُوَل من لحنه المميّز ستعزف لدى تلك الفئات النقابية والواقعية الفرنسية حوالي 1900 مخترعة طريقة "العمل المباشر" وتسميته. لقد بادر الإنسان دائماً إلى العنف: وقد كانت هذه الوسيلة أحياناً جريمة ونحن لا نهتمّ بها. لكن العنف كان في أحيان أخرى، الوسيلة التي يلجأ إليها من كان استنفد من قبلُ الوسائل كلها للدفاع عن المنطق والعدالة التي يؤمن أنه يمتلكها. قد يكون محزناً جدّاً أن يكون الوضع البشري قد قاد ذات مرّة أو أخرى إلى هذا الضرب من العنف، لكنّنا لا يمكننا النفي أن ذلك العنف يعني أعظم تكريم للعقل وللعدالة، شرط ألا يكون شيئاً آخر غير العقل المُثار. وقد كانت القوة الوسيلة أو (السهم) الأخير. Ultima ratio. وقد فُهم من هذه العبارة بسخرية وبشيء من الغباء أنها تعلن عن خضوع القوّة المسبق للقواعد العقلية. والحضارة لم تكن شيئاً آخر سوى تجريب تقليص القوّة إلى وسيلة أخيرة. وبدأنا اليوم نرى هذا الأمر بوضوح كبير، لأن "العمل المباشر" قائم على قلب النظام وإعلان العنف على أنه وسيلة أخيرة، في الواقع على أنه وسيلة وحيدة. إنه القاعدة التي تهيّئ لإبطال كلّ قاعدة وتُلغي كلّ توسّط ما بين هدفنا وبين فرضه. إنها ماغنا كارتا Magna carta أو ميثاق البربرية الكبير.

يُستحسن أن نتذكر أن الجمهور في كل عصر إذا عمل لسبب أو لآخر في الحياة العامّة، فإنه يعمل بطريقة "العمل المباشر". إذاً، كانت تلك طريقة العمل الطبيعية عند الجماهير. ويؤيّد قضيّة هذا البحث بقوّة واقعةٌ واضحة هي أن تدخلّ الجماهير القيادي اليوم في الحياة العامّة، إذا انتقل من حالة عرضيّة وغير مألوفة إلى أن يصبح تدخّلاً طبيعياً، يظهر "العمل المباشر" كقاعدة معترف بها رسميّاً.

إن التعايش البشري كله آخذ بالسقوط تحت وطأة هذا النظام الجديد الذي تُلغى فيه المرجعيات غير المباشرة. ففي مجال التعامل الاجتماعي تُلغى "التربية الجيّدة"، ويقوم الأدب "كعمل مباشر" على السباب، والعلاقات الجنسية تُختصر شكلياتها.

شكليات وقواعد وتهذيب وعادة توسطية وعدالة وعقل! من أين جاء اختراع هذا كلّه، وخلق كلّ هذا التعقيد؟ كل ذلك يُختصر بكلمة "مدنية" التي تكشف عن أصلها ذاته من خلال فكرة civis = المواطن = ابن المدينة.

والمقصود بذلك كلّه جَعْل المدينة والجماعة والتعايش ممكنة. لذلك إذا نظرنا إلى داخل كلّ من أدوات الحضارة التي عددتها للتوّ، نجد أن لها مضموناً واحداً. وكلها، في الواقع، تستلزم ضمناً الرغبة الجذرية والمطّردة في الاعتماد على الآخرين. والمدينة هي قبل كل شيء إرادة في التعايش. ويكون المرء غير مدني، بل بربريّ بمقدار عدم اعتماده على الآخرين. فالبربرية ميل إلى التفكّك. لذلك كانت عصور البربرية عصراً من التشتّت الإنساني، وتكاثر فئات صغيرة مبعثرة ومتباغضة.

وقد مثّلت الديمقراطية الليبرالية في السياسة الشكل الأعلى للإرادة في التعايش. فهي تمضي بقرار الاعتماد على الآخرين إلى حدّه الأقصى، وهي النموذج النموذجي "للعمل غير المباشر". والليبرالية هي قاعدة الحقّ السياسي القائل إن السلطة العامّة تجد نفسها وإن تكن كليّة القدرة، وتحاول ولو على حسابها، أن تترك ثغرة في الدولة التي تسيطر عليها كيما يستطيع العيش أولئك الذين لا يفكّرون ولا يُحسّون كما تفكر وتحس هي، أي كما يفكر ويُحس الجانب الأقوى، جانب الأغلبيّة. والليبرالية هي ـ ويُستحسن أن نتذكر ذلك اليوم ـ لغايةٌ في السخاء. هي الحقّ الذي تمنحه الأغلبيّةُ الأقليّات، هي بالتالي أنبل صرخة دوّت على سطح الأرض، لأنها تعلن قرارها بالتعايش مع العدوّ؛ بالحري، التعايش مع العدوّ الضعيف. وقد يكون أمراً لا يُصدّق أن يبلغ الجنس البشريّ شيئاً جدّ جميل، جدّ متناقض في الظاهر، وجدّ أنيق وأكروباتيّ وجدّ مضادّ للطبيعة. لذلك يجب ألا ندهش أن يظهر سريعاً عزم هذا الجنس ذاته على التخلّي عنه. إنها ممارسة صعبة للغاية ومعقّدة حتى تتعزّز في الأرض.

التعايش مع العدوّ! والحكم مع المعارضة! أو لا تكون شفقة كهذه متناقضة؟ لا شيء ينمّ بوضوح كبير عن ملامح الحاضر سوى العدد القليل جداً من البلدان التي توجد فيها معارضة. أمّا في غالبيّة البلدان، فإنّ جمهوراً متجانساً يُرخي بثقله على السلطة العامّة ويسحق ويُفني كل فئة معارضة. والجمهور ـ ومن سيصف لنا مظهره المتماسك والمتحشّد إذا رآه؟ - لا يرغب في التعايش مع ما ليس بجمهور. وهو يُبغض بغض الموت ما ليس بجمهور.

* * *

# IX

## بدائية وتقنية

يهمّني جداً أن أذكّر هنا أننا غارقون في تحليل موقف، الموقف الحالي الملتبس بشكل جوهري. لذلك أوحيت في البدء أنّ كل الملامح الحاليّة وخاصة تمرّد الجماهير تمثّل جانبين. وإنهما كليهما لا يقبل تفسيراً مزدوجاً فقط، وإنما يتطلّبه تطلّباً، سواء أكان مواتياً أم ضاراً. ولا يكمن الالتباس في حكمنا، وإنّما في الواقع ذاته. وليس لأنّ الموقف الحالي يبدو لنا في جانب منه جيّداً وفي جانب آخر سيّئاً، وإنّما هو بذاته قوّة ذات وجهين: وجه النصر ووجه الموت.

ولا يعنيني أن أُثقل هذا البحث بميتافيزيقا للتاريخ كاملة. لكنّي، بالطبع، آخذٌ ببنائها على أساس عميق من قناعاتي الفلسفية المعروضة أو المشار إليها في مواضع أخرى. وأنا لا أؤمن بالحتم التاريخي. بل أنا، على النقيض، أفكّر أن كلّ حياة، وحياة تاريخية بالتالي، تتكوّن من لحظات بحتة كلّ منها غير محدّد نسبياً بارتباطها باللحظة السابقة، على شكل يتذبذب الواقع فيها ويراوح مكانه piètine sur place، ولا يُعرف جيّداً إن كان يرسو قراره على إمكانية أو أخرى وسط إمكانيات شتّى. وهذه اللجلجة الميتافيزيقية تهيّء لكل ما هو حيوي هذه الصفة الواضحة من الذبذبة والارتعاش.

وتمرّد الجماهير (يمكن) أن يكون في الواقع، عبوراً إلى تنظيم بشري جديد لا نظير له؛ لكنّه (يمكن) أن يكون أيضاً كارثة على المصير البشري. ولا أحد ينفي واقعة التقدّم، لكن من اللازم تصحيح التصوّر الذي يؤمن بأن التقدّم مضمون. وأكثرُ اتساقاً مع الوقائع التفكيرُ في أنه لا يوجد تقدّم مضمون، ولا تطوّر من غير تهديد بالنكوص والتقهقر. وكلّ شيء، كلّ شيء ممكن في التاريخ يستوي في ذلك التقدّم الظافر وغير المحدود، والتراجع الدوْريّ. لأن الحياة

فرديّةً كانت أم جماعية، شخصيّة أم تاريخية هي الكيان الوحيد في العـالم مادّتـه من خطر.إنها من الخطوب. وهي دراما إذا تكلّمنا بدقّة [1].

وهذا، وهو حقّ بوجه عامّ، يكتسب حدّة أشـدّ في "اللحظـات الحرجـة"، كما هو حاضرنا. وهكذا أخذت بالظهور أعراض سـلوك جديـد في ظـل هيمنـة الجماهير الحالية، وكنّا جمعناها تحت عنوان "العمل المباشـر"، يمكـن لهـا أن تبشّر بتحسينات متقنة في المستقبل. بالطبع، كل ثقافة قديمة تحمـل في تقـدّمها نُسجاً بالية وليس حمْلاً يسيراً من مادة شفّافة، تحمل ما يعوق الحياة وتفلاً ساماً. فهناك مؤسسات ميتة، وقيم واعتبارات ما تزال على قيـد الحيـاة وأصـبحت بـلا معنى، وحلول معقّدة من غير حـقّ، وقواعـد ثبُـتَ عـدم أهميّتـها. وكـل هـذه العناصر في العمل (غير المباشر) وفي الحضارة تتطلّب عصراً من الجنون المبسّط للأمور. فالسترة والصدار الرومانتيكيّان يستدعيان انتقامـاً منـهما بوسـاطة ثيـاب التبذّل الحالية، "ومن غير سترة". فالتبسيط هنا صحي وخير ذوقاً: بالتالي هو حلّ أكثر كمالاً، وبذلك نكسب دائماً مقداراً أكبر بوسائل أقلّ. وشجرة الحبّ تتطلّب أيضاً تقليماً لتسقط عنها المانوليا الفائضة والزائفة والمتعلّقة بأغصانها، وتتهاوى طفرة المتسلّقات والملتفّات، ويزول الاعوجـاج والتـشابكات الـتي تمنـع عنـها الشمس.

---

(1) لا مجال للقول أن يأخذ أحد تقريباً مأخـذ الجـدّ هـذه العبـارات، وسـوف يفهمهـا ذوو النوايـا الحسنة أنها مجاز بسيط، وربّما مؤثّر. وإن قارئاً ساذجاً إلى حد ما فقط يحسب أنه يعرف الحيـاة معرفة نهائية، أو على الأقل ما ليس بحياة، ينساق وراء معنى هذه الجمـل الأولّي، ويكـون مـن "يفهمها "، سواء كانت حقيقية أو مزيّفة. أمّا الآخرون فسوف يسود بينهم إجماع حادّ، مـع هـذا الفـارق: بعـضهم سـيفكر، إذا "تكلمنـا كلامـاً جـاداً"، أن الحيـاة سـيرورة الـنفس وجوديـاً، والآخرون، سلسلة من التفاعلات الكيميائية. ولا أحسب وضعي يتحسّن أمام قُرّاء مغلقين جداً، إن اختصرت طريقة كاملة في التفكير قائلاً إن المعنى الأولّي والجذري لكلمة (حيـاة) يتجلّـى إذا استُعلمت بمعنى بيوغرافي (سيرة - ترجمة) وليس بمعنى بيولوجي (علـم حيـاة)، لـسبب قـويّ للغاية هو أن كلّ بيولوجيا هي في النهاية فصل واحد فقط من بعـض (البيوغرافيـات). وهـذا مـا يصنعه البيولوجيون في حياتهم القابلة ليُكتب عنها سيرة. ما عدا ذلك تجريد، ووهم وأسطورة. ـ المؤلف.

والحياة العامة، خاصة الحياة السياسية، تستلزم عامّةً وبإلحاح، عودةً إلى ما هو حقيقي. وقد لا تستطيع الإنسانية الأوروبية أن تقفز القفزة المرنة التي يطالبها بها المتفائلون، إذا لم تتعرّ من قبلُ، وإذا لم تتخفّف وصولاً حتى ماهيّتها المحضة كيما تتطابق وذاتها نفسها. ويجعلني الحماس الذي أحسّ به نحو نظام العري هذا، والصدق فيه والشعور بضرورته، أغذّ الخطا باتجاه مستقبل محترم، وأطالب بحقّ المفكّر بالحيرة التامّة إزاء كلّ مستقبل. وإنه المستقبل ما يجب أن يهيمن على الماضي، ومنه نتلقّى شكل سلوكنا إزاء كلّ ما كان [1].

لكن، يجب تجنّب الخطيئة الكبرى التي اقترفها قادة القرن 19. وهي الشعور الناقص بمسؤوليّتهم، الأمر الذي جعلهم لا يحافظون على اليقظة والحذر. وإن الانزلاق على المنحدر المواتي الذي يهيّئه مجرى الأحداث والضعف إزاء حجم الخطر، والمظهر الكريه الذي ماتزال تحتفظ به أحلى الأوقات، هو بالضبط الإخلال برسالة المسؤولية. وصار الآن ضرورياً بعث الحساسية المفرطة بالمسؤولية لدى أولئك الذين هم قادرون على الإحساس بها. ويبدو أكثر إلحاحاً إبراز الجانب المشؤوم من الأعراض الحالية على شكل واضح.

لا ريب في أن العوامل المعاكسة في ميزان تشخيص حياتنا العامّة يفوق كثيراً العوامل المواتية إذا أجرينا الحساب ليس على قدر التفكير في الحاضر، وإنما على قدر التفكير فيما تبشر به وتعِد.

وإن كلّ زيادة في الإمكانات المعيّنة التي خبرتها الحياة تتعرّض لخطر أن تُلغي نفسها عند وقوعها بأخوف مشكلة تعترض المصير الأوروبي والتي أصوغها مرة أخرى هكذا: لقد استولى على قيادة المجتمع نمط من البشر لا تهمّهم مبادئ

(1) هذه السهولة بالحركة إزاء الماضي ليست إذاً، تمرّداً فظّاً. وإنّما هي على النقيض التزام واضح يلتزم به كلّ "عصر نقدي". وإذا كنت أدافع عن ليبرالية القرن 19 في مواجهة الجماهير التي هاجمته بشكل غير حضري، فلا أعني بذلك أني أنبذ حريّتي الكاملة إزاء هذه الليبرالية ذاتها. والعكس صحيح: هذه البدائية التي تظهر في هذا البحث تحت مظهر أسوأ، هي من جهة أخرى وبمعنى ما، شرط لكل تقدّم تاريخي كبير. انظر قولي منذ بضع سنين حول هذا الأمر في بحثي "بيولوجيا وتربية"، فصل: "المفارقة في الهمجية". المشاهد، المجلد III. ـ المؤلف.

الحضارة. لا مبادئ هذه الحضارة ولا تلك، ولا مبادئ أية حضارة، حسبما أستطيع الحكم عليه اليوم. هم مهتمّون بالمخدّرات والسيارات وبعض الأمور الأخرى. وذلك يثبت استهتارهم الجذري بالحضارة. لكنّ هذه الأشياء منتجات لها فقط، وإن الحماس المكرّس لها يُبرز على شكل أشدّ فظاظة عدم التحسس بالمبادئ التي تنشأ منها. يكفي أن نقصّ هذه الواقعة: فمنذ أن وجدت العلوم الجديدة nueve Sienze -أي العلوم الفيزيائية، بالتالي منذ عصر النهضة ـ كان الحماس لها يزداد دون خلل طيلة الوقت. وبصورة أكثر تحديداً: كان عدد الذين ينكبّون نسبياً على هذه البحوث البحتة يكبر في كل جيل. وأوّل حالة من التراجع ـ وأكرر نسبيّاً ـ حدثت في الجيل الحاضر بين عقد العشرينات وعقد الثلاثينات. فقد أصبح من الصعب جلب تلاميذ إلى مختبرات العلم البحت. ويحدث هذا لما بلغت الصناعة تطوّرها الأكبر ولمّا أخذ الناس يبدون ميلاً أكبر إلى استخدام هذه الأجهزة والأدوية التي يخلقها العلم.

ولولا الإطالة لكان بإمكاني أن أبيّن عدم تطابق شبيه بذلك في السياسة، وفي الفن والأخلاق والدين وفي مجالات الحياة اليومية.

وماذا يعني لنا موقف فيه مفارقة كبرى؟ أو يزعم هذا البحث أنه أعدّ جواباً عن هذا السؤال؟ وهذا يعني لنا أن الإنسان المهيمن اليوم بدائي، و Naturmench بزغ وسْط عالم متحضّر. والعالم هو المتحضّر، لكنّ ساكنه ليس كذلك: حتى إنه لا يرى الحضارة فيه، وإنما ينتفع بها وكأنها طبيعة. الإنسان الجديد يرغب في السيارة والتمتّع بها، لكنه يؤمن أنها ثمرة تلقائية ألقت بها شجرة من جنّة عدْن. وهو يجهل في قرارة نفسه طابع الحضارة الصنعي الذي يكاد لا يُصدّق، ولا يمدّ حماسه إلى الأجهزة ولا إلى المبادئ التي تجعلها ممكنة. لمّا أوردت من قبل كلمات راتنو، قلت إننا نشهد "غزواً عمودياً يقوم به البرابرة"، ربّما حُكم عليها ـ كما هي العادة ـ أنْ لا يُقصد بها غير "جملة" تقال. واليوم نرى أن التعبير قد يبيّن حقيقة ما أو خطأ ما، لكنه نقيض "جملة" تقال. أي، أنه تعريف قاطع يكثّف تحليلاً معقّداً بكامله. وما الإنسان الجمهور الحالي، في الواقع، غير بدائيّ انزلق من هياكل (الديكور) إلى مسرح الحضارة القديم.

في كل ساعة يتكلّم الناس عن التقدّم الأسطوري في التقنية؛ لكنني لا أراهم حتّى الأخيار منهم، يتكلّمون بوعي بمستقبلها الدراميّ بشكل كبير. وفي هذه النقطة يبدو لي اشبنغلر ذاته الدقيق جداً، والعميق والمهووس مع ذلك، مفرطاً في تفاؤله، لأنه يؤمن أن "الثقافة" ستخلُف الحضارة التي يعني بها التقنية خاصة. وفكرة اشبنغلر عن الثقافة وعن التاريخ بعامة جدّ بعيدة عن الفكرة التي يطرحها هذا البحث حتى يصعب سوق استنتاجاته إلى هنا، والتعليق عليها بَلْهَ تصحيحها. وإننا بالقفز فوق المسافات والضرورات يمكننا أن نطرح نقاط الخلاف من أجل ردّ وجهتي النظر كليهما إلى قاسم مشترك، هكذا: اشبنغلر يعتقد أن التقنية يمكن أن تظلّ حيّة حين يموت الاهتمام بمبادئ الثقافة. أمّا أنا فلا أستطيع أن أنضمّ إلى الإيمان بشيء كهذا. لأن التقنية هي في جوهرها علم، والعلم لا يوجد إذا لم يُهتمّ بنقائه وبالتقنية ذاتها. ولا يمكن الاهتمام إذا لم يستمرّ الناس بالحماس لمبادئ الثقافة العامّة. وإذا ضعف هذا الحماس ـ وهذا ما يبدو أنه حادث ـ فإن التقنية تستطيع الاستمرار في الحياة للحظة فقط. هي اللحظة التي تبقيها فيها عطالة الدفعة الثقافية التي خلقتها. نحن نعيش بالتقنية، لكن ليس من التقنية. فهي لا تتغذّى من نفسها ولا تتنفّس بذاتها، وليست هي علّة ذاتها Causa sui، وإنما هي راسب نافع وعملي ناتج عن اهتمامات غير ضرورية وغير عملية [1].

لكني أنبّه إلى أن الاهتمام الحالي بالتقنية لا يضمن شيئاً، فضلاً أنه لا يضمن التقدّم ذاته أو ديمومة التقنية. لا بأس أن تُعد النزعة التقنوية على أنها أحد الملامح المميّزة "للثقافة العصرية"، أي ثقافة تحوي ضرباً من علم تبيّن أنه نافع مادياً. لذلك إذا اختصرنا ملامح الحياة الجديدة التي أُرسيت في القرن 19، فإني

---

(1) لذلك لا يقول شيئاً في رأيي من يحسب أنه قال شيئاً إذا عرّف الولايات المتحدة بـ"تقنيتها". وإن أحد الأمور التي تشوّه الوعي الأوروبي بشكل خطير، هو مجموعة آراء طفليّة حول الولايات المتحدة مايزال يعوّل عليها أشخاص أرفع ثقافة. إنها حالة من فقدان التناسب التي سأبرزها من الآن فصاعداً، ما بين التعقيدات الحالية، وقدرات العقول. ـ المؤلف.

أُبقي ملمحين منها فقط: الديمقراطية الليبرالية والتقنية[1]. لكني ـ وأكرر- أُدهش للخفّة التي يُنسى بها عند الكلام عن التقنية، أن وعاءها القلبي هو العلم البحت، وأن شروط دوامها تضمّ الشروط التي تجعل الممارسة العلمية البحتة ممكنة. أو فكرنا في الأمور كلّها التي يجب أن تكون فاعلة في النفوس كيما يظلّ عندنا "رجال علم" حقاً؟ أم يذهب الظنّ جدياً إلى أنه إذا وجد الدولار، قام علم؟ وليست هذه الفكرة التي يطمئن إليها كثيرون غير كلمة بدائية أخرى.

أوَ تنعدم لدينا كميّة العناصر المتباينة فيما بينها، التي ينبغي لها أن تُجمع وتُحرّك للحصول على كوكتيل علم الفيزياء ـ الكيمياء! حتى إذا اكتفينا بأضعف ضغط وأبسطه يأتي من الموضوع، تبرز واقعة في غاية الوضوح، هي أن الفيزياء الكيميائية استطاعت وحدها في طول الأرض وعرضها، وعلى مدى القرن أن تتكوّن وتتوطّد توطداً كاملاً ضمن شكل صغير تشكله لندن وبرلين وڤيينا وباريس، وفي القرن التاسع عشر فقط. وهذا يبيّن أن العلم التجريبي هو أحد المنتجات الأبعد عن الاحتمال في التاريخ. لقد تكاثر السحرة والرهبان والمحاربون والرعاة حيثما وكيفما شاؤوا. لكنّ قَبِيل الإنسان التجريبي يتطلّب كيما ينشأ فيما يبدو مجموعة من الشروط هي أغرب من الشروط التي أنتجت وحيد القرن. وإن واقعة جدّ بسيطة وهزيلة يجب أن تجعلنا نفكر قليلاً حول طابع الإلهام العلمي سريع التطاير والتبخّر[2]. وأعجب لمن يعتقد أن أوروبا إذا اختفت يمكن للولايات المتحدة أن تكمل مسيرة العلم.

يهمّني كثيراً أن أعالج الأمر بعمق وأبيّن بكل دقّة ما هي مستلزمات العلم التجريبي التاريخية والحيوية، وبالتالي، مستلزمات التقنية. لكن، لا يُنتظر، وإن أضيئت المسألة، أن يفهم الإنسان الجمهور ذلك. فالرجل الجمهور لا يلتفت إلى الحجج، ولا يتعلّم إلا على حسابه الخاص.

---

(1) إن الديمقراطية الليبرالية والتقنية تتشابكان في الواقع، وتتجاذبان بدورهما بشكل شديد حتى لا يمكن تصور الواحدة منهما دون الأخرى، لذلك كان مرغوباً فيه اسم ثالث، اسم نوعي، يضمهما كليهما. وقد يكون هذا الاسم الحقيقي، اسم القرن الأخير. ـ المؤلف.

(2) لندع الكلام عن المسائل الأعمق. لأن الجانب الأعظم من الباحثين أنفسهم لا يساورهم اليوم أدنى شك في الأزمة الخطيرة، والعميقة التي يجتازها العلم اليوم. ـ المؤلف.

وهناك ملاحظة تمنعني من أن أنسج أوهاماً حول فعّالية تلك المواعظ، التي هي لفرط عقلانيّتها لا بدّ لها من أن تكون دقيقة. أوليس غير معقـول بـإفراط أن الإنسان العادي لا يُحس في هذه الظروف الراهنة تلقائياً ومن غير مواعظ بحماس فيّاض لتلك العلوم وبنات جنسها العلوم البيولوجيـة؟ إذاً، فلـنمعن الـتفكير في ماهيّة الموقف الحالي: فبينما أصبحت أمور الثقافة الأخرى كلها إشـكالية سـواء في السياسة أو الفن أو القواعد الاجتماعية والأخـلاق نفـسها، يظـلّ هنـاك أمـر واحد يثبت كـلّ يـوم فعاليتـه العجيبـة بأسـطع طريقـة وأنقاهـا، تبـهر الإنـسان الجمهور، ألا وهو العلم التجريبي. فهو يسهّل كل يوم اختراعاً جديداً يـستعمله هذا الإنسان العادي. وكل يوم ينتج مـسكّناً جديـداً أو مـصلاً يفيـد منـهما هـذا الإنسان. وكل الناس تعلم أنه إذا تضاعفت المخابر ثلاث مرات أو عشر مرات، فضلاً عن الإلهام العلمي، تضاعفت آليّاً الثروة ووسائل الراحة والصحة والرفاه. أويمكن تخيّل دعاية أضخم وأثبت من ذلك في صالح مبـدأ حيـوي؟ وكيـف لا نجد، مع ذلك، ما يوحي بأن الجماهير تطلب من نفسها تضحية بالمال واهتماماً من أجل تزويد العلم بحاجته بشكل أفضل؟ بل هناك ما هو أبعـد مـن ذلـك. إذْ حوّلت فترة ما بعد الحرب رجل العلم إلى منبـوذ اجتمـاعي جديـد. واعلـمْ أني أشير إلى الفيزيائيين والكيميائيّين والبيولوجيّين وليس إلى الفلاسفة. فالفلـسفة لا تحتاج إلى حماية الجمهور ورعايته ولا تعاطفه. إنها تحـافظ علـى مظهرهـا مـن انعدام الفائدة الكامل[1]، وبذلك تتحرّر من كلّ اعتمـاد علـى الإنـسان العـادي. وهي تعرف نفسها أنها بماهيّتها إشكاليّة، وتعانق بفرح حريّة مصيرها كطائر مـن طيور الله الرحيم، من غـير أن تطلـب إلى أحـد أن يتّكـل عليهـا، أو توصـيه أن يحترمها ويدافع عنها. وإذا ما عاد عليها أحـد مـا بفائـدة مجانيـة، فإنهـا تبتـهج بذلك، بسبب تعاطف وجداني بشري بـسيط. لكنـها لا تعـيش مـن هـذا العائـد الغريب، ولا تفكّر فيه ولا تنتظره. وكيف تزعم أن يأخذها أحد بجدّ، إذا كانـت هي نفسها تبدأ بالشك في وجودهـا ذاتـه؟ وإذا كانـت لا تعـيش إلا بمقـدار مـا تكافح نفسها، وبقدر ما تتحامل على نفـسها؟ إذاً، لنـدع الفلـسفة جانبـاً لأنهـا مغامرة من صنف آخر.

---

(1) أرسطوطاليس: ما بعد الطبيعة، 893 ـ a ـ 10. ـ المؤلف

لكن العلوم التجريبية، هي، نعم تحتاج إلى الجمهور، كما يحتاج الجمهور إليها، خشية أن ينهار؛ لأن كوكباً من غير فيزيائيين كيميائيين لا يمكنه أن يؤود هذا العدد من البشر الموجودين اليوم.

فأية استنتاجات فكرية يمكن أن تبلغ ما لا تبلغه السيّارة التي يغدو بها هؤلاء البشر ويروحون، أو ما لا تبلغه حقنة من "البانتوبان" تقضي بأعجوبة كالبرق على آلامهم؟ إن الخلل في التناسب بين الفائدة الدائمة والواضحة التي يوفّرها العلم لهم، وبين اهتمامهم به كبير حتى لا توجد طريقة اليوم ليخدع المرء نفسه بآمال كاذبة، وينتظرَ غير البربرية ممن يسلك هذا السلوك، خاصة إذا كان التهاون بشأن العلم بادياً كما لدى جمهور التقنيين أنفسهم، ربما بوضوح أكبر ممّا نجده في أيّ جانب آخر سواء أكان هذا الجمهور أطبّاء ومهندسين.. الخ، يمارسون في العادة مهنتهم بحالة روحيّة مطابقة في الجوهر لحالة من يكتفي باستخدام السيارة أو شراء أنبوبة من الأسبرين من غير أدنى تضامن مع مصير العلم والحضارة.

ربما وُجد من يحس في نفسه بذعر أكبر بسبب أعراض أخرى من البربرية الطالعة التي تبرز بوضوح وتتجسّد في مشهد ذي طبيعة إيجابية ومن عمل، وليس إهمالاً. وأنا أرى أن أكثر ما يثير الذعر [1] هو التفاوت في التناسب بين الفائدة التي يجنيها الرجل العادي من العلم، والعرفان بالجميل الذي يوليه هذا العلم، وهو لا يوليه شيئاً. وإني قد لا أوَفّق في فهم غياب الإقرار بالجميل إلا إذا تذكرت أنّ زنوجاً في وسط أفريقية يركبون السيارة ويستعملون الأسبيرين. وقد يكون الأوروبي الذي بدأ ببسط هيمنته ـ وهذي هي فرضيتي ـ رجلاً بدائياً قياساً بالحضارة المعقّدة التي نشأ فيها؛ هو بربري انبثق من باب سحري، هو "غازٍ عمودياً".

* * *

(1) إن ما يضاعف فظاعة الواقعة مائة مرة، هو ـ كما بيّنت ـ أن المبادئ الحيوية الأخرى كلها في السياسة والقانون والفن والأخلاق والدين، تجد نفسها فعلاً وفي ذاتها في أزمة، وفي خلل مؤقت على الأقل. العلم وحده ليس فيه خلل، وإنّما هو كل يوم ينجز كلّ ما يعد به وأكثر مما يعد به على شكل متزايد. إذاً، ليس له منافس، ولا يسعنا تبرئة الاستهانة به على فرض أن الإنسان العادي يشرد بانتباهه إلى جانب آخر من الحماس للثقافة. ـ المؤلف.

# X

## بدائية وتاريخ

إن الطبيعة حاضرة دائماً. وإنها تؤود نفسها بنفسها. ونستطيع أن نكون فيها، أن نكون في الغابة متوحّشين من غير عقاب. حتى نستطيع ألا نتخلّى عن أن نكون كذلك أبداً من غير خطر قدوم كائنات أخرى ليست متوحّشة. لكن، قد توجد مبدئيّاً شعوب في حالة بدائية دائمة. ويوجد منها. ولقد سمّاها بريسيغ Breusig "الشعوب ذات الفجر الدائم". إنها تلك التي ظلّت في فجر موقوف، متجمّد لا يتقدّم صوب أيّ نهار كان.

هذا يحدث في عالم هو طبيعة لا غير. لكنه لا يحدث في عالم هو حضارة كعالمنا. الحضارة لا تقوم بذاتها، وهي لا تؤود نفسها بنفسها؛ وهي صنعية وتحتاج إلى فنّان، أو إلى حرفيّ. وإذا أردت أن تتمتّع بمزايا الحضارة، لكن من غير اهتمام بدعم الحضارة... فذلك أنت مصاب بالملل، وتظلّ يا سيدي من غير حضارة بنسبة اثنين إلى ثلاثة. حتى إذا غفلت ونظرت إلى ما حولك، رأيت كلّ شيء قد تبخّر! وتطلّ الغابة البدائية مرّة أخرى وقد عادت إلى نشأتها الأولى وكأنّما طويت بعض السجادات كانت تحجب الطبيعة البحتة. والغابة بدائية. والعكس بالعكس. إذْ كلّ ما هو بدائي غابة.

وكانت تصيب الرومانسيّين في كل العصور بالغمّ هذه المشاهدُ من العنف حيث كان الطبيعي وما دون البشري يسحق مرّة أخرى شحوب المرأة البشري، فكانوا يرسمون التمّ المرتعش فوق ليدا Leda [1]، والثور مع باسيفيه، وآنتيوبه تحت التيس. ووجدوا بعامة مشهداً مخزياً بشكل أنعم من ذلك في طبيعة من الخرائب حيث الحجر الحضري الهندسي يختنق تحت وطأة النبات البرّيّ. وإذا ما لمح رومانتيكي حقّ مبنى فإنه يبحث ببصره أول ما يبحث عن "الكُركم الأصفر" على طنف الواجهة أو على السطح، ويعلن أن كل شيء في النهاية تراب وأن الغابة تطلع حيثما كان.

---

(1) زوجة تياندر. أحبها جوبيتر الذي اتخذ شكل تمّ كيما يغويها. ـ المترجم.

وقد تكون حماقةً السخرية من رومانتيكي. لأنّ الرومانتيكي على حقّ أيضاً. فتحت هذه الصور المقلوبة ببراءة تخفق مشكلة ضخمة دائمةً: مشكلة العلاقة ما بين الحضارة وما خلّفته وراءها، أي الطبيعة، ما بين العقلي والكونيّ. وأنا أطلب الإذن في أن أهتمّ بالمشكلة في مناسبة أخرى وكيما أصبح رومانتيكيّاً في الوقت الموائم.

لكني أجدني اليوم في مهمّة معاكسة. لأننا بصدد كبح الغابة الغازية. وعلى "الأوروبي الحقّ" أن ينكبّ الآن على ما يشكّل كما هو معروف، همّاً خطيراً لأستراليا: وهو منع الصبّار من كسب الأرض وإلقاء البشر في البحر. فقد انتاب الحنين مهاجراً من جنوبي أوروبا إلى بلده (أهي مالقا، أم صقلية؟)، بعد أن بلغ الأربعين ونيّف، فجلب إلى أستراليا أصيصاً فيه نبتة صبّار لا قيمة لها. واليوم تُثقَل موازناتُ أوقيانوسيا بحملات مُكلفة مكرّسة للحرب على الصبّار الذي غزا القارّة ويكسب كلّ عام قطاعاً يزيد على كيلومتر.

ويحسب الإنسان الجمهور أنّ الحضارة التي نشأ فيها ويفيد منها مجانية وبدائية كالطبيعة ذاتها، فيصير والحالة كذلك ipso facto، إلى إنسان بدائي. والحضارة تعجبها الغابة، ولقد سبق لي أن قلت ذلك؛ لكن يجب علينا الآن أن نضيف بعض التحديد.

فلا وجود في نظر الإنسان العادي الحالي للمبادئ التي يستند إليها العالم المتحضّر، العالم الذي لا بدّ له من أن يُدعم. ولا تهمّه القيم الأساسية في الثقافة، ولا يتضامن معها، وهو على غير استعداد ليضع نفسه في خدمتها. وكيف حدث ذلك؟ لأسباب كثيرة. لكني سأبيّن الآن واحداً منها.

فكلّما تقدّمت الحضارة ازدادت تعقيداً وصعوبة. والمشاكل التي تطرحها اليوم شديدة التشابك. وكلّ مرّة يقلّ عدد الأشخاص الذين عقولهم على مستوى هذه المشاكل. وتقدّم لنا فترة ما بعد الحرب مثالاً ساطعاً على ذلك. وإن إعادة بناء أوروبا ـ كما أخذنا نرى ـ مسألة معقّدة جداً، ويبدو الأوروبي السوقة أدنى من مهمة دقيقة كهذه. وليس ذلك لنقص في الموارد من أجل الحلّ، وإنّما لنقص في الرؤوس. وعلى شكل أدقّ: توجد بعض الرؤوس؛ رؤوس قليلة جدّاً، لكنّ جسد أوروبا السوقة المركزي لا يريد أن يضعها فوق الأكتاف.

وإن هذا الخلل في التوازن بين دقّة المشاكل المعقّدة ودقّة الأذهان، يتّسع كل يوم إذا لم يوضع له علاج، ويشكّل أهم مآسي الحضارة. وكلّما كانت المبادئ التي تكوّنها خصبة وجديدة، زاد محصولها كمّاً ودقّة حتى تفيض عن قدرة الإنسان العادي على الاستيعاب. ولا أحسب أن ذلك وقع قطّ في الماضي. فقد قُضي على الحضارات كلها لعدم كفاية المبادئ. أمّا الحضارة الأوروبيّة فهي مهدّدة بالانهيار لأسباب معاكسة. فلم يُخفق الإنسان في اليونان وروما، وإنّما أخفقت مبادؤه. ولقد انتهت الإمبراطوريّة الرومانيّة لنقص في التقنية. فلمّا بلغ العالم القديم درجة كبيرة في عدد السكان وتطلّب ذلك التعايش العريض حلّ بعض المشاكل المادية الملحّة لم تكن توفّرها التقنية وحدها، أخذ ذلك العالم بالتدهور والتراجع واستهلاك نفسه.

لكنّ الإنسان اليوم هو المخفق لعدم استطاعته مسايرة تطوّر حضارته ذاتها. ويبعث على الرعب سماع أشخاص أرفع ثقافة نسبيّاً يتكلّمون عن مواضيع راهنة أوّلية جداً. إذْ يبدون فلاحين جفاة يريدون أن يلتقطوا بأصابعهم الثخينة إبرة فوق سطح منضدة. فهم يعالجون المواضيع السياسية والاجتماعية مثلاً، بأداة تصوّرات قاصرة استُعملت منذ مائتي عام لمواجهة مواقف هي في الواقع مئتي مرة أقل دقّة.

وإن حضارة متقدّمة هي والمشاكل العويصة المرافقة سواء. لذلك، كلّما كان التقدّم كبيراً زاد الخطر عليها. ولئن تكن الحياة في تحسّن مستمر، لكنها تزداد تعقيداً. بالطبع، إذا تعقّدت المشاكل صارت الوسائل كلّها متقنة أيضاً. لكن، يجب على كل جيل أن يصبح سيّد هذه الوسائل المذكورة. ويوجد بين هذه الوسائل إذا شئنا التحديد قليلاً، وسيلة معروفة وملازمة لتقدّم الحضارة، ألا وهي امتلاك ماضٍ طويل وتجربة كبيرة؛ باختصار: امتلاك تاريخ. فمعرفة التاريخ تقنية من الطراز الأوّل للحفاظ على حضارة ناضجة والاستمرار فيها. لا لأنه يقدّم حلولاً إيجابية لمضمون النزاعات الحيويّة، الجديد، - والحياة تختلف دائماً عمّا كان -، وإنّما لأنه يتحاشى أن يرتكب أخطاء عصور أُخَر متأصّلة. لكنك، لو فقدت ذاكرتك إلى كونك أصبحت عجوزاً، بالتالي أخذت حياتك

تصبح صعبة، فلن تفيد من تجربتك. حينئذ يمسي كلّ شيء خسارة وضرراً. وأنا أحسب أن هذا هو وضع أوروبا. فالناس الأرفع "ثقافة" يعانون جهلاً تاريخيّاً لا يُصدّق. وأؤكّد أن معرفة القائد الأوروبي اليوم بالتاريخ أقلّ كثيراً من معرفة إنسان القرن 18، وحتى معرفة ابن القرن 17. وتلك المعرفة التاريخية التي حظيت بها الأقليّات الحاكمة ـ حاكمة بمعنى واسع Sensu lato ـ جعلت ممكناً تقدّم القرن 19 العجيب، وسياسته التي غذاها القرن 18 تحديداً، لتجنّب أخطاء السياسات القديمة كلها، مُتصوَّرة انطلاقاً من هذه الأخطاء، وتختصر في جوهرها أطول التجارب. لكنّ القرن 19 بدأ يفقد "الثقافة التاريخية" على الرغم من أن الاختصاصيّين خلاله جعلوه يتقدّم علميّاً كثيراً جداً [1]. وإلى هذا الإهمال، تعود في جانب كبير منها أخطاؤه الخاصّة التي تُثقل علينا اليوم. وقد بدأ في الثلث الأخير منه ـ وإن على شكل خفيّ ـ التدهور والتقهقر إلى البربريّة؛ أي إلى سذاجة من ليس له ماض وبدائيّته، أو من ينسى ماضيه.

لذلك كانت البلشفية والفاشية المحاولتين "الجديدتين" في السياسة، اللتين أخذتا تصبحان في أوروبا وما يجاورها نموذجين واضحين لتقهقر جوهري. وذلك ليس بسبب مضمون مذهبيهما الذي يمتلك، لو أُخذ معزولاً، حقيقة جزئية بالطبع ـ ومن في العالم لا يمتلك جُزيئاً من الصواب؟ - وإنما بسبب الطريقة المنافية للتاريخ والمفوّتة التي يعالجان بها نصيبهما من الصواب. إنهما حركتان نموذجيّتان من البشر ـ الجماهير التي يقودها كما يقود الحركات المماثلة كلها، ناس عاديون، هم خارج العصر ومن غير ذاكرة طويلة ومن غير "وعي تاريخي"، ويتصرّفون انطلاقاً من مبدأ وكأنهم صاروا ماضياً، كأنهم ينتمون وقد حطّوا هذه الساعة إلى قطيع الماضي السحيق.

وليست المسألة في أن يكون أو لا يكون المرء شيوعياً أو بلشفياً. فأنا لا أناقش عقد الإيمان. أمّا ما هو بعيد عن التصوّر ومتهافت أن يندفع شيوعي في عام 1917 لصنع ثورةٍ هي في شكلها طبق الثورات التي وُجدت من قبل كلها،

---

(1) لأننا نلمح هنا الفرق ما بين حالة العلوم في عصر، وحالة ثقافية سنهتم بها فوراً. ـ المؤلف.

ولا تصحّح فيها أدنى العيوب والأخطاء في الثورات القديمة. لذلك ليس هامّاً تاريخيّاً ما يجري في روسيا؛ بل هو نقيض بداية حياة إنسانية. إنها على العكس، تكرار رتيب للثورة في كل وقت. إنها تمام الفكر الثوري المطروق، حتى لا توجد جملة واحدة وسط جمل كثيرة أطلقتها التجربة البشرية القديمة على الثورات، إلا وتجد لها تأكيداً مؤسفاً إذا أُطلقت على هذه الثورة. "الثورة تأكل أبناءها!" "الثورة تبدأ بحزب معتدل، ثم تنتقل فوراً إلى أيدي المتطرّفين. وتبدأ سريعاً جداً بالتراجع نحو الوضع السابق restauración "، الخ.. الخ.. ويمكن أن نضيف إلى هذه الأقوال المطروقة المحترمة بعض الحقائق الأخرى الأقل بروزاً، لكنها ليست أقلّ احتمالاً، وبينها هذه الحقيقة: إن ثورة لا تدوم أطول من خمسة عشر سنة، فترة تطابق فعالية جيل واحد [1].

من يتطلّع حقاً إلى خلق واقع جديد اجتماعي أو سياسي هو بحاجة للاهتمام قبل كلّ شيء إلى أن يشلّ الموقف الذي تثيره أفكار التجربة التاريخية المطروقة وشديدة التواضع. من جهتي، سأحتفظ بنعت العبقري من أجل السياسي الذي ما إن يبدأ بالعمل، حتى يصاب بالجنون أساتذة التاريخ في المعاهد، نظراً إلى أن "قوانين" علمهم كلها تبدو متهافتة وممزّقة وهباء.

وإذا قلبنا الآية التي تخصّ البلشفية، فإننا نستطيع قول أشياء مماثلة عن الفاشية. فلا التجربة الأولى ولا الأخرى كلتاهما على "مستوى العصور"، ولا تحمل في داخلها الماضي كلّه مختصراً، وذلك شرط لا غنى عنه لتجاوزه. ولا يُصارع الماضي جسماً لجسم، وإنّما يغلبه المستقبل لأنّه يبتلعه، ويضيع كما يضيع أثرُ مذاق منه.

(1) إن جيلاً يكون فعّالاً حوالي ثلاثين عاماً. لكنّ هذه الفعاليّة تنقسم إلى مرحلتين وتأخذ شكلين: إذْ يقوم الجيل الجديد خلال النصف الأول من هذه المدّة تقريباً، بالدعاية لأفكاره وأولويّاته وأذواقه التي تكتسب نفوذاً في النهاية، وهي التي تهيمن على النصف الثاني من مهمّته. لكنّ الجيل المثقّف يجلب إلى هيمنته أفكاراً وأولويّات وأذواقاً أُخرَ، وبذلك تكون ثورية في الجوّ العام. فإذا كانت أفكار الجيل المهيمن وأولويّاته وأذواقه متطرّفة، وبذلك تكون ثورية، فإن الجيل الجديد يكون مناهضاً للتطرّف وللثورة، أي يكون ذا روح إحيائية جوهرياً. ولا ينبغي لنا بالنتيجة أن نفهم من "إحياء" عودة بسيطة إلى القديم، شيء لم يكنه أي إحياء. المؤلف.

وهذه وتلك ـ البلشفية والفاشية ـ كلاهما فجر كاذب؛ ولا تجلبان الصباح لغد، وإنما صباح يوم متقادم استُهلك مرّة أو مرّات كثيرة. إنهما البدائية. وهذا هو حال الحركات التي تسقط مرّة بعد أخرى في بساطة مصارعةِ هذا الجانب أو ذاك من الماضي بدلاً من العمل على هضمه.

لا شك في ضرورة تجاوز ليبرالية القرن 19. لكنْ، هذا بالضبط ما لا يمكن أن يصنعه من يعلن نفسه معادياً لليبرالية، كالفاشية. لأنّ هذا، أي معاداة الليبرالية، أو اللاليبرالية، ما كان يصنعه الإنسان السابق على الليبرالية. وإذا كانت هذه (الليبرالية) قد انتصرت من قبل على عدوّها ذات مرّة، فسوف تكرّر انتصارها مرات لا تحصى، وإمّا لا، فسوف ينتهي كل شيء، - الليبرالية ومضاد الليبرالية ـ إلى تدمير أوروبا. هناك تسلسل زمني حيوي لا محيد عنه، والليبرالية فيه تلي مضادّ الليبرالية، أو ببقول مماثل: إنها أقوى على الحياة من هذه الأخيرة، كما أن المدفع سلاح أقوى من الرمح.

وإن موقفاً مضاداً لشيء يبدو للنظرة الأولى لاحقاً لذلك الشيء، لأنّه يعني ردّة فعل عليه، ويستلزم ضمناً وجوده السابق. لكن التجديد الذي يمثّله الـ(المضادّ) anti يتلاشى في هيئة نفي فارغة، ولا يبقى من مضمونه التقريري سوى "تحفة أثرية". فمن يعلن نفسه أنه مضادّ لبطرس لا يصنع شيئاً إذا حوّلنا موقفه إلى لغة إثبات، سوى أن إعلانه عن نفسه منحازاً إلى عالم لا وجود لبطرس فيه. لكنّ هذا ما يحدث بالضبط للعالَم لمّا لم يكن بطرس مولوداً بعدُ، ومضادّ بطرس يضع نفسه قبل بطرس عوضاً عن أن يضعه بعده، ويعيد الفيلم كلّه إلى الوضع السابق الذي لا محيد من أن يظهر في نهايته بطرس مرّة أخرى. لكن، يحدث لكلّ هؤلاء الأضداد anti ما حدث، حَسَب الأسطورة، لكونفوشيوس الذي وُلد بالطبع بعد والده؛ لكنّه وُلد، ويا للعجب!، وله من العمر ثمانون عاماً بينما والده لم يكن تجاوز الثلاثين. فكل مضادّ anti ما هو غير نفي No ساذج وفارغ.

وقد يكون كلّ شيء سهلاً إذا استطعنا بالنفي (No) المحض أن نُغني الماضي. لكنّ الماضي في ماهيّته روح راجعة revenant. فإذا نُبذ يعود بشكل لا

مفرّ منه. لذلك كان تجاوزه الحقيقي الوحيدُ عدمَ نبذه. وإنما يكون بالتعويل عليه والتصرّف انطلاقاً منه كيما نتخطّاه ونتحاشاه، باختصار: "العيش بمستوى العصور" بوعي مفرطٍ بالوضع التاريخي.

إن للماضي حقاً، حقَّه. وإذا لم يُعط ما له فسوف يعود للمطالبة به، ويفرض بالمناسبة ما ليس له. ولليبرالية حقّ أيضاً، ولا مناص من أن تُعطى حقّها مدى الدهر. لكن، ليس لها كلّ الحقّ، وما ليس لها يجب أن يُنزع منها. وأوروبا بحاجة إلى الحفاظ على ليبراليّتها الأساسيّة. وهذا هو شرط تجاوزها، تجاوز الليبرالية.

وإذا كنت تحدّثت هنا عن الفاشية والبولشفية فلم يكن ذلك إلا بشكل ملتوٍ، مركّزاً فقط على ملمحيهما المتهافتين: وهذا في رأيي لا ينفصل عن كلّ ما يبدو اليوم انتصاراً. لأن الإنسان الجمهور هو المنتصر اليوم، وبالتالي، يمكن لبعض محاولات قامتا بها مشبعة بأسلوبه البدائي أن تحتفل بانتصار ظاهري. لكني، خلاف ذلك لا أناقش الآن حقيقة هذه أو تلك، كما أني لا أزعم حلّ الإشكال الدائم القائم ما بين الثورة والتطوّر. وإن أقصى ما يطمح إليه هذا البحث أن تكون الثورة والتطوّر تاريخيّين وليسا مفوّتين متهافتين.

وإن الموضوع الذي أتابعه في هذه الصفحات حياديّ سياسيّاً، لأنه يتنفّس في طبقة أعمق كثيراً من السياسة وأبعادها. فالمحافظ ليس إنساناً ـ جمهوراً أكثر أو أقلّ من الراديكالي. وهذا الفرق الذي كان سطحيّاً دائماً في كل عصر لا يمنع ولو من بعيد أن يكون كلاهما رجلاً واحداً سوقة ومتمرّداً.

ولا شفاء لأوروبا إذا لم يكن مصيرها موضوعاً في أيدي أناس "معاصرين" حقاً، يشعرون بمكنون التاريخ كلّه يخفق تحتهم، ويعرفون مستوى الحياة الحاضرة، وينبذون كل علامة متهافتة وبدائية. إننا بحاجة إلى التاريخ كاملاً لنرى إن كنا نستطيع الفرار منه وألا نقع فيه مرّة أخرى.

* * *

## XI

# عصر "السيّد الصغير الراضي عن نفسه"

الخلاصة، إنّ الواقعة الاجتماعية الجديدة التي نحلّلها هنا هي هذه: يبدو التاريخ الأوروبي قد أُخضع لأول مرّة لقرار الإنسان السوْقة بصفته تلك. أو إذا قلنا بصيغة المعلوم: لقد صمّم الإنسان السوقة المقودُ من قبل، على أن يحكم العالم. وقد حدث لديه هذا التصميم على التقدّم إلى الصف الاجتماعي الأوّل، آليّاً ما إن بلغ النضجَ نمطُ الإنسان الجديد الذي يمثّله. وإذا درسنا بُنية هذا النموذج الجديد من الإنسان الجمهور مقتصرين على مظاهر الحياة العامّة، نجد أولاً، شعوراً فطريّاً ومتجذّراً أنّ الحياة سهلة وفيها وفرة، ومن غير حدود مأساوية، وبالتالي يجد كلّ فرد عادي في نفسه إحساساً بالهيمنة والانتصار، يدعوه (ثانياً) إلى تأكيد ذاته في هذا الوضع، وإلى اعتبار ذخيرته الخلقية والفكرية جيّدة وكاملة. وهذا الرضا عن الذات يحمله على الانغلاق عن كل سلطة عليا، ولا يسمع لها ولا يحترم آراءها ولا يعتدّ بالآخرين، وإن إحساسه بالسيطرة يدفعه باستمرار لممارسة مزيد من السيطرة. ويعمل إذاً، وكأنه هو ونظائره وحدهم موجودون في الدنيا فقط؛ وهو بالتالي، يتدخّل (ثالثاً) في كل شيء فارضاً رأيه المبتذل من غير اعتبار ولا تأمّل ولا مساعٍ ولا تحفّظات، أي حَسَب نظام "العمل المباشر".

وتجعلنا جملة الملامح هذه نفكّر في بعض النماذج القاصرة من الوجود البشري، "كالطفل المدلّل" والبدائي المتمرّد؛ أي البربري. (البدائي العادي هو على النقيض، أطوع إنسان وُجد قطّ للسلطات العليا، كالدين والتابوات، والتراث الاجتماعي والعادات). ولا ضرورة للعجب من أني أُراكم مثالب هذا الشكل من الكائن البشري. وليس البحث الحاضر سوى أوّل بحث في الهجوم على الإنسان المنتصر، والإعلان عن أن بعض الأوروبيين سوف يثورون بقوّة على تطلّعه للطغيان. والمقصود في الوقت الحاضر بحث هجومي لا غير. لأن

الهجوم في العمق سيأتي لاحقاً، وربّما جاء سريعاً جدّاً على شكل مختلف عن الهجوم الموكل به هذا البحث. ولا بدّ للهجوم بالعمق من أن يجيء بشكل لا يستطيع فيه الإنسان الجمهور أن يتحوّط لنفسه منه، بل يراه ماثلاً أمامه ولا يشك في أنه هو ذلك الهجوم حقاً، الهجوم بالعمق.

هذا الشخص الذي يسير في كل الأنحاء وحيثما كان فارضاً بربريّته العميقة، هو في الواقع طفل التاريخ البشري المدلّل. والطفل المدلّل هو الوارث الذي يتصرّف تصرّفاً مطلقاً بميراثه. والإرث اليوم هو الحضارة، أي وسائل الراحة والأمن؛ ومنافع الحضارة، باختصار.

ولا يمكن لإنسان مكوّن من تلك المجموعة من الملامح، والمطبوع بذلك الطابع أن يطلع ـ كما نعلم ـ إلاّ وسْط البحبوحة الحيويّة التي صنعتها هذه الحضارة في العالم. ذلك أحد التشوّهات الكثيرة التي يُحدثها الترف في المادّة البشرية. نحن نميل على شكل خادع إلى الإيمان أن حياةً نشأت في عالم مُتخم قد تكون أفضل، وأكثر حيوية ومن نوعية أعلى من الحياة القائمة بالضرورة على الصراع وسط النُدْرة. لكن، لا وجود لمثل هذه الحياة لأسباب صارمة جدّاً وهامّة للغاية لا مجال الآن لذكرها. ويكفينا الآن عوضاً عن هذه الأسباب، أن نتذكّر الواقعة المكرورة دائماً التي تشكّل مأساة الأرستقراطية الوراثية كلها. فالأرستقراطي يرِث، أي يجد شروط حياة مضافةً إلى شخصه لم يخلقها، بالتالي لا تنشأ متّحدة عضويّاً بحياته الشخصية والخاصة. ويجد نفسه عند ولادته يستقرّ فجأة ومن غير أن يعلم كيف، وسط ثروته وامتيازاته. ولا علاقة حميمة له بها، لأنّها لا تصدر عنه. وإنّما هي دِرع ضخم كان يدّرع به شخص آخر، كائن حيّ آخر، هو أحد أجداده. وينبغي له أن يعيش عيشةَ وارث، أي ينبغي له أن يستعمل درع حياة أخرى. علامَ حصلنا؟ وما الحياة التي سيعيشها "الأرستقراطي" بالوراثة، أهي حياته أم حياة النبيل الأول؟ لن يعيش هذه الحياة ولا تلك؛ بل محكوم عليه أن يمثّل الآخر، بالتالي ألاّ يكون الآخر، ولا أن يكون هو نفسه. ولا مناص من أن تفقد حياته صدقها وتتحوّل إلى تمثيل محض أو خيال حياة أخرى. وإن وفرة الوسائل التي هو مرغم على استعمالها لا تتيح له أن يعيش

مصيره الخاص والشخصي، إنه يضخّم حياته. وكلّ حياة هي كفاح وجهد كيما يكون المرء هو ذاته. والصعوبات التي تصطدمني لتحقيق حياتي هي بالضبط ما يوقظ أنشطتي وقدراتي ويحرّكها. فإذا لم يكن لجسمي ثُقالة فقد لا أستطيع السير. وإذا لم يضغط الجوّ المحيط عليّ فسوف أحسَ بجسمي شيئاً غامضاً هفّاً وشبحيّاً. وهكذا يصبح شخص "الأرستقراطي" بالوراثة كله مُلتبساً لنقصٍ في الاستعمال وغياب القوّة الحيويّة. والنتيجة هي هذا الغباء النوعيّ لدى النبالة القديمة التي لا تشبه شيئاً، والتي لم يصفها أحد حتى الآن في الواقع، في آليّتها الداخليّة والمأساوية ـ الآلية الداخلية المأساوية التي تقود الأرستقراطية الوراثية كلها إلى تدهورها المحتوم.

أحسب ذلك كلّه يتّجه إلى مناهضة ميلنا الفطري إلى الاعتقاد بأنّ التخمة في الوسائل هو في صالح الحياة. بل الأمر كله نقيض هذا الميل. لأنّ عالماً مُتخماً [1] بالإمكانات يُنتج على شكل آليّ تشوّهات وعيوباً خطيرة ونماذج من الوجود البشري التي يمكن جمعها تحت التصنيف العام "الإنسان ـ الوارث" الذي لا يشكّل الأرستقراطي سوى حالة خاصّة منه، وكذلك الطفل المدلّل والإنسانُ الجمهور في زماننا بمعنى أوسع وأرسخ. (من جهة أخرى، يمكننا الإفادة بشكل مفصّل من الإشارة السابقة إلى "الأرستقراطي" مبيّنين كيف أن كثيراً من العلامات المميّزة لهذا توجد لدى كل الشعوب في كل العصور، وعلى شكل أوّلي في الإنسان ـ الجمهور. والمثال على ذلك ميله إلى جعل الألعاب والرياضة همّه المركزيّ في الحياة؛ ورعاية جسمه ـ النظام الصحي ـ، والاهتمام بجمال الملبس، وغياب الرومانسيّة في علاقته بالمرأة؛ واستمتاعه بالمفكّر، لكنه لا

(1) لا نخلط ما بين الزيادة والوفرة في الوسائل، والتخمة (زيادة عن الحاجة). فقد زادت في القرن 19 سهولة الحياة، وهذا ما أحدث نمواً عجيباً ـ كمّاً وكيفاً فيما كنتُ ذكرته من قبل. لكن جاء وقت اكتسب فيه العالم المتحضّر المقيّد بقدرة الإنسان العادي، مظهراً مُتخماً ومفرطاً في ثرائه وسطحيّاً. وهاكم مثالاً واحداً على ذلك: إن الأمن الذي يوفّره التقدّم في الظاهر (زيادة مستمرّة في المنافع الحيوية) أفقد الإنسان العادي أخلاقه وأوحى إليه بثقة زائفة ومضخّمة وفاسدة، في الواقع. ـ المؤلف.

يحترمه في الحقيقة ويأمر خدمه أو الشرطة بجلده؛ ويؤثر الحياة في ظلّ سلطة مطلقة على نظام يقوم على الحوار[1]. الخ. الخ.)

ألحّ إذاً بقلق شرعي على أن أبيّن أن هذا الرجل المفعم بميولٍ غير حضارية، أن هذا البربريّ الجديد غاية الجدّة هو ثمرة آلية للحضارة المعاصرة، خاصةً ثمرة هذا الشكل من الحضارة التي تبنّاها القرن 19. فهو لم يأتِ من خارج العالم المتحضّر كما أتى "البرابرة البيض الكبار" في القرن الخامس؛ وهو لم يولد داخل نفسه بتخلّق ذاتي وغامض كما الشروغ في البركة، حسب أرسطو، وإنّما هو ثمرة طبيعية. ويمكننا أن نصوغ هذا القانون الذي يؤكّده علم التاريخ القديم والجغرافيا الحيويّة: لقد انبثقت الحياة البشرية وتطوّرت فقط لمّا كانت الوسائل التي تعتمد عليها متوازنة مع المشاكل التي ترافقها. ويصحّ هذا في المجال الروحي كما في المجال الفيزيقي. لذلك أذكر، في إشارة إلى بُعْدٍ معيّن جداً في الحياة الفيزيقية، أن النوع البشري نشأ في مناطق من كوكبنا حيثُ الفصل الحارّ يوازنه فصل باردٌ جداً. فالإنسان ـ الحيوان يتدهور في المناطق المدارية والعكس صحيح، فقد دفعتِ العروقَ الدنيا ـ كالأقزام مثلاً ـ صوب المناطق المدارية عروقٌ نشأت بعدها وتفوّقت عليها في سلّم التطوّر [2].

لكن حضارة القرن 19 هي ذات طبيعة سمحت للإنسان العادي أن يستقر في عالم متخم يتلقّى منه وفرة مفرطة في الوسائل، لكن من غير القلق. إنه يجد نفسه

---

(1) في هذا الأمر كما في أمور أخرى، تبدو الأرستقراطيّة الإنكليزية استثناء مما قيل. لكن، لئن تكن حالتها معجبة للغاية، يكفينا أن نرسم خطوط التاريخ البريطاني العامّة لنبيّنَ أنّ هذا الاستثناء على كونه كذلك، يؤكّد القاعدة. وقد كانت النبالة الإنكليزية أقلَّ نبالةٍ في أوروبا تخمةً، خلافاً لما يُقال عادة؛ وعاشت في خطر دائم أكثر مما عاشته أية أرستقراطية أخرى. وقد عرفت واستطاعت أن تفرض احترامها لأنها عاشت دائماً في خطر. وهذا يُلزمها ضمناً أن تظلّ في كفاح مستمرّ. وينسى الناس واقعة أساسية هي أن إنكلترا كانت حتى تاريخ متقدّم جداً من القرن 18 أفقر بلد في الغرب. ولقد أُنقذت النبالة فيها لهذا السبب عينه. أمَا وإنها لم تكن مُتخمة بالوسائل، فقد اضُطرت إلى القبول بالعمل التجاري والصناعي غير النبيل في القارة. أي، أنها عزمت باكراً جداً على أن تعيش اقتصادياً على شكل خلاّق وألا تقتصر على الامتيازات. ـ المؤلف.

(2) انظر البريشت ـ المناخ. ـ المؤلف.

محاطاً بالأدوات العجيبة والأدوية النافعة وبدولة راعية، وحقوق مريحة؛ ويجهل في المقابل، الصعوبة في اختراع هذه الأدوية والأدوات، وضمان إنتاجها في المستقبل؛ ولا يلمح التقلقل في تنظيم الدولة ولا يكاد يحسّ في داخله بالواجبات. إن هذا الخلل في التوازن يجعله زائفاً، ويفرغه من جذره ككائن حيّ، ويفقده احتكاكه بجوّ هذه الحياة ذاته، الذي هو خطر مطلق وإشكال جذري. وإن أشدّ أشكال الحياة البشرية تناقضاً في هذه الحياة قد يكون "السيد الصغير الراضي عن نفسه". لذلك، إذا أصبح هذا السيّدُ صورةً للقوّة المفرطة، فالضرورة تقضي أن نطلق صيحة الإنذار، والإعلان عن أن الحياة باتت مهدَّدة بموت نسبي. فمستوى الحياة الذي تمثّله أوروبا اليوم هو ـ حسب رأينا ـ أعلى من كل مستويات ماضي البشرية. لكنّي إذا نظرت إلى المستقبل يساورني الخوف ألا تستطيع الحفاظ على مستواها، وألاّ تنتج مستوى آخر أعلى، وإنّما على العكس أخشى أن تتقهقر وتسقط حتّى مستويات متدنيّة.

وأحسب أنّ هذا يجعلنا نرى بوضوح كافٍ النشاز الكبير الذي يمثّله "السيد الصغير الراضي". ذلك لأنّه إنسان جاء الدنيا ليصنع ما يطيب له. ويصبح هذا الوهم في الواقع "ابن العائلة". ونحن نعرف السبب: في المحيط العائلي قد تظلّ الأخطاء، حتى الأخطاء الكبيرة من غير عقاب في النهاية. لأن الجوّ العائلي صنعي نسبيّاً، ويسمح في داخله بأفعال كثيرة تجلب بصورة آلية على فاعلها في إطار المجتمع وجوّ الشارع نتائج مدمّرة. لكن "السيّد الصغير" هو من يؤمن بقدرته على أن يسلك خارج البيت السلوك عينَه داخل البيت، وهو من يؤمن أنْ لا شيء مُهلك، ومستعصٍ ولا يُنقض. لذلك يؤمن أنه يستطيع أن يصنع ما يحلو له [1].

---

(1) إن قضيّة البيت في مواجهة المجتمع تصبح أكبر من قضية الأمة مقابل مجموع الأمم. فأحدُ أوضح وأضخم تجلّيات "السيادة الصغيرة" النافذة اليوم في آن واحد، هو ـ كما سنرى ـ القرار الذي تتخذّه بعض الأمم في أن تصنع ما يحلو لها في مجال التعايش الدولي. وهذا ما يُسمى بسذاجة "قومية". وأنا وإن كنت أنبذ التعويل الساذج على التدويل، أجد من جهة أخرى، فظّةً هذه "السيادة الصغيرة" الانتقالية لدى الأمم الأقلّ نضجاً أو نبلاً. ـ المؤلف.

إنـه ضـلال كـبير! Vosa mercé irá onde o levem. "سـتذهب حـضرتك إلى حيـث يذهبون بك "، كما يقال للببغاء في قصة البرتغالي.

وليس الأمر في واجب المرء ألا يصنع ما يحلو له؛ وإنما هو ألا يستطيع صنع غير ما ينبغي لكلّ امرئ أن يـصنع، ومـا ينبغـي لـه أن يكـون. والأمـر الوحيد الممكن أن نمتنع عن صنع ما ينبغي لنا أن نصنع. لكنّ ذلك لا يعطينا الإذن في أن نصنع شيئاً غير ما يحلو لنا أن نصنع. ولا نملك في هـذه النقطـة غير حريّة سلبية في الاختيار - عدم الإرادة Noluntad. ونحن نستطيع أن نفـرّ فراراً تامّاً من مصيرنا الأصدق، لكن، كيما نسقط أسرى في طبقات مـصيرنا الدنيا. وأنا لا أستطيع أن أوضّح لكلّ قارئ ما في مصيره الفردي للغايـة مـن ذلك، لأني لا أعرف كل قارئ؛ لكني، نعم، أستطيع أن أجعله يرى أجزاء، أو وجوهاً من مصيره مطابقة لما في مصائر الآخـرين. فكـل أوروبي معاصـر مثلاً، يعلم بيقين هو أقوى كثيراً من يقين "أفكاره" و "آرائه" أن إنسان أوروبا الحالي ينبغي له أن يكون ليبرالياً. ولن نناقش إن كان هذا الشكل أو ذاك مـن الحريّة هو ما يجب أن يكون. وإنما أشير إلى أن أشدّ إنسان رجعيّة في أوروبا يعلم في قرارة وعيه أن ما حاولته أوروبا في القرن الماضي تحت اسم الليبرالية هو في المقام الأخير شيء مفروض ومحتوم، هو الإنسان الغربي الحالي شـاء أم أبى.

ولئن دُلِّل عن حقٍ كامل لا ينقض، على زيف وشؤم كـل الطرائـق المعينـة التي حاول بها أصحابها حتى الآن تحقيـق هـذا الواجـب الملـحّ في أن يكونـوا سياسياً ليبراليين ضمن المصير الأوروبي، يظـلّ قائمـاً الـيقين الـساطع علـى أن الليبرالية كانـت في الجـوهر علـى صـواب في القـرن 19. وهـذا الـيقين يُحـرّك الشيوعي كما يُحرّك الفاشي مهما يُبديا من حركات كثيرة لإقناعنا وإقناع أنفسهم بالعكس، كما يُحرّك الكاثوليكي، شاء أم أبى هذا الكاثوليكي الذي يلتزم التزاماً

أصدق بقرارات الإدانة البابوية Syllabus [1]. والناس كلهم "يعلمون" أنه في ما وراء النقد العادل الذي تُكافح به تظاهراتُ الليبرالية، تظلّ حقيقة هذه الليبرالية لا تُدحض، حقيقة ليست نظرية ولا علمية ولا فكرية، وإنما هي من مجال مختلف جذريّاً وأكثر حسماً من كلّ ذلك، أي هي حقيقة مصير. فالحقائق النظرية ليس فقط أنها قابلة للمناقشة وإنّما معناها كله وقوّتها هو في أن تُناقش؛ إنها تُولد في المناقشة، وتعيش ما نُوقشت، وقد خُلقت كليّاً من أجل المناقشة. لكن المصير، أي ما ينبغي له أن يكون حيويّاً، أو لا ينبغي له أن يكون محلّ جدال، إنّما يُقبل أو لا يُقبل. فإذا قبلناه فنحن صادقون؛ وإذا لم نقبله فإننا ننفي أنفسنا ونزيّفها [2]. فالمصير لا يقوم على ما يحلو لنا أن نعمل؛ بل هو، التعرّف إلى وجهه الدقيق والواضح، وتجلّيه في الوعي بوجوب صنع ما لا يحلو لنا أن نصنعه.

---

(1) إن من يؤمن على طريقة كوبرنيكوس أن الشمس لا تسقط في الأفق يظل يراها تسقط؛ وإذْ كانت الرؤية تستلزم قناعة أوليّة، فإنه يظلّ مؤمناً بذلك. وما يحدث هو أن إيمانه العلمي يُوقف باستمرار مظاهر إيمانه الأولّي والتلقائي. وهكذا ينكر هذا الكاثوليكي بإيمانه الديني إيمانَه العلمي الحر والشخصي. وهذه الإشارة إلى حالة هذا الكاثوليكي تصلح هنا فقط كمثل لتوضيح الفكرة التي أعرضها الآن؛ لكني لا أعنيه بالنقد الحاسم الذي أوجهه إلى الإنسان ـ الجمهور في زماننا، إلى "السيد الصغير الراضي". إنه يتطابق معه في نقطة واحدة. وإنّ ما أجبَهُ به "السيد الصغير الراضي"، غيابُ الصدق في وجوده كله تقريباً. أمّا الكاثوليكي فهو غير صادق في بعض النقاط من وجوده. لكنْ، حتى هذا التطابق الجزئي ظاهري فقط. الكاثوليكي ليس صادقاً في جانب من وجوده، أي في كل ما فيه من رجل عصري، شاء أم أبى ـ لأنه يريد أن يكون وفيّاً لجانب فعّال من وجوده، هو إيمانه الديني. هذا يعني أن مصير هذا الكاثوليكي في ذاته مأساوي. وبقبوله بهذا الجانب من عدم الصدق يفي بواجبه. أمّا "السيد الصغير" فهو على العكس، يفرّ من ذاته بخفّة خالصة كاملة بالضبط كيما يُلغي كل مأساة. ـ المؤلف.

(2) لا يبقى من طريقة حياة من يأبى أن يكون ما يجب أن يكون سوى الصَغار والقماءة ولا شيء آخر. لكن كيانه الحقيقي لا يموت بسبب ذلك، وإنّما يتحوّل إلى شبح متهم، إلى شبح يجعله يحس باستمرار بدونيّة الوجود الذي يعيشه قياساً بالوجود الذي كان ينبغي له أن يعيشه. والقميء منتحر مستمرّ في الحياة. ـ المؤلف.

"السيد الصغير الراضي" يتميّز إذاً، "بمعرفته" أن بعض الأمور لا يمكن أن تكون، ومع ذلك وللسبب عينه، يتظاهر بأفعاله وأقواله بالقناعة المعاكسة لذلك: والفاشيّ يعبّئ نفسه لمواجهة الحريّة السياسية بالضبط، لأنّه يعلم أن هذه الحريّة لن تغيب عنه في النهاية بجِدّ، وإنما هي موجودة لا محالة في لبّ الحياة الأوروبية، وأنه يعثر عليها كلّما احتاج إليها حقّاً إذا جدّ الجِدّ. لأن هذا هو أساس وجود الإنسان الجمهور: عدم الصدق، و "النكتة". وما يصنعه هؤلاء يصنعونه من غير طابع قاطع باتّ، كما يصنع أفاعيله "ابن العائلة". وكلّ هذه العجلة في تبنّي مواقف في الظاهر مأساوية وقاطعة في كلّ المجالات، ما هي غير مظهر. إنهم يلعبون لعبة المأساة لأنهم يحسبون أن المأساة الفعليّة لا تصدق في العالم المتحضّر.

وقد كان حسناً أن اضطُررنا إلى قبول حقيقة كيان شخصٍ ما يزعم هذا الشخص تبيانه لنا بتلك الصفة. وإذا ما تعنّت أحدٌ ما في التأكيد على أن اثنين زائد اثنين تساوي خمسة، ولا يوجد سبب لافتراضه مجنوناً، يجب أن نطمئن إلى أنه لا يؤمن بذلك مهما يصرخ، وحتى لو قتل نفسه لإثبات قوله.

وإن عاصفة من مهزلة عامّة شاملة الطراز تهبّ على التراب الأوروبي. وتكاد تكون كل المواقف التي تُتّخذ ويُتباهى بها زائفة داخليّاً، والجهود الوحيدة التي تُبذل تُوجّه إلى الهروب من المصير ذاته، وإلى العمى إزاء وضوحه وندائه العميق، وإلى تجنيب كل امرئ مواجهة هذا الذي ينبغي له أن يكون. وصار المرء يعيش على شكل ساخر؛ وعلى قدْر مهزلته المأساوية يكون القناع المتّخذ. وهناك سخرية حيثما كان من مواقف باطلة لا يستند فيها صاحبها على شيء ومن غير تحفّظ. فالإنسان الجمهور لا يُثبتُ قدمَه على صلابة مصيره التي لا تتزعزع؛ بالحريّ، هو يعيش في خمول معلّقاً في الهواء بشكل صنعي. وهكذا لم توجد قطّ كما اليوم حيوات من غير ثقل ولا جذر ـ أي مقتلعة من جذور المصير Deraciné وتسمح لأدنى تيّار أن يجرفها. إنه عصر "التيّارات" و"السماح بالانجراف". ولا يكاد أحدٌ يقف في وجه الزوابع السطحيّة التي تتشكّل في الفنّ وفي الفكر والسياسة والعادات الاجتماعية. لهذا السبب عينه تنتصر البلاغة أكثر

من أي وقت آخر. فالسوريالي يحسب نفسه تجاوز التاريخ الأوروبي كلّه لمّا كتب (هنا كلمة لا ضرورة لكتابتها) حيث كتب الآخرون "ياسمين وتمّاً وحيوانات أخرى". لكنه لم يصنع بالطبع شيئاً آخر بذلك سوى أن استخرج بلاغة أخرى كانت ترقد حتى اليوم في المزابل.

ويوضّح الموقفَ الحالي ملاحظةُ الجانب المشترك منه مع جوانب أخرى من الماضي، على الرغم من فرادة ملامحه. وهكذا ما إن بلغت الحضارة المتوسطية أعلى مستوى لها ـ حوالي القرن III قبل المسيح ـ حتى ظهر المجون فيها. فكان ديوجين يخبط بنعليه المملوءين وحلاً سجّاد آرسيبو. وصار الماضي شخصاً سريع التكاثر، يقف خلف كلّ ناصية وعلى كل المستويات. يومئذ لم يكن للماجن من شغل سوى أن ينسف تلك الحضارة. وكان عدميّ العدميّة، فلم يُبدع شيئاً ولم يصنع شيئاً. وكان دوره دور تخريب، بالحريّ، محاولة التخريب لأنه ما كان يستطيع بلوغ هدفه أيضاً. والماجن طفيليّ الحضارة يعيش من نفيه لها، لذلك هو على اقتناع أنه لن يفتقدها. فماذا يصنع الماجن وسط شعب بدائي حيث الناس جميعاً يعملون بشكل طبيعي جادّ ما يعدّه هو هازلاً دوره الشخصي؟ وما الفاشيّ إذا لم يتكلّم بسوء عن الحريّة، وما السوريالي إذا لم يضرّ بالفن؟

ولا يستطيع هذا النموذج من البشر أن يتصرّف بطريقة أخرى في عالمٍ مفرط في حسن تنظيمه، ويتلقّى منه المنافع فقط وليس الأخطار. فالمحيط يدلّله لأنه "حضارة" ـ أي بيت ـ وابن العائلة لا يحس بشيء يجعله يخرج من طبعه النزق، ويحثّه على الاستماع إلى هيئات خارجية عليا، ويرغمه بالأقلّ القليل، على أن يحتكّ بأسّ مصيره الشخصي المحتوم.

* * *

# XII

## بربريّة التخصّص

القضيّة هي أن حضارة القرن 19 أنتجت الإنسان الجمهور بشكل آليّ. ومن الملائم ألا نختم عرضها العامّ من غير تحليل آليّة هذا المُنتَج في حالة خاصّة منه. وعلى هذا الشكل تكتسب القضيّة عند تعيينها قوّة على الإقناع.

ولقد قلت إن حضارة القرن 19 يُمكن أن تُختصر في بعدين كبيرين: الديمقراطيّة الليبراليّة والتقنية. ولنأخذ الآن البعد الأخير. لقد وُلدت التقنية المعاصرة من اقتران الرأسمالية بالعلم التجريبي. وليس كلّ تقنية علماً. فصانع بلطات السيليكس في العصر الشِّلّي [1] كان يفتقر إلى العلم، ومع ذلك ابتكر تقنية. وقد بلغت الصين درجة عالية من التكنيك من غير أدنى فكرة لديها في وجود علم الفيزياء. وإنّما التقنية الأوروبية العصرية وحدها ذات جذر علمي، ومن هذا الجذر جاء طابعها النوعيّ وإمكانيّة تطوّر غير محدود. أمّا التقنيات الأُخر ـ كتقنيات ما بين النهرين والنيل والإغريق والرومان والشرق ـ فقد تمدّدت حتّى نقطة من التطور لم تستطع تجاوزها، وما إن بلغتها حتى شرعت تتقهقر في تراجع محزن.

وقد جعلت هذه التقنية الغربية انتشار العرق الأوروبي العجيب ممكناً. ولنتذكّر التاريخ الذي انطلق منه البحث، والذي يضمّ ـ كما قلت ـ هذه التأمّلات كلّها على شكل أوّلي. إذْ لم يبلغ عدد سكان أوروبا ما بين القرن الخامس حتى عام 1800 أكثر من 180 مليون نسمة. وارتفع من عام 1800 حتى عام 1914 إلى ما يزيد على 400 مليون. وهي قفزة فريدة في التاريخ البشري. ولا مجال للشكّ في أن التقنية ـ إلى جانب الديمقراطية الليبراليّة ـ قد ولّدت الإنسان ـ الجمهور بالمعنى الكمّي لهذا التعبير. لكنّ هذه الصفحات حاولت أن تبيّن أنها ـ أي التقنية ـ مسؤولة أيضاً عن وجود الإنسان الجمهور بالمعنى الكيفي والسيء للكلمة.

---

(1) نسبة إلى مدينة Chelles الفرنسية في منطقة سين ومارن Seine et Marne فيها آثار تعود إلى ما قبل التاريخ... (نقلاً عن معجم لاروس). المترجم.

ولقد حذّرت في البدء ألا يُفهم من كلمة "جمهور"، العُمال على شكل خاص. فهي لا تُشير هنا إلى طبقة اجتماعية، وإنما إلى صنف أو طراز من الكائن البشري يوجد اليوم في الطبقات الاجتماعية كلّها و يمثّل عصرنا الذي يسيطر عليه ويهيمن. والآن تعالوا نرَ ذلك بوضوح شديد.

من يمارس السلطة الاجتماعية اليوم؟ من يفرض بُنية روحه على العصر؟ إنها البرجوازية بلا ريب. مَن داخل هذه البرجوازية يُعدّ فئةً عليا أو ارستقراطية الوقت الحاضر؟ إنه التقنيّ بلا ريب: كالمهندس والطبيب والأستاذ، الخ، الخ. ومَن ضمْن فئة التقنية، يمثّل هذه الفئة بأعلى مستوى وأنقاه؟ إنه رجل العلم لا ريب في ذلك. ولو أن شخصاً نجمياً زار أوروبا وسألها بنيّةِ أن يحكم عليها: حسْب أيّ نموذج بشري بين من يقطنها تُؤثر أن يُحكم عليهاَ؟ فلا ريب في أن أوروبا ستشير إلى رجال العلم، وهي مسرورة ومطمئنّة إلى حكم سيكون في صالحها. ولن يسأل الشخص النجميّ بالطبع عن أفراد استثنائيّين، وإنما سيبحث عن القاعدة، عن "رجل العلم" النموذج النوعيّ أو العام، قمّةِ البشريّة الأوروبية.

وينتج عن ذلك أنّ رجل العلم الحالي هو نموذج الإنسان الجمهور. وليس ذلك مصادفة ولا لعيب مبهم في كل رجل من أهل العلم، وإنما لأن العلم نفسه ـ وهو جذر الحضارة ـ يحوّله آلياً إلى إنسان ـ جمهور؛ أي أنه يجعل منه بدائياً وبربريّاً معاصراً.

وقد صار الأمر اليوم معلوماً. ولقد أُكِّدّ عليه مرّات لا تحصى؛ لكنّه بضمّه إلى بنية هذا البحث يكتسب تمام معناه ووضوح خطورته.

لقد بدأ العلم التجريبي في أواخر القرن 16 مع غاليله، واستطاع أن يتكوّن في نهايات القرن 17 مع نيوتن وأخذ يتطوّر أواسط القرن 18. وإن تطوّر شيء أمر يختلف عن تكوينه ويخضع لشروط مباينة. وهكذا دفع تكوّن الفيزياء ـ وهو اسم جامع للعلم التجريبي ـ إلى بذل جهود توحيدية. وهذا كان عمل نيوتن ورجال آخرين في عصره. لكنّ تطوّر الفيزياء بدأ مهمّة ذات طابع معاكس للعلم. إذاً يحتاج العلم كيما يتطوّر إلى أن يختّص رجال العلم. أقول رجال العلم وليس

العلم ذاته. فالعلم ليس اختصاصياً. ويكفّ بسبب هذه الواقعة ذاتها ipso facto عن أن يكون علماً حقيقيّاً. ولا العلم التجريبي مأخوذاً بكليّته علم حقيقي إذا فصلناه عن الرياضيات والمنطق والفلسفة. لكن العمل فيه لا بدّ له من أن يكون تخصّصياً على شكل لا يُردّ.

قد يكون ذا فائدة كبرى ومنفعة أكبر مما يبدو لأوّل نظرة، كتابةُ تاريخ العلوم الفيزيائية والبيولوجية، مبيّنين عمليّة نموّ التخصص في مخابر الباحثين. ولسوف يرينا ذلك كيف أن رجل العلم أخذ ينكمش ويتقلّص جيلاً بعد جيل في حقل من الاهتمام الفكري يزداد ضيقاً شيئاً فشيئاً. لكن، ليس المهمّ ما يعلّمنيه هذا التاريخ. بل على العكس، أحرى به أن يعلّمني كيف يأخذ العالِمُ بسبب اضطراره إلى تقليص مجال عمله، يفقد في كل جيلٍ وبالتدريج الصلة بالجوانب الأخرى من العلم، يفقد صلته بتفسير الكون تفسيراً شاملاً، وهو الشيء الوحيد الذي يستحقّ اسم العلم والثقافة والحضارة الأوروبية.

وقد بدأ التخصص تحديداً في عصر كان يسمّي الرجل "الموسوعي"، رجلاً حضاريّاً. وقد بدأ القرن 19 مصائره في ظلّ قيادة مخلوقات يعيشون على شكل موسوعي، وإنْ حمل انتاجه طابعاً تخصصيّاً. وقد تبدّلت المعادلة في الجيل التالي، وأخذ الاختصاص يشغل داخل كلّ رجلٍ من رجال العلم، مكانَ الثقافة الشاملة.

ولما استلم الجيل الثالث القيادة الفكرية في أوروبا حوالي عام 1890، وجدنا أنفسنا أمام عالِمٍ من نموذج لا مثيل له في التاريخ. إنه إنسان يعرف علماً معيّناً فقط من كلّ ما ينبغي له أن يعلمه كيما يكون شخصاً حصيفاً، حتى لا يعرف من هذا العلم معرفة جيدة سوى جانب صغير يكون فيه باحثاً نشيطاً. ويكاد يُعلن فضيلةً عدمَ معرفته كلّ ما هو خارج مجال اختصاصه الضيّق، ويسمّي الفضول إلى مجمل المعرفة حذلقة.

في الواقع، هو يستطيع في انكماشه في مجال رؤيته الضيّق، أن يكتشف وقائع جديدة، ويسهم في تقدّم علمه الذي يكاد لا يعرفه، وكذلك موسوعة الفكر التي يجهلها بشكل تفصيلي. فكيف حصل شيء كهذا؟ وكيف أمكن له أن

يكون؟ إذْ من الملائم التشديد على شذوذ هذه الواقعة التي لا تُدحض: إن العلم التجريبي تقدّم في جانب كبير منه بفضل عمل رجال عاديين للغاية، بل هم أقلّ من عاديّين. أي، أن العلم الحديث جذرَ الحضارة الراهنة ورمزَها، استقبل في عقر داره الرجلَ المتوسط فكريّاً وسمح له بأن يعمل بنجاح جيّد. والسبب في ذلك قائم فيما يُعدّ في آن واحد فائدة العلم الجديد الكبرى وخطرُه الأقصى، ومعه فائدة الحضارة التي توجّهه وتمثّله، وخطرها الأقصى ألا وهو المكننة. وإن جانباً كبيراً من الأشياء التي يجب صنعها في الفيزياء والبيولوجيا، مهمّةٌ فكرية ميكانيكيّة يستطيع أن ينهض بها أيّ شخص كان تقريباً. ويمكن تقسيم العلم نظراً لنتائج أبحاث لا تُحصى، إلى قطاعات صغيرة والاحتباس داخل أحدها وإهمال سائرها. وتسمح قوّة المناهج ودقّتها بتفكيك المعرفة مؤقّتاً وعمليّاً. والعمل يجري حسب أحد هذه المناهج كما يجري بوساطة آلة، ولا ضرورة إلى امتلاك أفكار صارمة حول معنى هذه المناهج وأساسها للحصول على نتائج وافرة. وهكذا يدفع الجانبُ الأكبر من العلماء التقدّم العام في العلم محتبسين في حجيرات مخابرهم كالنحل في نخاريب الشهد أو كأسياخ المشواة في صندوقها.

لكنّ هذا الأمر خلق طائفة من الرجال غريبي الأطوار غاية الغرابة. فالعالِمُ الذي اكتشف واقعة جديدة في الطبيعة ينبغي له بالضرورة أن يُحسّ شعوراً بالهيمنة والاطمئنان في شخصه. وقد يعدّ نفسه بشيء من العدالة الظاهرية أنه "إنسان عارف". ونجد لديه في الواقع شذْرة من شيء تُشكِّل إلى جانب شذرات أُخر غير موجودة لديه، المعرفةَ عن حقّ. هذا هو موقف الاختصاصي الحميم الذي بلغ في السنوات الأولى من هذا القرن أقصى غلوائه المجنونة. والاختصاصي يعرف جيّداً جدّاً ركنه الصغير في العالَم، لكنّه يجهل جهلاً جذريّاً ما عداه.

ها هنا مثال دقيق عن هذا الإنسان الغريب الجديد الذي حاولت أن أعرّفه من قِبَل هذا الجانب أو ذاك من جانبيه ووجوهه. ولقد قلت إنه كان صورة بشريّة لا مثيل لها في التاريخ كلّه. ويفيدنا الاختصاصي كيما نحدّد الحالة بدقّة، وكيما يُرينا راديكاليّة جدّتها كلّها. لأن الناس كان بالإمكان تقسيمهم من قبلُ إلى علماء

وجهلاء، أو إلى علماء أكثر أو أقلّ علماً، وإلى جهلاء أكثر أو أقل جهلاً. لكنّ الاختصاصي لا يمكن له أن يندرج تحت أيّ من هذه المقولات. فهو ليس عالماً لأنه يجهل قطعاً كلّ ما لا يدخل في اختصاصه؛ لكنْ، ولا هو جاهل أيضاً لأنه "رجل علم"، ويعرف معرفة جيّدة هذا الجزيء من عالَمه. فلا بدّ لنا من القول إنه عالِم ـ جاهل، وهي قضيّة جد خطيرة لأنّ ذلك يعني أنه سيّد يتصرّف مع كل المسائل التي يجهلها، ليس كجاهل، وإنّما بكلّ زهو من هو في مسألته الخاصة، عالِم.

وهذا هو في الواقع، تصرّف الاختصاصي، الذي يتّخذ في السياسة والفنّ والعادات الاجتماعية وفي العلوم الأُخر، مواقف إنسان بدائي وجاهل للغاية؛ لكنّه يتّخذها بقوّة وكفاية، من غير أن يقبل ـ وهنا المفارقة ـ باختصاصيّين في هذه الأمور. وقد جعلت الحضارة الاختصاصيَّ مُقفلاً وراضياً داخل نطاق دائرته؛ لكنّ هذا الإحساس العميق ذاته بالسيطرة والكفاءة جعله راغباً في مزيد من الهيمنة خارج اختصاصه. والنتيجة حتى في هذه الحالة التي تمثّل الحدّ الأقصى من إنسان مؤهل ـ مختص، بالتالي أشدّ ما يناقض الإنسان ـ الجمهور، هي أنه يتصرّف من غير كفاءة، وإنّما كإنسان ـ جمهور في مجالات الحياة كلها.

والملاحظة ليست غامضة. فمن يشأ يستطعْ أن يلاحظ الحماقة التي يفكّر بها رجال العلم، ويحكمون بها على الأمور ويعملون بها اليوم في السياسة والفنّ والدين ومشاكل الحياة العامّة والعالم، وعلى منوالهم بالطبع، الأطبّاء والمهندسون ورجال المال وأساتذة الجامعات، الخ، الخ. وهذا الوضع في "عدم الاستماع"، وعدم الخضوع لسلطات عليا كنتُ قدّمته تكراراً على أنّه صفة مميّزة للإنسان الجمهور، يبلغ الذروة تحديداً لدى هؤلاء الرجال المؤهّلين جزئيّاً. هم رمز هيمنة الجماهير الحالية، وفي جانب كبير يشكّلون هذه الهيمنة؛ وبربريّتهم هي أقرب سببٍ لفساد الأخلاق الأوروبية.

وهم يمثّلون من جهة أخرى أوضح مثل وأدقّه يبيّن كيف أنتجت حضارةُ القرن الماضي وقد تُركت إلى ميلها الخاص، هذا البرعمَ من البدائية والبربرية.

ونتيجة هذا التخصّص غير المتوازن، المباشرة كانت في زيادة عدد "رجال العلم" اليوم أكثر من أيّ وقت آخر، في حين صار عدد "المثقّفين Cultos" أقلّ

كثيراً ممّا كانوا عليه في حوالي 1750 مثلاً. والأسوأ من ذلك أنه لا ضمان لتقدّم العلم العميق على الرغم من أسياخ مشواة العلم. لأن هذا العلم يحتاج من حين لآخر، إلى إعادة تكوين reconstitución كضبط عضويّ لنموّه الذاتي. ويتطلّب هذا كما قلت جهداً توحيدياً يزداد صعوبة ويجعل مناطق واسعة من المعرفة الشاملة أكثر تعقيداً. لقد استطاع نيوتن أن يبدع نظامه الفيزيائي من غير معرفة كبيرة بالفلسفة. لكن إينشتاين احتاج إلى أن يتشبّع بكانط وماخ Mach ليستطيع بلوغ بنيانه الدقيق. وقد أفاده كانط وماخ ـ وهما اسمان يرمزان فقط إلى الكتلة الضخمة من الأفكار الفلسفية والنفسية التي أثّرت في إينشتاين ـ في تحرير ذهنه، ومهّدا له الطريق صوب الإبداع. لكن إينشتاين وحده غير كافٍ. فقد دخلت الفيزياء أعمق أزْمة في تاريخها، ولا يمكن أن ينقذها سوى موسوعة أكثر منهجيّة من الموسوعة الأولى.

لكن التخصّص الذي جعل تقدّم العلم التجريبي ممكناً خلال قرن، يقترب من مرحلة لن يستطيع التقدّم فيها بذاته إذا لم يتولّ جيل أفضل بناء مشواة جديدة أقوى له.

لكن الاختصاصيّ إذا كان يجهل فيزيولوجيا العلم الداخلية، العلم الذي يمارسه، فإنه يجهل على شكل جذري أكبر شروط دوامه التاريخية، أي، يجهل كيف ينبغي للمجتمع ولقلب الإنسان أن ينتظما لضمان استمرار وجود بحّاثة. وإن انحدار الرسالة العلمية الذي يلاحظ هذه الأيام ـ والذي أشرت إليه من قبل ـ، عَرَض يقلق كلّ من لديه فكرة واضحة عن ماهيّة الحضارة، فكرة يفتقر إليها عادة "رجل العلم" النموذجي، قمّةُ حضارتنا الحاليّة. هو يؤمن أيضاً أن الحضارة موجودة ببساطة وجود القشرة الأرضية والغابة البكر.

***

XIII

# الدولة، الخطر الأكبر

إن الجمهور في ترتيب جيّد للأمور العامّة، هو من لا يعمل بنفسه. وهذي هي مهمّته. فقد جاء إلى الدنيا كيما يكون مَقوداً ومتأثِّراً بغيره ومُمثَّلاً ومنظَّماً كيما يكفّ عن أن يكون جمهوراً، أو على الأقل كيما يتطلّع إلى ذلك. لكنه لم يأتِ العالَم كيما يعمل ذلك بنفسه. فهو يحتاج إلى أن يرجع في حياته إلى مرجعيّة عليا شكّلتها الأقليّات الممتازة. ولنناقشْ ما شاءت لنا المناقشة، مسألة من هم الرجال الممتازون. لكنّ البشرية من دونهم، كانوا من كانوا، لا تكون على ما هي عليه في الجوهر، وهي مسألة يجب ألاّ يحوم حولها شكّ ما، وإنْ قضت أوروبا قرناً من الزمان واضعة رأسها تحت جناحها على طريقة الكُرْكيّ كيما ترى إنْ كانت تستطيع ألا ترى بديهية بهذا السطوع. لأننا لسنا بصدد رأي يقوم على وقائع شائعة إلى حدّ ما ومحتملة وإنّما على قانون في "الفيزياء الاجتماعية" أكثر ثباتاً من قوانين فيزياء نيوتن. ويوم تسود أوروبا مرة أخرى فلسفة حقّة [1] ـ وهو الشيء الوحيد الذي يمكنه إنقاذها -، فسوف ندرك مرّة أخرى أن الإنسان كائن مرغم في تكوينه على البحث عن مرجع أعلى، رغِبَ في ذلك أم لم يرغب. فإذا استطاع العثور عليه بنفسه، فذلك أنه إنسان ممتاز، وإمّا لا، فذلك أنه إنسان جمهور ويحتاج إلى أن يتلقّاه من ذاك.

والزعم أن الجمهور يعمل من تلقاء ذاته، فهذا يعني أنه يتمرّد على مصيره ذاته؛ وإذْ كان هذا صنيعه اليوم، لذلك أتكلّم عن تمرّد الجماهير. لأنّ الشيء الوحيد الذي يمكن أن نسميه بحقّ وبشكل جوهريّ، تمرّداً، هو ألاّ يرضى كلّ

---

(1) وليس ضرورياً، كيما تسود الفلسفة أن يسود الفلاسفة ـ كما أراد أفلاطون في البداية، ولا أن يكون الأباطرة فلاسفة، كما أراد بتواضع كبير بعدئذ. كلا الأمرين، في الواقع، مشؤوم. ويكفي أن توجد الفلسفة كيما تسود. أي، يكفي أن يكون الفلاسفة فلاسفة. فالفلاسفة هم منذ قرن تقريباً كلّ شيء سوى أن يكونوا فلاسفة. هم سياسيون ومربّون وأدباء أو رجال علم. ـ المؤلف.

فرد بمصيره، وأن يتمرّد على نفسه. في الواقع، ما كان يقلّل من شأن تمرّد إبليس، رئيس الملائكة، لو أنه بدلاً من إصراره على أن يكون إلّهاً ـ وذلك لم يكن مصيره ـ، تشبّث بأن يكون أقلّ الملائكة أهمية، ـ وذلك لم يكن مصيراً له أيضاً ـ. (ولو كان إبليس روسيّاً، مثل تولستوي، لربّما آثر هذا الأسلوب الأخير من التمرّد الذي هو ليس أقلّ ولا أكثر معاداة لله من التمرّد الآخر المشهور جداً).

وإذا تصرّف الجمهور من تلقاء نفسه، فإنه يصنع ذلك بطريقة: لينش[1] فقط، لأنه لا يملك وسيلة أخرى غيرها. وليس محض مصادفة أن يكون قانون لينش Lynch قانوناً أمريكيّاً، لأن أمريكا، بشكلٍ ما، جنّة الجماهير. ولا يقلّل من دهشتنا كثيراً أن ينتصر العنف إذا انتصرت الجماهير، وأن يُجعل منه الوسيلة La ratio الوحيدة، والمذهب الوحيد. ولقد بيّنتُ منذ مدّة بعيدة عمليّة العنف هذه باعتبارها قاعدة. وقد بلغ العنف اليوم ذروة تطوّره، وهذه علامة جيّدة، لأنّها تعني أنه سيأخذ بالانحدار بشكل آلي. وأصبح العنف اليوم بلاغة العصر. وقد تبنّاه البلاغيون والخائرون. وإذا ما أنجز واقعٍ بشريٍ تاريخه وغرق ومات، فإن الأمواج تلفظه إلى شواطئ البلاغة حيث يظلّ أمداً طويلاً جثّة. والبلاغة مقبرة الوقائع البشرية؛ وهي على الأغلب مشفى المعوقين فيها. ويظل بعد الواقع اسمه الذي هو أوّلاً وأخيراً، وإن يكن كلمة فقط، لا شيء أقلّ من كلمة، ويحافظ دائماً على شيء من قوّته السحرية.

لكن، حتى لو أمكن لسحر العنف أن يأخذ بالاضمحلال كقوّة مستقرّة على شكل ماجن، فإننا سنظلّ تحت حكمه وإن يكن بشكل آخر.

وأنا أشير إلى الخطر الأكبر الذي يهدّد الحضارة الأوروبية اليوم. وقد نشأ هذا الخطر من هذه الحضارة، كما كلّ الأخطار الأخرى التي تهدّدها. بالحري، هو يشكّل أحد أمجادها؛ إنه الدولة المعاصرة. ونحن نعثر إذاً، على جواب عمّا قلته حول العلم في الفصل السابق: إن خصوبة مبادئه دفعت به صوب تقدّم ضخم؛ لكنّ هذا التقدّم يفرض التخصّص لا محالة، والتخصّص يهدّد بخنق العلم.

والأمر ذاته يحدث للدولة.

---

(1) نسبة إلى القاضي الأمريكي لينش Lynch الذي كان يحكم في القرن 18 بالإعدام صخباً ومن غير محاكمة. ـ المترجم.

ولنتذكّر ماذا كانت الدولة في نهايات القرن 18 في الدول الأوروبيّة كلها. إنّها لم تكُ شيئاً مذكوراً. وقد كانت أحدثت الرأسماليّةُ الأولى وتنظيماتها الصناعية حيث انتصرت التقنيةُ لأول مرّة، التقنيةُ الجديدة العقلانية، أولَ نموّ في المجتمع. وظهرت طبقة اجتماعيةٌ جديدة أكبر عدداً أو قوّة من سابقاتها: ألا وهي البرجوازيّة. وهذه البرجوازية "القبيحة" كان تمتلك أوّلاً وخاصة، شيئاً يسمّى الموهبة، الموهبة العلميّة. كانت تعرف أن تنظّم وتنسّق وتضفي استمراريّة وترابطاً سهلاً على الجهد. وكانت تُبحر وسْطها "سفينة الدولة"، كما في وسْط المحيط. وسفينة الدولة استعارة أعادت اكتشافَها البرجوازيةُ التي صارت تشعر بنفسها بحراً محيطاً كليّ القدرة محمّلاً بالعواصف. وتلك السفينة لم تكن شيئاً مذكوراً، أو كانت شيئاً ضئيلاً: فلم يكن لها جنود تقريباً، ولم تكن تمتلك بيروقراطية، ولا مالاً أيضاً. بل كانت صنعتها في العصور الوسطى طبقةٌ من البشر مختلفة عن البرجوازية: إنها طبقة النبلاء المزهوّين بشجاعتهم وموهبتهم في القيادة، وإحساسهم بالمسؤولية. ولولاهم ربّما ما وُجدت الدول الأوروبية. لكنّ النبلاء، مع فضائل القلب هذه كلّها، كانوا وظلّوا دائماً يعانون سوءاً في الرأس. إنهم كانوا يعيشون من الوعاء الآخر، أي القلب. وكانوا ذوي ذكاء محدود جدّاً وعاطفيّين وأصحاب غريزة وحدْس. وكانوا، باختصار، "غير عقلانيّين". لذلك لم يستطيعوا تطوير تقنية ما تدفع باتجاه العقلانية. ولم يخترعوا البارود، بل كانوا ملولين. وإذْ كانوا عاجزين عن اختراع أسلحة جديدة، فقد تركوا للبرجوازيين استعمال البارود الذي ربّما أخذوه من الشرق أو من مكان آخر، وبذلك كسبوا المعركة آليّاً على حساب المحارب النبيل، "الفارس Caballero" المدجّج على شكل غبيّ بالحديد، حتى ما كان يستطيع الحركة تقريباً إبّان القتال، ولم يخطر له أن سرّ الحرب الدائم لا يكمن في وسائل الدفاع كما في وسائل الهجوم[1].

(1) تُعزى إلى رانكه Ranke هذه الصورة البسيطة عن التغيّر التاريخي الكبير الذي حلّت فيه هيمنة البرجوازيّين محلّ سيادة النبلاء؛ لكنّ حقيقتها الرمزية والإجماليّة تتطلّب بالطبع تفاصيل ليست قليلة كيما تكون حقيقية تماماً. فقد عُرف البارود منذ زمن سحيق. أمّا اختراع الشحنة داخل أنبوب فيعود إلى أحد أبناء لومبارديا. ومع ذلك لم تكن فعّالة حتى اختُرعت الرصاصة الذائبة. ولقد استخدم "النبلاء" السلاح الناريّ بكميّات ضئيلة، لكنه كان مرتفع الثمن جداً. أمّا الجيوش البرجوازية المنظّمة على شكل أفضل اقتصادياً، فقد استطاعت وحدها أن تستعمله بكميّات كبيرة. والثابت حرفيّاً مع ذلك أن النبلاء الممثّلين بجيش من البروغونيّين من طراز قروسطي هُزموا هزيمة ساحقة على يدي جيش جديد غير محترف من البرجوازيّين شكّله السويسريون. وقد قامت قوّته الأولى على نظام جديد وعقلانيّة في التكتيك جديدة. ـ المؤلف.

(وهو سرّ سيكتشفه نابليون). وإذْ كانت الدولة تقنية ـ ذات نظام عام وإدارة -، فقد بلغ "العهد القديم" أواخر القرن 18 مع دولة ضعيفة يجلدها من كل جانب مجتمع كبير ومضطرب. وكان الخلل في التوازن بين قوّة الدولة، والقوّة الاجتماعية ذلك الوقت كبيراً حتى لو قارنّا الوضع حينئذ بالوضع السائد أيام شارلمان، لبدت دولة القرن 18 انحطاطاً عن الوضع الأول. بالطبع، كانت الدولة الكارلونجية أقلّ قوة كثيراً من دولة لويس XVI. لكن المجتمع المحيط بها ما كان يملك في المقابل قوّة ما[1]. وإن التفاوت في المستوى الضخم ما بين القوة الاجتماعية، وقوّة السلطة العامة جعل الثورة ممكنة، وكل الثورات حتى عام 1848.

لكنّ البرجوازية استولت بالثورة على السلطة العامّة، وطبقّت على الدولة قيمها، وخلقت في أقلّ من جيل دولة قادرة قضت على الثورات. فمنذ العام 1848، أي، منذ بداية الجيل الثاني من الحكومات البرجوازية، لا توجد ثورات حقيقية في أوروبا. وليس ذلك يقيناً لفقدان الأسباب المؤديّة إليها، بل لفقدان الوسائل. فقد تساوت السلطة العامّة والسلطة الاجتماعية. فوداعاً يا ثورات إلى الأبد! ولم يقع في أوروبا غير عكس ذلك، وهو الانقلاب العسكري. وكلّ ما كان له ملامح ثورة في وقت لاحق، لم يكن غير انقلاب عسكري مقنّع.

وقد صارت الدولة في عصرنا آلة ضخمة تعمل بشكل عجيب، وبفعالية مدهشة كمّاً ودقّة في وسائلها. لقد غُرستْ وسْط المجتمع، ويكفي أن يُلمس زرّ حتى تتحرّك روافعها الضخمة، وتعمل عملها بسرعة البرق على أيّة قطعة من الجسم الاجتماعي.

---

(1) تستحقّ هذه النقطة أن نلحّ عليها ونبيّن أن عصر الملكيات المطلقة الأوروبية عمل بدول ضعيفة جداً. وكيف يُفسّر ذلك وقد بدأ المجتمع حولها بالنموّ؟ فإذا كانت الدولة قادرة على كل شيء ـ كانت "مطلقة" -، فلِمَ لم تصبح أكثر قوّة؟ أحد الأسباب عجز أرستقراطية الدم تقنيّاً وعقلانيّاً وبيروقراطيّاً. لكن هذا غير كافٍ. وحدث فضلاً عن ذلك، أنّ تلك الأرستقراطيات في الدولة المطلقة لم تشأ أن تزيد في ضخامة الدولة على حساب المجتمع. وخلافاً لِمَا يُعتقد، احترمت الدولة المُطلقة غريزياً المجتمع أكثر كثيراً ممّا احترمته دولتنا الديمقراطية الليبرالية الأذكى منها، لكن بإحساس بالمسئولية التاريخية أقل. ـ المؤلف.

والدولة المعاصرة هـي أكثـر ثمـار الحـضارة ظهـوراً وبـروزاً. ومـن الهـام والكاشف إدراك الموقف الذي يتّخـذه حيالهـا الإنـسان الجمهـور. فهـذا يراهـا ويُعجب بها ويعلم أنها قائمة ضامنة له حياته؛ لكنه ليس على وعي بأنهـا إبـداع بشري ابتكره بعض البشر وتدعمه بعض القيم والمبادئ التي كان يتمتّع بها رجال الأمس، ويمكن أن تتبخّر غداً. ويرى الإنسان ـ الجمهـور في الدولـة مـن جهـة أخرى، قوّةً غُفلاً، وكما يحس بنفـسه غُفـلاً ـ سـوقة ـ يـؤمن أنّ الدولـة شـيء يمتلكه. فتصوّروا عقبة، أو نزاعاً أو مشكلة تطرأ على الحياة العامّة في بلـد مـا، تجدوا الإنسان الجمهور يطالب فوراً بتولي شؤون الدولة، ويتكفّل بحلـها (حـل المشكلة) مباشرة بوسائله الضخمة القاهرة.

هذا هو الخطر الأكبر الذي يهدّد الحضارة اليـوم، ويكمـن في "تـدويل" ــ estatificación الحياة، وتدخّل الدولة، وامتصاص الدولة كلَّ مبادهة اجتماعية؛ أي، إلغاء المبادهة التاريخية التي تدعم مصائر البشر وتغذيها وتدفعها في النهاية. وإذا ما أحسّ الجمهور بتعاسة، أو ببساطة، برغبة كبيرة فإن ما يغريه بهـا إغـراء كبيراً، الإمكانيةُ الدائمة والآمنة في تحقيقها كلها مـن غـير جهـد ولا كفـاح ولا شك أو خطر، ومن غير شيء آخر سوى لمس زرّ فيشغّل الآلة العجيبـة. ويقـول الجمهور لنفسه: "أنا الدولة"، وهو قول خاطئ خطأ كاملاً. فالدولة هي الجمهور بالمعنى الذي يمكن أن نقول به عن رجلـين أنهمـا متطابقـان لأنهمـا كليهمـا لا يُدعى خوان. والدولة المعاصرة والجمهور يتطابقان فقط في كونهما غُفلين. لكنّ المسألة هي أنّ الجمهور يحسّ نفسَه الدولةَ في الواقع، ويزداد ميله إلى تـشغيلها بأيّة حجّة كانت، ويسحق بها الأقلية الخلاّقة التي تعكّر صفوه في كلّ مجال: في السياسة وفي الأفكار والصناعة.

وكانت نتيجة هذا الميل مشؤومة. فقد اختُرقت المبادئ الاجتماعية مرّة بعد أخرى بتدخّل الدولة؛ فلا يمكن لأيّ بذرة جديدة أن تثمر. وصار على المجتمع أن يعيش من أجل الدولة؛ والإنسان من أجل آلة الحكـم. وإذا لم تكـن الدولـة آخر الأمر غيرَ آلة وجودُها والحفاظُ عليها مقيّدٌ بحيويّة المحـيط، الـتي تؤودهـا فإنها تظل، وقد امتصّت لبَّ عظام المجتمع، هزيلـة عجفـاء ميتـة بمـوتِ الآلـة الصدِئ، وجثّة أسوأ من جثّة العضويّة الحيّة.

هكذا كان مصير الحضارة القديمة المحزن. ولا مجال للشكّ في أنّ الدولة الإمبراطوريّة التي خلقها آل يوليوس، وآل كلوديوس كانت آلة مُعجبة ومتفوّقة بما لا يُقاس على آلة الدولة الجمهورية القديمة، ودولة العائلات النبيلة، لكنها ما إن بلغت أوج تطوّرها حتى بدأ جسم المجتمع بالانحدار، وهنا المصادفة الطريفة. وقد أصبحت الدولة في عصر آل أنطونيو (القرن 2) تُثقل كاهل المجتمع بسيادة غير حيوية. وأخذ هذا المجتمع يُستعبَد لعدم قدرته على الحياة إلا في خدمة الدولة. وصارت الحياة بيروقراطية كُلّها. فماذا حدث؟ لقد أدّت بقرطة الحياة إلى تضاؤل هذه الحياة المطلق في كلّ المجالات، وتناقصت الثروة، وصارت النساء يلدن نزْراً. حينئذ قوّت الدولة من بقرطة الوجود البشري وفاءً بحاجاتها الخاصّة. وهذه البقرطة هي في المقام الثاني عسكرةُ المجتمع. وكان همّ الدولة الأكبر جهازَها الحربي، أي جيشها. والدولة مُنتج للأمن قبل كلّ شيء. (ومن الأمن وُلد الإنسان الجمهور). لذلك كانت الدولة بادئ ذي بدء جيشاً. وهكذا عسكر العالمَ آلُ سيفيرو ذوو الأصول الأفريقية. ويا لها مهمة باطلة! وزاد البؤسُ وعقمت الأرحام وافتُقر حتى إلى جنود. وكان لا بدّ للجيوش بعد آل سيفيرو من أن يُجنّدوا من بين الأجانب.

ألاحظتم ما هي عملية "التدويل" Eatatismo المتناقضة والمأساوية؟ فَقَدْ خلق المجتمعُ الدولة أداةً كيما يعيش على شكلٍ أفضل. ثم صارت الدولة من فوقُ، وكان على المجتمع أن يعيش تحت الدولة. لكنّ الدولة كانت ما تزال مكوّنة أولاً وآخراً، من ناس ذلك المجتمع. لكن، سرعان ما أصبح هؤلاء الناس لا يكفُون لدعم الدولة فكان لا بدّ لها من استدعائهم من الخارج: أوّلاً من الدلماسيين، ثمّ تلاهم الجرمان. وأصبح الأجانب أسياد الدولة، وكان على بقيّة المجتمع والشعب الأصلي أن يكونوا عبيداً لأولئك، عبيداً لناس لا صلة تصلهم بهم [1]. إلى هذا المآل قاد مبدأ الدولة التدخّلي: فقد تحوّل الشعب إلى لحم وعجين يغذّي آلة الدولة وأداتها فقط، وأخذ الهيكل العظمي يأكل اللحم المحيط به، وأصبحت السقالة مالك البيت وقاطنه.

---

(1) تذكّروا كلمات سِبْتمو سيفيرو لبنيهِ: ظلّوا متّحدين، وادفعوا للجنود أرزاقهم، واحتقروا ما عدا ذلك. ـ المؤلف.

فإذا علمنا ذلك، أشعر بالخجل قليلاً حين أسمع موسولّيني يعلن بصفاقة نموذجية هذه الصيغة وكأنها اكتشاف عجيب تمّ في إيطاليا اليوم: "كلّ شيء بالدولة، ولا شيء خارج الدولة، ولا شيء في مواجهة الدولة". يكفي هذا كيما نكتشف في الفاشية حركة نموذجية من البشر الجمهور. لقد وجد موسوليني بين يديه دولة بنتها الديمقراطية الليبراليّة. واكتفى هو باستعمالها بلا كابح. ولا مجال للجدال في أن النتائج التي حصل عليها حتى الآن لا تُقارن بالنتائج التي بلغتها الدولة الليبراليّة في المجال السياسي والإداري، هذا من غير أن أسمح لنفسي الآن بأن أحكم بالتفصيل على عمله. فإن حصل على شيء فهو ضئيل جدّاً وقليل البروز ولا شيء جوهريّاً فيه؛ وهو يوازن بصعوبة تراكم السلطات المفرطة التي تتيح له استعمال تلك الآلة بشكل متطرّف.

وهيمنة الدولة هي الشكل الأعلى الذي يتّخذه العنف والعمل المباشر اللذان أصبحا قانوناً. والجماهير تعمل من تلقاء ذاتها من خلال الدولة، من خلال هذه الآلة الغُفل وبوساطتها.

وإن أمام الأمم الأوروبية مرحلةً ذات صعوبات كبيرة في الحياة الداخلية، ومشاكلَ عويصة للغاية في الاقتصاد والقانون والنظام العام. وكيف لا نخاف إذا كانت الدولة تتولّى في ظلّ هيمنة الجماهير سحقَ الفرد والفئة، وتجفّف عود المستقبل نهائيّاً؟

وهناك مثال معيّن على هذه الآلية نجده في أحد أكثر الظواهر إثارة للرعب في هذه السنوات الثلاثين الأخيرة: وهو الزيادة الضخمة في قوّات الشرطة في كلّ البلدان. وقد دفع إلى ذلك النموُّ الاجتماعي بشكل لا محيد عنه. فسكان مدينة كبيرة حاليّة يحتاجون لا محالة إلى شرطة تنظّم السير كيما يسيروا بسلام ويباشروا أعمالهم. ومهما تبدُ لنا هذه الواقعة مألوفة، يجب ألا تفقد تناقضها الكبير حيال روحنا. لكنها سذاجة من رجال "النظام"، التفكير في أنّ "قوى حفظ النظام العام" هذه، التي خلقها النظام سوف تكتفي بأن تفرض دائماً النظامَ الذي أراده أولئك الرجال. ولا مناص من أن تنتهي إلى أن تحدّد هي بنفسها النظام الذي ستفرضه وتقرّه، وسيكون بالطبع النظام الذي يلائمها.

من الملائم أن نستغلّ هذا الاحتكاك بهذه المـادّة لنبـيّن اخـتلاف ردّ الفعـل الذي يمكن أن يشعر به هذا المجتمـع أو ذاك حيـال ضـرورة عامّـة. لمّـا بـدأت الصناعة الحديثة حوالي عام 1810 بخلق نموذج من البـشر ـ العامـل الـصناعي ـ الأكثر ميلاً إلى الإجرام من سابقيه التقليديّين، بـادرت فرنـسا إلى إنـشاء شـرطة كثيرة العدد. وظهـرت في إنكلتـرا حـوالي عـام 1810، للـسبب عينـه زيـادةٌ في الإجـرام، حينئـذ أدرك الإنكليـز أنهـم لا يمتلكـون شـرطة، وكـان الحكـم للمحافظين. وفضّلوا أن يتحمّلوا الجريمة حتى المـدى الممكـن. "يُـسلّم النـاس بإفساح المجال للفوضى، باعتبارها فدية أو ضريبة للحريّـة". وقـد كتـب جـون ويليام وارد: "توجد في بـاريس شـرطة رائعـة، لكنـهم يـدفعون غاليـاً تكـاليف مردودها. أنا أؤثر أن أرى كل ثلاث سنوات أو أربع ذبح نصف دستة من البـشر في راتكليف رود، على الخضوع إلى زيارات منزلية، والتجسّس ومكائد فوشـيه Fouché كلها"[1]. إنهما فكرتان مختلفتان عن الدولة. فـالإنكليزي يرغـب في أن يكون للدولة حدود.

* * *

(1) انظر إيلي هليفي Elie Halévy ـ تاريخ الشعب الإنكليزي في القرن 19 ـ (المجلّد I ـ ص 40 ـ 1912).
1912).ـ (Tomo- I- pag. 40 ـHistoire du peuple anglais au XIX.

# الجزء الثاني

## XIV

## لمن الحكم في العالم؟

لقد ردّدت مرة بعد أخرى إن الحضارة الأوروبية أنتجت بشكلٍ آلي تمرّد الجماهير. وتُبدي واقعة تمرّد الجماهير من جهة الوجهِ مظهراَ متفائلاً: لقد سبق أن قلت إن تمرّد الجماهير و النموّ الضخم الذي خبرته الحياة الإنسانية في عصرنا سِيّان. لكنّ قفا الظاهرة نفسها رهيب: فإذا نظرنا إلى تمرّد الجماهير من هذه الجهة فهو يعني فساد أخلاق البشرية فساداً خطيراً. فلْننظر إلى هذا الآن انطلاقاً من وجهات نظر جديدة.

* * *

## - 1 -

إن جوهر عصرٍ تاريخي جديد أو طابعه ناتج عن تغيّرات داخلية صورية وشبه ميكانيكية تجري داخل الإنسان و في روحه. و من أهم هذه التغيرات الأخيرة انتقال السلطة بلا ريب. لكن هذا الانتقال يجلب معه انتقالاً للروح.

لذلك إذا أطللنا على عصر بنيّة فهمه فإنَّ أحد أسئلتنا يجب أن يكون هذا السؤال: لمن الحكم في العالم الآن؟ قد يصدف أن تكون الإنسانية حينئذ مبعثرة على مناطق عدة من غير اتّصال فيما بينها مشكّلةً عوالم داخلية و مستقلّة. فقد كان عالم المتوسط في عصر مِيلثيادِس Milciades يجهل وجود عالم الشرق الأقصى. و في حالات كهذه ينبغي لنا أن نعيد سؤالنا: "لمن الحكم في العالم؟"، على كل فئة هي في عيش مشترك. لكنّ الإنسانية كلّها دخلت منذ القرن 16 في عملية ضخمة من التوحّد بلغت في أيّامنا حدّاً لا يمكن تجاوزه. إذ أصبح لا يوجد جزء من البشر يعيش في عزلة، و لا وجود لجزائر بشرية. بالتالي أمْكن القول منذ ذلك العصر إن من يحكم العالم يمارس في الواقع نفوذه المتسلّط عليه كله. وهذا هو دور الفئة المتجانسة التي شكّلتها الشعوب الأوروبية طيلة ثلاثة قرون. أوروبا كانت تقود، وفي ظلّ وحدة قيادتها كان العالم يعيش بطريقة موحّدة، أو على الأقلّ موحَّدة تدريجيّاً.

وهذه الطريقة في الحياة تسمّى عادة "العصر الحديث" وهو اسم باهت و غير معبّر تختفي تحت جناحه هذه الحقيقة! عصر السيادة الأوروبية.

ويُفهم من "الحكم" هنا أوّلاً ممارسة سلطة مادية، ممارسة القهر الفيزيقي. لأننا نتطلع هنا إلى تفادي الحماقات؛ على الأقلّ تفادي أشدّها فظاظة ووضوحاً. وهذه العلاقة المستقرّة و الطبيعية فيما بين البشر التي تسمّى "الحكم" لا تقوم قطّ على القوّة، بل هي على العكس من ذلك؛ لأنَّ إنساناً أو فريقاً من البشر يمارس السلطة يجد تحت تصرّفه هذا الجهاز أو الآلة الاجتماعية التي تسمّى "قوة". وهذه الحالات التي تبدو فيها القوّة لأوّل نظرة أساس الحكم تتجلّى عند تمحيص لاحق أنها خير مثال لتأكيد القضية الأولى. لقد شنَّ نابليون هجوماً على إسبانية

واستمرَّ هذا العدوان مدّة ما من الزمن، لكنه لم يحكم إسبانيا بالمعنى الصحيح يوماً واحداً، على الرغم من أنه كان يملك القوّة، وذلك لأنه لم يكن يملك سوى القوّة فقط. إذاً، يجب التمييز بين حادثة عدوان أو عملية عدوان، ووضع حكم. و الحكم هو ممارسة طبيعية للسلطة. وهو يتأسّس دائماً على الرأي العام. دائماً: اليوم كما منذ عشرة آلاف عام، وسْط الإنكليز كما هو وسْط البوتوكودوس(1). ولم يحكم أحدٌ قطّ في الدنيا مغذياً حكمه من شيء أخر غير الرأي العام.

أم نحسب أن سيادة الرأي العام كان اختراعاً ابتكره المحامي دانتون عام 1789 أو سان توما الأكويني في القرن XIII؟ ربما اكتُشفت فكرة السيادة هنا أو هناك و في هذه التاريخ أو ذلك؛ لكن القول إنَّ الرأي العام هو القوّة الأساس التي تنتج في المجتمعات البشرية ظاهرة الحكم هو شيء قديم جدّاً و دائم، قِدم الإنسان نفسه. فإذا كانت الجاذبية في فيزياء نيوتن هي القوة التي تحدث الحركة فإن قانون الرأي العام هو الجاذبية الكونيّة في التاريخ السياسي، ومن دونها ما كان ممكناً علم التاريخ. لذلك أوحى هيوم بشكل دقيق جدّاً أن موضوع التاريخ قائم على تبيان كيف أن سيادة الرأي العام هي التي كانت لها الكفّة الراجحة دائماً وفي كلّ آنٍ في المجتمعات البشرية عوضاً عن أن تكون تطلّعاً نظرياً. بل حتّى من يزعم الحكم بواسطة الجيوش (2) مقيّدٌ برأي هؤلاء، وبرأي سائر السكان.

والحقيقة هي أنه لا يُحكم بالجيوش. وهذا ما قاله تاليران لنابوليون: "بالحراب يمكن صنع كلّ شيء، سيدي، إلا شيئاً واحداً: وهو الجلوس عليها". والحكم ليس علامة على انتزاع السلطة، وإنّما هو ممارسة هادئة لها. باختصار، الحكم جلوس. جلوس على عرش، على كرسي عاجيّ، أو على مقعد أزرق، أو على مقعد وزاري مريح أو من حرير. وليس الحكم، خلافاً لما تفترضه رؤية ساذجة وسطحية، مسألة قبضات كما هي أعجاز. فالدولة هي في النهاية دولة الرأي: إنها وضع توازن، وضع استاتيك.

---

(1) Botocudos قبائل من الهنود الحمر في البرازيل، يسير أفرادها عراة. ـ المترجم.

(2) في الأصل إنكشارية Jenízaros. ـ المترجم.

وما يحدث هو أن الرأي العام غير موجود أحياناً. لأنّ مجتمعاً منقسماً إلى فئات متنازعة قوّةُ رأيها ملغاة بالتضايف، لا يفسح المجال إلى إرساء حكم. وإذا كانت الطبيعة (تخشى) الفراغ، فإن هذه الثغرة التي تخلّفها قوّةُ الرأي العام الغائبة، تمتلئ بالقوّة الفظة. على الأغلب، تتقدّم هذه القوة الأخيرة لتحلّ محلّ الأولى.

لذلك إذا أريد التعبير بكلّ دقّة عن قانون الرأي العام على أنه قانون الجاذبية التاريخية، فمن الملائم أن نتنبّه إلى هذه الحالات من الغياب. حينئذ نصل إلى صيغة، هي الصيغة المعروفة المحترمة الحقيقية المطروقة: لا يمكن الحكم بمعاداة الرأي العام.

وهذا يدفعنا إلى أن ندرك أن الحكم يعني قوّة رأي كبرى؛ بالتالي، قوّة روحية؛ أن ندرك أنّ حكماً ليس في النهاية شيئاً آخر سوى سلطة روحية. والوقائع التاريخية تؤكّد ذلك بدقّة. ولكل حكم بدائي طابع "مقدّس"، لأنه يتأسس على الديني، والديني هو الشكل الأوّل الذي يظهر في ظلّه دائماً ما سوف يصبح روحاً وفكرةً ورأياً؛ وباختصار، اللامادي وما وراء الطبيعي. ولقد حدثت الظاهرة ذاتها في العصور الوسطى بحجم أكبر. فقد كانت الكنيسة بطابعها النوعي والمسمّى باسم "السلطة الروحية"، هي الدولة أو السلطة السياسية الأولى التي تشكّلت في أوروبا. ولقد تعلّمت السلطة السياسية من الكنيسة أنها ليست في الأصل سوى سلطة روحية وقوّة نفوذ بعض الأفكار، وخُلقت الإمبراطورية الرومانية المقدّسة. وبهذا الشكل اصطرعت قوّتان روحيّتان أيضاً. ولعدم استطاعتهما التمايز من بعضهما ـ فكلاهما روحيّ - توصّلنا إلى اتّفاق بأن يُمثَّل كل منهما في طراز من الزمن: السلطة الزمنية والسلطة غير الزمنية [1]، سلطة دنيوية وسلطة دينية، سلطتان روحيّتان على شكل متطابق. لكن الأولى روح الزمن، ـ رأي عام دنيوي ومتغير ـ، بينا الأخرى روح أبديّة ـ الرأي الإلهي ـ (الرأي) الذي في علم الله عن الإنسان ومصائره.

---

(1) في الأصل Eternidad = أبدية. ـ المترجم.

وإذا قلنا: في ذلك التاريخ حكم ذاك الرجل أو الشعب، أو تلك الفئة المتجانسة من الشعوب، يستوي والقول: في ذلك التاريخ هيمنت على العالم تلك المنظومة من الآراء والأفكار والأولويّات والتطلّعات والأهداف.

فكيف ينبغي لنا أن نفهم هذه الهيمنة؟ إن الجانب الأعظم من البشر ليس له رأي، ومن الضروري أن يأتيه هذا الرأي من الخارج كما تدخل المادّة الشحمية الآلات. لذلك يلزم أن تكون للروح - أيّاً تكنْ - سلطة تمارسها، كيما يرتأي الناس الذين ليس لهم أي رأي، وهم الغالبيّة. ومن غير آراء، قد يصبح التعايش البشري فوضى؛ وأسوأ من ذلك: يصبح العدم التاريخي. ومن غير آراء تخلو حياة البشر من العمارة والتنظيم. لذلك تهيمن الفوضى على البشرية من غير سلطة روحية، ومن غير أحد ما يحكم، وبمقدار ما يُفتقد الحكم. وبالمثل، كلّ انتقال للسلطة، وكلّ تغيّر في الحاكمين هو في آن واحد تغيّر في الآراء، والنتيجة، تغيّر في الجاذبية التاريخيّة.

لنعد الآن إلى البداية. لقد حكمت أوروبا، وهي تجمّع من الشعوب متقاربين روحياً، العالَمَ طيلةَ قرون عدّة. ففي العصر الوسيط لم يكن أحد يحكم العالم الزمني. وهذا ما حدث في العصور الوسيطة كلها في التاريخ، لذلك مثّلت دائماً فوضى نسبية، وهمجية نسبيّة وفقراً في الآراء. هي عصور للحبّ وللبغض وللقلق والنفور، وكل ذلك بمقياس كبير، لكنها ضعيفة الرأي. وما كانت تخلو عصور كهذه من اللذّة. لكن الإنسانية في العصور الكبرى من الآراء تعيش، لذلك كان النظام. ونجد في الجانب الآخر من العصور الوسطى مرة أخرى عصراً حكم فيه كما في العصور الحديثة أحد ما، وإن يكن على رقعة ضيّقة من العالم، وهو روما صاحبة السيطرة الكبرى. وقد وطّدت النظام في البحر المتوسط وما حوله.

وفي أيام ما بعد الحرب هذه، بدأ الكلام عن أن أوروبا ليس لها الحكم الآن في العالم. أتلاحظون خطورة هذا التشخيص؟ وبه يُعلن عن انتقال في السلطة. فإلى أين تتجه؟ ومن سيخلف أوروبا في حكم العالم؟ لكن، أهناك ضمانة أن يخلفها أحد؟ وإذا لم يخلفها أحد، فماذا سيحدث؟

***

## ـ 2 ـ

الحقيقة البحتة هي أنّ أموراً لا نهاية لها تحدث في العالم كلّ لحظة، وبالتالي هي تحدث الآن. والقول: أيّ شيء يحدث الآن في العالم؟ يجب أن يُفهم إذاً، على أنّه سخرية هذا القول من نفسه. لكن، إذا كان محالاً أن نعرف مباشرة تمام الواقع، فلا حيلة لنا سوى أن نبني واقعاً من اختيارنا، ونفترض أن الأشياء قائمة بطريقة من الطرق. وهذا ما يهيّء لنا مخطّطاً مُجملاً، أي تصوّراً أو شبكة من التصوّرات بها ننظر كما من خلال شبكة مربعات، إلى الواقع الفعلي؛ حينئذ، وحينئذ فقط نحصل على رؤية تقريبية له. وعلى هذا يقوم المنهج العلمي. بالحريّ: على هذا يقوم كلّ استعمال للعقل. فإذا قلنا عند رؤيتنا صديقنا قادماً من بوابّة الحديقة: "ها هو بطرس"، فإنّنا نقترف عمداً وعلى شكل ساخر خطأً. لأنّ بطرس يعني في نظرنا جملة مُختصرةً من أشكال السلوك فيزيقياً وخلقيّاً ـ أي ما نسمّيه طبعاً -. والحقيقة البحتة أن صديقنا بطرس لا يشبه أحياناً في شيء الصورة، صورة "صديقنا بطرس".

كل تصوّر، سواء أكان أكثره ابتذالاً، أم أعلاه تقنية، مركّب على السخرية من ذاته، مركّب في مسنّنات بسمة ساطعة، كالماسة هندسيّة الشكل المركبّة في مسنّن إطارها الذهبي. هو يقول بجدّ كبير: "هذا الشكل هو A، وهذا الشيء الآخر B". لكن جِدّه جد هازل خفية Un pince ـ sans ـ rire . إنه جدّ قلق، جدٌّ من ابتلع قهقهة، فإذا لم يطبق شفتيه جداً تقيأها. وهو يعلم أنْ لا هذا هو A، هكذا عفاراً قفاراً، ولا الآخر هو B من غير تحفّظ. أمّا ما يفكّر فيه التصوّر، فهو في الحقيقة، شيء مختلف قليلاً عمّا يقوله، وفي هذه الازدواجية تكمن السخرية. أمّا ما يفكر فيه حقاً، فهو: أنا أعلم إذا تكلّمنا بدقّة، أن هذا الشيء ليس A، ولا ذاك B؛ لكنّي إذا قبلت بهما على أنهما A و B، فإنّي أكون على وفاق مع نفسي ذاتها حيال آثار سلوكي الحيوي في هذا الشيء أو ذاك.

وربّما أغضبت هذه النظرية، نظرية العقل في المعرفة رجلاً من الإغريق. لأنّ الإغريقي حسب أنه اكتشف الواقع ذاته في العقل، في التصوّر (أو المفهوم). أمّا نحن فنؤمن على العكس منه أن العقل أو التصور أداة دجّنها الإنسان؛ وهو

يحتاج إليها ويستعملها لإيضاح موقفه ذاته وسْط واقع غير محدود شديد التعقيد، ألا وهو الحياة. والحياة صراع في مواجهة الأشياء كيما تنتصب واقفة وسْطها. فالتصوّرات هي الخطة الاستراتيجية التي نؤلفها كيما نصدّ هجومها. لذلك إذا تحرّينا جيّداً أقصى أعماق أيّ تصوّر كان، لوجدنا أنه لا يقول لنا شيئاً عن الشيء ذاته، بل يختصر ما يمكن لإنسان أن يصنعه بهذا الشيء أو يعانيه. وهذا الرأي المبتسر القائل إن محتوى كلّ تصوّرٍ حيويٌّ دائماً، وعمل ممكن دائماً، أو معاناةُ إنسان مُحتملَة، لم يلق دعماً من أحد حسب علمي، حتى اليوم؛ لكنه الحدّ التامّ في رأيي، للعمليّة الفلسفية التي بدأت مع كانط. لذلك إذا تصفّحنا على ضوئه ماضي الفلسفة حتى كانط، لبدا لنا أن الفلاسفة جميعاً ردّدوا في الأساس القول ذاته. إذاً، كل اكتشاف descubrimiento فلسفي ما هو غير كشف ـ الغطاء des-cubrimiento، وجلب ما في القعر إلى السطح.

لكنّ مقدّمة كهذه تتجاوز حدود ما سوف أقوله، وما أقوله بعيد جداً عن تعقيدات الفلسفة. كنت أنوي القول ببساطة إنّ ما يحدث اليوم في العالم ـ أي العالم التاريخي ـ هو حصراً ما يلي: إن أوروبا كان لها الحكم في العالم طيلة ثلاثة قرون، وأوروبا اليوم ليست واثقة من حكمها العالم، ولا أنّ تظلّ حاكمة فيه أيضاً. وأن تفليص كومة الأشياء اللامحدودة التي تشكّل الواقع التاريخي الحالي إلى صيغة جد بسيطة، هو بلا ريب وفي أحسن الأحوال مبالغة، لذلك أنا بحاجة إلى تذكيركم أن التفكيرَ مبالغةٌ شئنا ذلك أم أبيناه. ومن يؤثرْ ألا يبالغ فعليه بالصمت؛ بل أحرى به أن يشلّ عقله ويجد وسيلة كيما يتبلّه.

وأنا أؤمن في الحقيقة، أن هذا ما يحدث في العالم، وكلّ ما خلا ذلك، نتيجة وشرط وعَرَض له أو حكاية عنه.

ولم أقل إن أوروبا ربّما تخلّت عن القيادة، وإنّما قلت حصراً إن أوروبا تحسّ هذه الأعوام بشكوك خطيرة حول إن كانت تقود أو لا تقود، أو إن كانت ستقود غداً، وهذا يوازي حالة روحية مطابقة لما لدى شعوب الأرض كلّها: وهي الشك فيما إنْ كان يحكم فيهم اليوم أحد. وهم أيضاً ليسوا على ثقة من ذلك.

ولقد أفاض الناس في الحديث هذه السنين عن انحطاط أوروبا. وأنا أرجو بحرارة ألا يستمرّ الناس في اقتراف السذاجة بالتفكير في اشبنغلر ببساطة، لأنه تكلّم عن انحطاط أوروبا أو الغرب. وقد كان الناس جميعاً يتحدّثون عن ذلك قبل أن يظهر كتابه، ونجاح الكتاب يعود كما هو ملاحظ، إلى أن هذا الشك أو الانشغال، كان موجوداً في الرؤوس كلها بمعان ولأسباب جدّ متباينة.

لقد جرى الحديث غزيراً عن انحطاط أوروبا حتى عدّهُ كثيرون واقعة. ليس لأنهم يؤمنون بجدّ ووضوح بهذه الواقعة، وإنما لأنهم اعتادوا أن يعدّوها مؤكّدة، وإن كانوا لا يتذكرون بصراحة أنهم اقتنعوا بذلك على شكل حاسم في أي تاريخ محدّد. ويستند كتاب و.فرانك Waldo Frank الحديث: إعادة اكتشاف أمريكا، استناداً كاملاً إلى الزعم أن أوروبا تُحتضَر. ومع ذلك لا يحلّل فرانك ولا يناقش ولا يجعل من واقعة ضخمة كهذه مسألة يفيد منها في وضع مقدّمة منطقية كبرى premisa، بل ينطلق منها باعتبارها شيئاً لا يخالطه الشك من غير تحقيق. وتكفيني هذه السذاجة في نقطة الانطلاق لأفكر في أنّ فرانك ليس على اقتناع بانحطاط أوروبا. بل أذهب أبعد من ذلك إلى أن فرانك لم يطرح المسألة على نفسه. وإنما اتخذها وسيلة عامة، والأفكار الشائعة هي وسائل النقل الفكري العام. ويصنع صنيعه كثير من الخلق، خاصة الشعوب كلها.

وإنه لمشهد صبياني نموذجي ما يعرضه العالم اليوم. فإذا ما لاحظ أحد تلاميذ المدرسة ذهاب المعلّم، فإن شرذمة الأطفال تتمرّد وتخرق الانضباط، وتحس بلذّة الهرب من الضغط الذي يفرضه حضور المعلّم، وبلذّة نبذ القواعد، ورفع الأقدام إلى فوق، والإحساس بأنهم أسياد مصيرهم. لكنّ العصبة الطلابية لا تمتلك بغياب القاعدة التي تحدّد الأشغال والمهام، عملاً خاصّاً ولا شغلاً محدّداً ولا مهمةً لها معنى واستمراريةٌ ومسار، والنتيجة هي أنها لا تستطيع أن تنفّذ سوى شيء واحد، وهو القفز في الهواء.

ومحزن هذا المشهد العابث الذي تبديه الشعوب الصغرى. فنظراً إلى أن أوروبا تنحدر كما يُزعم، وبالتالي تتخلّى عن القيادة، فإنّ كلّ أمّة صغيرة تثب وتتشدّق وتنقلب رأساً لعَقِب وتنتصب وتتمطّى مبدية هيئة شخص راشد يتحكّم

بمصائره الخاصة. ومن هنا هذه البانوراما المتموّجة من "النزعات القومية" التي تطلع علينا من كلّ الجهات.

لقد حاولت في الفصول السابقة أن أدوّن صفات نموذج جديد من البشر يهيمن على العالم اليوم: وقد سمّيته الإنسان ـ الجمهور، وبيّنت أن ميزته الرئيسة إعلانه الحق بالسوقيّة لإحساسه بأنه سوقة، وإنكاره الاعتراف بمرجعيات أعلى منه. وإذا ساد هذا الطراز من الوجود داخل كلّ مجتمع، فمن الطبيعي أن تتكرّر الظاهرة أيضاً إذا نظرنا إلى الأمم في مجملها. وهناك أيضاً شعوب ـ جمهور نسبيّاً، عازمة على التمرّد على الشعوب الكبرى الخلاّقة التي هي أقليّة من سلالات بشرية نظمّت التاريخ. ومضحك حقاً أن نتأمّل كيف أن هذه الجمهورية الصغرى أو تلك تقف من ركنها الضائع على رؤوس أصابع قدميها وتوبّخ أوروبا وتعلن استقالتها من التاريخ العالمي.

وما النتيجة؟ لقد كانت خلقت أوروبا منظومة من القواعد بيّنت فعاليّتَها وخصوصيتَها القرون. وليست هذه القواعد أدنى كثيراً من القواعد الممكنة ولا خيراً منها. لكنها بلا ريب، حاسمة ما دامت لا توجد أو تُلمح قواعد أُخَر. ولتجاوزها، لا مناص من ولادة قواعد أخر. وقد عزمت الشعوب ـ الجمهور اليوم على أن تعدّ متهافتةً تلك المنظومة من القواعد التي هي قوام الحضارة الأوروبية، لكنها، إذْ كانت عاجزة عن خلق منظومة أخرى فلا تعرف ماذا تصنع، فتستسلم إلى الحركات البهلوانية.

هذي هي النتيجة الأولى التي تطرأ إذا تخلّت أوروبا عن قيادة العالم: وتظلّ البقيّة عند تمرّدها من غير مهام ولا برنامج عمل.

* * *

## - 3 -

ذهب الغجري إلى الكنيسة ليعترف؛ لكنّ الخوري الحذِر بادره السؤال إن كان يعرف وصايا الناموس الإلهي فأجاب الغجري عن ذلك: "أبتِ: كنت أنوي أن أتعلّمها، لكنّي سمعت إشاعة تقول إنهم ينوون إلغاءها".

أوليس هذا وضع العالم اليوم؟ إذْ تسري الإشاعة إن الوصايا الأوروبية أصبحت غير نافذة. لذلك يغتنم الناس ـ شعوباً وأفراداً ـ الفرصة ليعيشوا من غير أوامر واجبة، إذْ ما كانت توجد غير الأوامر الواجبة الأوروبية. وليس الأمر ـ كما حدث مرّاتٍ كثيرة ـ أمرَ نشوء قواعد جديدة تحلّ محلّ القديمة ولا أمر حماسٍ غايةٍ في الجدّة يبتلع في ناره الشابّة الحماسة القديمة ذات الحرارة المنخفضة. وربّما يكونَ هذا هو المألوف. فوق ذلك، يبدو القديم قديماً لا بسبب قدمه، بل لأن مبدأ جديداً قد ظهر، ذلك أن الجديد لكونه جديداً فحسْب يفوق ما يتقدّمه في الوجود فوراً. فإذا لم يكن لنا أبناء، فقد لا نصبح عجائز أو نبطئ كثيراً في أن نكون كذلك. والأمر يحدث للأدوات. فسيّارة عمرها حوالي عشر سنوات تبدو أقدمَ من سيارة عمرها عشرون عاماً، لأن مبتكرات تقنية السيّارات ببساطة تتابعت بسرعة أكبر. وهذا الانحطاط الذي يعود بأصله إلى انبثاق شباب جديد هو علامة صحّة.

لكنّ ما يحدث في أوروبا شيء غير صحّي وغريب. لأنّ وصايا الحكم الأوروبية فقدت صلاحيتها من غير أن تلوح في الأفق وصايا جديدة. ويُقال إن أوروبا تخلّت عن الحكم ولا يُرى من يستطيع أن يحلّ محلّها. ويُفهم من كلمة أوروبا أولاً وخاصة، الثالوث المكوّن من فرنسا وإنكلترا وألمانيا. فقد نضج في هذه المنطقة التي تشغلها هذه الدول من الكرة الأرضية معيار للوجود البشري نُظِّم العالم وفقه. فإذا كانت هذه الشعوب الثلاثة في حالة انحطاط ـ كما يُقال ـ وفقد برنامج حياتها صلاحيته، فلا عجب أن يصاب العالم بالقنوط.

هذي هي الحقيقة خالصة. إذ العالم كله ـ أمماً وأفراداً ـ في حالة قنوط. وقد كان هذا القنوط خلال فترة ما باعثاً على التسلية بل حتى حلم خادع بشكل غامض. ويفكر الأدنون أنه قد أزيح عنهم عبء ثقيل. والوصايا العشر تحتفظ من

الزمن الذي كانت فيه منقوشة على الحجر أو البرونز بطابعها ثقيل الوطأة. وكلمة mandar = حكم، تعني بالاشتقاق: حمّل أو وضع في يدي أحد ما شيئاً. فمن يحكم لا محالة ثقيل الوطأة. وقد سئم الأدنون في العالم كلّه من أن يُحمّلوا ويتحمّلوا؛ وهم يغتنمون بهيئة احتفالية هذا الزمن المُعفَى من الأوامر الموجبة الثقيلة. لكنّ الاحتفال يدوم قليلاً. فمن غير الأوامر الموجبة (الأحكام) التي ترغمنا على العيش بشكلٍ ما، فإن حياتنا تصبح في عطالة بحتة. هذا هو الوضع الرهيب العميق الذي يجد فيه نفسه خير شباب العالم. فهم يشعرون بالفراغ لشعورهم المحض بأنهم أحرار ومعفوْن من الواجبات. وحياة في عطالة (أو تقاعد) تنفي ذاتها أكثر مما ينفيها الموت. لأن الحياة هي ضرورةُ عمل شيءٍ ما محدّد، وهي إنجاز مهمّة، ونحنُ نفرغ حياتنا بمقدار ما نتحاشى أن نضع وجودنا في شيء. ولسوف نسمع عما قليل صرخة رهيبة في أنحاء كوكبنا كلّه تصّاعد حتى النجوم كعواء كلاب لا تحصى طالبة من أحدٍ ما، أو شيء ما أن يحكم، أن يفرض عملاً أو التزاماً.

وليُوجّه هذا القول إلى من يعلنون بلا وعي أطفال أن أوروبا أصبحت لا تحكم. والحكم هو منح الناس ما يشغلهم، وإدخالهم في مصيرهم، في أماكنهم، ومنع شططهم الذي يتجلّى عادة في الزوغان والحياة الفارغة والحزن.

لا يهمّ أن تتخلّى أوروبا عن القيادة إذا وُجد من يحلّ محلّها. لكن لا يوجد ظلّ من ذلك. فلا نيويورك ولا موسكو تُعدّان حديثتين قياساً بأوروبا. فكلتاهما قطعة من الحكم الأوروبي، حتى إذا انفصلتا عن البقيّة فقدتا معناهما. في الواقع، يبعث على الاستياء الحديث عن نيويورك وموسكو. لأن المرء لا يعرف معرفة تامّة ما هما: بل يعلم فقط أن الكلمات النهائية لم تُقل حتى اليوم عن هذه أو تلك. لكنْ، لدينا، وإنْ لم نعرف ما هما تمام المعرفة، ما يكفي لفهم طابعهما النوعي. فكلتاهما تنتمي انتماء تامّاً إلى ما سمّيته أحياناً "ظواهر التمويه camouflage التاريخي". والتمويه في ماهيّته واقعٌ ليس كما يبدو. وإن مظهره يُخفي جوهره عوضاً عن أن يُبديه. لذلك هو يخدع الجانب الأعظم من الناس. وإنما يستطيع أن يتحرّر من اللبس الذي يحدثه التمويه من يعلم مسبقاً وبشكل عام أن التمويه موجود. والأمر ذاته يحدث مع السراب. فالتصوّر هنا يصحّح خطأ العيون.

في كل واقعة تمويهٍ تاريخي هناك واقعان يتنضدّان فوق بعضهما. الواقع الأول عميق وفعّال وجوهري، والآخر ظاهري وعرضي وسطحي. وهكذا يوجد في موسكو شريط من الفِكر الأوروبية ـ أي الماركسية ـ فُكِّر فيها في أوروبا انطلاقاً من وقائع ومشاكل أوروبية. وفي ظل هذا الشريط شعب لا يختلف من الناحية العرقية عن الأوروبي فقط، وإنّما هو في عمر يختلف عن عمرنا. وهذا هو الأهمّ. شعب ما يزال في حالة اختمار، أي شاب. أمّا أن تكون الماركسية قد انتصرت في روسيا ـ حيث لا توجد صناعة ـ فقد يكون التناقض الأكبر الذي يمكن أن تقع فيه الماركسية؛ لكن، لا يوجد مثل هذا التناقض لعدم وجود مثل هذا الانتصار. فروسيا ماركسية على وجه تقريبي، كما كان روماناً الألمانُ في الإمبراطورية الرومانية المقدّسة. والشعوب الشابّة لا تمتلك أفكاراً. وإذا ما ترعرعت في بيئة تُوجد فيها أو وُجدت فيها ثقافة قديمة، فإنهم يتقنّعون بالفكرة التي تعرض لهم. وها هنا التمويه وعلّته. ويُنسى كما بيّنت مرّات عدة ـ أن هناك نموذجين كبيرين في تطوّر الشعوب. فهناك الشعب الذي ينشأ في "عالَم" ـ يخلو من كل حضارة. والمثال على ذلك: الشعب المصري أو الصيني (القديم)، فكلّ شيء لدى شعب كهذا أصيل، وسلوكه له معنى واضح ومباشر. لكنّ هناك شعوباً أخرى تنشأ وتتطوّر في جوّ تحتله من قبل ثقافة ذات تاريخ مختلف. وهذا حال روما التي ترعرعت في عزّ البحر المتوسط الذي مياهه مشبعة بحضارة إغريقية ـ شرقية. لذلك كانت نصف العلامات (الدوالّ) عند الرومان غير رومانية وإنما متعلَّمة، والعلامة المتعلَّمة، والمتلقّاة علامة مزدوجة دائماً، ومعناها الحقيقي ليس مباشراً، بل هو ملتو ومن يضع علامة متعلّمة ـ كأن تكون كلمة من لغة أخرى مثلاً ـ فإنه يضع تحتها علامة خاصة به، العلامة الحقيقية. كأن يترجم إلى لغته الخاصّة الكلمة الأجنبية. لذلك كانت تلزم أيضاً لفهم التمويه، نظرة غير مباشرة، نظرة من يترجم نصّاً والمعجم إلى جانبه. وأنا أنتظر كتاباً عسى تظهر فيه ماركسية ستالين مترجمة إلى تاريخ روسيا. لأنّ الجانب القويّ فيه روسيّ وليس ماركسيّاً. وما أدراك ماذا يكون! والأمر الوحيد الذي يمكننا تأكيده هو

أنّ روسيا تحتاج إلى زمن طويل كيما تتطلّع إلى القيادة. وهي بحاجة إلى أن تتكلّف الانتساب إلى مبدأ ماركس الأوروبي لأنها ما تزال تفتقر إلى قواعد ناظمة؛ ولأن لديها فائضاً من الشباب تكتفي بهذا الوهم. والشاب لا يحتاج إلى قوّة الإدراك كيما يعيش وإنما هو بحاجة إلى ذرائع.

وشيء شبيه بهذا يحدث لنيويورك. فمن الخطأ أن نعزو قوّتها الحالية إلى الأنظمة التي تخضع لها. أنظمة تقتصر في المقام الأخير على التقنية. ويا للمصادفة! لأن التقنية اختراع أوروبي آخر وليس أمريكياً. لقد اخترعت أوروبا التقنية خلال القرنين 18 و 19. ويا للمصادفة! هما قرنان كانت أمريكا فيهما في طور الولادة. وما أعجب أن يُقال لنا بجدّ إنّ ماهية أمريكا مفهومُها العملي والتقني للحياة! عوضاً عن أن يُقال لنا: أمريكا هي مثل شعوب المستعمرات دائماً، إعادة تأصيل العروق القديمة خاصة العرق الأوروبي، وتجديد شبابها. والولايات المتحدة تعني أيضاً أنها حالة من هذا الواقع التاريخي النوعي الذي نسمّيه: "شعباً جديداً"، ولأسباب تختلف عما هو الحال في روسيا. ويُخيّل إلى المرء أنها كلمة تُقال، في حين أنها شيء جدّ فعّال، فعالية شباب رجل. أمريكا قويّة بشبابها الموضوع في خدمة تنظيم معاصر، كما كان يمكن أن يُوضع في خدمة البوذيّة إن كانت هذه تشكّل واقع الحال اليوم . لكن أمريكا لا تصنع بذلك سوى أنها بدأت تاريخها. وسوف تبدأ اليوم همومها وخلافاتها وصراعاتها التي لا بدّ لها من أن تكون كثيرة جدّاً، وبعضها مناقض أشدّ التناقض للتقنية والذرائعية. وأمريكا أحدث سنّاً من روسيا. ولقد أكّدت مع خوف من المبالغة، أنها شعب بدائي مموّه بآخر الاحتكارات [1]. واليوم يعلن و. فرانك ذلك بصراحة في كتابه إعادة اكتشاف أمريكا، وأمريكا لم تعانِ بعدُ. ومن الخطل التفكير أنها يمكن أن تمتلك مواهب القيادة.

---

(1) انظر بحثي: هيغل وأمريكا.- المؤلف. (هو ضمن كتاب تفكير شعب شاب، المنشور في هذه المجموعة. ـ الناشر).

ومن يتحاشَ السقوط في الاستنتاج المشؤوم أن أحداً لن يحكـم، وبالتـالي سيعود العالم التاريخي إلى الفوضى، فعليه الرجوع إلى نقطـة الانطـلاق ويـسأل نفسه بجدّ: "أصحيح كما يُقال إن أوروبا في انحطاط وأنها تُسلم القياد وتستقيل؟ ألا يكون هذا الانحطاط الظاهري الأزمةَ الخيّرة الـتي تـسمح لأوروبـا أن تكـون أوروبا حرفيّاً؟ أو لا يكـون انحطـاط الأمـم الأوروبيـة الواضـح ضـرورياً قبْليّـاً à priori، إذا كان لا مفرّ من أن تقوم ذات يـوم الولايـات المتحـدة الأوروبيـة، ويحلّ محلَّ التعدديّة الأوروبية وحدتُها الناجزة؟".

* * *

## - 4 -

إن وظيفة الحكم والطاعة هي الوظيفة الحاسمة في المجتمع. فإذا كانت مسألة من يحكم ومن يطيع مضطربة في المجتمع، فإن الوظائف الأخرى كلّها تسير تخبّطاً وتعثّراً، حتى يضطرب ويُزيّف أعمق أعماق كلّ فرد ما خلا عبقريات استثنائية. ولو كان الإنسان كائناً منعزلاً يجد نفسه مرتبطاً بالمصادفة بتعايش مع آخرين، فربما يُعفى من أمثال تلك الانعكاسات الناتجة عن انتقال السيطرة وأزمة السلطة. لكنّه إذْ كان اجتماعيّاً في أسّ تركيبه، فإن طبعه الفرديّ يتغيّر بطفرات تؤثّر بالضرورة في الجماعة وحدها مباشرة. لذلك، إذا أُخذ فرد بمعزل وحُلِّل، فإننا نستطيع أن نستنتج من غير معطيات إضافية كيف هي حالة الوعي بالحكم والطاعة في بلده.

وربّما كان هامّاً بل نافعاً إخضاع طابع الإسباني العاديّ لهذا الفحص. لكنّ العملية قد تكون مضجرة ومحبطة للنفس وإن تكن نافعة؛ لذلك تجنّبتها. لكنّي بيّنت الجرعة الضخمة من الإحباط العميق والإسفاف الذي تحدثه لدى الرجل العادي في بلدنا، كونُ إسبانيا أمّةً تعيش منذ قرون ووعيُها مشوّش بمسألة الحكم والطاعة. والإسفاف ما هو غير القبول بالشذوذ على أنه حالة معتادة مستقرّة، هو شيء إذا قُبل به يبدو غير لائق. وإذا لم يكن بإمكان الفرد أن يحوّل إلى حالة طبيعية سليمة، ما هو في ماهيّته إجرامي وغير طبيعي فإنه يتطلّع إلى التكيّف مع ما هو غير لائق ويصبح مجانساً للجريمة وما تجرّه من شذوذ. إنها آليّة تشبه ما يعلنه المثل الشعبي المأثور حين يقول ": كذبة واحدة تصنع مائة كذبة". وقد اجتازت الأمم كلها مراحل من حياتها تطلّعت فيها ليحكمها مَنْ ما كان ينبغي له أن يحكم؛ لكنّ غريزة قويّة جعلتهم يركزّون فوراً طاقاتهم ويبعدون ذلك التطلّع الشاذّ إلي الحكم. فرفضوا الشذوذ المؤقّت وأعادوا بناء خُلقهم العام. لكن الإسبانيّ صنع عكس ذلك: فهو عوضاً عن أن يقاوم أن يسيطر عليه من يرفضه في عمق وعيه، آثر أن يزيّف بقيّة كيانه ليكيّفه مع ذلك الغشّ الأوليّ. ومن العبث أن نأمل شيئاً من بني عرقنا مادام ذلك قائماً في بلدنا. فلا يستطيع أن يمتلك قوّة مرنة للنهوض بالمهمة الصعبة في البقاء بكرامة في التاريخ، مجتمع دولتُه أو سلطتُه أو حكومتُه قائمةٌ في جوهرها على الغشّ.

إذ يكفي ـ ولا عجب ـ شكّ خفيف أو تردّد بسيط في من يحكم في العالم حتى يُصاب الناس كلّهم بالإحباط في حياتهم العامّة وفي حياتهم الخاصّة.

وينبغي للحياة البشرية بسبب طبيعتها الخاصة أن تكرّس لشيء ما، تُكرّس من أجل مشروع مجيد أو متواضع، تكرس لمصير رفيع أو مبتذل. والأمر أمر وضع غريب، لكنه محتوم ومُدرج في وجودنا. فالحياة من جهة، شيء يقوم به كل فردٍ بذاته ولذاته؛ ومن جهة أخرى، إذا كانت حياتي هذه التي تهمّني أنا وحدي، ليست مكرّسة لشيء ما، فإنها تمضي مقوّضة من غير توتّر ومن غير "شكل". وإننا نشهد هذه السنوات مشهداً ضخماً، مشهد حيوات بشرية لا تُحصى تسير ضائعة في متاهة ذاتية لأنها لا تملك ما تكرّس نفسها له. فقد عُلقت الواجبات المطلقة والأنظمة كلها. ويبدو أن الموقف لا بدّ له من أن يكون مثاليّاً، لأنّ كلّ حياة صار لها مطلق الحريّة أن تصنع ما يحلو لها، وأن تُفرغ ذاتها. وهذا ما يحدث لكل شعب. لقد خفّفت أوروبا من ضغطها على العالم، لكنّ النتيجة جاءت عكس ما كان يؤمل منها. وإذْ تُركت كل حياة لذاتها، فقد ظلّت من غير ذاتها، ظلّت فارغة من غير شيء تعمله.

وإذْ كان لا بدّ لها من أن تُملأ بشيء ما، فإنها "تختلق" بخفّة ذاتاً خاصة بها، أو تتظاهر بذلك، وتنكبّ على أشغال زائفة لا توجب شيئاً حميماً وصادقاً. فهي اليوم شيء وغداً شيء آخر مناقض للأول. وهي تضيع إذا وجدت نفسها وحيدة وذاتها. والأنانية متاهة، وهذا شيء معلوم. أمّا الحياة فانطلاق صوب شيء ما، هي سير نحو هدف. والهدف ليس طريقي، ولا هو حياتي، إنه شيء أكرّس له هذه الحياة، لذلك يظل خارجها وبعيداً عنها. وإذا عزمت على السير داخل حياتي بأنانيّة، فأنا لا أتقدّم ولا أسير إلى أيّة جهة، وإنّما أدور وأدور في المكان ذاته؛ وهذي هي المتاهة. إنها طريق لا يقود إلى شيء بل يضيع في ذاته نفسها، إنّها مجرّد سير داخل الذات ولا شيء آخر.

لقد انغلق الأوروبي بعد الحرب على نفسه وظلّ من غير مشروع من أجل ذاته ومن أجل الآخرين. لذلك نظل تاريخياً كما كنّا قبل عشر سنوات.

لا يُمارس الحكمُ عارياً من كلّ شيء. بل الحكم يقوم على الضغط على الآخرين؛ لكنّه لا يقوم على ذلك فقط، وإمّا لا، يصير عنفاً. ولا ننسَ أن كلمة عنف لها وقع مزدوج: يُحكم أحد، لكنه يُكلَّف بشيء. وما يُكلّف به في النهاية مساهمتُه في المشروع، وفي المصير التاريخي الكبير. لذلك لا توجد سلطة من غير برنامج حياة، ومن غير برنامج حياة سلطوي تحديداً. وكما يقول بيت شيلر الشعري:

إذا بنى الملوك، فلا بدّ لهم من صنع الطرقات.

إذاً لا يجوز الانضمام إلى الرأي المبتذل الذي يحسب أنه يرى في عمل الشعوب الكبرى كما في عمل الرجال الأفراد إلهاماً أنانيّاً محضاً. وليس سهلاً على المرء، كما يُظن، أن يكون أنانيّاً محضاً، ولم يُفلح أناني قطّ. فأنانيّة الشعوب العظيمة والرجال الأفذاذ، الظاهريّةُ صلابة محتومة يُضطرّ أن يسلكها من كرّس حياته لمشروع ما. وإذا كنا سنصبح شيئاً ما حقيقةً وكرّسنا أنفسنا لمشروع، فلا يُمكن أن يُطلب منّا أن نعطّل العمل للاهتمام بالعابرين وننكبّ على غيريّة صغيرة تفرضها المصادفة. وإن أحد الأمور التي يُعجب بها المسافرون أيّما إعجاب إذا عبروا إسبانيا، هي أنهم إذا سألوا أحداً ما عن موقع ساحة أو بناء، فإن من يُسأل يترك غالباً الطريق الذي يسلكه ويضحّي بوقته في سبيل الغريب ويقوده حتّى المكان الذي ينشده السائل. وأنا لا أنفي أن يكون في هذا الطبع السمْح دافع ما من الكرم، ويسرّني أن يفسر الأجنبي سلوكه هكذا. لكنني لم أستطع كلّما سمعتُ ذلك أو قرأته كبح هذا الخوف: أوكان المواطن الذي يُسأل ينوي الذهاب حقاً إلى جهة ما؟ لأنّه قد يحدث جدّاً وفي حالات كثيرة ألاّ يذهب الإسباني إلى جهة ما؛ فليس لديه مشروع ولا رسالة، وإنّما هو يخرج إلى الحياة ليرى إن كانت حيوات الآخرين تملأ حياته قليلاً. وقد لاحظت في حالات كثيرة مواطنّي يخرجون إلى الشارع ليروا إنْ يلتقوا أحداً ما، ليرافقوه.

وخطير أن يُحبِط هذا الشكّ في حكم العالم الذي مارسته حتى اليوم أوروبا بقيّة الشعوب، ما خَلا تلك التي ما تزال لشبابها، في ما قبل ـ تاريخها. لكنّ الأخطر من ذلك أنْ تُحبِط هذه المراوحةُ في المكان pietinement sur place

الأوروبيَّ نفسه إحباطاً كاملاً. ولا أفكّر هذا التفكير لأنّي أوروبيّ أو لشيء آخر من هذا القبيل. ولا أقول: إذا لم يحكم الأوروبي في المستقبل القريب، لا تهمّني حياة العالم. ولا يهمّني في شيء أن ينتهي حكم الأوروبي إذا وُجد اليوم فريق من الشعوب قادر على أن يحلّ محلّه في السلطة وإدارة الكوكب الأرضي. حتى أني لا أطالب بذلك؛ بل أقبل ألاّ يحكم أحد، إذا لم يجلب ذلك معه تبخّر قيم الإنسان الأوروبي ومواهبه كلّها.

والحال أن هذا الأمر الأخير لا مفرّ منه. فإذا تعوّد الأوروبي ألا يقود فسوف يكفي جيل، أو جيل ونصف جيل كيما تسقط القارّة العجوز والعالم كلّه إثرها في العطالة الخلقية والعقم الفكري والهمجيّة المعمّمة الطراز. وإنما هو الحلم بالسلطة وتنظيم المسؤولية المستوحاة منها يستطيعان أن يُبقيا نفوس الغرب في توتّر. أمّا العلم والفنّ والتقنية فهي تعيش من هذا الجو المنعش الذي يخلقه الوعي بمسألة الحكم والقيادة. فإذا ما افتُقر إلى هذا الوعي فإن الأوروبي يتّجه إلى الإسفاف. لقد أصبحت النفوس لا تمتلك هذا الإيمان الراسخ الذاتيّ الذي يقذف بها قويّة، جريئة عنيدة كيما تأسر الأفكار الكبرى والجديدة في كل مجال. ولسوف يصبح الأوروبي إنساناً عادياً بشكل نهائي. ولسوف يسقط مرّة أخرى في العادة والروتين لعجزه عن بذل جهد خلاّق ومترف. ولسوف يصبح مخلوقاً سوقةً مقولباً نفوراً كإغريق عصر الانحطاط، وكالبيزنطيّين طيلة تاريخهم كلّه.

والحياة الخلاّقة تستلزم ضمناً نظاماً ذا صحة عالية، وحصافة كبرى وحوافز دائمة تثير شعوراً بالكرامة. والحياة الخلاّقة حياة فعّالة، وهذه الحياة ممكنة في أحد موقفين: إمّا أن يكون المرء حاكماً، وإمّا أن يجد نفسه في عالم يحكم فيه أحدٌ ما نُقِرُّ له بالحقّ الكامل في هذه الوظيفة؛ إمّا أن أحكم وإمّا أن أُطيع. لكنّ الطاعة ليست رضوخاً ـ والرضوخ إسفاف -، بل هي على العكس من ذلك، تقديرُ من يحكم واتّباعه والتضامن معه، والانضواء تحت خفق رايته.

* * *

## ـ 5 ـ

من المناسب أن نعود الآن إلى نقطة الانطلاق في هذه المقالات: إلى الواقعة الطريفة جدّاً ـ واقعة الحديث هـذه الـسنوات عـن انحطـاط أوروبـا. والتفـصيل المدهش في أن هذا الانحطاط لم يلحظه الأجانب أوّلاً، وإنّما يعود اكتشافه إلى الأوروبيّين أنفسهم. ولمّا لم يكن يفكّر أحـد خـارج القـارّة العجـوز في ذلـك، خطرت لبعض الرجال في ألمانيا وإنكلترا وفرنسا هذه الفكرة الموحية: ألا نكون في بداية الانحطاط؟ وقـد حظيـت الفكـرة بـذيوع كـبير، وصـار النـاس كلّهـم يتحدّثون اليوم عن انحطاط أوروبا كواقع لا ريب فيه.

لكن، أوقفوا المنادي بها بإشارة خفيفـة واسـألوه: علـى أيّـة ظـاهرة معيّنـة وواضحة يقوم تشخيصه؟ ولسوف ترونه سريعاً يقوم بإيمـاءات غامـضة ويحـرّك ذراعيه صوب استدارة الكون، حركة تميّز كل غريق. فهو لا يعرف في الواقع، ما يتشبّث به. والشيء الوحيد الذي يظهـر مـن غـير دقّـة كـبيرة، إذا أريـد تعريـف الانحطاط الأوروبي الحالي، جملةُ الصعوبات الاقتصادية التي نجدها اليوم أمام كل بلد أوروبي. لكن، إذا اتجهنا إلى تحديد طابع هذه الصعوبات قليلاً، نلاحظ أن أيّاً منها لا يمسّ جديّاً القدرة على خلق الثروة، وأن القارّة العجوز قد اجتازت أزمات كثيرة أخطر منها في هذا المجال.

أهي مصادفة بحتة ألا يحسّ الألماني أو الإنكليزي بقدرته اليوم على الإنتاج أفضل وأكثر مما ذي قبلُ؟ ولا بأي شكل. لذلك يهمّنا كثيراً أن نصف حالة هـذا الألماني أو هذا الإنكليزي الروحيّة، في هذا البُعـد الاقتـصادي. لكـن الطريـف تحديـداً أن انحطـاط معنوياتهمـا الأكيـد لا يـنجم عـن أنهمـا يحـسّان بـضعف قدرتهما، وإنما على العكس من ذلك، هما لزيادة قدرتهما أكثر مما ذي قبـل، يتعثّران بهذه الحواجز المشؤومة التي تمنعهما من تحقيق ما يقـدران عليـه جيّـداً جداً.وإن حدود الاقتصاد الحالي الألماني والإنكليزي والفرنسيّ، المشؤومة هي الحدود السياسية لهذه الدول على التوالي. والصعوبات الحقيقيـة لا تكمـن إذاً، في هذه المشكلة الاقتصادية المطروقة أو تلك، وإنما في أن شكل الحياة العامّـة

التي ينبغي للقدرات الاقتصادية أن تتحرّك فيها، لا يتطابق وحجم هذه القدرات. وأنا أرى أن الشعور بالنقص والعجز الذي يعتمّ هذه السنوات بشكل لا يدحض على الحيوية الأوروبية، يتغذّى من الخلل في التناسب ما بين حجم القدرة الأوروبية الراهنة، وشكل التنظيم السياسي الذي ينبغي له أن ينشط فيه. وإن الانطلاق لحلّ المسائل الملحّة الخطيرة هو على الأغلب في قوّة ما كان عليه من قبلُ؛ لكنه سرعان ما يرتطم في الأقفاص الضيقة التي يسكنها، والدول الصغيرة التي تنظّم حياة أوروبا حتى اليوم. وإن التشاؤم أو الإحباط الذي يُثقل على روح القارّة اليوم يشبه كثيراً، إحباط طائر ذي جناح طويل يُجرح عند اصطفاق قوادمه الكبيرة على قضبان القفص.

والبرهان على ذلك، أن التركيب Combinación يتكرّر في سائر المجالات الأخرى التي تختلف جداً عواملُها في الظاهر عن العوامل الاقتصادية، كما في الحياة الفكرية مثلاً. فكلّ مفكر جيّد في ألمانيا وإنكلترا وفرنسا يحسّ بالاختناق في حدود دولته، ويحسّ بجنسيّته كأنها حدّ مطلق. وهكذا يدرك الأستاذ الألماني بوضوح أن أسلوب الإنتاج الذي يُضطرّه إليه جمهوره المباشر من الأساتذة الألمان، غيرُ معقول، وأنه يفتقد حريّة التعبير الكبرى التي يتمتّع بها الكاتب الفرنسي أو الباحث الإنكليزي. والعكس بالعكس. إذْ يأخذ رجل الأدب الفرنسي يدرك أن تُراث أناقة الأسلوب الأدبي ذي الشكليّة اللفظية التي حكم بها عليه أصله الفرنسي، قد جفّت ينابيعه، ولربّما آثر أن يدمجه ببعض قيم الأستاذ الألماني مع الحفاظ على خير سمات تراثه.

والشيء ذاته يحدث في مجال السياسة الداخلية. فلم تُحلّل حتى الآن تحليلاً عميقاً مسألة في غاية الغرابة، وهي: لِمَ تُحتضر الحياة السياسية لدى الأمم الكبرى جميعاً. يُقال إنّ المؤسسات الديمقراطية صارت سيّئة السمعة، لكن هذا ما يجب أن يُشرح حقاً. لأنّه سوء سمعة غريب. ويتحدّث الناس حديثاً سيّئاً عن البرلمان في كلّ الأنحاء. لكنّي لا أرى محاولة إبداله في أيّة ناحية ممّا يعدّون، حتى لا توجد صور يوتوبيّة لأشكال الدولة الأُخر تبدو مفضّلة على الأقل من الناحية المثالية. إذاً، لا ينبغي لنا أن نؤمن كثيراً بصحّة سوء السمعة النظري هذا.

وليست المؤسسات بصفتها أدوات للحياة العامّة، هي التي تسير سيراً سيّئاً في أوروبا، وإنّما المهام التي تستعمل فيها. ويُفتقر إلى برامج ذوات حجم يطابق الأبعاد الفعلية التي بلغتها الحياة داخل كلّ فرد أوروبي.

ها هنا خطأ في الرؤية يجب تصحيحه مرّة واحدة لأنه يبعث على الاشمئزاز سماع ترّهات تُقال كلّ ساعة بشأن البرلمان مثلاً. توجد سلسلة كاملة من الاعتراضات الهامّة على طريقة سلوك البرلمانات التقليدية. لكنّها لو أُخذت اعتراضاً اعتراضاً، لوجدنا أن أيّاً منها لا يسمح بالاستنتاج أن البرلمان يجب أن يُلغى، وإنّما على العكس، كلها تقود بطريق مباشر وواضح إلى ضرورة إصلاحه. وإن خير ما يُمكن أن يُقال إنسانيّاً عن شيء، هو حاجته إلى أن يُصلح، لأن ذلك يفترض ضمناً أنه ضروري، ولا غنى عنه، وأنه قادر على أن يحيا حياة جديدة. فقد خرجت السيارة الحاليّة من الاعتراضات المثارة حول سيارة 1910. لكنّ الازدراء المبتذل الذي أصاب البرلمان لا يأتي من هذه الاعتراضات. إذْ يُقال مثلاً، إنه غير فعّال. وعلينا أن نسأل حينئذ: ولأيّ شيء هو غير فعّال؟ لأن الفعالية قيمة تمتلكها أداة ما وصولاً إلى هدف. وقد يكون الهدف في هذه الحالة حلّ المشاكل العامّة للبلد كلّه. لذلك نطلب بشدّة ممّن يعلن عدم فعالية البرلمانات أن يكون لديه هو فكرة واضحة عن حلّ المشاكل العامة الراهنة. لأنه، إذا لم يكن واضحاً في أيّ بلد ولو نظريّاً، أين يكمن ما ينبغي لنا أن نعمله، فلا معنى لاتّهام الأدوات المؤسسيّة بعدم الفعاليّة. بل خير من ذلك التذكير أن مؤسسة ما لم تخلق في التاريخ قطّ دولاً أقوى وأكثر فعالية من الدول البرلمانية في القرن 19. والواقعة جدّ ثابتة حتى أن نسيانها دليل على حماقة صريحة. فلا نخلط إذاً، ما بين إمكانيّة إصلاح الجمعيّات التشريعية وضرورتها لجعلها "أكثر" فعالية، وبين إعلان عدم فائدتها.

ولا علاقة لسوء سمعة البرلمانات بعيوبها الواضحة. وسوء السمعة يأتي من علّة أخرى غريبة غربة كاملة عنها بصفتها أدوات سياسية. بل تأتي من أنّ الأوروبي لا يعرف فيما يستعملها ولا يحترم أهداف الحياة العامّة التقليدية. باختصار، من أنه لا يحسّ بانخداعه بالدولة القومية التي هو منخرط فيها

وأسيرها. وإذا نظرنا بشيء من الانتباه إلى سوء السمعة هذا، فإن ما نـراه هـو أنّ المواطن في غالب البلدان لا يحـسّ بـالاحترام لدولتـه، وسـيكون عبثـاً تبـديل تفاصيل مؤسساتها، لأن ما ليس جديراً بالاحترام ليس هـذه المؤسـسات وإنّمـا الدولة ذاتها التي ظلت طفلة.

وإذا تعـسّرت علـى الأوروبي أول مـرة، مـشاريعُه الاقتـصادية والـسياسية والفكرية، في حدود دولته - يحـسّ أن تلـك، أي، إمكانيّـات حياتـه وأسـلوبه الحيوي ـ لا تتناسب بشكل خطير وحجـم جـسمه الجمـاعي المحتـبس داخلـه. ويكتـشف حينئـذ أن كونـه إنكليزيّـاً أو ألمانيّـاً أو فرنـسيّاً يجعلـه ابـن إحـدى المحافظات. ويجد نفسه إذاً، أنه "أقلّ" شـأناً عمـا ذي "قبـل"، لأن الإنكليـزي والفرنسي والألماني كانوا يحسون من قبل وكلّ منهم بذاته أنهم العالم. ويبدو لي أن هذا هو أصل هذا الشعور بالانحطاط الذي يقلق الأوروبي. بالتالي، هو أصلٌ حميم ومتناقض على شكل خالص، لأن الزعم بالتضاؤل ينـشأ تحديـداً مـن أن قدرته قد نمت وارتطمت في تنظيم قديم لا مكان له فيه.

ولإضفاء دعم مرن يوضّح ما قلناه، خذوا أي نشاط معين؛ وليكن صـناعة السيارات مثلاً. فالسيارة اختراع أوروبي محض، ومع ذلك نرى صناعة هذه الآلة متفوّقة اليوم في أمريكا الشمالية. والنتيجة: السيارة الأوروبية في انحطـاط. ومـع ذلك، يعلم جيّداً جدّاً صانعُ الـسيارات الأوروبي ـ أكـان صـناعيّاً أو تقنيّـاً ـ أن تفوّق المُنتج الأمريكي لا يأتي من أيّة قيمة نوعيّة يتمتّع بها رجل ما وراء البحـار. وإنّما يأتي ببساطة من أن المصنع الأمريكي يمكنه أن يعرض منتجه من غـير قيـد ما على مائة وعشرين مليوناً من البشر. وتصوّروا مصنعاً أوروبياً يـرى نفـسه إزاء منطقة تجارية تشكلها الدول الأوروبية كلها ومستعمراتها ومحميّاتها. ولن يـشك أحد في أن هذه السيارة المعدّة لخمسمائة أو ستمائة مليون من البـشر، سـتكون خيراً من سيارة "الفورد" وأرخص منها. وكلّ المزايا الخاصّة بالتقنية الأمريكية هي يقيناً نتائج وليست عللاً لاتّساع سوقها ولتجانسه. وإن "عقلنة" الصناعة نتيجة آلية لحجمها.

وإن وضع أوروبا الصحيح يكاد يكون ما يلي: لقد جعلها ماضيها الرائع الطويل تبلغ مرحلة من الحياة جديدة حيث كلّ شيء قد نما. لكن البنى الباقية على قيد الحياة من هذا الماضي هي في آن واحد قَزِمة وتمنع التوسع الحالي. وقد تشكلت أوروبا من دول صغيرة. وقد كانت الفكرة والشعور القوميّان بشكل ما أخصب اختراعاتها. وترى الآن نفسها مضطرّة إلى تجاوز نفسها. هذا هو مخطّط الدراما الضخمة التي ستمثُل في السنين القادمة. أو سوف تعرف أن تتخلّص من بقايا الماضي أم ستظلّ أسيرتها إلى الأبد؟ لأنه قد حصل في التاريخ أن ماتت ذات مرة حضارة كبيرة لأنها لم تستطع تغيير تصوّرها التقليدي للدولة.

***

## - 6 -

لقد حكيت في مكان آخر عن جمود العالم الإغريقي الروماني وموته؛ وإني أحيل إلى ما قلته هناك فيما يخصّ بعض التفاصيل[1]. لكنّنا نستطيع أن نتناول الآن الموضوع تحت مظهر آخر.

ظهر الإغريق والرومان في التاريخ مقيمين في الحواضر، المدن POLEIS، إقامة النحل في خلاياه. وهذه واقعة تحتاج إلى أن نتناولها في هذه الصفحات على أنها مطلقة وذات منشأ غامض؛ واقعة يجب الانطلاق منها من غير اعتبار ما، كعالِم الحيوان ينطلق من معطى أوّلي وغير مفهوم يقول إن ذبابة النمس sphex تعيش منعزلة شاردة مهاجرة، بينا النحلة الشقراء لا تعيش إلاّ في جماعة تبني الشهد[2]. والحال هو أنّ الحفريّات وعلم الآثار تسمح لنا أن نرى شيئاً ممّا كان في أرض أثينا وفي أرض روما قبل أن توجد أثينا وروما. لكنّ الانتقال من ما قبل التاريخ هذا، وهو ريفيّ محض ومن غير طابع نوعي، إلى نشأة المدينة، وهي ثمرة من نوعٍ جديد جادت به أرض شبه الجزيرتين كلتيهما، ما يزال سرّاً؛ وليست واضحةً القرابةُ العرقية بين تلك الشعوب ما قبل التاريخية وبين هذه الجماعات الغريبة التي أضافت إلى كنوز التاريخ إبداعاً جديداً: وهو بناء مساحة عامّة وحولها مدينة مغلقة على الريف. لأن التعريف الأصحّ للحاضرة La polis يشبه في الواقع كثيراً التعريف الذي يطلق بسخرية على سبطانة مدفع: خذْ يا سيدي، ثقباً وأحطه بحديد مضغوط جداً تحصل على سبطانة. وهكذا حال الحاضرة أو البوليس التي بدأت بكونها فراغاً، هو الساحة foro أو الآغورا، وكلّ ما خلا ذلك كان ذريعة لتأمين هذا الفراغ، ولتحديد مخطّطه. فلم تكن المدينة في البداية مجموعة من البيوت القابلة للسكن، وإنّما كانت تجمّعاً مدنيّاً ومجالاً

(1) انظر بحثنا: "حول موت روما"، في El Espectador ـ مؤلّف VI.- المؤلِّف.

(2) هذا ما يقوم به العقل الفيزيقي والبيولوجي، "العقل الطبيعي"، مبيّناً بذلك أنه أقل معقولية من "العقل التاريخي". لأن هذا العقل الأخير إذا عالج الأشياء بعمق وليس عَرَضاً كما فعلنا في هذه الصفحات، ينكر الإقرار بأية واقعة على أنها مطلقة. في نظره، تعقّل واقعة هو إماهتها باكتشاف أصلها. ـ انظر للمؤلف بحثه: التاريخ منظومةً (أو نسقاً). ـ المؤلف.

محدّداً من أجل وظائف عامّة. فلم تُقَم الحاضرة كما يُقام الكوخ domus للاحتماء من قسوة المناخ وللتناسل، وهما حاجتان خاصتان وعائليّتان، وإنّما لمناقشة الأمر العام. ولا حِظوا أن هذا المعنى لا يقلّ عن ابتكار نوع جديد من المكان، بل أكثر جدّة من مكان إينشتاين. حتى ذلك الحين كان يوجد مكان (مجال) وحيد، وهو الريف، وكانت الحياة تتمّ فيه مع كلّ النتائج التي يجلبها ذلك على كيان الإنسان. وكان الإنسان الريفي ما يزال جامداً جمود النبات. وكان وجوده وكلّ ما يفكّر فيه ويحسّ به ويريده الحفاظَ على السبات اللاواعي الذي يعيش فيه النبات. وبهذا المعنى كانت الحضارة الآسيوية والأفريقية الكبرى نباتية مجسّمة بأشكال بشرية. لكن الإغريقي اللاتيني عزم على الانفصال عن الريف، عن "طبيعة" الكون الجيونباتي. فكيف صار ذلك ممكناً؟ كيف استطاع الإنسان الانسحاب من الريف؟ وأين عساه يذهب إذا كان الريف مِلءَ الأرض، إذا كان اللامحدود! وكان الأمر بسيطاً جدّاً: ذلك بتحديد قطعةَ من الريف بوساطة جدران تعترض ما بين المكان المحصور والمحدود، والمجال غير محدود الشكل ومن غير نهاية. ها هنا الساحة. وهي ليست كالبيت "داخلاً" مغلقاً من فوق، وشبيهاً بالكهوف الموجودة في الريف، وإنما هو نفي للريف ببساطة وعلى شكل محض. وكانت الساحة بفضل الجدران التي تحدّها قطعة من ريف أشاحت بوجهها عن البقية واستغنت عنها وعارضتها. وهذا الريف الأصغر والمتمرّد الذي مارس قطيعة مع الريف اللامحدود وحافظ على نفسه في مواجهته، هو ريف مُلغى، وبالتالي هو مكان فريد sui generis، وجديد غاية الجدّة يتحرّر فيه المرء من كلّ اتّصال بالنبات والحيوان ويدعهما خارجه ويخلق بيئة منفردة وإنسانية بحتة. إنه المكان المدني. لذلك قال سقراط المدني الكبير وخلاصة عصارة مثلّثة أفرزتها المدينة: " أنا لا علاقة لي بالأشجار في الريف؛ وإنما هي علاقتي برجال المدينة". فماذا عرف من ذلك الهنديّ أو الفارسيّ أو الصيني أو المصري؟

كان تاريخ اليونان وروما حتى عصر الإسكندر وقيصر قائماً على صراع لايني بين هذين المكانين: بين المدينة العقلانية، والريف النباتي، بين القانوني والفلاّح، بين القانون ius وبين الريف rus.

ولا تحسبوا أصل المدينة هذا من اختراعي وتقابله حقيقة رمزية فحسْب. لأن سكّان المدينة الإغريقية اللاتينية يحتفظون بإلحاح نادر في أوّل طبقة من ذاكرتهم وأعمقها بذكرى الـ Synoikismos، ولا حاجة إذاً، إلى اللجوء إلى النصوص، بل يكفي أن نترجم الـ Synoikismos: إنها اتفاق على السعي للعيش معاً. بالتالي هو تجمّع مدني بالمعنى المزدوج لهذه الكلمة فيزيقياً وقانونيّاً. فقد خَلَف التمركز المدني في المدينة التبعثرَ النباتيّ في الريف. والمدينة هي بيت فائق super، هي تجاوز للبيت وللعشّ ما دون البشري. إنها خلق كيان أكثر تجريداً وأعلى من البيت oikos العائلي. إنها "الدولة" república ـ المدينة politeia التي لا تتكوّن من رجال ونساء وإنّما من مواطنين ciudadanos (مدنيين). إنها بُعد جديد غير عائد للأبعاد البدائية والأقرب إلى الحيوان، يُقدّم للوجود البشري؛ وفيه سيضع مَن كانوا مِن قبلُ بشراً فقط، خيرَ ما لديهم من طاقات. وبهذه الطريقة نشأت المدينة، ثم صارت دولة بعد ذلك.

وقد دلّل ساحل المتوسط كلّه بشكلٍ ما دائماً على ميل تلقائي إلى هذا النموذج من الدولة. وقد كرّر الساحل الإفريقي (قرطاج = المدينة) الظاهرة عينها بنقاء يكثر أو يقلّ. ولم تخرج إيطاليا حتى القرن 19 من نطاق الدولة ـ المدينة، وقد سقطت ليبانته Levante عندنا ما استطاعت في "الكانتونيّة" التي هي طعم كريه من ذلك المَيل القديم[1].

إن الدولة ـ المدينة تسمح بأن نرى بسبب قلّة عناصرها ما هو نوعيّ في مبدأ الدولة. فكلمة Estado = دولة تشير من جهة إلى أن القوى التاريخية وصلت إلى تركيب متوازن، تركيب متوافق. وبهذا المعنى، هي تعني نقيض حركة تاريخية: فالدولة هي تعايش مستقر، ومكوّن ساكن. لكنّ هذا الطابع من عدم الحركة، وهذا الشكل الهادئ والمحدود يخفي مثل كل توازن، الديناميّة التي تنتج الدولة

(1) قد يكون هاماً تبيان كيف أن ميلين متناقضين عملا في قطالونيا: الوطنيّة الأوروبية، والمواطنة البرشلونيّة التي ظلّ فيها ميل الإنسان المتوسطّي القديم حيّاً دائماً. ولقد سبق لي أن قلت: الليبانتي هو من بقايا الإنسان القديم Homo antiquus الذي كان في شبه الجزيرة الإيبرية. ـ المؤلف.

وتدعمها. ويجعلنا ننسى باختصار، أن الدولة المتكوّنة ما هي غير نتيجة حركة سابقة من الصراع والجهود التي كانت تتجه إليها. ويسبق الدولةَ المتكوّنةَ، الدولةُ المكوِّنةُ، وهذا هو مبدأ الحركة.

وأريد القول بذلك إن الدولة ليست شكلاً من مجتمع يجده المرء مُعطى له ومُهدى إليه، بل يحتاج إلى أن يشكّله بعناء. وهي ليست العشيرة أو القبيلة ومجتمعات أخرى شبيهة بها قائمةً على القرابة الدموية التي تتولّى الطبيعة صنعها من غير معونة جهدٍ بشري. وإن الدولة على النقيض من ذلك، تبدأ حين يرغب المرء رغبة ملحّة في الهرب من المجتمع الأصلي الذي جعله الدم يندرج فيه. ومن يقلْ بالدم يقل أيضاً بأيّ مبدأ طبيعي آخر، كاللغة مثلاً: والدولة تقوم في الأصل على امتزاج الدماء والألسن. إنها تجاوز لكلّ مجتمع، وهي خلاسيّة ومتعدّدة الألسن.

هكذا تُولد المدينة من اجتماع شعوب شتّى. وتبني فوق التنوّع الحيوي تجانساً قانونيّاً مجرّداً. بالطبع، ليست الوحدة القانونية الهدف الذي يدفع الحركة خالقةَ الدولة. بل الدافع جوهريّ أكثر من كلّ حقّ، بل الهدف مشاريع حيوية أعظم مما هو ممكن في المجتمعات الصغرى القائمة على القرابة الدموية. وإننا نرى في أصل كلّ دولة أو نلمح دائماً صورة مقاول كبير.

ولو راقبنا الوضع التاريخي الذي يسبق مباشرة ولادة دولة ما، لوجدنا دائماً المخطّط التالي: جماعات شتى صغيرة تكوّنت بنيتها الاجتماعية كيما تعيش كل منها باتجاه داخل ذاتها. وإنّ الشكل الاجتماعي لكلّ منها يصلح فقط من أجل تعايش داخلي. وهذا يدلّ على أنها عاشت في الماضي منعزلة فعلاً عن بعضها، كلّ منها بذاته ولذاته ما عدا احتكاكات استثنائية عند التخوم. لكنّ تعايشاً خارجيّاً خاصةً اقتصادياً خلف في الواقع هذه العزلة الفعلية. وأصبح الفرد في كلّ جماعة لا يعيش فقط منها، وإنما يرتبط جانب من حياته بأفراد من جماعات أُخر يتاجر معهم سوقيّاً وفكرياً. ويحدث خلل في التوازن ما بين تعايشين: التعايش الخارجي والتعايش الداخلي. فيشجّع الشكل الاجتماعي المستقرّ ـ حقوق و"عادات" ودين ـ التعايش الداخلي ويعيق الخارجي الأوسع مدى والجديد.

ومبدأ الدولة في هذه الحالة هو الحركة التي تقود إلى إفناء أشكال التعايش الداخلي، الاجتماعية، مُبدلاً بها شكلاً اجتماعيّاً موائماً للتعايش الخارجي الجديد. ولو طُبِّقَ هذا الأمر على اللحظة الأوروبية الراهنة لاكتسبت هذه التعابير المجرّدة شكلاً ولوناً.

لا تُخلق دولة إذا كانت أذهان بعض الشعوب غير قادرة على التخلّي عن بنية شكلٍ من التعايش تقليدية، فضلاً عن فقدانها القدرة على تصوّر بنية أخرى لم توجد قطّ. لكن ذلك إبداع حقّ: فالدولة تبدأ بأن تكون عملاً تخيليّاً مطلقاً. والخيال هو القدرة المحرّرة التي يمتلكها الإنسان. وإن شعباً يكون قادراً على خلق دولة بمقدار ما يعرف أن يتخيّل، لذلك كان للشعوب جميعاً حدّ في تطوّرها باتجاه الدولة، وهو بالضبط الحدّ الذي تفرضه (الطبيعة) على خيالها.

وإذا كان الإغريقي والروماني قادرين على تخيّل المدينة التي انتصرت على تبعثر الريف، فإنّهما توقّفا عند جدران الحواضر. وقد وُجد من أراد أن ينقل الأذهان الإغريقية والرومانية إلى أبعد من ذلك، وُجد من حاول تحريرها من المدينة، لكنه كان جهداً باطلاً. وقد تولّى انغلاقُ الخيال الروماني المُمثَّل ببروتس، أمرَ اغتيال قيصر، وهو أكبر أخيلة العصور القديمة. لا يهمّ الأوروبيّين كثيراً أن يتذكّروا اليوم هذا التاريخ. لأن تاريخنا قد بلغ هذا الفصل ذاته.

* * *

أمّا الأذهان الصافية، ممّا نعنيه بذهن صافٍ، فلم يوجد منها في العالم القديم سوى ذهنين على الأرجح: هما تِميسْتوكلِس Temistocles وقيصر Cesar. والاثنان كلاهما سياسي. والأمر يبعث على الدهشة، لأن السياسي بعامّة، وإن يكن مشهوراً، يصير سياسيّاً تحديداً لأنه غبي [1]. لقد وُجد في اليونان وروما بلا ريب رجال ـ فلاسفة وعلماء رياضيات وطبيعة ـ فكّروا تفكيراً واضحاً في أمور كثيرة. لكن وضوحهم كان من طبيعة علمية، أي وضوح يخصّ أشياء مجرّدة. وكلّ الأشياء التي يتحدّث عنها العلم ويريدها، مجرّدات. والأشياء المجرّدة واضحة دائماً على شكل لا يكون الوضوح العلمي في ذهن من يمارس العلم كما هو في الأشياء التي يتحدث عنها. أمّا الغامض والمعقّد أساساً فهو الواقع الحيوي المعيّن الذي يكون فريداً دائماً. فمن يكن قادراً على التوجّه إليه بدقّة، ومن يلمح وسط الفوضى التي يمثلها كلّ موقف حيوي تشريح اللحظة السريّ، ومن لا يتُهْ، باختصار، في دروب الحياة هو حقاً ذهن صافٍ. لاحظوا من يحيطون بكم، تروا كيف يتقدّمون ضائعين في الحياة، ويسيرون كالمسرنمين ضمن حسن حظّهم أو سوئه، من غير أدنى فكرة لديهم عمّا يحدث لهم. تسمعونهم يتكلّمون بصيغ مبتسرة عن أنفسهم وعن محيطهم، ممّا يدل على أنهم يمتلكون أفكاراً حول ذلك كلّه. لكنكم لو حلّلتم تحليلاً مختصراً هذه الأفكار، تلاحظون أنها لا تعكس في قليل أو كثير، الواقع الذي يبدو أنها تشير إليه؛ ولو تعمّقتم في التحليل كثيراً لوجدتم أنها لا تنطبق على ذلك الواقع. بل إن الفرد على نقيض ذلك كلّه يحاول أن يعترض بها سبيل رؤيته الخاصّة للواقع ولحياته ذاتها. لأن الحياة بصفة مؤقتة فوضى يتوه فيها المرء الذي يحس بهذا التيه، لكنّه يفزعه أن يجد نفسه وجهاً لوجه وهذا الواقع الرهيب، فيحاول أن يُخفيه بستارة شبحية حيث كلّ شيء واضح. ويسحره من غير حذر ما أن تكون "أفكاره" غير حقيقية؛ ويستعملها متاريس ليحمي حياته وكأنّها فزّاعات لطرد الواقع.

---

(1) إن معنى هذا التأكيد الخشن الذي يفترض فكرة واضحة عمّا هي السياسة، كل سياسة سيئةً كانت أم "حسنة"، تجده في بحث سوسيولوجي للمؤلف بعنوان: الرجل والناس. ـ المؤلف.

أمّا الإنسان ذو الذهن الصافي، فهو من يتحرّر من هذه "الأفكار" الوهمية وينظر إلى الحياة مواجهة، ويدرك أن كلّ ما فيها إشكاليّ ويحس بنفسه ضائعاً. وإذا كانت هذي هي الحقيقة خالصة، أي أن الحياة شعور بالضياع، فإنّ من يقبل تحدّي ذلك، فقد بدأ يعثر على نفسه، وبدأ يكتشف واقعه الحقيقي، ويقف على أرض صلبة. فيبحث غريزياً، كما الغريق نفسه عن شيء يتشبّث به، وتجعله هذه النظرة المأساويّة الصارمة والصادقة صدقاً مطلقاً لأنها تتعلّق بالنجاة، ينظّم فوضى حياته. هذي هي وحدها الأفكار الحقيقية: أفكار الغرقى. وما خلا ذلك بلاغة ومراهنة ومهزلة محضة. فمن لا يشعر بنفسه ضائعاً حقاً، فإنه يضيع لا محالة. أي، أنه لا يجد نفسه ولن يعثر أبداً على واقعه ذاته.

ويصحّ هذا في كلّ المجالات، حتى في المجال العلمي، على كون العلم هرباً من الحياة عادة. (لأن الجانب الأعظم من رجال العلم انكبّوا على العلم خوفاً من مواجهتهم حياتهم. هم ليسوا أذهاناً صافية، ومن هنا تعثّرهم الجليّ إزاء أي موقف معيّن). وأفكارنا العلمية صالحة بمقدار ما نشعر بأنفسنا ضائعين إزاء مسألة نرى فيها طابعها الإشكالي، وندرك أننا لا نستطيع الاعتماد على أفكار متلقّاة ولا وصفات ولا شعارات ولا كلمات. ومن يكتشف حقيقة علمية، فقد اضطرّ إلى أن يسحن من قبلُ كلَّ ما كان تعلّمه تقريباً، ويبلغ هذه الحقيقة العلمية ويداه داميتان لأنه يكون ذبح ما لا يُحصى من الأفكار الشائعة المطروقة.

والسياسة أكثر واقعيّة من العلم كثيراً، لأنّها تتألّف من مواقف فريدة يجد المرء نفسه فجأة غارقاً فيها، شاء أم أبى. لذلك كانت الموضوع الذي يتيح لنا التمييز على شكل أفضل من هم أذهان صافية ممن هم أذهان روتينيّة.

وقيصر هو المثل الأعظم الذي نعرفه يتمتّع بموهبة كيما يجد صورة الواقع الجوهرية في لحظة من الاضطراب المخيف، وفي ساعة هي أحلك الساعات فوضوية كانت عاشتها البشرية. وكأنما القدر قد سُرَّ بأن أبرز عظمة المثال في وضع رأس مفكر رائع إلى جانبه، ألا وهو شيشرون Ceceron المنكبّ طيلة وجوده كله على خلط الأشياء ببعضها.

وقد كان فرْطُ الثروة فكّك الهيئة السياسية الرومانية. وكانت مدينة روما [1]، سيّدةُ إيطاليا وإسبانيا وأفريقيا الصغرى والشرق التقليدي والهيلّيني، على شفا الانفجار. وكان لمؤسساتها العامّة جيران كثيرون ملحقون بها [2]، ما كان بالإمكان فصلهم عن المدينة (أي عن روما)، كما كانت حوريّات الغابات amadriadas لاصقة بالشجرة التي ترعاها، وإلا تعرّضت للهلاك.

وإن صحّة الديمقراطيات أيّاً يكن نموذجها ودرجتها مقيّد بتفصيل تقنيّ بسيط: هو العمليّة الانتخابيّة. وكلّ ما عدا ذلك ثانويّ. فإذا كان نظام الاقتراع موفّقاً، وإذا تطابق مع الواقع، فكلّ شيء يسير سيراً حسناً؛ وإمّا لا، فكلّ شيء يسير سيراً سيّئاً ولو سارت البقيّة على شكل أمثل. لقد كانت روما في بداية القرن الأوّل قبل الميلاد كليّة القدرة وثريّة، ولم يكن لها أعداء يقفون في مواجهتها. ومع ذلك، كانت على وشك أن تموت لأنها تعنّتت في الحفاظ على نظام انتخابي أحمق. ويكون نظام انتخابي أحمق إذا كان زائفاً. إذْ كان يجب أن يتمّ الاقتراع في المدينة. وما كان بمُستطاع مواطنيّ الريف أن يحضروا إلى صناديق الاقتراع، وكان أقلَّ قدرةً منهم على الحضور أولئك الذين كانوا يعيشون موزّعين في أنحاء العالم الروماني. وإذْ كانت الانتخابات والحالة كذلك، محالة، فكان لا مناص من تزويرها. وكان المرشّحون ينظّمون مباريات بالنبّوت بين أبطال من الجيش ورياضييّ السيرك الذين كانوا يتولّون أمر تحطيم صناديق الاقتراع.

فمن غير دعم يأتي من الاقتراع الحقيقي تصبح المؤسسات الديمقراطية معلّقة في الهواء. وفي الهواء الكلمات. و "الجمهورية ما هي غير كلمة"، والتعبير لقيصر. وما كانت تتمتّع أية هيئة قضائية بالسلطة. وكان جنرالا اليسار و اليمين ـ ماريوس وسيلا ـ يُسفّان في ديكتاتوريات فارغة ما كانت تقود إلى شيء.

---

(1) في النص: المدينة التيبِرية نسبة إلى نهر التيبِر الذي تقع عليه روما. ـ المترجم.

(2) municipal نسبة إلى municipio. في التقسيمات الرومانية مدينة حرّة يتمتّع جيرانها بحكم الجوار فقط ـ بحقوقها ذاتها. ـ المترجم.

ولم يشرح قيصر قطّ سياسته، وإنّما حرص على صنعها. وقد شاءت المصادفة أن يكون قيصر تحديداً وليس كتاباً عن القيصرية الذي يأتي في العادة لاحقاً. وإذا أردنا فهم سياسته فلا مفرّ لنا من أن نتناول أعماله ونسمّيها باسمه. والسرّ في مأثرته العظمى غزو بلاد الغال. وكان عليه كيما يباشر هذا الغزو أن يعلن تمرّده على السلطة العامّة. ولِمَ؟

كان الجمهوريّون يشكلون السلطة. وهم المحافظون الأوفياء للدولة ـ المدينة. ويمكن تلخيص سياسته (سياسة قيصر) في عبارتين. أولاهما، إن اضطراب الحياة العامّة الرومانية يجيء من توسّعها المفرط. فليس بمستطاع المدينة أن تحكم كلّ هذه الأمم. وكلّ غزو جديد كان جنحة ترتكبها هذه الجمهورية. وثانيتهما، إن الحاجة كانت ماسّة إلى أمير príncipe تحاشياً لانحلال المؤسسات.

نحن نرى في كلمة أمير معنى معاكساً تقريباً للمعنى الذي كان يراه رومانيّ. وهذا الأخير كان يفهم منها مواطناً كالآخرين بالضبط، لكنّه مزوّد بسلطات عليا كيما ينظّم عمل مؤسسات الجمهورية. يلخّص شيشرون في كتابه "الجمهورية" وسالوستيو في مذكراته لقيصر، تفكير اختصاصيّيّ القانون جميعاً، مطالبيّن بأمير مدني princips civitatis، ومدير للشؤون العامة rector rerum publicarum، و منظّم moderator.

وكان حلُّ قيصر مناقضاً كليّاً لحلّ المحافظين. وأدرك أنه لا مناص له من متابعة الغزو كيما يعالج شرور الغزوات السابقات، راضياً حتى النهاية بهذا المصير القوي. وكانت الحاجة ماسّة على وجه خاصّ، إلى غزو الشعوب الجديدة الأشدّ خطراً في مستقبل ليس بعيداً، من الأمم الفاسدة في الشرق. وكان قيصر يؤكّد الحاجة إلى رومنة الشعوب البربريّة في الغرب بعمق.

ولقد قيل، (اشبنغلر)، إن الإغريق والرومان كانوا عاجزين عن الشعور بالزمن، عاجزين عن رؤية حياتهم امتداداً في الزمنيّة. بل كانوا موجودين في حاضر دقيق. وأنا أحسب هذا التشخيص خاطئاً، أو على الأقل، هو يخلط شيئين ببعضهما. فالإغريقي الروماني كان يعاني عمىً مدهشاً عن المستقبل. فلم

يكن يراه كما الدالتونية التي لا ترى اللون الأحمر. لكنه في المقابل كان يعيش متجذراًّ في الماضي. فكان يخطو خطوة إلى الوراء قبل أن يصنع شيئاً، مثل ضبّ ينزوي ليموت. إنه يبحث في الماضي عن نموذج من أجل الوضع الحالي ويغوص في الوقت الحاضر منتفخاً بروح الماضي، تحميه وتشوّهه آلة الغوص الرائعة. لذلك كانت حياته كلّها بشكل ما، إعادة حياة. وهذا هو التهافت، وهذا ما كان عليه القديم دائماً. ولا يعني ذلك فقدان الإحساس بالعصر. بل يعني ببساطة تزمّناً ناقصاً مقصوص الجناح المستقبلي مع ضخامة بماضي الأزمنة. أمّا نحن - الأوروبيّين ـ فقد ملنا بثقلنا دائماً باتجاه المستقبل، وإنّنا نحسّ بأن المستقبل هو البعد الأكثر نفاسة في الزمن الذي يبدأ في نظرنا بـ "البَعْد "، وليس في "القَبْل". فإذا نظرنا إلى الحياة الإغريقية الرومانية بدت لنا غير زمنية.

وإن شبه الهوس هذا بتناول كلّ حاضر بملاقط ماضٍ نموذجي، انتقل من الإنسان القديم إلى الفيلولوجيّ المعاصر. والفيلولوجي هو أيضاً عَمٍ عن المستقبل. وهو الرجعيّ أيضاً يبحث لكل حاضر عن ماضٍ سابق له يسميه "ينبوعه"، وهي كلمة غنائية رعوية. أقول هذا القول لأن كتّاب سيرة قيصر القدماء انغلق عليهم فهم هذه الشخصية الكبيرة مفترضين أنه كان يحاول السير على نهج الإسكندر. وقد فرضت المعادلة نفسها: إذا كان الإسكندر ما كان يستطيع النوم وهو يفكّر في أمجاد ميليثيادس فإن قيصر كان ينبغي له بالضرورة أن يعاني الأرق بسبب الإسكندر. وهكذا على التوالي. والخطوة دائماً إلى الخلف، والقدم في الحاضر على إثْر الماضي. أمّا الفيلولوجيّ المعاصر فهو انعكاس لكاتب السيرة الكلاسيكي.

والإيمان بأن قيصر كان يتطلّع إلى أن يصنع شيئاً شبيهاً بما صنعه الإسكندر ـ وهذا ما آمن به كلّ المؤرّخين تقريباً ـ هو رفض فهمه رفْضاً تامّاً. لأنّ قيصر نقيض الإسكندر على وجه تقريبي. والشيء الوحيد الذي يجمعهما هو فكرة المملكة العالميّة. لكنّ هذه الفكرة لم تكن فكرة الإسكندر، بل كان مصدرها فارس. ولو كان كذلك، لكانت دفعت صورةُ الإسكندر قيصَر باتجاه الشرق، اتّجاه الماضي الذائع الصيت. وإنّ تفضيله جهة الغرب بشكل قاطع تكشف

بالحريّ، عن إرادته في أن يكون نقيض المكدوني. وفوق ذلك، ما كان يهدف إليه قيصر ليس مملكة عالميّة فحسْب. بل كان هدفه أعمق من ذلك. أراد إمبراطورية رومانية لا تعيش من روما، وإنّما من المحيط المشكّل من الأقاليم. وهذا يستلزم تجاوز الدولة ـ المدينة تجاوزاً مطلقاً: دولة يتعاون فيها مختلف الشعوب، ويشعرون فيها جميعاً بالتضامن: وليس مركزاً يأمر ومحيطاً يطيع، وإنّما جسم اجتماعي عملاق حيث كل عنصر من عناصر الدولة يكون فرداً سلبيّاً وإيجابياً في آن واحد. وهذي هي الدولة العصرية، وهذا ما كان من سَبْق عبقريته المستقبلية، الأسطوري. لكنّ ذلك كان يفترض ضمناً سلطةً خارج روما، ومناهضةً للأرستقراطية وأعلى بشكل غير محدود من الأوليغارشية الجمهورية، أعلى من أميرها príncipe الذي لم يكن سوى أوّل بين نظائر له. وهذه السلطة المنفّذة للديمقراطية العالميّة وممثّليها ما كان يمكن أن تكون غير الملكيّة، ومقرّها خارج روما.

جمهورية! ملكيّة! كلمتان يتغيّر معناهما (الحقيقي) في التاريخ باستمرار. لذلك كان لزاماً أن تُدرسا بدقّة في كل لحظة للتأكّد من صحّتهما المحتملة.

ولم يكن رجال ثقته، أدواتُه الأقرب إليه، صوراً متهافتة من المدينة؛ بل كانوا ناساً جدداً من أبناء الأقاليم وأشخاصاً أقوياء فعّالين. وكان وزيره الحقيقيّ كونيليو بالبو، وهو تاجر من قادش وأطلسيّ، ومن أبناء "المستعمرات" "Colonial".

لكن استباقه الدولة الجديدة كان مُفْرطاً: فما كان بمُستطاع الأذهان البطيئة في اللاتيوم [1] أن تقفز قفزة جدّ كبيرة. فقد منعت صورة المدينة بمادّيتها الملموسة الرومان من أن "يروا" ذلك التنظيم البالغ الجدّة في الحياة العامّة. فأنّى لرجال كانوا يعيشون في مدينة أن يشكلوا دولة؟ وأيّ نوع من الوحدة، هذه الوحدة الرقيقة جداً، وكأنها صوفية؟

(1) منطقة في إيطاليا بين توسكانيا وكامبانيا، عاصمتها روما ـ وكانت قلب الإمبراطورية الرومانية. ـ المترجم.

أكرّر مرّة أخرى: إن الواقع الذي نسمّيه دولة ليس تعايشَ بشرٍ جمعت بينهم رابطةُ الدم تعايشاً تلقائيّاً. والدولة تبدأ حين يُكره على التعايش فئات معزولة عن بعضها بالولادة. وهذا الإكراه ليس عنفاً خالصاً بل يفترض ضمناً مشروعاً بدئيّاً ومهمة مشتركة يُطرح على الفئات (أو المجموعات) المختلفة. والدولة هي قبل كلّ شيء مشروع عمل وبرنامج تعاون. هي دعوة الناس ليعملوا شيئاً ما معاً. وهي ليست رابطة دموية ولا وحدة لغوية، ولا وحدة أرض ولا تلاصقاً في السكن. وهي ليست شيئاً خاملاً معطى ومحدوداً. إنها دينامية بحتة، هي الإرادة في صنع شيء بالمشاركة. وفكرة الدولة بفضل ذلك، ليست محدودة بحدّ فيزيقيّ ما [1].

كان شعار (سآبيدرا فاخاردو) المعروف بذكائه الشديد سهماً كُتب تحته "إمّا أن يصعد أو يهوي". وهذي هي الدولة. ليست شيئاً بل حركة. والدولة في كلّ لحظة شيء (يأتي من) ويتّجه إلى. وهي مثل كلّ حركة لها حدّ من أين terminus a quo وحدّ إلى أين terminus ad quem. أوقفوا في أيّة لحظة حياة دولة، دولة حقيقية، تجدوا وحدة من التعايش تبدو قائمة على هذه الصفة أو تلك، كالدم أو اللغة أو "الحدود الطبيعية". وسوف يقودنا التفسير السكوني إلى القول: هذي هي الدولة. لكننا سرعان ما نلمح أن هذا التجمّع البشري منكبّ على صنع شيء مشترك، كغزو شعوب أخرى، أو تأسيس مستعمرات، أو إقامة اتحاد فيدرالي مع دول أخر، أي أنّه متجاوز في كل ساعة ما كان يبدو مبدأ وحدته المادية. وإن الحدّ ـ إلى أين ـ هو الدولة الحقيقية التي تقوم وحدتها تحديداً على تجاوز كلّ وحدة مُعطاة. وإذا ما كفّ هذا الدافع إلى التجاوز، فإن الدولة تنهار على شكل آليّ، ولا تفيد في شيء الوحدة التي كانت موجودة، وتبدو مُؤسَّسة بشكل طبيعي ـ على العرق واللغة والتخم الطبيعي: فتتفكّك الدولة وتتبعثر وتتفتّت.

---

(1) انظر للمؤلف "أصل الدولة الرياضي"، في المشاهد El Eppectador، المجلد VII. ـ المؤلف.

وهـذه الازدواجيّـة في لحظـتي الدولـة ـ الوحـدة القائمـة الآن، والوحـدة الأوسع التي تطمح أن تكون ـ تسمح وحدها بفهم ماهيّة الدولة القوميّة. ومعلوم أنّنا لم نستطع حتى الآن القول: على أيّ شيء تقوم الدولـة القوميـة، إذا أعطينـا لهذه المفردة معناها العصري. وقد كانت الدولة ـ المدينة واضحة جداً تُرى بـأمّ العين. لكن هذا النموذج الجديد من الوحدة العامّة التي كانت آخذة بالنـشوء في بلاد الغال وجرمانيا، هذا التصوّر الـسياسي الغـربي، هـو شـيء أكثـر غموضـاً وهروباً. ويجد الفيلولوجي نفسه، أي النموذج الحالي المتهافت بطبعـه، حـائراً جدّاً إزاء هذه الواقعة، واقعة قيـصر وتاسـيت لمّـا أرادا أن يُـسمّيا بمـصطلحهما الروماني تلك الدول الناشئة فيما وراء جبال الألب والراين أو الـدول الإسـبانية. لقد سمّياها مدناً civit، وأمماً وشعوباً gens, natio، مدركين أن هـذه التـسميات لا تناسب المقام [1]. هي ليست civitas لسبب بسيط أنها لم تكن مدناً [2]. ولـيس بوسعنا أيضاً جعل المصطلح غامضاً ونشير به إلى رقعة من الأرض محدّدة. فقـد كانت الشعوب تغيّر بسهولة بالغة رقعة أرضها، أو على الأقـلّ كانـت توسّـع أو تقلّص ما كانـت تحتلّـه. ولا هـي أيـضاً وحـدات عرقيـة étnicas ـــ أو gentes, nationes. ومهما نطُفْ بعيداً جداً، تظهر الدول الجديدة مشكّلة من فئـات ذات أصول مستقلّة عن بعضها. إنها أمشاج من الدماء المختلفة. أي شيء هي إذاً دولة قومية، لأنها ليست جماعة ترتبط بالدم، ولا تلتصق بأرض، وليـست شـيئاً مـن هذا القبيل؟

وإن خضوعاً خالصاً للوقائع يضع في يدنا المفتاح في هذه الحالة أيضاً، كما يحدث دائماً. ما الذي نراه إذا راجعنا تطـوّر كـل دولـة قوميـة عـصرية كفرنـسا وإسبانيا وألمانيا؟ هو ببساطة ما يلي: إنّ ما كان يبـدو في تـاريخ مـا أنـه يـشكل التبعيّة أو الجنسية، يظهر مرفوضـاً في تـاريخ لاحـق. أوّلاً، تبـدو الدولـة أنهـا القبيلة، واللادولة القبيلة المجاورة. ثم تتـألّف الدولـة مـن قبيلـتين، وفي وقـت

---

(1) انظر دوبْش Dopsch: أسس الحضارة الغربية الاقتصادية والاجتماعية. الكتاب II ص 3 و 4. ـ المؤلف.

(2) قرّ قرار الرومان على تسمية قرى البرابرة مدناً مهما تكن كثافة القريـة. وكـانوا يـسمّونها ـ لغيـاب تسمية أفضل ـ مقرات (منازل) فلاحية Sedes aratorum . ـ المؤلف.

متأخّر تصبح مقاطعة، وبُعيد ذلك، تصير كونتيّة أو دوقيّة أو "مملكة". الدولة هي ليون León، لكن، ليست قشتالة Castilla، ثم هي ليون وقشتالة، لكن ليس آراغون Aragón. وواضح وجود مبدأين: أحدهما متغيّر ومُتجاوَز دائماً ـ قبيلة، مقاطعة، دوقية أو "مملكة" ـ مع لغاتها أو لهجاتها. ومبدأ آخر ثابت (دائم) يقفز بحريّة كبرى فوق الحدود كلّها، ويُعدّ وحدة ما كان يعدّه المبدأ الأول وضعاً معاكساً لها جذرياً.

ويمارس الفيلولوجيّون ـ وأسمّي هكذا أولئك الذين ينسبون إلى أنفسهم اسم مؤرّخين ـ، يمارس هؤلاء أطيب سذاجة حين ينطلقون ممّا أصبح اليوم وفي هذه اللحظة العابرة وطيلة قرنيْن أو ثلاثة قرون، الدول القومية الغربية، ويفترضون أن فِرْسينْجِتوريكس[1] Vercingetorix كان يريد فرنسا أيضاً من سان مالو حتى استراسبورغ بالضبط، وأن السِيْد القمبيطور كان يريد إسبانيا من فينيسترّه حتى مضيق جبل طارق. هؤلاء الفيلولوجيّون ـ شأنهم شأن الدرامي العبقري ـ يجعلون أبطالهم في انطلاق دائم إلى حرب الثلاثين عاماً. ويفترضون كيما يفسّروا لنا كيف تشكلت فرنسا وإسبانيا أن فرنسا وإسبانيا كانتا موجودتين من قبل كوحدتين في عمق نفوس الفرنسيين والإسبان! وكأن الفرنسيين والإسبان كانوا موجودين أصلاً قبل وجود فرنسا وإسبانيا. وكأنّ الفرنسية والإسبانية لم تكونا ببساطة شيئين يجب أن يُصاغا خلال ألفي عام من العمل!

والحقيقة البحتة هي أن الدول الحاليّة ما هي غير تجلٍّ حاليّ لذلك المبدأ المتغيّر المحكوم عليه بتجاوز دائم. وهذا المبدأ لا يقوم اليوم على الدم ولا على اللغة، لأن رابطة الدم واللغة في فرنسا أو إسبانيا كانت نتيجة وحدة الدولة وليست سبباً لها. وصار هذا المبدأ اليوم "التخم أو الحدّ الطبيعي".

---

(1) جنرال ورجل دولة وُلد عام 79 ق.م. عُيّن عام 52 ق.م رئيساً لتحالف شعب الغال لمقاومة قيصر. نجح في الدفاع عن جيرغوفي Gergovie. لكنه حوصر في آليزيا Alésia. ولم يستطع جيش مساند أن يفكّ الحصار فاستسلم لقيصر. ـ المترجم (نقلاً عن معجم لاروس).

حَسَن أن يستعمل دبلوماسيّ في مبارزته الماكرة هذا التصوّر للحدود الطبيعية كحجّة أخيرة última ratio في حواره. لكنّ مؤرّخاً لا يستطيع التمترس خلف هذا التصوّر وكأنه مُنتج نهائي. هو ليس نهائياً، حتى ولا هو نوعيّ بشكل كافٍ.

ولا ننسَ ماهيّة المسألة المطروحة على شكل صارم. إنّنا بصدد التحقّق مما هي الدولة القوميّة وهو ما نسمّيه اليوم عادة nacion خلافاً لنماذج الدولة الأخرى، كالدولة المدينة أو كالإمبراطوريّة التي أنشأها أغسطس[1] Augusto إذا ذهبنا إلى الحدّ الأقصى. وإذا شئنا صياغة الموضوع على شكلٍ أوضح وأدقّ، نقول هكذا: ما القوّة الحقيقيّة التي أحدثها تعايش ملايين من البشر تحت سيادة سلطة عامّة نسمّيها فرنسا أو إنكلترا، أو إسبانيا، أو إيطاليا أو ألمانيا؟ لم تكن رابطة الدم المسبقة لأنّ كل جسم من هذه الهيئات الجماعية يرتوي بسيول من الدماء شديدة التباين؛ ولم تكن أيضاً الوحدة اللغوية، لأنّ الشعوب المتجمّعة اليوم في دولة كانوا يتكلّمون، أو ما زالوا يتكلّمون لغات مختلفة. وإن التجانس النسبي في العرق والدم الذي تتمتّع به اليوم على فرض أنها تتمتّع به، هو نتيجة الوحدة السياسية السابقة. بالتالي لا الدم ولا اللغة يصنعان الدولة القوميّة؛ بالحريّ، إنها الدولة القوميّة من يسوّي الفروق الناجمة عن الكريّات الحمر، وعن اللغة. وهذا ما حدث كذلك دائماً. ونادراً ما تطابقت الدولة، أو لم تتطابق قطّ مع هويّتها السابقة المكوّنة من الدم واللغة. فلا إسبانيا هي اليوم دولة قوميّة لأن الكلام فيها كلّها بالإسبانية[2]، ولا آراغون ولا قطالونيا كانتا دولتين قوميّتين لأنّ حدود سيادتهما الأرضية تطابقت ذات يوم اختير تعسّفاً مع حدود المناطق ذات اللغة الأراغونية والقطالونية. وقد نكون أقرب إلى الحقيقة لو ملنا إلى الزعم التالي، مع احترام القوانين التي يقدّمها الواقع: إنّ كلّ وحدة لغوية تشمل قطاعاً

---

(1) نعلم أن إمبراطورية أغسطس هي نقيض ما كان يطمح إليه قيصر أبوه بالتبنّي. وقد عمل أغسطس باتجاه بومبي وأعداء قيصر. ـ المؤلف.

(2) وليس صحيحاً في الواقع المحض أن الإسبان جميعاً يتكلّمون الإسبانية ـ ولا الإنكليز كلهم الإنكليزية، ولا الألمان جميعاً اللغة الألمانية العالية. ـ المؤلف.

من الأرض ذا مدى معيّن، هي فيما يشبه اليقين نتاج وحدة سياسية تسبقها[1]. وقد كانت الدولة أعظم التراجمة.

وقد أُكِّد على هذا الأمر منذ زمن بعيد. ويبدو غريباً جداً مع ذلك، هذا العناد الملحّ على اعتبار الدم واللغة أساساً للدولة القومية. وأنا أرى في ذلك جحوداً قدر ما فيه من فقدان التماسك. لأن الفرنسي يُرجع بلده الحالية، والإسباني إسبانيا الحالية إلى مبدأ X (مجهول)، يكمن دافعه تحديداً في تجاوز رابطة الدم واللغة، الضيّقة. بل إنّ فرنسا وإسبانيا اليوم تقومان على نقيض ما جعلهما ممكنتين.

وإن اضطراباً شبيهاً بذلك يُرتكب إذا أريد إقامة فكرة الدولة القومية على شكل قطعة أرض كبيرة، مكتشفين وحدةً لم يوفّرْها الدم واللغة، إذا أريد إقامتها على صوفيّة "الحدود الطبيعية" الجغرافية. إننا نرتطم هنا في خطأ الرؤية ذاته. ويبيّن واقع الحال أنّ الدول المسمّاة قومية قامت بالمصادفة على قطع من الأرض واسعة في القارّة، أو على الجزر الملحقة بها. ويُراد أن يُجعل من هذه الحدود الحاليّة شيء نهائيّ وروحيّ. يُقال إنها "حدود طبيعية"، ويعنون "بطبيعيّتها" طبيعة تشبه شيئاً سحرياً حتّمه التاريخ على شكل أرض. لكن هذه الأسطورة سرعان ما تتبخّر إذا أخضعناها إلى المحاكمة ذاتها التي أبطلت صلاحية رابطة الدم واللغة كمصدرين للدولة القومية. ولو رجعنا إلى قرون عدّة لفاجأنا فرنسا وإسبانيا مفكّكة إلى دول صغرى مع "حدودها الطبيعية" المحتومة، وربّما كان الجبل الحدوديّ أقلّ علوّاً من البيرنيه أو جبال الآلب، والحاجز المائي أقل غزارة من الراين ومن مضيق كاليه وجبل طارق. لكنّ هذا يدلّ على أنّ "طبيعيّة" الحدود نسبية محضة فحسْب. وذلك مقيّد بوسائل العصر الاقتصادية والحربيّة.

---

(1) بالطبع ما عدا الكوانون Koinon واللينغوافرانكا ـ وهما ليستا لغتين وطنيتين، بل هما دوليتان. ـ المؤلف.

والواقع التاريخي واقع "الحد الطبيعي" المشهور قائم ببساطة على كونه عائقاً أمام توسّع الشعب A على حساب الشعب B. فإذا كان عائقاً أمام A ـ تعايشاً أو حرباً ـ فهو دفاع عن B. إذاً، فكرة "الحدّ الطبيعي" تفترض ضمناً في الأصل إمكانية توسّع الشعوب واندماجها غير المحدود ببعضها كشيء طبيعي أكثر من الحدود ذاتها. وما كان يكبحها غير عقبة ماديّة كما أرى. ولا تبدو لنا اليوم حدود أمسِ وأوّل أمسِ أساساً للدولة القومية الفرنسية أو الإسبانية، وإنّما هي، على العكس، عوائق وجدتها فكرة الدولة القوميّة أمام عمليّة توحيدها. ومع ذلك، نحن نريد أن نضفي طابعاً نهائيّاً وجوهريّاً على الحدود القائمة اليوم على الرغم من أن وسائل النقل والحرب الحديثة قد ألغت فعاليتها كعوائق.

فأيّ شيء كان دور الحدود في تشكيل القوميات، لأنها لم تكن أساساً وضعيّاً لهذه القوميات؟ الأمر واضح وذو أهمية قصوى لنفهم فهماً حقيقيّاً تصور الدولة القومية في مقابل الدولة ـ المدينة. لقد كانت الحدود ذات نفع في كلّ لحظة لتمتين الوحدة السياسية المنجزة. لم تكن، إذاً، مبدأ الدولة القومية، بل على العكس، كانت في البداية عوائق، لكنها ما إن ذُلّلتْ حتى صارت وسيلة لضمان الوحدة.

والدور ذاته يُعزى بالضبط إلى العرق واللغة. فليست الرابطة الأصلية لعرق أو آخر ما (شكّل) الدولة، وإنما على العكس: وجدت الدولة القومية نفسها دائماً خلال سعيها للتوحّد، إزاء العروق الكثيرة واللغات الكثيرة على أنها عوائق كثيرة. ولمّا تمّت السيطرة بقوّة على هذه العوائق تحقّقت نسبيّاً وحدة الدم واللغة التي أفيد منها في تدعيم الوحدة.

ولا توجد وسيلة أخرى إلا بالقضاء على الاضطراب التقليدي الذي عانته فكرة الدولة القومية وتعويد أنفسنا حُسبان الأشياء الثلاثة التي يُظنّ أن هذه الدولة قامت عليها، عوائق أوّلية أمامها بالضبط. وإذا قضي على الاضطراب، فسأكون أنا بالطبع من يبدو مثيرَ هذا الاضطراب الآن.

وأخيراً، لِمَ الاعتقاد بضرورة اللجوء إلى العرق واللغة والأرض كأصل لفهم الواقعة العجيبة، واقعة الدول القومية الحديثة؟ لأننا نجد في هذه الدول بتجرّد

وبساطة تآلف الأفراد العميق وتضامنهم الحاسم مع السلطة العامة، تآلفاً وتضامناً كانا مجهولين في الدولة القديمة. فقد كان بعض الرجال فقط هم الدولة في أثينا وروما؛ أما البشر الآخرون ـ كالعبيد والحلفاء وأبناء الأقاليم والجاليات -، فقد كانوا رعايا فقط. ولم يكن أحد في إنكلترا وفرنسا وإسبانيا فرداً من رعايا الدولة فقط، وإنما كان مساهماً فيها دائماً، وعضواً متّحداً بها. وقد كان شكل الاتحاد مع الدولة وفي الدولة، خاصة الشكل الحقوقيّ، مختلفاً جدّاً حسب العصور. فلقد وُجدت فروق كبيرة في المرتبة والحالة الشخصية، ووجدت طبقات مُميّزة نسبيّاً، وطبقات مهضومة الحق نسبيّاً. لكنّا إذا فسّرنا واقع الوضع السياسي، الفعليَّ في كلّ عصر وأعدنا إليه روحه، لبدا لنا جليّاً أن كل فرد كان يشعر بنفسه عنصراً فاعلاً في الدولة ومساهماً فيها ومتعاوناً معها. والدولة بالمعنى الذي توحي به هذه المفردة في الغرب منذ ما يزيد عن قرن، تعني "الوحدة الافتراضية" ما بين السلطة العامة وبين الجماعة التي تحكمها.

والدولة هي دائماً أيّاً يكنْ شكلها ـ بدائياً أم قديماً، أم قروسطياً أم عصرياً ـ، دعوة يوجّهها فريق من البشر إلى فرق أخرى من البشر للقيام معاً بمشروع. وهذا المشروع أيّاً تكنْ مجرياته الوسيطة، يقوم في نهاية الأمر، على تنظيم نموذج ما من الحياة المشتركة. دولة ومشروع حياة، برنامج عمل أو سلوك بشريان، هي مصطلحات لا يمكن أن تنفصل عن بعضها. وتولد طبقات الدولة المختلفة حَسَب الطرائق التي يُقيم بها الفريق صاحب المشروع التعاون مع الفرقاء الآخرين. وهكذا لم تُوفّق الدولة القديمة إلى الاندماج (بالآخرين). فروما كانت تحكم وترعى المقاطعات الإيطالية والأقاليم، لكنها لم تكن ترقى بهم إلى الاتحاد معها. ولم يحصل الاندماج السياسي في المدينة ذاتها بين المواطنين. ولا ننسَ أن روما كانت إبّان الحكم الجمهوري مدينتين في الواقع: مجلس الشيوخ والشعب. ولم يتمّ توحيد الدولة قطّ بارتباط بسيط يجمع بين الفئات التي ظلّت خارجية وغريبة عن بعضها البعض. لذلك لم تستطع الإمبراطورية المُهدّدة الاعتماد على وطنيّة (الآخرين)، وكان عليها أن تدافع عن نفسها حصراً بوسائل بيروقراطية في الإدارة والحرب.

وقد جاء عجز كلّ فئة من الفئات الإغريقية والرومانية عن الاندماج بفئات أخرى، من أسباب عميقة ليس من المناسب تحرّيها هنا، وتُختصر في النهاية بسبب واحد. لقد فسّر الإنسان القديم التعاون الذي تقوم عليه الدولة بطريقة بسيطة أوّليّة وجافية أنه ثنائيّة من المسيطرين ومن المُسيطر عليهم[1]. فروما من شأنها أن تحكم ولا تطيع، ومن شأن الآخرين أن يُطيعوا ولا يحكموا. وتجسّدت الدولة ماديّاً بهذا الشكل في البمرْيوم pomoerieum[2] في الجانب المدني الذي تحدّده جدران على شكل فيزيقي.

لكن الشعوب الجديدة أتت بتفسير للدولة أقلّ ماديّة. فإذا كانت الدولة مخطّطَ مشروع مشترك، فإن حقيقتها ديناميكية على شكل محض. إنها عمل، إنها الجماعة في حالة نشاط. وهي، حَسَب ذلك، تشكّل جانباً نشيطاً من الدولة، إنها عنصر سياسي ويظلّ في المقام الثاني كلّ ما ينتمي إلى المشروع، كالعرق والدم والالتصاق الجغرافي والطبقة الاجتماعية. وليست الجماعة السابقة المفوّتة التقليدية والقديمة، باختصار، الجماعة غير القابلة للإصلاح والميتة، ما يوفّر لنا حقّاً شرعيّاً من أجل التعايش السياسي وإنّما الجماعة المستقبليّة في العمل الفعّال. وما يجمعنا في الدولة ليس ما كنّا أمسِ، وإنّما ما سوف نكون غداً معاً. ومن هنا السهولة التي قفزت بها الوحدة السياسية في الغرب من فوق كل الحدود التي أسرت الدولة القديمة. ذلك أن الإنسان الأوروبي يتصرّف قياساً بالإنسان القديم Homo antiquus، كإنسان منفتح على المستقبل، إنسان يعيش بوعي مستقرّاً فيه، ومنه يقرّر سلوكه الحاضر.

---

(1) يؤكد ذلك ما يبدو لأوّل نظرة أنه يناقضه، وهو منح سكان الإمبراطورية جميعاً حقّ المواطنة. لكن، تبيّن أن هذا الحقّ تمّ لمّا أخذ يفقد طابعه صفته السياسية، كيما يتحوّل إلى مهمة بسيطة وفي خدمة الدولة، أو إلى وثيقة حقٍ مدني محض. ولا يمكن لنا أن ننتظر شيئاً آخر من حضارة كانت العبودية فيها ذات قيمة مبدئية. أمّا "دولنا" فقد كانت العبودية فيها على العكس بقيّة من واقعة فقط. ـ المؤلف.

(2) مجال مقدّس معلّم بأرض حرام لا يُسمح بالبناء عليها ولا السكن فيها تفصل بين المنطقة العسكرية، والمنطقة المدنية داخل جدران مدينة رومانية. ـ المترجم.

والطرافة أن نلاحظ أنه عند تعريف الدولة القومية بتأسيسها على رابطة الماضي، ينتهي الأمر دائماً بقبول بصيغةً رينان على أنها الصيغة الفضلى، ببساطة لأنه يضيف فيها إلى الدم واللغة والتقاليد المشتركة صيغة جديدة يُقال إنها: "الاستفتاء اليومي". لكن، أيُعرف جيّداً ماذا تعني هذه العبارة؟ ألا نستطيع أن نعطيها الآن محتوى ذا دلالة مناقضة للدلالة التي كان يوحي بها رينان، وهي مع ذلك أصحّ منها كثيراً.

* * *

" هاكم الشروط الأساسية لوجود شعب ما: أن يكون لأفراده أمجاد مشتركة في الماضي وإرادة مشتركة في الحاضر؛ أن يكونوا قاموا معاً بأمور عظيمة، وأن يريدوا القيام بأخرى أعظم... في الماضي إرث من الأمجاد وتبكيت ضمير، وفي المستقبل برنامج واحد للإنجاز... وإنّ وجود دولة قومية استفتاء عام يومي".

هذا هو حكم رينان المعروف للغاية. فكيف يُفسّر ثراؤه الاستثنائي؟ بلا ريب لطرافة الإضافة فيه. وهذه الفكرة في أن الدولة القومية قائمة على استفتاء عام يوميّ، تعمل فينا عملاً تحريريّاً. لأنّ الدم واللغة والماضي المشترك مبادئُ سكونيّة محتومة صلبة وخاملة؛ إنها سجون. إذا كانت الدولة القومية تقوم على هذا فقط ولا شيء آخر، فإنها تكون شيئاً يقع وراء ظهرنا ولا شأن لنا به. وهي بذلك شيء ما قائم، لكنّه ليس شيئاً يُصنع. ولا معنى للدفاع عنها إذا ما هاجمها أحد.

والحياة البشرية، شئنا أم أبينا، اهتمام دائم بشيء مستقبلي. فنحن نهتمّ منذ اللحظة الحاضرة بما يطرأ. فالحياة شغل دائم، دائم من غير راحة ولا انقطاع. لِمَ لَمْ نلتفت إلى أن العمل، كلَّ عمل يعني إنجاز مستقبل؟ حتّى إذا استسلمنا إلى التذكّر فإننا نصنع ذكرى في هذه الثانية للحصول على شيء للتوّ، ولو لم يكن إلاّ للذّة في إحياء الماضي. وهذه اللذة المتواضعة مُثِّلت لنا منذ هنيهة على أنها مستقبل مرغوب فيه؛ لذلك نصنعها. واعلمْ إذاً، أنْ لا شيء له معنى عند الإنسان إلا ما يقتضيه المستقبل [1].

(1) للكائن البشري، حسب ذلك، تكوين مستقبلي لا يدحض، أي أنه يعيش قبل كل شيء في المستقبل ومن المستقبل. ومع ذلك، عارضت الإنسان القديم بالأوروبي قائلاً إن الأول منغلق عن المستقبل نسبيّاً، والآخر منفتح عليه نسبيّاً. إذاً، يوجد تناقض ظاهري بين هذا الطرح أو ذاك. وينبثق هذا المظهر المتناقض إذا نُسي أن الإنسان كيان بطابقين: فهو من جهة ما هو عليه، ومن جهة أخرى لديه أفكار عن ذاته تتطابق إلى هذا الحدّ أو ذاك مع واقعه الحقيقي. بالطبع لا تستطيع أفكارنا وأولوياتنا ورغباتنا أن تلغي كياننا الحقيقي، لكنها، نعم، تعقّده وتُعدّله. فالإنسان القديم والأوروبي كلاهما مشغول بالمستقبل على حد سواء. لكنّ القديم يُخضع المستقبل لنظام الماضي، أمّا نحن فنترك فسحة أكبر من الاستقلال للمستقبل، وللجديد بصفته جديداً. وهذا التعارض، وهو ليس بالوجود، وإنما بالأفضليّة، يسوّغ لنا أن نصف الأوروبي بالمستقبلي والقديم بالمتهافت (المفوّت). وإنه لأمر كاشف أن الأوروبي ما إن يستيقظ ويمتلك ناصية نفسه حتّى يسمّي حياته "عصراً حديثاً". وإن كلمة "حديث"، كما نعلم، تعني "جديداً". وهذا يستبعد العرف القديم. فقد بُدئ في نهايات القرن 19 بإبراز (الحداثة) أو العصرنة، تحديداً في المسائل التي كانت تهمّ العصر بشكل أدقّ. وكان يجري الحديث مثلاً عن devotion moderna ـ التقوى العصرية ـ وهي ضرب من الطليعية في "الصوفيّة اللاهوتية". ـ المؤلف.

وإذا كانت الدولة القومية لا تقوم إلا على ماضٍ وحاضر، فلن يهتمّ أحد بالدفاع عنها إزاء هجوم ما. ومن يؤكد عكس ذلك مراؤون وحمقى. لكن، يحدث أن يُسقط الماضي القومي حوافز ـ واقعية أو خيالية - على المستقبل. وإن مستقبلاً تستمرّ فيه دولتنا القومية بالوجود، يبدو لنا مرغوباً فيه. لذلك نعبّئ أنفسنا للدفاع عنها، ليس بالدم ولا باللغة ولا بالماضي المشترك؛ إذا دافعنا عن الدولة القومية فإننا ندافع عن غدنا وليس عن أمسنا.

وهذا ما يتلألأ في جملة رينان: الدولة القومية كمشروع رائع من أجل الغد، والاستفتاء العامّ يقرّر مستقبلاً. أمّا أن يكون المستقبل في هذه الحالة قائماً على ديمومة الماضي، فهذا لا يغيّر المسألة قيد شعرة: وإنما يكشف فقط عن أن تعريف رينان هو الآخر متهافت أيضاً.

والدولة القومية بالتالي قد تمثّل دولة أقرب إلى فكرة الدولة المجرّدة، من الـ polis (المدينة القديمة) ومن "القبيلة" العربية المحصورة برابطة الدم. في الواقع تحتفظ الفكرة القومية بشيء غير قليل من الثقل الملتصق بالماضي والأرض والعرق. لهذا السبب، مدهش أن نلاحظ كيف ينتصر فيها مبدأ وحدة بشرية صِرفٌ يدور حول برنامج حياة محفّز. بل أقول أكثر من ذلك: إن ثقل الماضي هذا والتقييد النسبي ضمن مبادئ مادية ليست ولم تكن تلقائية تماماً في نفوس الغرب، وإنما جاءت من التفسير المعرفي الذي أضفته الرومانسية على فكرة الدولة القومية. ولو أنّ هذا التصوّر التسع عشري للقومية، كان وُجد في القرون الوسطى، لما نشأت إنكلترا وفرنسا وإسبانيا وألمانيا [1]. لأن هذا التفسير يخلط ما يدفع ويكوّن دولة قومية بما يدعمها ويحافظ عليها ببساطة. وليس الشعور الوطني ـ ولْيُقَل ذلك مرّة واحدة ـ ما صنع الدولة القومية. وإن الاعتقاد بعكس ذلك سذاجة كنت أشرت إليها وقبل بها رينان في تعريفه المشهور. فإذا كان لازماً لوجود دولة قومية أن يعتمد فريق من البشر على ماضٍ، فأنا أسأل نفسي ماذا نسمّي هذا الفريق البشري ذاته الذي كان يعيش في حاضر صار ماضياً إذا نُظر إليه انطلاقاً من يومنا هذا. ولقد كان لزاماً أن ينتهي هذا الوجود المشترك

---

(1) مبدأ القوميات زمنياً أحد أعراض الرومانسية الأولى في نهاية القرن 18. ـ المؤلف.

ويمضي كيما نستطيع القول: إننا دولة قومية. ألا نلمح هنا عيب الفيلولوجي الأولي، عيب المؤرشف ونظرته المهنيّة التي تمنعه من رؤية الواقع إذا لم يكن ماضياً؟ إن الفيلولوجي هو من يحتاج لكي يكون فيلولوجياً إلى أن يوجَد ماضٍ أوّلاً. لكنّ الدولة يجب عليها قبل أن تمتلك ماضياً مشتركاً، أن تخلق هذه الرابطة، وقبل أن تخلقها ينبغي لها أن تحلم بها وتريدها وتخطّط لها. ويكفي الدولة القومية أن تمتلك خطّة عن ذاتها حتّى تُوجد، وإن لم تظفر بذلك وإن أخفق تنفيذها كما حدث مرّات كثيرة. ربّما تكلّمنا في هذه الحالة عن دولة قومية أخفق سعيها (كبرغونيا Borgonia مثلاً).

وتشترك إسبانيا وشعوب وسط أمريكا وجنوبيّها بالماضي والعرق واللغة، ولم تشكل معها دولة قومية مع ذلك. لماذا؟ ذلك لغياب أمر واحد جوهري كما أرى، ألا وهو المستقبل المشترك. لأن إسبانيا لم تستطع أن تبتكر برنامجاً للمستقبل جماعياً يشدّ إليه هذه الفئات المتشابهة بيولوجيّاً. لقد كان الاستفتاء العام المستقبلي عدوّاً لإسبانيا، ولم ينفع حينئذ في شيء الأرشيف والذكريات والأجداد و"الوطن". فإذا ما وُجد ذلك (أي برنامج للمستقبل) فإن هذا كلّه يصلح كقوى دعم ولا شيء آخر.

أنا أرى إذاً، في الدولة القوميّة بنية تاريخية ذات طابع استفتائي. وكلّ ما يبدو خلاف ذلك، له قيمة وقتيّة ومتغيّرة، ويمثّل المحتوى أو الشكل أو الدعامة التي يتطلّبها الاستفتاء في كل لحظة. وقد عثر رينان على الكلمة السحرية التي تفجّر الضوء. إنها تسمح لنا أن نلمح كما في أشعة مهبطية، أعماق حشا دولة قومية تتكون من عنصرين اثنين: الأول خطّة للتعايش الشامل في مشروع مشترك، وثانيهما انضمام الناس إلى هذه الخطّة الأوّلية. وانضمام الناس جميعاً يولّد الصلابة الداخليّة التي تميّز الدولة القومية من سائر الدول القديمة التي كانت الوحدة داخلها تحدث وتدوم بفعل ضغط الدولة من الخارج على الفئات المختلفة، بينما تنشأ قوّة الدولة هنا من التماسك الداخلي والعميق بين "رعاياها". في الواقع، يصبح الرعايا هم الدولة، ولا يمكنهم أن يحسّوا بها كشيء غريب عنهم، وهنا الجديد والعجيب في الدولة القوميّة.

ومع ذلك، يلغي رينان أو يكاد صحّة تعريفه لمّا أضفى على الاستفتاء العام محتوى استرجاعيّاً (ماضويّاً)، يشير فيه إلى دولة قومية قد كانت تشكّلت وقضى بذلك دوامها. أنا كنت أؤثر أن أبدّل فيه الدلالة وأجعله صالحاً لدولة في حالة ولادة in statu nascendi. هذي هي الرؤية الصائبة. لأن دولة قومية لا تتشكّل في الحقيقة قطّ. وفي هذا تختلف عن أنماط الدولة الأخرى.لأن الدولة القومية هي دائماً في حالة تشكّل وتفكّك. ولا حالة ثالثة لها tertium non datur. فهي إمّا أن تكسب أتباعاً وإمّا أن تفقدهم حسبما تمثّله دولتها أو لا تمثّل من مشروع قابل للحياة في ذلك التاريخ.

لذلك، قد يكون أكثر شيء ينيرنا إعادةُ تركيب سلسلة من المشاريع التوحيدية، التي ألهبت مشاعر الفئات البشرية في الغرب. ولسوف نرى حينئذ كيف عاش منها الأوروبيون، ليس في الشأن العام فقط؛ بل حتى في وجودهم الفردي الأخصّ بهم؛ نرى كيف "تعلّموا" وكيف أُحبطوا حسبما يوجد مشروع حاضر أو لا يوجد. وسوف تبيّن هذه الدراسة شيئاً آخر بوضوح. وإذْ كان مشروع تشكيل الدولة عند القدماء لا يُلزم بالانتساب الذي يساعد على دمج الفئات البشرية موضوع المشروع، وإذْ كانت الدولة محصورة دائماً ضمن حدّ محتوم ـ المدينة أو القبيلة ـ فإنها للسبب ذاته كانت غير محدودة. لأن شعباً كالشعب الفارسي والمكدوني أو الروماني، كان يستطيع أن يُخضع لوحدة سيادته أيّة مقاطعة من الأرض. وإذْ لم تكن الوحدة حقيقة داخلية ونهائية، فما كانت تخضع لأيّة شروط أخرى غير فعالية الغازي الحربية والإدارية. لكن الوحدة القومية في الغرب كان لا بدّ لها من أن تتبّع سلسلة لا مفرّ منها من المراحل. ولعلّ ما يزيد دهشتنا واقعة أن أوروبا ما كان بالإمكان أنْ تقوم فيها أيّة إمبراطورية من الحجم الذي بلغته الإمبراطورية الفارسية أو إمبراطوريتا الإسكندر أو أغسطس.

ولقد اتبّعت عمليّةُ خلق الدول في أوروبا هذا الإيقاع دائماً: لحظة أولى، إن غريزة الغرب الخاصّة التي جعلت الشعور بالدولة على أنها انصهار شعوب شتّى في وحدة من التعايش السياسي أو الخلقي، أخذت تعمل عملها في الفئات الأقرب إلى بعضها جغرافيّاً وإثنيّاً ولغويّاً. لا لأن القرب قد يدمج عناصر الأمة،

بل لأن التنوّع بين القريبين يجعل السيطرة عليهم أسهل. لحظة ثانية. هي فترة تدعيم يُحسّ فيها بالشعوب (الأخرى) البعيدة عن الدولة الجديدة أنّهم غرباء أعداء إلى هذا الحدّ أو ذاك. إنها الفترة التي اتّخذت فيها السيرورة القوميّة مظهراً من التعصب والانغلاق باتجاه إلى داخل الدولة، أو ما نسمّيه اليوم باختصار: الشعور القومي nacionalismo. لكنّ الواقع هو أنّه بينا يُحسّ (سياسيّاً) بالآخرين كغرباء ومنافسين، فقد كان التعايش معهم اقتصادياً وفكرياً وخلقيّاً، قائماً. وقد استُخدمت الحروب القوميّة لتسوية الفروق التقنيّة والروحيّة. وأخذ الأعداء التقليديون يصبحون متجانسين تاريخياً [1]. وأخذ يبرز في الأفق شيئاً فشيئاً شعور بأنّ هذه الشعوب المعادية تنتمي إلى الحلقة الإنسانية ذاتها التي تنتمي إليها دولتنا. ومع ذلك ظللنا نعدّهم غرباء ومعادين. لحظة ثالثة، تتمتّع الدولة فيها بالدعامة الكاملة. حينئذ يبرز المشروع الجديد: وهو توحيد الشعوب التي كانت حتى أمس أعداء لها؛ وينمو الاقتناع بأنها وثيقة الصلة بشعبنا في الخلق والمصالح، وأنّنا نشكّل معاً حلقة قومية إزاء فئات أخر أبعد عنا وأكثر غربة. ومن هنا نضجُ الفكرة القوميّة الجديدة.

وسوف أورد مثالاً يجلو ما أنوي أن أقول. يؤكّد عادة أن إسبانيا (اسبانيا Spania) كانت في أيام السيِّد El Cid فكرة قومية؛ ويضاف دعماً لهذا الطرح، إن سان إيسيدروكان يتحدّث قبل قرون من ذلك عن: "إسبانيا الأم". في رأيي، هذا خطأ جسيم من منظور تاريخي. ففي زمن السيِّد قد كان بُدِئ بنسج لحمة دولة ليون ـ قشتالة Castilla_León . وكانت هذه الوحدة الليونية ـ القشتالية فكرة ذلك العصر القومية، الفكرة الفعّالة سياسياً. بالمقابل كانت Spania فكرة مثقّفين أساساً؛ وقد كانت على كل حال فكرة بين أفكار كثيرة خصبة زرعتها الإمبراطورية الرومانيّة في الغرب. وقد تعوّد الإسبان أن يجتمعوا في ظلّ روما في وحدة إدارية، أو في أسقفيّة Diocesis في العهد الإمبراطوري المتأخّر. لكن هذه الفكرة الجغرافية الإدارية ليست تلقّياً محضاً، وليست استلهاماً عميقاً ولا تطلّعاً في أيّ حال.

---

(1) إذا كان هذا التجانس يحترم حقاً تعدّد الشروط الأصيلة ولا يلغيها. ـ المؤلف.

ومهما نردْ أن نضفي من الواقعيّة على هذه الفكرة في القرن الحادي عشر XI، فإنّنا نقرّ بأنها لا تبلغ حتّى قوّة فكرة الهيلاد Hélade ودقّتها عند الإغريق في القرن الرابع IV. ومع ذلك، لم تكن الهيلاد قطّ فكرة قومية حقيقيّة. وإن التطابق التاريخيّ الفعليّ قد يكون بالحريّ ما يلي: كانت الهيلاد عند الإغريق في القرن الرابع و(اسبانيا) للإسبان في القرن 11 وحتّى في القرن 14 ما كانت أوروبا "للأوروبيين" في القرن 19.

وهذا يدلّ على أن مشاريع الوحدة القوميّة أخذ يأتي وقتها بالطريقة التي تأتي فيها الأصوات في لحن. وكان على قرابة الأمس أن تنتظر حتى الغد كيما تنبثق بإلهام قومي. لكن، في المقابل يكاد يكون يقيناً أن حينها سيحين.

والآن أدرك الأوروبيون بنضج أن أوروبا يمكن أن تتحوّل إلى فكرة قومية. والإيمان بذلك اليوم فيه من الخيال أقلّ كثيراً ممّا كان يُتنبّأ به في القرن 11 بوحدة إسبانيا وفرنسا. وكلّما ظلّت الدولة القومية في الغرب وفيّة لجوهرها الحقيقي، فإنها تسير قدماً إلى أن تتجلّى في دولة قاريّة عملاقة.

* * *

ما إن زادت أمم الغرب في نفخ صورتها الحاليّة حتّى برزت أوروبا فيما حولها وتحتها كأنها خلفيّة لها. أوروبا هذي هي وحدة المكان الذي تتحرّك فيه هذه الأمم منذ عصر النهضة. وهذا المسرح الأوروبي هو هذه الأمم ذاتها التي أخذت تتخلّى من غير أن تدري عن تعدّديّتها القتالية. فقد تصارعت فرنسا وإنكلترا وإسبانيا وإيطاليا وألمانيا فيما بينها، وتشكّلت تحالفات مناهضة لبعضها البعض، وكانت تفكّكها ثم تعيد تأليفها. لكنّ ذلك كله ـ حرباً أم سلماً ـ كان تعايشَ ندٍّ لندّ، وهذا ما لم تستطع روما أن تصنعه لا سلماً ولا حرباً مع السلْتيري والغالي والبريطاني والجرماني. لقد أبرز التاريخ الخصومات في المقام الأوّل، وأبرز السياسة بشكل عام، وهي مجال لالتقاط سنابل الوحدة. لكنهم بينا كانوا يتقاتلون فوق أرض فإنهم كانوا يتّجرون فوق مائة أرض مع العدو، ويتبادلون الأفكار وأشكال الفن وموادّ الإيمان. ويبدو أن لهيب المعارك كان ستارة فقط يعمل وراءها بعناد أكبر مرجانُ السلام الهادئ ناسجاً خيوط الحياة فيما بين الأمم المتعادية. وكان التجانس في النفوس يزداد في كل جيل جديد. وإذا شئت دقّة أكبر وحرصاً أكبر فقلْ على هذا الشكل: إن النفوس الفرنسيّة والإنكليزية والإسبانية كانت، وهي اليوم، وسوف تكون مختلفة ما شاء لها الاختلاف، لكنّها تمتلك مخطّطاً أو بنية نفسية واحدة، أخذت تكتسب محتوى مُشتركاً. فالدين والعلم والقانون والفن والقيم الاجتماعية والجنسية أخذت تصبح مشتركة. وهذه هي الأمور الروحيّة التي يعيش منها الناس اليوم. إذاً، يبدو التجانس أشدّ إذا كانت النفوس من سويّة واحدة.

ولو قسنا اليوم محتوانا الذهني من آراء وقواعد ورغبات وتصوّرات للاحظنا أنّ الجانب الأكبر من هذا كلّه لا يأتي الفرنسيَّ من فرنسا، ولا الإسبانيَّ من إسبانيا وإنّما من الخلفيّة الأوروبية المشتركة. في الواقع، إن ما في كلّ منّا اليوم من الجانب الأوروبي يرجح كثيراً جدّاً جانبه الفرقي كفرنسي أو كإسباني، الخ.. ولو قمنا بتجربة خيالية بأن نقتصر على العيش على ما نحن عليه بشكل خالص أي (كقوميين)، وننزع بعمل فانتازي محض من الفرنسيّ العادي ما يستعمله

ويفكر فيه ويحسّ به لأنّه يتلقّاه من بلدان قاريّة أخرى، لأحسّ بالرعب. وسوف يرى أنه لا يستطيع العيش من ذلك قطّ، وأن أربعة أخماس ملكه الحميم هو خيرات أوروبية خارجية.

ولا يُلمح شيء آخر ذو أهميّة يمكننا صنعه نحن الموجودون في هذا الجانب من الكوكب، إن لم يكن إنجاز الوعد الذي تعنيه منذ أربعة قرون مفردة: أوروبا. ولا يعترض ذلك سوى زعم (الأمم) القديمة الباطل، سوى فكرة الأمّة كماض. وسنرى الآن إن كان الأوروبيّون هم أبناء امرأة لوط Loth، ويتعنّتون في أن يتبجّحوا بالرأس الذي التفت إلى الوراء. ولقد أفادتنا الإشارة إلى روما وإلى الإنسان القديم بعامّة، كتحذير لنا. إذْ من الصعب بمكان أن يتخلّى إنسان من نمط معيّن عن فكرة الدولة ما إن تنغرز في ذهنه ذات مرّة. ولحسن الحظّ، لم تكن فكرةُ الدولة القوميّة التي جلبها الأوروبي إلى العالم عن إدراك أم من غير إدراك، الفكرة المعرفية الفيلولوجية التي وُعظ بها.

وأختصر هنا موضوع هذا البحث. العالم يعاني اليوم إحباطاً خطيراً يتجلّى وسْط أعراض أُخَر بتمرّد الجماهير تمرّداً تجاوز كلّ حدّ، ويجد مصدره في إحباط أوروبا. أمّا أساب هذا الإحباط فهي كثيرة. أحدُ الأسباب الرئيسية انتقالُ السلطة التي كانت تمارسها من قبلُ قارتُنا على سائر أرجاء العالم وعلى نفسها ذاتها. فأوروبا غير مطمئنّة إلى أنها حاكمة ولا سائر العالم مطمئنّ إلى أن يكون محكوماً. وتبعثرت السيادة التاريخية.

ولا وجود "لكمال العصور"، لأن هذا الكمال يفترض ضمناً مستقبلاً واضحاً محدّداً من قبل وغير ملتبس، كما كان مستقبل القرن 19؛ يومئذ كان المرء يؤمن أنّه يعرف ما عساه يحدث غداً. لكنّ الأفق ينفتح اليوم صوب مجالات جديدة غير معروفة؛ إذْ لا يُعرف (من) سيحكم عمّا قريب، ولا كيف ستتمفصل السلطة على الأرض. و (مَنْ) تعني أيّ شعب أو طائفة من الشعوب، وبالتالي، أيّ نموذج إثْني، أو أية إيديولوجيا، وأيّ منظومة من الأولويّات والقواعد والحوافز الحيوية.

ولا يُعرف صوب أي مركز جذْب ستجنح الأمور البشرية بثقلها في مستقبل قريب. لذلك تستسلم حياة العالم إلى فترة انتقاليّة فاضحة. وكلّ شيء، وكلّ ما يُصنع اليوم في العلن أو على انفراد، وحتى على شكل حميم، مؤقّت. ولا أستثني من ذلك سوى جوانب من بعض العلوم. وهو على صواب من لا يثق بكلّ ما يُنادي به اليوم، ويُعلن عنه ويُجرّب ويُثني عليه. وكلّ ذلك سيمضي بالسرعة التي جاء بها. كل شيء بدءاً من هوس الرياضة الجسمية (والهوس ليس الرياضة ذاتها) حتى العنف في السياسة؛ ومن "الفنّ الجديد" حتى حمّامات الشمس في الشواطئ المضحكة الدارجة. فلا شيء من هذا له جذور لأنّ كلّ ذلك بدعة محضة بالمعنى السيّء للكلمة الذي يجعلها تساوي النزوة الخفيفة. وهو ليس خُلقاً ينطلق من عمق جوهر الحياة ولا هو رغبة ملحّة ولا حاجة حقيقية. باختصار: كلّ ذلك زائف حيويّاً. وتُطرح الحالة المعاكسة في أسلوب حياة ترعى الصدق، وهي تزييف في الوقت ذاته. فلا توجد غير حقيقة في الوجود إذا أحسسنا بقوانينه أنها ضروريّة لنا ضرورة لازبة. ولا يوجد اليوم سياسي يشعر بضرورة سياسته، وكلّما كانت حركته متطرّفة كان أخفّ شأناً وأقل ضرورة للمصير. ولا توجد حياة بجذور حقيقية ولا توجد حياة أصيلة غير الحياة التي تتألّف من مشاهد لا إرادة لنا فيها. أمّا ما خلا ذلك، أمّا ما نستطيع أن نأخذه أو ندعه أو نستبدل به شيئاً فهو بالضبط تزييف للحياة.

الحياة الراهنة ثمرة ما بين فترتين؛ هي ثمرة فراغ بين نظامين في العالم التاريخي: النظام الذي كان، والنظام الذي سيكون. لذلك هي مؤقتة في الأساس. فلا الرجال يعرفون أيّة مؤسسات يخدمون حقاً، ولا النساء يعلمن أيّ نمط من الرجال يؤثرون حقاً.

والأوروبيّون لا يعرفون العيش إن لم يُزجّ بهم في مشروع ضخم وحدوي. فإذا ما غاب هذا المشروع، يسفّون ويضعفون وتفارقهم الروح. وبداية ذلك تبدو أمام عيوننا. فالدوائر التي كنّا نسمّيها حتى اليوم دولاً قومية بلغت منذ قرن أو أقلّ قليلاً ذروة توسّعها. ولا يمكن صنع شيء بها الآن سوى تجاوزها. وما هي اليوم غير ماض يتراكم فيما حول الأوروبي وتحته فيأسره ويُثقل عليه. ونحن نحس

جميعاً بحريّة أكبر مما هي عليه في أيّ وقت، أن الهواء داخل كل شعب غير صالح للتنفّس، لأنه هواء حبيس. وكل دولة كانت من قبل الفضاء الرحب المفتوح صارت إقليماً و "داخلاً". ولا يمكن للتعدّدية في الدولة الأوروبية العظمى (super) التي نتخيّلها، أن تزول، ولا ينبغي لها أن تزول. فإذا كانت الدولة القديمة تُلغي الفروق بين الشعوب، أو تجعلها مبعدة غير فعّالة، أو على الأقلّ تحافظ عليها مجمّدة، فإن الفكرة القومية الأكثر دينامية بشكل خالص، تتطلّب بقاء هذه التعدّدية فعّالة، تعدّدية كانت حياة الغرب دائماً.

كلّ الناس يلمحون ضرورة مبدأ جديد في الحياة. لكنّ البعض يحاول ـ كما يحدث في أزمات مماثلة دائماً ـ أن ينقذ اللحظة بتشديد متعاظم ومفتعل على المبدأ المتهافت تحديداً. وهذا هو معنى الهياج "القومي" في السنوات الحالية. وهذا ـ أكرّر ـ ما حدث دائماً. ولسان اللهب الأخير هو الأطول. والنفس الأخير هو الأعمق. والحدود تزداد عشيّة اختفائها، حساسيةً ـ أي الحدود العسكرية والاقتصادية.

لكنّ هذه المشاعر القوميّة كلّها أزقّة لا منفذ لها. حاولْ أن تُلقي بها صوب المستقبل تحسّ بالتعثّر. لذلك لا يمكن الخروج منها إلى أيّ جانب. والقومية nacionalismo هي دائماً دافع ذو اتجاه معاكس للمبدأ (الأقوامي nacionalzador[1]). إنها حصرية، بينا المبدأ جمعي شامل. وللقومية في حقبات التعزيز مع ذلك قيمة إيجابية، وهي قاعدة عليا. لكنّ كلّ ما في أوروبا معزّز بإفراط، والقومية ما هي غير هوس وحجّة تُطرح للابتعاد عن الواجب بالإبداع وعن المشاريع الضخمة. وإن بساطة الوسائل التي تعمل بها وصنف الرجال الذين تمجدّهم يكشفان بشكل ضخم أنها عكس ما هو إبداع تاريخي.

والقرار ببناء أمّة عظمى مكوّنة من مجموعة الشعوب القارية وحده يعيد قوّة النبض إلى أوروبا. وقد تؤمن أوروبا بنفسها مرة أخرى، وتطلب من نفسها آليّاً الشيء الكثير، ولسوف تنتظم مرّة أخرى.

---

(1) لو لم تتخذ كلمتا شعوبي وشعوبية المعنى التاريخي المكروه، لترجمتُ المفردتين بهما تباعاً. ـ المترجم.

لكن الموقف أشدّ خطراً كثيراً ممّا نقدّر عادة. والأعـوام تمـضي والأوروبي يتعرّض للخطر بأن يألف هذه الدرجة الصغرى tono menor مـن الوجـود الـذي يعيشه الآن ويتعوّد ألاّ يحكم وألا يُحكم. ولسوف تأخذ بالتبخّر في هـذه الحالـة قيمُه وقدراته العليا كلّها.

لكن الطبقات المحافظة تعارض الوحـدة الأوروبيـة كمـا حـدث دائمـاً في مجرى كل عمليّة أقواميّة nacionalización. وقد يجلب ذلـك عليهـا الكارثـة، إذ يُضاف إلى الخطر العامّ الذي يثبّط همّـة أوروبـا تثبيطـاً نهائيـاً ويفقـدها طاقتـها التاريخية، خطرٌ آخر أكثر تعييناً ووشيكاً. لما انتصرت الشيوعية في روسيا حسب كثيرون أن السيل الأحمر سيغرق الغرب كلّه. أمّا أنا فلم أشارك بتشخيص كهـذا التشخيص. بل على العكس من ذلك، كتبت تلك السنوات أن الشيوعية الروسية مادّة لا يمكن أن يتمثّلها الأوروبيون، هذه السلالةُ التي وضـعت جهودهـا كلـها ومزايا تاريخها على خارطة الفرديّة. لقد مضى الزمن، وقد عادت الطمأنينـة إلى نفوس المذعورين سابقاً. لقد عادت إليهم الطمأنينة لمّا جاء وقـت النـضج كيمـا يفقدوها. لأن الشيوعية الغازية المنتـصرة، نعـم، يمكنـها الآن أن تنـصبّ علـى أوروبا.

وأنا أزعم ما يلي: إن محتوى دستور عقيدة الشيوعية على الطريقة الروسـية لا يهمّ الأوروبيّين اليوم كما لم يهمّهم من قبلُ، ولا يجذبهم ولا يرسم مـستقبلاً مرغوباً فيه لهم. لـيس للأسـباب التافهـة الـتي يتـشدّق بهـا دعـاة هـذه العقيـدة المتعنّتون، الصمّ الخالون من المصداقية مثل كل الـدعاة. وبورجوازيّـو الغـرب يعلمون جيّداً أن الإنسان الذي يعيش من موارده حصراً وينقل هـذه المـوارد إلى أبنائه صارت أيامه معدودة حتّى من غير شيوعية. وليس هذا مـا يحـصّن أوروبـا ويخفّف من خوفها. وتبدو لنا مضحكة جداً المزاعم المتعسّفة التي أقام صـوريل G.sorel [1] على أساسها منذ عشرين عاماً تكتيكه حـول العنـف، فـالبورجوازيّ ليس جباناً كما كان يُعتقد، وهو الآن على استعداد للعنف أكثر من العمّـال. ولا

(1) 1847 ـ 1922 ـ عالم اجتماع فرنسي له كتاب: أفكار حول العنف. ـ المترجم.

يجهلنّ أحد أن البولشفيّة - إن انتصرت في روسيا فلأن روسيا لم يكن فيها برجوازيّون[1]. وقد بيّنت الفاشيّة وهي حركة بورجوازية صغيرة أنها أعنف من الحركة العمّالية كلّها مجتمعة. ليس هذا إذاً، ما يمنع الأوروبي من أن يتحمّس للشيوعية، وإنّما لسبب أبسط وأصغر من ذلك كثيراً: وهو أن الأوروبي لا يرى في النظام الشيوعي زيادة في رفاهيته البشرية.

ومع ذلك يبدو لي - أكرّر - ممكناً للغاية أن تعتنق أوروبا البولشفيّة في الأعوام القادمة. ليس من خلالها ذاتها (خلال البولشفية)، وإنما على كُره منها.

لنتصوّر أنّ "الخطّة الخمسية" التي تتابعها الحكومة السوفيتيّة بقوّة جبّارة، قد حقّقت توقّعاتها، وأنّ الاقتصاد الروسي أصبح ليس مستقرّاً فقط، وإنّما صار فائضاً! فمهما يكن محتوى البولشفية فهي تمثّل تجربة مشروع إنسانيّ عملاق. لقد عانق البشر فيها بتصميم مصيراً من الإصلاح، ويعيشون بتوتّر تحت راية نظام رفيع حقنهم به إيمان مماثل. فإذا لم تتسبّب مادة كونيّة متمرّدة على حماس البشر في إخفاق هذه التجربة بشكل خطير، بل تفسح لها الطريق قليلاً فقط، فإن طابعها الممتاز كمشروع رائع سيتلألأ فوق الأفق القاريّ كمجرّة ساطعة جديدة. وإذا استمرّت أوروبا إبّان ذلك في نظامها البليد غير النبيل هذه الأعوام ضعيفة الأعصاب لنقص النظام ومن غير مشروع جديد للحياة، فكيف يمكن تحاشي أثر هذا المشروع الرائد، المُعدي؟ إنه جهل بالأوروبي الانتظار منه أن يستطيع سماع هذا النداء لعمل جديد ولا يتحمّس له، في حين لا يملك هو راية أخرى مماثلة في علوّها لينشرها إزاءه. وإن الأوروبيّ باضطلاعه بشيء ما يُعطي معنى لحياته ويهرب من فراغ الوجود ذاته، ليس صعباً عليه أن يبتلع اعتراضاته على الشيوعية لأنه يشعر بالانجراف وراء مأثرتها المعنويّة وليس وراء جوهرها ذاته.

أنا أرى في بناء أوروبا دولةً قومية عظمى المشروع الوحيد الذي يمكنه أن يعارض انتصار "الخطّة الخمسيّة".

---

(1) يكفي هذا للاقتناع مرة واحدة وإلى الأبد أن اشتراكية ماركس والبولشفية ظاهرتان تاريخيّتان بصعوبة نجد بينهما بُعْداً مشتركاً. - المؤلف.

ويؤكّد تقنيّو الاقتصاد السياسي أن هـذا الانتـصار يمتلـك إمكانـات ضـئيلة للغاية من جهته. لكن، قد يكون إفراطاً في التفاهة أن ينتظر أعداء الشيوعية كـلّ شيء من الصعوبات الماديّة التي يلقاها خصمهم. لأن إخفـاق هـذا الخـصم قـد يساوي الهزيمة الشاملة: هزيمتنا جميعاً، وهزيمة كـلّ شـيء، وهزيمـة الإنـسان الحالي. والشيوعية "أخلاق" غريبة الطابع ـ هي شيء ما يـشبه أخلاقـاً. ألا يبـدو أكثر احتشاماً وخصوبة معارضة هذه الأخلاق السلافـية بأخلاق غربيّـة جديـدة، بالحثّ على برنامج حياة جديدة؟

* * *

# المصبّ في المسألة الحقيقية

هذي هي المسألة: لقد أمست أوروبا من غير أخلاق، ليس لأن الإنسان ـ الجمهور يزدري أخلاقاً قديمة لصالح أخلاق أخرى ناشئة، وإنّما لأن مركز نظامه الحيوي قائم تحديداً على التطلّع للعيش من غير اعتماد على أخلاق ما. لا تصدّقوا كلمة واحدة إذا سمعتم الشبّان يتحدّثون عن "الأخلاق الجديدة". وأنا أنفي صراحة أن يوجد اليوم في أيّ ركن من القارّة فئة ما على علم بعلم أخلاقٍ جديد له هيئة أخلاق. وإذا ما تحدّثوا عن أخلاق "جديدة" فلا يصنعون ethos شيئاً سوى اقتراف ما ينافي الأخلاق فقط، وسوى البحث عن أكثر الوسائل راحة للإدخال تهريباً.

لذلك كان لوم رجل اليوم لغياب الأخلاق عنده، ضرباً من السذاجة؛ ولربّما جذبه موضع التهمة من غير حذر، بالحريّ ربّما فتنه. وتكاد منافاة الأخلاق تبلغ من الرخص مبلغاً كبيراً، وكلٌّ يتباهى بممارستها.

وإذا استثنينا ـ كما استثنينا في هذا البحث ـ كلّ الفئات التي تعني بقايا حيّة من الماضي كالمسيحيّين و "المثاليين" وقدامى الليبراليين، الخ.. لَمَا وجدنا بين أولئك الذين يمثّلون العصر الحاضر كلهم، واحداً فقط موقفه من الحياة إلاّ ويقتصر على الإيمان أنّ له كل الحقوق وليس عليه أيّ التزام. وهو لا يبالي إنْ تقنّع بقناع رجعي أو ثوري: وسواء أكان نشيطاً في ذلك أم غير نشيط، فإن حالته الروحيّة في نهاية المطاف تقوم على شكل قاطع في جهله كلّ التزام وإحساسه بأنّه صاحب حقوق غير محدودة من غير أن يدري هو نفسه السبب.

وكلّ مادّة تسقط على نفس كهذه النفس، سوف تؤدّي إلى النتيجة ذاتها، وتتحوّل إلى حجّة كيلا تعتمد على أيّ شيء معيّن. فإذا مثُل كرجعيّ أو معادٍ لليبراليّة فذلك كيما يستطيع التأكيد على أنّ خلاص الوطن والدولة يعطيه الحقّ في تجاوز كلّ القواعد الأخرى، وفي سحق الغير خاصّة إذا كان هذا الغير ذا شخصيّة قيّمة. لكنّ الأمر ذاته يحدث إذا خطر له أن يكون ثوريّاً: فيستعمل

حماسته الظاهرية للعامل اليدوي والبائس، وللعدالة الاجتماعية قناعاً كيما يستطيع التحلّل من كلّ التزام ـ كحسن التهذيب والصدق وخاصّة احترام الأفراد الأعلين وتقديرهم. أنا أعرف غير قليل قد انضمّوا إلى هذا الحزب العمالي أو ذاك لا لشيء إلا ليكسبوا داخل أنفسهم ذاتها الحقّ باحتقار العقل ليوفّروا على أنفسهم احترامه بخشوع. أمّا الديكتاتوريات فقد رأينا جيّداً كيف تمالئ الإنسان الجمهور دائسةً كل ما يبدو سموّاً وكمالاً.

إن الهرب من كلّ التزام يفسّر جزئيّاً الظاهرة تفسيراً ما بين مضحك وفاضح، وهي أنّ هذا الهرب أصبح في أيامنا برنامج عمل للشبيبة. ولعلّ عصرنا لا يقدّم دلالة أكثر فظاظة. فالناس يعلنون عن أنفسهم أنهم "شبّان" لأنّهم سمعوا أن الشباب يملك من الحقوق أكثر ممّا عليه من الواجبات، وبذلك يستطيع تأجيل إنجاز هذه الواجبات حتى زمن غير محدّد في سنّ الكهولة. وقد عدّ الشابّ نفسه دائماً شابّا لأنّه مُعفى من القيام اليوم، ومن قبلُ بمأثُرة، وقد عاش دائماً على "الحساب". وهذا ما نجده في طبيعة البشر. وذلك مثل حقّ زائف يتنازل عنه وسط السخرية والشفقة، غيرُ الشبّان للشبّان. لكنّ ما يبعث على الدهشة هو أن هؤلاء الشبّان يتخذون منه اليوم حقّاً فعلياً، بالضبط كيما يعزوا إلى أنفسهم الحقوق الأخرى التي تنتمي لمن قام من قبل بعمل ما.

لئن بدا أمراً لا يُصدّق، فقد تحوّلت الشبيبة إلى ابتزاز Chantage. في الواقع نحن نعيش عصراً من الابتزاز بالسخرية. وهم يطمحون بهذا وبذاك إلى الأمر ذاته: وهو أن الأدنى، أن الإنسان السوقة يستطيع أن يكون مُعفى من كلّ تبِعَة.

لذلك لا نستطيع أن نجعل من الحضارة الحالية نبيلة بإبرازها كصراع بين أخلاقين أو حضارتين. الأولى متهافتة ساقطة والأخرى في فجر حياتها. والإنسان ـ الجمهور يفتقر ببساطة إلى الأخلاق التي هي بماهيّتها إحساس بالخضوع إلى شيء، والوعي بخدمة شيء، وهي التزام دائماً. لكن، ربّما كان خطأً القولُ" ببساطة". لأن الأمر ليس فقط أن يتحرّر هذا النموذج من المخلوقات من الأخلاق. كلاّ! فلا نجعلِ المهمّة أمامه سهلة جداً. إذْ لا يمكن التحرّر من الأخلاق هكذا ببساطة. وما نسمّيه بمفردةِ خطأٍ حتى في مجال النحو: خارج

الأخلاق amoralidad هو شيء لا وجود له. وإذا كنت يا سيدي، لا تريد أن تُقيَّد بقاعدة ما، فإنك مضطرّ، وإن لم تشأ veils nolis، إلى التقيّد بقاعدة نفي كلّ أخلاق. وهذا ليس لا أخلاقاً، وإنّما هو مضادّ للأخلاق. إنها أخلاق سلبيّة تحتفظ من الأخلاق الأولى بالشكل مفرغاً.

فكيف أمكن الاعتقاد بخلوّ الحياة من الأخلاق؟ لأن الثقافة والحضارة العصرية كلّها قادت بلا ريب إلى هذا الاقتناع. وأوروبا تحصد اليوم نتائج سلوكها الروحي، المضنية. لقد جهدنا جهدنا من غير تحفّظ في انحدار ثقافة رائعة لكنها من غير جذور.

لقد أردت في هذا البحث أن أرسم نموذجاً للأوروبي محلّلاً على وجه خاص سلوكه إزاء الحضارة ذاتها التي نشأ فيها. وكان لا محيد من صنع ذلك، لأنّ هذا الشخص لا يمثّل حضارة أخرى تصارع الحضارة القديمة، وإنّما يمثّل نفياً خالصاً لها، نفياً يحجب تطفّلاً فعليّاً. لأن الإنسان ـ الجمهور ما يزال يعيش تحديداً ممّا ينفيه، وممّا بناه آخرون وراكموه. لذلك، ليس من الملائم أن أخلط رسمه البياني النفسي بالمسألة الكبرى: ما النواقص الجذرية التي تعانيها الثقافة الأوروبية الحديثة؟ إذْ من الواضح أنها عنها تصدر في المقام الأخير هذه الصيغة الإنسانية المهيمنة اليوم.

لكنّ هذه المسألة الكبرى يجب أن تظلّ خارج هذه الصفحة، لأنها مسألة فيها إفراط. وقد يلزمنا أن نطوّر تطويراً واسعاً مذهباً حول الحياة البشرية مُتضمَّناً في هذه الصفحات بانسجام وموحى ومهموس به. وربما نُودي به صُراخاً سريعاً.

* * *

# خاتمة من أجل الإنكليز

قريباً يكتمل العام منذ أن كتبت في مكان من هولندا حيث وضعني القدر فيه، مقدّمة إلى الفرنسيين التي تصدّرت الطبعة الشعبية الأولى من هذا الكتاب. في ذلك التاريخ بدأت في بريطانيا مرحلة من أكثر المراحل إشكالاً في تاريخها، وكان عدد قليل جداً من الأشخاص يثقون بقيمها الكامنة. لقد انهارت أمور كثيرة في هذه الأعوام الأخيرة حتى مال الناس بسبب عطالة ذهنية إلى الشكّ في كل شيء، إلى الشك في انكلترا ذاتها؛ حتى قيل إنها شعب في حالة انحطاط، وتجرّأ السفهاء كلهم على توجيه اللوم لها، وهم الصورة التي تباهى بها في الفصل الأوّل أولئك الذين يظهرون لنا في الفصل الأخير في غفلة من أمرهم. ومع ذلك، كنت أشير، مع تعرّضٍ لبعض المخاطرة لا أريد الحديث عنها الآن، بثقة قوية إلى رسالة الشعب الإنكليزي الأوروبية، الرسالة التي حافظ عليها طيلة قرنين من الزمان؛ وهو مدعوّ على شكل كبير كيما يمارسها اليوم. أمّا ما لا كنت أتصوّره حينئذ فهو أن الأحداث جاءت سراعاً لتؤكد تشخيصي وتجسّد أملي. وقلّما تحقّقت بتلك الدقّة لتتطابق مع الدور الحاسم للغاية الذي كنت أعزوه ـ إذا استْعملنا فكاهة مماثلة ـ إلى انكلترا اتجاه القارة. وإنّ مناورة الإصلاح التاريخي الذي تحاوله إنكلترا أوّلاً في داخلها، هي أعجوبة. فتغيّر السفينة الإنكليزية وسط أعتى العواصف اتجاه أشرعتها كلها، وتنحرف درجتين وتمسك بالريح، وتبدّل غمزةٌ من دفتّها مصير العالم. كل ذلك من غير ضوضاء، وبعيداً عن كل الجمل حتى الجمل التي فُهت بها منذ قليل. ويتضّح من ذلك أنه توجد طرائق كثيرة لصنع تاريخ تساوي تقريباً الطرائق من أجل تخريبه.

ويحدث دوريّاً منذ عدة قرون أن يستيقظ الأوروبيون ذات صباح ويصيحوا وهم يحكّون رؤوسهم : "إنكلترا هذه!..." إنه تعبير يعني الدهشة والخجل والوعي بأنّهم إزاء شيء مُعجِب لكنّه غير مفهوم. والشعب الإنكليزي، في الواقع، أغربُ واقعة موجودة على الكوكب الأرضي. وأنا لا أشير إلى الإنكليزيّ

الفرد، وإنّما إلى الجسم الاجتماعي، إلى جماعة الإنكليز. والغريب أو العجيب إذاً، لا ينتمي في الواقع إلى مجال علم النفس، بل إلى مجال علم الاجتماع. وإذْ كان علم الاجتماع أحد المذاهب التي يمتلك الناس عنها في كلّ مكان أقلّ الأفكار وضوحاً، فلا يمكن القول من غير تحضير كبير ـ لِمَ هي إنكلترا غريبة ولِمَ هي عجيبة. وتقلّ عن ذلك إمكانيّة تفسير كيفيّة صيرورتها شيئاً عجيباً بالفعل. وإذا ظلّ الناس يعتقدون أن شعباً ما يمتلك "طبعاً" قَبْليّاً، وأن تاريخ هذا الشعب فيض من هذا الطابع فلن نجد وسيلة حتى لبدء محادثة. "فالطابع الوطني" مثل كلّ طابع إنساني ليس مُعطى خِلْقيّاً وإنّما هو مصنوع صنعاً. والطابع الوطني يتشكّل ويتفكّك ويُعاد تشكيله في التاريخ. والأمّة خلافاً هذه المرّة للاشتقاق اللفظي، لا تولد ولادة [1]، وإنما تتشكّل تشكّلاً. إنها مشروع يطلع حسناً أو سيّئاً، ويُبدأ به بعد فترة من التجارب ويتطوّر ويتصحّح ويفقد الاتجاه مرّة أو عدّة مرات، ويُضطرّ إلى أن يبدأ من جديد، أو على الأقلّ أن يستأنف العمل. وقد يكون الأمر الهامّ تحديد الصفات المدهشة لغرابتها في الحياة الإنكليزية في السنوات المئة الأخيرة. ثم يلي ذلك محاولة تبيان كيف اكتسبت إنكلترا هذه الصفات المجتمعيّة. وإني ألحّ على استعمال الكلمة، على الرغم مما فيها من حذلقة، لأنّ وراءها يكمن ما هو جوهري وخصب حقّاً. وهناك ضرورة إلى أن نقتلع من التاريخ النزعة النفسانية التي أقصت معارف أُخر. والاستثناء في انكلترا لا يكمن في النموذج الفردي الذي عرفت أن تخلقه. أمّا أن تكون الفردية الإنكليزية أعظم من أشكال الفرديّة الأخرى التي عُرفت شرقاً وغرباً، فهو أمرٌ قابل للمناقشة كثيراً. لكن، حتّى من يرى طريقة وجود الإنكليز أرفع من كل الطرائق الأُخر، فإنه يقصر الأمر على هذه المسألة أو تلك. وأنا أؤكّد أن فرادة الشعب الإنكليزي أو أصالته القصوى قائمة في طريقة معالجته الجانب الاجتماعي أو الجماعي من الحياة البشرية، في الشكل الذي عرف فيه أن يكون مجتمعاً. نعم، هي في هذا الجانب تقف على طرف نقيض من الشعوب الأخرى كلها. ربّما تسنح لي مناسبة في زمن قريب لأبيّن كلّ ما أريد قوله بذلك.

---

(1) nación من الفعل nacer = وُلد. ـ المترجم.

وإن احترامنا إنكلترا لا يعفينا من الغضب إزاء عيوبها. فلا يوجد شعب إذا نُظر إليه من جهة شعب آخر، إلاّ وبدا لا يُطاق. والإنكليز من هذا الجانب مثيرون للغيظ بدرجة خاصة. ذلك أن فضائل شعب وكذلك فضائل امرئ تقوم، وبطريقة ما تترسّخ، على عيوبه وقصوره. وإذا ما جئنا شعباً فإنّ أول ما نراه تخومه التي هي في المجال الخلقي والطبيعي حدوده. وقد عَمِلت النرفزة في الشهور الأخيرة على أن تعيش الدول الأوروبية كلّها مغالية في تمجيد حدودها: أي مضفية مشهداً مغالياً فيه على عيوبها الفِطرية. وإذا أضفنا إلى ذلك أن أحد مواضيع الجدل الرئيسة كان إسبانيا، فسوف ندرك إلى أيّ مدى عانيتُ كلّ ما مثّلته حكومات إنكلترا وفرنسا وشمالي أمريكا من نقص وحُمق وعيب وخيبة أمل. وأكثر ما أدهشني الإرادة المصمّمة على ألا تعلم هذه الدول الأمور الموجودة لدى الرأي العام في بلدانها. وإن أكثر ما افتقدتُه كإسباني، كان إيماءة لطف كريمة، أجدرَ بالتقدير في رأيي مما في العالم. ولقد سُمح للمؤامرة والخفّة وانغلاق الرؤية والحكم المسبق المتهافت والرياء الجديد بالسريان لدى الأنغلوسكسون - وليس لدى الحكومات وإنما في البلدان ـ سرياناً من غير أن يُوضع له حدّ. لقد استُمع إلى أكبر الحماقات حتى غدت متأصّلة. وكان بالمقابل، تصميم قاطع ألا يستمعوا إلى أي صوت إسباني قادر على توضيح الأمور، أو على الاستماع إليه بعد تشويهه فحسب.

وهذا ما قادني إلى انتهاز أوّل حجّة لأتكلّم عن إسبانيا، وإن كنت مقتنعاً بأني أقسر الوضع قسراً، وأتكلم عنها من غير أن أبدو أني أتكلّم عنها في الصفحات المعنونة: "أمّا النزعة السلمية..." الملحقة تباعاً، لأنّ الشكّ لدى الجمهور الإنكليزي ما كان يسمح بشيء آخر. وإذا كان القارئ حليماً، فلن ينسى عنوان المُرسل إليه. وإذْ وجّهتها إلى الإنكليز فهي تمثّل جهداً للتكيّف مع أعرافهم. لقد رفضت فيها كلّ "تلميع"، وقد كُتبتْ بأسلوب بيكويكياني [1] إلى حدّ كافٍ مكوّن من عبارات محترسة وملطّفة.

---

(1) نسبة إلى بيكويك أحد الساسة الإنكليز في ذلك العصر. والمقصود أن تلك الصفحات المشار إليها كتبت بأسلوب دبلوماسي غير مباشر. ـ المترجم.

وليُعلمُ أن إنكلترا ليست شعباً من الكتّاب، وإنّما من التّجار والمهندسين والرجال الأتقياء. لذلك عرفتْ أن تصوغ لغة وبلاغة يُحرص فيها على شكل رئيس ألاّ يُقال ما يُقال. بل بالحريّ، الإيحاء به وكأنّما تُلغيه. ولم يأتِ الإنكليزي الدنيا كيما يحكي. وإنّما على العكس، كيما يصمت. والإنكليز بملامحهم الحيادية، وبتمترسهم وراء غلايينهم يسهرون يقظين على أسرارهم الخاصّة كيلا يفلت منهم سرّ واحد، وهذه قوّة رائعة، ويهمّ النوع البشري كثيراً جداً أن يُحفظ سليمين هذا الكنز وهذه الطاقة على التكتّم. لكنّهما يصعّبان في آن واحد وبشكل ضخم التفاهم مع شعوب أخرى خاصّة شعوبنا. فرجل الجنوب يميل إلى أن يكون ثرثاراً. ولقد أطلقت اليونان "مربّيَتُنا" ألسنتنا وجعلتنا غير متحفّظين بالولادة. وقد انتصر أسلوب أثينا المُسهب على أسلوب لاكونيا الموجز. وكانت الحياة عند الأثينيّ في أن يتكلّم ويقول ويُطلق صارخاً أخفى أسراره في الريح بأشكال واضحة رخيمة. لذلك ألّهوا "اللوغوس" أو الكلمة التي كانوا يعزون إليها قوّة سحرية، وانتهت البلاغة إلى أن تكون في الحضارة القديمة ما هي عليه الفيزياء في هذه القرون الأخيرة. وقد صاغت الشعوب الرومانية في ظلّ هذا النظام لغاتٍ معقّدة، لكنها حلوة وذات جرْس ومرونة وطلاوة لا تُضاهى. ألسنة صنعتها قوّةً "الدردشات" التي لا تنتهي في "الآغورا"، والسويحة والملعب والحانة والندوة. لذلك نحسّ بالخجل إذا اقتربنا من الإنكليز الرائعين وسمعناهم يُصدرون سلسلة من المواء الخفيف المنفّر الذي تقوم عليه لغتهم.

إن موضوع البحث التالي سوءُ الفهم المتبادل الذي ابتُليت به شعوب الغرب، أي، شعوب في حالة تعايش منذ طفولتها. وتبعث الواقعة على الدهشة، لأنّ أوروبا كانت دائماً بمثابة دار جوار حيث العائلات لا تعيش قطّ منعزلة وإنّما تمزج كلّ ساعة وجودها الأليف. وهذه الشعوب التي تجهل اليوم بعضها بعضاً على شكل خطير قد لعبت مع بعضها لمّا كانت أطفالاً في دهاليز الدار الكبيرة المشتركة. فكيف وصل بهم الأمر إلى أن يسيئوا فهم بعضهم بعضاً بشكل جذريّ؟ إن أصل هذا الموقف البشع جدّاً طويل ومعقّد. وإذا أبرزنا خيطاً واحداً فقط من الخيوط التي تتشابك في تلك الواقعة، نلاحظ أن تحوّلَ شعوب إلى

قضاة على شعوب أخرى وازدراءها والحطّ من شأنها لأنّها مختلفة، وأخيراً سماح الأمم القويّة اليوم لنفسها بالاعتقاد أن أسلوب شعب أصغر، أو "طبعه" غير معقول لأنه حربي أو ضعيف اقتصادياً، هي ظواهر، إن لم أكن مخطئاً، لم تحدث قطّ حتى السنوات الخمسين الأخيرة. فلم يكن يخطر لرجل الموسوعة الفرنسي في القرن 18، على الرغم من عجرفيّته وضآلة مرونته الفكرية، وعلى الرغم من اعتقاده بنفسه مالك الحقيقة المطلقة، لم يكن يخطر له أن يحتقر بلداً "غير مثقف" ومُفقراً كإسبانيا. وإذا ما قام أحد بذلك فإن الفضيحة التي كان يثيرها برهان على أن الإنسان العادي يومئذ ما كان يرى، وهو الدخيل على الموضوع، في الفروق في القوّة فرقاً في المستوى الإنساني. على العكس من ذلك، لقد كان ذلك القرن قرنَ الأسفار الملأى بالفضول المحبّب واللذيذ إلى معرفة اختلاف الغير. هذا هو معنى الكوسموبوليتية التي ازدهرت حتى الثلث الأخير منه. وإن كوسموبوليتية فِرغسون، وهِرْدَر، وغوتِه هي نقيض "الدولية أو الأممية" الحالية. إنها كانت تتغذّى ليس من استبعاد الفروق القومية وإنما على العكس، من الحماسة لها. كانت تبحث عن تعدّدية الأشكال الحيوية لا تطلّعاً إلى إلغائها بل إلى دمجها. وشعار ذلك هذه الكلمات لغوته: "وحدهم البشر يعيشون الوضع البشري". وما الرومانسيّة التي تلتها سوى تمجيد لها. وكان الرومانسي يعشق الشعوب الأخرى لأنها تحديداً شعوب أخرى؛ وكان يلمح في أغرب العادات وأبعدها عن الفهم أسراراً فيها حكمة كبيرة. وهو على صواب مبدئيّاً. فليس ثمة شك أن الإنكليزي اليوم المغلق على نفسه بسبب وعيه بقوّته السياسية غير قادر مثلاً أن يرى ما في "التشمّس" من ثقافة رفيعة غاية في الرقّة ومن طراز ممتاز، ينكبّ عليه إسباني أصيل وعن وعي، بينا هو - الإنكليزي - يرى فيه عطالة نموذجية. ربّما يؤمن أن الحضارة الوحيدة لبسُ بنطال فضفاض وضربُ كُريّةٍ بعصا، عمليّة تُمجّد عادة بتسميتها "غولفاً".

الأمر إذاً، ذو شجون والصفحات التاليات لا تصنع شيئاً سوى معالجته من الجانب الأكثر إلحاحاً. وهذا الجهل المتبادل مكّن الشعب الإنكليزي، وهو قليل الأخطاء التاريخية الخطيرة، من أن يرتكب الخطأ الأكبر في نزعته السلميّة. ومن

بين الأسباب كلّها التي ولّدت إخفاقات العالم الحاليّة، سببٌ يتحدّد أكثر ما يتحدّد في عدم تسلّح إنكلترا. وقد سمحت لها عبقريتها السياسية هذه الأشهر الأخيرة أن تصحّح بجهد خارق من الانضباط الذاتي أخطر الشرور. وربّما ساهم في تبنّيها هذا القرار الوعيُ بالمسؤولية المكتسبة.

سيُناقش هذا بهدوء في الصفحات التاليات دون ادّعاء مفرط، لكن برغبة حارّة في المساهمة في إعادة تكوين أوروبا. يجب أن أنبّه القارئ أن كلّ الملاحظات التي أضيفت الآن والإشارات المتسلسلة عائدة إلى الشهر الجاري[1].

**باريس ـ نيسان 1938**

* * *

(1) [خاتمة من أجل الإنكليز، نُشرت أوّل مرة في "تمرّد الجماهير" المطبوع في بوينوس آيرس عام 1938 ]. ـ الناشر.

# أمّا النزعة السلميّة...

لقد أبحرت إنكلترا ـ حكومة ورأياً عامّاً ـ في قارب النزعة السلميّة منذ حوالي عشرين عاماً. وإننا نرتكب خطأ إذا عنينا بهذا الاسم الوحيد مواقف مختلفة جداً، جدّ مختلفة حتى تبدو في الجانب العملي متعارضة غالباً. هناك في الواقع أشكال كثيرة من النزعة السلمية. والشيء الوحيد المشترك فيما بينها غامض جدّاً: وهو الإيمان بأن الحرب شرّ، والتطلّعُ إلى إلغائها كوسيلة للتعامل بين البشر. لكنّ أصحاب النزعة السلميّة بدؤوا يختلفون منذ أن خطوا الخطوة التالية وسألوا أنفسهم إلى أيّ مدى يكون اختفاء الحرب ممكناً إمكانيّة مطلقة. وأخيراً، يصبح الخلاف كبيراً إذا شرعوا في التفكير في الوسائل التي يتطلّبها إقرار السلام بين المتنازعين على مستوى الكرة الأرضية. ولعل دراسة كاملة لأشكال النزعة السلمية المختلفة فيها من الفائدة أكثر مما يُظنّ. وقد يصدر عنها شيء غير قليل من الوضوح. لكنْ، ليكن واضحاً، ليس من شأني الآن وهنا أن أقوم بدراسة أحدّد فيها بشيء من الدقّة النزعة السلمية الخاصة التي أبحرت في قاربها إنكلترا ـ حكومة ورأياً عامّاً -، منذ عشرين عاماً.

لكن الواقع الحالي يسهّل لنا الأمر من جهة أخرى، لسوء الحظّ. إنها لواقعة بارزة بإفراط، وهي أنّ النزعة السلمية الإنكليزية قد أخفقت. وهذا يعني أن هذه النزعة السلمية كانت خطأ. وقد كان الإخفاق كبيراً جداً ومدويّاً جدّاً حتى صار من حقّ المرء أن يراجع المسألة مراجعة جذرية، ويسأل نفسه عمّا إن كانت كل نزعة سلمية خطأ. لكني أؤثر أن أتكيّف ما استطعت مع وجهة النظر الإنكليزية، وسأفترض أن تطلّعها للسلام في العالم تطلّع ممتاز. لكن ذلك سيبرز ما في البقيّة من أخطاء؛ أي، في تقدير الإمكانات التي يوفّرها العالم الراهن، وفي تحديد السلوك الذي يجب أن يسلكه كلّ من يزعم أن يكون محبّاً للسلام حقّاً.

ولا أوحي بقولي ذلك شيئاً يمكن أن يقود إلى الإحباط. بل على العكس تماماً. ولِمَ الإحباط؟ ولعلّ الشيئين الأخيرين اللذين لا حقّ للمرء بهما العتوّ

ونقيضُه الإحباط. ولا يوجد سبب كافٍ لا لهذا ولا لذاك. يكفي أن نلاحظ سرّ الوضع البشري الغريب القائم على موقف جدّ سلبي ومهزوم إذا ارتُكب خطأ، يتحوّل بفعل سحري إلى نصر جديد للإنسان لا لشيء آخر إلا لمعرفة الخطأ. إن معرفة الخطأ هي بذاتها حقيقة جديدة وكأنها نور يشعّ داخل ذلك الخطأ.

وكلّ خطأ مزرعة تنمّي ثروتنا خلافاً لما يحسبه البكّاؤون. فعوضاً عن البكاء عليه فليكن مناسبة لاستغلاله. ويلزمنا من أجل ذلك أن نصمّم على دراسته بعمق وأن نكتشف جذوره من غير رحمة ونبني بقوّة تصوّرات جديدة عن الأشياء التي يهيّئها ذلك الأمر لنا. وأنا أفترض أن الإنكليزي على استعداد، وإن يكن بهدوء لكن بتصميم لتصحيح الخطأ الكبير الذي شكّل نزعتهم السلميّة مدى عشرين عاماً وإحلال نزعة سلميّة أخرى محلّها تكون أكثر حذقاً وأكثر فعالية.

وكان العيب الأكبر في النزعة السلمية الإنكليزية ـ بعامة ـ خطأ أولئك الذين يقدّمون أنفسهم على أنهم أصحاب نزعة سلمية في سوء تقدير العدوّ كما يحدث دائماً تقريباً. وقد أوحى إليهم سوء التقدير هذا بتشخيص زائف. فالسلمي يرى في الحرب ضرراً و جريمة وعيباً، لكنّه ينسى أن الحرب قبل هذا وفوق هذا، جهدٌ ضخم يقوم به البشر لحلّ بعض النزاعات. والحرب ليست غريزة وإنّما اختراع. والحيوانات تجهلها؛ وهي محض مؤسسة بشرية كالعلم أو كالإدارة. وقد قادت إلى أعظم الاكتشافات: إلى اكتشاف النظام قاعدة كلّ حضارة. ولقد جاءت الأشكال الأخرى كلها من النظام، من هذا الأصل، ألا وهو النظام العسكري. وتضلّ النزعة السلمية السبيل وتتحوّل إلى طوبى عدمية إذا لم تدرك أن الحرب تقنيةٌ عبقريّة وعظيمة للحياة ومن أجل الحياة.

وللحرب مظهران كما لكلّ صيغة تاريخيّة: مظهرٌ ساعةَ اختراعها، ومظهر ساعة تجاوزها. فهي تعني ساعة اختراعها تقدّماً لا يمكن حسابه. واليوم لا نرى منها إذا تطلّعنا إلى تجاوزها، غير قفاها الوسخ ورعبها وفظاعتها ونقصها. وبالطريقة ذاتها، أُلغيت العبوديّة من غير تفكير ومن غير أن يُلحظ التقدّم العجيب الذي مثّلته لمّا اختُرعت. لأن الناس من قبلُ كانوا يقتلون المهزومين جميعاً. وكان عمل إحسان عظيم من الإنسانية الأولى التي تصوّرت الحفاظ على

حياة الأسرى واستغلالهم في العمل عوضاً عن قتلهم. ولقد رأى أوغست كونت الذي كان يمتلك حسّاً إنسانيّاً، أي تاريخياً، مؤسسة العبوديّة بهذا الشكل متحرّراً من الحماقات التي قالها روسو حولها. ويلائمنا نحن أن نعمّم ملاحظته متعلّمين أن ننظر إلى الأشياء البشرية كلها بهذا المنظور المزدوج، أي بمظهرها عند المجيء ومظهرها عند الذهاب. وقد كلّف الرومان بشكل ناعم آلهتين من آلهتهم بتقديس هاتين اللحظتين هما: آدِؤونا ـ وآبِؤنا ـ Adeona , Abeona، إله المجيء وإله الذهاب.

وقد جعلت النزعة السلميّة مهمتها في غاية السهولة لجهلها بذلك كلّه، وهو من الأوّليات. وفكّرتْ أن الكفّ عن الحرب كافٍ لإلغائها، أو على الأغلب العمل على ألا تقوم. وإذْ كانت ترى فيها مجرّد إفرازٍ تافه ومريض ظهر في حياة البشر، حسِبت أن في اقتلاعها كفايةً، ولا ضرورة لإحلال شيء محلّها. لكنّ الجهد الضخم الذي تشكّله الحرب يمكن تحاشيه فقط إذا فهمنا السلام جهداً أكبر أيضاً، ومنظومة من الجهود المعقّدة للغاية، والتي تتطلّب جزئيّاً تدخّل العبقرية السعيد. وخلاف ذلك خطأ محض؛ خلاف ذلك تفسير السلام أنه ثغرة بسيطة تخلّفها الحرب إذا اختفت. وبالتالي، الجهل بأنّ الحرب إن كانت شيئاً يُعمل، فكذلك السلام أيضاً شيء يجب أن يُعمل، يجب أن يُصنع واضعين في المهمّة القوى البشرية كلّها. والسلام ليس شيئاً قائماً ببساطة يُعرض كيما يتمتّع به الإنسان، ولا هو ثمرة تلقائيّة لأية شجرة كانت. إذْ لا شيء هامّاً يُهدى إلى الإنسان إهداء. بل ينبغي له أن يصنعه صنعاً وأن يبنيه. لذلك كان اللقب الأسطع لجنسنا هو: الإنسان الصانع Homo faber.

فإذا تنبّهنا لذلك كلّه، ألا يبدو مدهشاً الإيمان بأن يكون أقصى ما استطاعت أن تصنعه إنكلترا لصالح السلام نزعَ سلاحها، وهو عمل يشبه كثيراً إلغاءً محضاً؟ ويبدو هذا الإيمان غير مفهوم إذا لم نلحظ خطأ التشخيص الذي استُعمل قاعدة له، أي، الفكرة القائلة إن الحرب تصدر ببساطة عن العواطف البشرية وإنّنا إذا قمعنا الهوى تُخنق النزعة الحربية. فلْنصنعْ كيما نرى المسألة بوضوح، ما صنعه لورد كلڤن Kelvin لحلّ مشاكله في الفيزياء: فلْنبنِ لنا نموذجاً خياليّاً. فلنتخيّلْ

في الواقع، أن البشر جميعاً يرفضون الحرب في لحظة معيّنة، كما حاولت إنكلترا أن تصنعه من جهتها. أيُظنّ أن ذلك يكفي، بالحريّ، أنتقدّم أدنى خطوة فعّالة بذلك باتجاه السلام؟ ما أكبر هذا الخطأ! فقد كانت الحرب، أكّرر، وسيلة اخترعها البشر لتجاوز بعض النزاعات. وإن رفض الحرب لا يُلغي هذه النزاعات. بل، على العكس، يتركها من غير أن تُمسّ أو تُحلّ قط. ويبدو غياب العواطف والإرادة السلمية لدى البشر جميعاً غير فعّالين البتّة. لأنّ المنازعات تتطلّب حلاًّ، وإذا لم تُخترع وسيلة أخرى فسوف تظهر الحرب مرّة أخرى لا محالة في هذا الكوكب المُتخيّل المسكون بأصحاب النزعة السلمية فحسْب.

ليست الإرادة في السلام إذاً، ما يهمّ آخر الأمر في النزعة السلمية؛ ومن الواجب أن تكفّ هذه المفردة عن أن تعني نيّة حسنة، وتمثّل منظومة من الوسائل الجديدة في التعامل بين البشر، ولا يُنتظر في هذا المجال شيء خصب إذا لم تصبح النزعة السلمية مجموعة جديدة صعبة من التقنيات، بدلاً من كونها رغبة مجانيّة ومريحة.

والضرر الكبير الذي جلبته النزعة السلمية لقضية السلام كامن في أنها لم تُتح لنا رؤية النقص في أكثر التقنيّات أوّليّة، تُشكّل ممارستُها المعيّنة والمحدّدة هذا الذي نسمّيه اسماً غامضاً هو السلام.

والسلام، مثلاً، هو قانون بصفته شكلاً من التعامل بين الشعوب. إذاً، تفترض النزعة السلمية المعروفة أن هذا القانون موجود، وهو بتصرّف البشر، وأن عواطف هؤلاء وحدها وغرائزهم في العنف ما يحثّ على الجهل به. وهذا مناقض للحقيقة بشكل خطير.

ولوجود قانون أو فرع منه، لا بدّ له من:

1- أن يكتشف بعض البشر خاصة الملهمين منهم بعضَ الفِكَر في الحقوق أو المبادئ.

2- الدعاية لهذه الفكَرة وانتشارها في الجماعة المعينة. (في حالتنا على الأقل، الجماعة التي تشكّلها الشعوب الأوروبية والأمريكية يضاف إليهم شعوب الممتلكات الإنكليزية في أوقيانوسيا).

3- أن يصل هذا الانتشار بشكل يكون مهيمناً، وتتعزّز تلك الفِكَر الحقوقية على شكل "رأي عام".

حينئذ، وحينئذ فقط نستطيع أن نتكلم عن تمام مصطلح القانون، أي عن قاعدة نافذة Vigente. ولا يهمّ ألا يكون مشرّع، لا يهم ألا يكون قضاة. فإذا كانت السيادة حقّاً لتلك الفِكر على الأرواح، فإنها ستعمل لا محالة كمرجعيّة للسلوك يمكن الرجوع إليها. وهذا جوهر مبدأ القانون الفعلي.

إذاً، لا وجود لقانون يشير إلى الموادّ التي تسبّب الحروب لا محالة. وليس أنه لا وجود له بمعنى أنه لم يكتسب بعدُ "نفاذاً"، أي أنّه لم يتعزّز كقاعدة صلبة في "الرأي العام"، وإنّما لا وجود له حتّى كفكرة، كنظرية محضة يحتضنها ذهن مفكّرٍ ما. فإذا كان لا وجود لشيء من هذا، إذا كان لا وجود لقانون شعوب ولو نظرياً، أو يُزعم أن تختفي الحروب فيما بينها؟ اسمحوا لي أن أصف زعماً كهذا بأنه تافه ولا أخلاقي. لأن الزعم أن شيئاً ما مرغوباً فيه يتحقّق بشكل سحري، لأنّنا نرغب فيه ببساطة، لا أخلاقي. أمّا الخُلقي وحده فهو الرغبة التي ترافق الإرادة الصارمة في تسريع وسائل تنفيذه.

نحن لا نعرف ما هي "حقوق الأمم الذاتية"، وليس لدينا حتى تخمينات كيف عساه يكون "الحق الموضوعي" الذي يمكنه أن ينظّم حركاتها. وإن انتشار المحاكم الدولية و أجهزة التحكيم بين الدول التي شهِدتها السنوات الخمسون الأخيرة تساهم في أن تحجب عنّا فَقر القانون الدولي الحقيقي، الذي نعانيه. ونحن لا نغمط بأي معنى أهمّية هذه الهيئات القضائية. وكان هامّاً جدّاً من اجل تقدّم مهمّة خلقية أن تظهر مجسّدة في جهاز خاص مرئي بوضوح. لكن أهمّية هذه المحاكم الدولية اقتصر حتى هذا التاريخ على هذا المظهر. و القانون الذي تديره هو في الجوهر ذات القانون الكائن قبل إنشائها. في الواقع، إذا استعرضنا المسائل التي نظرت فيها هذه المحاكم، نلاحظ أنها ذات المسائل التي حلّتها الدبلوماسيّة من قبل. ولم تعنِ تقدّماً في الجوهر: أي، في خلق قانون من أجل واقع خاص هو الدول.

ولم يكن مباحاً انتظار خصوبة أكبر في هذا المجال، في مرحلة بدأت في معاهدة فرساي وتأسيس عصبة الأمم، إشارة منّا فقط إلى أهمّ و أكبر جثّتين حديثتين. ويثير اشمئزازي لفتُ انتباه القارئ إلى أشياء مُخفقة ومنكسرة، أو هي في حالة خراب. لكنّ ذلك لا غنى عنه من أجل المساهمة قليلاً في إيقاظ الاهتمام بمشاريع جديدة كبيرة، وبمهامّ جديدة بنّاءة وسليمة. ومن الواجب ألا يُرتكب مرّة أخرى خطأ كالخطأ في إنشاء عصبة الأمم. ونحن نفهم ما كانت وما عنته بشكل محدّد هذه المؤسسة ساعة ولادتها. لم تكن خطأ كأيّ خطأ، أو كالأخطاء المألوفة في العمل السياسي الصعب. كانت خطأ يستدعي أن نطلق عليه صفة: عميق. لقد كانت خطأ (تاريخياً) عميقاً. وإن الروح "الدافعة" إلى خلقها، أي نسق الأفكار الفلسفية والتاريخية والاجتماعية والقانونية التي فاض عنها مخططها وشكلها، كل ذلك كان ميْتاً "تاريخياً" في ذلك الوقت وينتمي إلى الماضي، وكان متهافتاً بدلاً من أن يستبق المستقبل. ولا تقولوا لنا إن قول ذلك صار سهلاً اليوم؛ فقد كان في أوروبا رجال وشوا حينئذ بإخفاقها المحتوم. وحدث مرّة أخرى ما يكاد يكون طبيعيّاً في التاريخ، أي: جرى التنبّؤ به. لكن السياسيّين مرة أخرى أيضاً، لم يصغوا إلى هؤلاء الرجال. وإنّي أتحاشى تحديد الصنف الذي ينتمي إليه أصحاب النبوءة. يكفي أن نقول إنهم في المملكة البشرية يمثّلون النوع المعاكس أشدّ المعاكسة للسياسيّين. وقد حدث دائماً أن السياسي مَن يحكم وليس صاحب النبوءة. لكن، يهم المصائر البشرية جداً أن يُصغي السياسي دائماً إلى ما يصرخ به النبي، أو يهمس به همساً. وقد نشأت العصور العظمى في التاريخ كلها من هذا التعاون الدقيق بين هذين النمطين من البشر. وربّما كان أحد الأسباب العميقة لهذا الاضطراب الحالي عائداً إلى أن السياسيّين أعلنوا منذ حوالي جيلين استقلالهم و ألغوا هذا التعاون. ونتج عن ذلك هذه الظاهرة المخجلة التي تتجلّى بسير العالم في هذِه المستويات من الحضارة والتاريخ خبط عشواء أكثر من أي وقت آخر، مستسلماً إلى آليّة عمياء. وتقلّ أكثر فأكثر إمكانيةٌ في سياسة سليمة من غير استباق المستقبل استباقاً طويل المدى، ومن غير نبوءة. ولعلّ الكوارث الراهنة تفتح عيون الساسة على الواقعة

الواضحة، وهي أن هناك رجالاً يستبقون زيارة المستقبل قبل غيرهم، إمّا بسبب المواضيع التي يهتمّون بها عادة، وإمّا لامتلاكهم نفوساً حسّاسة كأنها مسجّلات هزّات أرضية دقيقة [1].

وقد كانت عصبة الأمم جهازاً عملاقاً قانونيّاً خُلِق من اجل حقّ غير موجود. وخلّوه من العدالة مُلىء غِشّاً بالدبلوماسية الدائمة التي ساهمت بتقنّعها بالقانون في الإحباط الشامل.

ليتصوّر القارئ أيّاً من النزاعات القائمة اليوم بين الأمم، وليقلْ لنفسه إن كان يجد في ذهنه قاعدة حقوقيّة ممكنة تسمح ولو نظريّاً بحلّ ذلك النزاع. ما هي حقوق شعب مثلاً، كان يضم أمس عشرين مليون نسمة واليوم فيه ثمانٍ وأربعون؟ ومن له الحقّ في المجال غير المأهول من العالم؟ هذه الأمثلة وهي أكثر الأمثلة بدائيّة وأوليّة يمكن إيرادها، توضح بجلاء الطابع المخادع لكل نزعة سلميّة لا تبدأ بأن تكون تقنيّة قانونيّة جديدة. والقانون المطلوب هنا اختراع صعبٌ جدّاً بلا ريب. ولو كان سهلاً لوُجد منذ زمنٍ بعيد. هو صعب، جدّ صعب بالضبط كالسلام الذي ينطبق عليه. لكن عصراً شهد اختراع الهندسة غير الإقليدية، وفيزياء ذات أربعة أبعاد وميكانيكا الطاقة المتقطّعة (أو الكمّ)؛ يستطيع أن ينظر أمامه من غير خوفٍ، ذلك المشروعَ و يصمّم على اقتحامه. ومشكلة القانون الدولي الجديد تنتمي بشكل ما إلى ذات الطراز الذي تنتمي إليه هذه الأشكال الحديثة من التقدم العلمي. وقد يكون القصد هنا تحرير نشاط بشري كالقانون من تقييد جذري عاناه دائماً. والقانون في الواقع، سكوني Estàtico، و ليس عبثاً أن يُسمّى جهازه الرئيس بالدولة Estádo. ولم يستطع

---

(1) هناك جرعة من التهافت في طبيعة السياسة. وهذه ظاهرة. جماعية، وكلّ ظاهرة جماعية أو اجتماعية متهافتة نسبة إلى حياة الأقليّة المبدعة الشخصية. وكلّما ابتعدت الجماهير عن هذه الأقلّيات يزداد تهافت المجتمع، ويصبح ذا طابع مرضيّ عوضاً عن أن يكون قوّة طبيعية تكوينية. ولو استعرضنا قائمة الأشخاص الذين تدخّلوا في خلق عصبة الأمم، لبدا صعباً أن نجد أحداً منهم كان يستحق حينئذ، وهو أقلّ استحقاقاً الآن، مكانة فكرية. وأنا لا أشير بالطبع إلى الخبراء و التقنيين المرغمين على نشر حماقة أولئك السياسيّين وتنفيذها. ـ المؤلف.

الإنسان بعدُ أن يعدّ شكلاً من العدالة لا يكـون محـصوراً في العبـارة rebus sic stantipus. (أشياء لذلك هي ساكنة). لكنّ القضيّة هي أن الأمور البـشرية ليـست أشياء ساكنة res stantes، بـل هـي علـى العكـس، أشـياء تاريخيـة، أي حركـة محضة، وطفرة دائمة. ولم يكن القانون التقليدي غير لائحةٍ قواعدٍ معـدّة لواقـعٍ مشلول. أمّا وإنّ الواقع التاريخي يتغيّر دوريّاً بشكل جذري، فإنه يرتطم لا محالةً في جمـود القـانون الـذي يتحـوّل إلى قمـيص مجنـون Camisa fuerte [1]. لكـنّ قميص مجنون إذا ارتداه رجل عاقل، فله قوّة تحويله إلى مجنون هائج. ومن هنا ـ كما كنت أقول حديثاً ـ هذا المظهر الغريب المرضي الـذي للتـاريخ، ويجعلـه يبدو أنّه صراع دائم بين المشلولين والمصروعين. فتحدث الثورات وسْط الشعب الواحد، وتنفجر الحروب بين الشعوب. والخير الـذي يـزعم الحـقُّ أن يكـون، ينقلب إلى شرّ، كما يعلّمنا التوراة: "كيف حـوّلتم الحـقّ مـرارة، وثمـر العدالـة أفستَنينَ؟" (عاموس، 6 ـ 12).

ويبلغ فقدان التوافق بين سكون العدالة وحركية الواقع التي يريد السلمي أن يخضعها لذلك السكون، ذروة قوّته في القانون الدولي. وإذا نظرنـا إلى التـاريخ من جهة ما يهتمّ به القانون فهو أوّلاً، تغيّر في توزيع السلطة علـى الأرض. وإذا كانت لا توجد ولو نظريّاً، مبادئ عدالة تـنظّم هـذه التغيّـرات في الـسلطة علـى شكل مُرْضٍ، فإن كلّ نزعة سلمية عذابُ حبّ ضـائع. لأنّ الواقـع التـاريخي إنْ كان كذلك أوّلاً، لبدا واضحاً أن الظلـم iniuria سـيكون الوضـع الـراهن Statu quo. ولا ندهشْ إذاً، لإخفاق عصبة الأمم، هذا الجهاز العملاق المُنشأ من أجل إدارة الوضع الراهن.

إن الإنسان يحتاج إلى قانون دينـاميكي، قـانون مـرن ومتحـرّك قـادر علـى مرافقة التاريخ في تحوّلاته. والطلب ليس مفرطاً ولا خياليّاً نظريّاً ولا هو جديـد. فقد تطوّر القانون المدنيّ كما السياسي في هذا الاتّجاه منذ ما يزيد علـى سـبعين عاماً. وهاكم مثلاً: حاولت الدساتير المعاصرة كلّها تقريباً أن تكون "منفتحة". لئن

---

(1) قميص من الكتّان القاسي مفتوح من خلف ومغلق الكمّين ومن أمام يُلبسُه المجنون الهائج. ـ المترجم.

بكن الحدث ساذجاً قليلاً، فمن الملائم تذكّر ذلك، لأنه يُعرب فيه عن تطلّع إلى حقّ "للماشية". لكنّ الأمر الأخصب في رأيي، تحليل أكثر الظواهر الحقوقية قدّماً حدثت حتى تاريخه على وجه الأرض، وهي: كومنولث (رابطة) الشعوب لبريطانية تحليلاً عميقاً، ثمّ محاولة تعريفها بدقّة، أي استخراج النظرية الراقدة خرساء فيها. وقد يقال لي: هذا محال لأن هذه الظاهرة الحقوقية الفريدة تشكّلت تحديداً بموجب مبدأين اثنين: الأوّل ما صاغه بلفور عام 1926 بهذه لكلمات المشهورة: في مسائل الإمبراطورية يجب تحاشي الدقّة، والجدال، والتحديد refining , diseussing , defining. وثانيهما مبدأ "الهامش والمرونة"، لذي أعلنه السير أوستين تشمبرلين في خطابه التاريخي في 12 أيلول 1925: "انظروا إلى العلاقات بين أقسام الإمبراطوريّة البريطانيّة المختلفة: إن وحدة لإمبراطورية البريطانية لا تقوم على بنية منطقية. ولا هي مؤسسة على دستور. لأننا نريد الاحتفاظ مهما يكلّفنا بهامش وبمرونة".

وسوف يكون خطأ إذا لم نرَ في هاتين الصيغتين سوى فيضين من فيوض لانتهازيّة السياسيّة. بل هما تعبّران عوضاً عن ذلك، على شكل ملائم جداً عن لواقع الكبير، واقع رابطة الشعوب البريطانية، وتشيران إليه تحديداً في مظهره لقانوني. أمّا ما لا تصنعانه فهو تحديده (أو تعريفه)، لأن سياسيّاً لم يأت إلى لعالم من أجل ذلك، وإذا كان السياسي إنكليزياً يحسّ بأن تحديد شيء هو رتكاب خيانة تقريباً. لكن، يوجد بالطبع، رجال آخرون مهمّتهم صنع ما هو محظور على السياسي خاصة السياسي الإنكليزي: أي توضيح الأشياء، وإن نُثلت هذه تحت زعم كونها غامضة أساساً. و ليس تعريف المثلّث أصعب أو أقلّ صعوبة مبدئياً من تعريف الضباب. ومن الهامّ جدّاً أن يُقلّص إلى تصوّرات واضحة هذا الوضع القانوني الفعّال القائم على "هوامش" بحتة و على "مرونة" خالصة. لأن المرونة هي الشرط الذي يسمح لقانون ما أن يكون مِطواعاً، وإذا ما سب إليه هامش ما، فذلك أن حركته متوقّعة. وإذا ما عددنا هاتين الخاصيّتين خاصيّتين إيجابيتين بدلاً من فهمهما أنهما محض وهمين و نقصين في القانون، فمن الممكن أن تنفتح أمامنا أخصب الآفاق. و إن شكل حكم الإمبراطورية

البريطانية يشبه كثيراً على الأرجح "المرجع أو المقرن، الرخو"(*) الذي تحدّث عنه إنشتاين، فكرة حُكم عليها من البداية بالغموض، و صارت الآن قاعدة الميكانيك الحديثة.

و القدرة على اكتشاف تقنية العدالة الجديدة التي ننشدها هنا، قد تكوّنت مسبقاً على مدى التراث الحقوقي في إنكلترا بحدّة أشد مما هي عليه في أيّ بلد آخر. و لم يكن ذلك يقيناً بالمصادفة. و ليست الطريقة الإنكليزية في النظر إلى القانون سوى حالة خاصة من الأسلوب العام الذي يميّز الفكر البريطاني. فكر يكتسب فيه تعبيرَه الأقصى و الأنقى ما قد يكون مصيرَ الفكر في الغرب، أي تفسير كل ما هو خامد و عاطل و مادي أنه ديناميكية بحتة، وإحلال القوى والحركات والأعمال محلّ ما لا يبدو غير "شيء" راكد وهادئ وثابت. وقد كانت إنكلترا نيوتونية في مجالات الحياة كلها. لكنّي لا أحسب الوقوف عند هذه النقطة ضروريّاً، وأفترض أن ذلك أُثبت مئة مرة ودُلِّل عليه بتفصيل دقيق. واسمحوا لي فقط، بصفتي قارئاً متعنّتاً أن أعبّر عن أمنيتي desideratum أن أقرأ كتاباً يكون موضوعه مايلي: النيوتونيّة الإنكليزية خارج الفيزياء، بالتالي: النيوتونية في مجالات الحياة الأخرى كلّها.

وإذا لخّصتُ عرضي لبدا مكوّناً من خطّ بسيط واضح.

حسنٌ أن يهتمّ الرجل السلمي مباشرة بتحاشي هذه الحرب أو تلك؛ لكنّ النزعة السلمية لا تقوم على ذلك، وإنّما على بناء الشكل الآخر من التعايش البشري الذي هو السلام. وهذا يعني اختراع سلسلة كاملة من التقنيات الجديدة وممارستها. أولاها تقنية قانونيّة جديدة تبدأ باكتشاف مبادئ مساواة تعود إلى التغيّر في توزيع السلطة على الأرض.

---

(*) لا أدري إن كان يعني بذلك ما أورد الدكتور مارسيل داغر: "لا يؤثّر انتقاء الجملة المقارنة على الحركة النسبية بين جسمين كما لا يؤثّر أيضاً في وضعهما النسبي". ثم على لسان إينشتاين: تكون الجمل المقارنة بغضّ النظر عن حالتها الحركية، متكافئة، وتصاغ القوانين الفيزيائيّة فيها بشكل متماثل". ـ النسبية من نيوتن حتى إينشتاين. د. مارسيل داغر ـ طبع وزارة الثقافة ـ عام 1963 ـ ص 261 حتى 265. ـ المترجم

لكن فكرة قانون جديد ليست بعدُ قانوناً. ولا ننسَ أن القانون يتكوّن من أشياء كثيرة هي أكبر من فكرة: مثلاً، تشكّل جانباً منه عضلاتُ الشرطة أو نظيرها. ولا بدّ لتقنيات الفكر القانوني المحض من أن ترافقها تقنيات أخر كثيرة أشدّ تعقيداً.

وإن اسم القانون الدولي ذاته يعيق لسوء الحظّ رؤيةً واضحة لِما قد يكون قانوناً دوليّاً بملء حقيقته. لأن القانون يبدو لنا ظاهرة تحدث وسْط المجتمعات، وما نسمّيه "وسْط ـ الدول internacional ـ يدعونا إلى عكس ذلك، إلى تصوّر قانون فيما (بينها): أي، في فراغ اجتماعي. وفي الفراغ الاجتماعي تجتمع الدول من خلال ميثاق يخلق مجتمعاً جديداً بقوّة الكلمات السحرية، إنه "عصبة الأمم"(1). لكن ذلك كان له طابع لعب كامل بالألفاظ Calembour. وإن مجتمعاً مكوّناً بوساطة ميثاق هو فقط مجتمع بالمعنى الذي للكلمة في القانون المدني، أيْ هو رابطة اجتماعية، أو جمعية. لكنّ رابطةً أو جمعية لا يمكن لها أن توجد كواقع قانوني إذا لم تنشأ على منطقة حيث قانون مدني ما يكون نافذاً مسبقاً. وإمّا لا، فهي محض أوهام. وهذه المنطقة التي ينشأ فيها مجتمع بميثاق، هي مجتمع آخر موجود من قبل، مجتمع ليس من عمل أيّ ميثاق، وإنّما هو نتيجة تعايش قديم. وهذا المجتمع الحقيقي، وليس الجمعية المهنية ولا الرابطة الاجتماعية asociación يشبه المجتمع الآخر بالاسم فقط (2). ومن هنا التلاعب بالألفاظ calembour.

---

(1) لقد آثر الإنكليز باتفاق جيّد على تسميتها (رابطة Liga). وهذه التسمية تتجنّب اللبْس. لكنها تضع في آن واحدة مجموعة الدول خارج القانون بتكريسها للسياسة بصراحة. ـ المؤلف.

(2) لتوضيح المعنى قليلاً نقول: إن الهيئة التي أنشئت بعد الحرب العالمية سُميّت: Société des Nations. وكلمة Société تعني في اللغات الأجنبية مجتمعاً. ويرى المؤلّف أن المجتمع لا يكون بقانون، ولا بميثاق وإنما ينشأ من العيش معاً وهو مصدر القوانين، إلا إذا أريد بها معنى قانوناً مدنياً، أي عصبة، أو جمعية؛ وفي هذه الحالة تشترك مع المجتمع الحقيقي بالاسم فقط. وكنا نحن ـ العرب ـ عرّبناها بعصبة الأمم. ـ المترجم.

وإذا كنت لا أزعم حلّ أكثر مسائل الفلسفة وعلم الاجتماع تعقيداً بحركة دوغماويّة عارضة وسريعة، فلديّ الجرأة على الإيحاء أنه على صراط مستقيم مَنْ يطلب ممّن يحدّثه عن واقعة قانونية، أنْ يدلّه على المجتمع حاضنِ هذه الواقعة ويكون سابقاً عليها، ولا يوجد ولا يولد في الفراغ الاجتماعيّ حقّ. لكنّ هذا يتطلّب كقِوامٍ وحدةً من التعايش البشري. وكذلك وحدة العرف والعادة اللذين يشكّل القانون أخاهما الأصغر، لكنه الأقوى. والوضع هو هكذا حتّى لا توجد علامة لاكتشاف وجود مجتمع حقيقي أوثق من وجود واقعة قانونية. ويعكّر وضوح هذا الأمر الاضطراب المألوف الذي نعانيه حين نؤمن أن كلّ مجتمع حقيقي لا مفرّ من أن يكون له بالقوّة دولة حقيقية. لكن، من الواضح جيّداً أن جهاز دولة لا يُنتج وسْط مجتمع، وإنّما في مرحلة جدّ متقدّمة من تكوّنه. وربّما هيّأت الدولة للقانون بعض التحسينات. لكن، لا ضرورة للإعلان أمام قرّاء إنكليز أن القانون يوجد من غير دولة ونشاطها التشريعي.

إذا تكلّمنا عن الدولة، نميل إلى تمثيلها لأنفسنا كمجتمعات منفصلة عن بعضها ومنغلقة نحو الداخل على نفسها. لكنّ ذلك تجريد يبعد أهمّ ما في الواقع. لا ريب أن تعايش الإنكليز فيما بينهم أو معاملة بعضهم بعضاً، هو أقوى كثيراً من تعايش إنكليز مع ألمان وفرنسيّين. لكن، بالطبع، يوجد تعايش عامّ فيما بين الأوروبيّين؛ بالتالي، أوروبا مجتمع عمره قرون كثيرة ولها تاريخ خاص كما يمكن أن يكون لكلّ أمّة بمفردها. وهذا المجتمع الأوروبي العام يمتلك درجة أو قرينة مجتمعية أقلّ بروزاً من الدرجة التي بلغتها منذ القرن 16 المجتمعات الخاصة المسمّاة أمم (أو دول) أوروبية. لنقل إذاً، إن أوروبا مجتمع أوْهَى من إنكلترا أو فرنسا؛ لكن، لا نجهلنّ طابع المجتمع الفعلي فيها. والأمر هامّ للغاية. لأن إمكانات السلام الوحيدة الموجودة مقيّدة بوجود مجتمع أوروبي أو عدم وجوده فعليّاً. فإذا كانت أوروبا مجموعة أمم فقط، فبإمكان أصحاب النزعة السلميّة أن يودّعوا آمالهم. ولا يمكن أن يوجد سلام حقيقي بين مجتمعات منعزلة عن بعضها. وما نسمّيه عادة بهذا الاسم إنْ هو غير حالة من حرب صغرى أو كامنة.

وإذا كانت اللغة والكتابة المعقّدة ظاهرتين ماديتين بفضلهما نتصور الوقائع المعنوية، فلا يُستهان بالضرر الذي تولّده صورة بصرية خاطئة تحوّلت إلى عادة ذهنية. لذلك أنا أنتقد هذه الصورة عن أوروبا، تظهر فيها مكوّنة من حشد من الأفضية ـ أي الأمم ـ التي تحافظ على بعض العلاقات الخارجية فيما بينها فقط. وصورة لاعب البلياردو المجازية ينبغي لها أن تُوئس صاحب النزعة السلمية الطيّب، لأنها كما في البليارد، لا تعدنا بإمكانية أخرى سوى الصدام. فلنصحّح الصورة إذاً. وعوضاً عن أن نتصوّر الأمم الأوروبية سلسلة من المجتمعات المنعزلة، فلنتصوّرْها مجتمعاً واحداً ـ هو أوروبا ـ نمت في داخله مجموعات أو نوى أشدّ كثافة. وهذه الثورة أكثر ملاءمة بشكل تقريبي من الصورة الأخرى عمّا كان عليه التعايش الغربي في الواقع. ولا نقصد بذلك أن نرسم صورة مثالية، وإنّما أن نعبّر تعبيراً حيّاً عمّا كان هذا التعايش [1] في الحقيقة منذ بدايته إثر موت الهيمنة الرومانية.

والتعايش وحده لا يعني مجتمعاً، ولا هو الحياة في مجتمع، أو تشكيل جانب من مجتمع. بل التعايش يقتصر على علاقات بين الأفراد. لكن، لا يمكن أن يوجد تعايش دائم وثابت من غير أن تحدث على شكل آليّ الظاهرة الاجتماعية بامتياز، وهي الأعراف، أعراف فكرية أو "رأي عام"، وأعراف ذات تقنية حيوية أو "عادات"، وأعراف توجه السلوك أو "الأخلاق"، وأعراف تفرضها أو "القانون". وتكمن مزيّة العرف العامة في كونه قاعدة للسلوك الفكري والعاطفي أو الفيزيقي تُفرض على الأفراد شاؤوا أم أبوا. ويمكن للفرد أن يقاوم العرف على مسؤوليّته، لكنّ هذا الجهد المقاوم يبيّن بدقّة خيراً من أيّ شيء آخر حقيقة العرف القسرية، وهو ما نسمّيه "نفوذاً". فالمجتمع إذاً، مجموعة أفراد يعرفون معرفة مشتركة أنهم خاضعون لنفوذ بعض الآراء والقيم. ولا يوجد مجتمع بمقتضى ذلك، من غير نفوذٍ فعلي لتصوّر ما عن العالم، تصوّر يفعل فعله كمرجعية عليا يمكن اللجوء إليها في حالة نزاع.

---

(1) المجتمع الأوروبي إذاً، ليس مجتمعاً أعضاؤه الدول. بل أعضاؤه كما في كلّ مجتمع حقيقي البشرُ، الأفراد البشريون، أي الأوروبيون الذين هم فضلاً عن كونهم أوروبيين، إنكليز وألمان وإسبان. ـ المؤلف.

لقد كانت أوروبا مجتمعاً موحّداً دائماً، من غير حدود مطلقة ولا انقطاع، لأنها لم ينقصها قط هذا الأساس أو الكنز من "قوى النفوذ الجماعية" ـ (كالقناعات العامّة ـ ولائحة القيم)، المزوّدة بهذه القوّة القسرية الغريبة للغاية التي يقوم عليها "الشأن الاجتماعي". ولا مبالغة في شيء القولُ إنّ المجتمع الأوروبي موجود قبل الدول الأوروبية، وإن هذه الدولة نشأت في حضن ذلك المجتمع الأممي. وبإمكان الإنكليز أن يروا ذلك بشيء من الوضوح في كتاب داوسون Dawoson: صنع أوروبا ـ مدخل إلى تاريخ المجتمع الأوروبي.

ومع ذلك، يعاني كتاب داوسون نقصاً. إنه مكتوب بذهن يقظ وماهر، لكنّه لم يتحرّر تحرّراً كاملاً من ترسانة التصوّرات التقليدية في علم التاريخ، تصوّرات إلى حدّ ما ميلودرامية وصوفية تخفي حقائق التاريخ عوضاً عن أن تنيرها. وقليلة هي الأشياء التي قد تُسهم في إشباع أفق المرء مثل تاريخ للمجتمع الأوروبي مفهوماً بالشكل الذي بيّنته منذ قليل. لكنّ هذا الأمر لم يُلحظ قطّ، لأن أشكال الرؤية التاريخية التقليدية كانت تحجب هذه الحقيقة التوحيدية التي سمّيتها، بمعنى حصري، "المجتمع الأوروبي"، وأبدل بها جمع من الأمم، كما يظهر مثلاً في عنوان رانكه Ranke: "تاريخ الشعوب الجرمانية والرومانية". والحقيقة أنّ هذه الشعوب بصيغة الجمع تطفو كدمى داخل المجال الاجتماعي الوحيد الذي هو أوروبا: "فيه تتحرّك، وفيه تعيش، وفيه توجد". أمّا التاريخ الذي أنشدُه فسوف يُحصي لنا تذبذبات هذا المجال البشري، وسوف يُرينا كيف تغيّرت دلالته المجتمعيّة؛ وكيف انحدرت في مناسبات على شكل خطير مثيرةً الخوف من انقسام أوروبا انقساماً جذريّاً وبخاصة كيف أن جرعة السلام في كلّ عصر كانت مقيّدة مباشرة بهذه الدلالة. وهذا الأمر الأخير هو أعظم ما يهمّنا في الشكاوى الحاليّة.

والحقيقة التاريخيّة أو ما يحدث في العالم البشري، بكلام أمعن في العاميّة، ليس كومة من الحوادث المفردة، وإنّما يمتلك نظاماً دقيقاً وبنية واضحة. وأزيد: ربّما كان الشيء الوحيد في العالم الذي له بذاته بنية وتنظيم داخليّ. وما خلا ذلك ـ كالظواهر الفيزيائية مثلاً ـ تخلو من هذا التنظيم. إنها وقائع منعزلة ينبغي

للفيزيائي أن يخترع لها بنية خيالية. لكنّ نظام الواقع التاريخي هذا يحتاج إلى دراسة. ولن تأتينا بنبأٍ عنه افتتاحيات الصحف ولا خطب الوزراء والديماغوجيين. وإذا ما دُرس جيّداً بدا ممكناً تشخيص مكان المرض أو طبقته في الجسم التاريخي وبشيء من الدقّة. كان يوجد في العالم مجتمع قويّ وكبير، ألا وهو المجتمع الأوروبي. وكان يقوم بصفته مجتمعاً، على نظام قاعدي يعود إلى فعالية بعض المراجع العليا ـ كدستور أوروبا الفكري والخلقي. وكان هذا النظام يعمل عمله على الرغم من مظاهر الفوضى السطحية، في أحضان الغرب العميقة، وظلّ مشعّاً طيلة أجيال على بقيّة العالم، ووضع كثيراً أو قليلاً في هذا العالم كلّ ما تقدر عليه هذه البقيّة.

حسن: لا ينبغي لرجل السلم أن يهتمّ بشيء اليوم اهتمامه بالتحقّق ممّا يحدث في أحشاء الجسم الغربي العميق هذه، وما هي دلالته الحالية في الجمْعنة؛ ولِمَ تبخّرت منظومة "قوى النفوذ الجماعية"، التقليدية، ومن إن كانت إحدى هذه القوى تحافظ على الرغم من المظاهر على حيويّة كامنة. لأنّ القانون عمليّة تلقائية من علميات المجتمع، لكن المجتمع تعايش في ظلّ مرجعيات. وقد يحدث أن تغيب في الوقت الحاليّ هذه المرجعيات بنسبة لا مثيل لها طيلة التاريخ الأوروبي. وقد يكون المرض في هذه الحالة أخطر من كلّ مرض عاناه الغرب منذ دوقليانوس حتى آل سيڤيروس. ولا يعني هذا أنه غير قابل للشفاء؛ بل تعني فقط ضرورة استدعاء أطبّاء جيّدين جداً وليس أيّ عابر سبيل. تعني خاصّة أنه لا يمكن انتظار علاج ما من عصبة الأمم؛ وهي حَسَب ما كانت عليه وما تزال مؤسسة منافية للتاريخ يستطيع مُفترٍ أن يفترض اختراعها في نادٍ أعضاؤه الرئيسيون كانوا مستر بيكويك(*) والسيد هومِه(*) وأشباههما.

ويبدو التشخيص السابق، فضلاً عن كونه صائباً أم خاطئاً، غامضاً. وهو كذلك في الواقع. وأنا آسف لذلك؛ لكن، لا حيلة لي في تحاشيه. وهي أيضاً غامضة أكثر التشخيصات دقّة في الطبّ الحالي. فمن خارج المهنة يرى مرضاً

---

(*) Mr. Pickvvick ـ M. Homais.

رهيباً محدّداً عند قراءته تحليلاً دقيقاً للدم؟ لقد بـذلتُ جهـدي دائمـاً لمكافحـة السرّيّة التي هي بذاتها أحد شرور عصرنا. لكن، لا نخدعنّ أنفسنا. فقد انـصبّت العلوم منذ قرن تقريباً بشكل لا يُقاوم في اتجاه السرّية لأسباب عميقـة ومحترمـة جزئيّاً. وذلك أحد الأمور الكثيرة التي لم يعرف أهميّتها الخطيرة السياسيّون. وهم رجال يعانون عيباً معاكساً هو الإفراط في العلنيّة. ولا مناص في الوقـت الحـالي من قبول الموقف والاعتراف بأن المعرفة قد بعدُت بُعداً شـطوناً عـن محادثـات الشرْب في الحانة.

لقد زالت الصفة الاجتماعية اليوم عن أوروبا، أو بقول مماثل، غابت عنـها مبادئ تعايشٍ نافذةُ القوّة يمكن الرجوع إليها. فهناك جانب من أوروبا يبذل جهده لدعم مبادئ يعدّها "جديدة"؛ وهناك جانب آخر يبذل جهداً للدفاع عن المبادئ التقليدية. وذلك خير برهان على أنّ لا هذه ولا تلك قوية النفوذ، وأنها خـسرت ولم تكتسب قوّة المرجعيات. فإذا ما بلغ رأي أو قاعدة أن يكون حقّاً قـوّة نافـذة جماعية، فإنه لا يستمدّ قوّته من الجهد الذي تبذله فئات معيّنة داخـل المجتمـع لفرضه أو دعمه. بل على العكس من ذلـك: كـل فئـة معيّنـة تبحـث عـن قوّتهـا القصوى بادّعائها هذه القوى النافذة. وإذا اضطررنا إلى الكفاح في سـبيل مبـدأ، فهذا يعني أنّ هذا المبدأ ليس نافذاً بعدُ أو كفّ عن ذلك. وإذا كان على العكس، نافذاً تمام النفاذ فإن الـشيء الوحيـد الـذي يجـب صـنعه هـو حسن اسـتعماله والاحتماء به كما يُصنع بقانون الجاذبيّة. وتمارس القوى النافذة تأثيرها الـسحريّ من غير إشكال ولا اضطراب، بل بهدوء وبشكل راقد في قاع النفوس، ومن غير أن تدرك أحياناً أنها تهيمن عليها، حتّى تحـسب نفـسها أحيانـاً أنهـا تـصارع في مواجهتها. والظاهرة مدهشة، لكنّها غير قابلة للسؤال وتشكّل الواقعة الرئيسة في المجتمع. والقوى النافذة هي السلطة الاجتماعية الحقيقية المُغفلة، واللاشخصيّة والمستقلّة عن كل فئة أو فرد معيّن.

وبالعكس، إذا ما فكرةٌ فقدت هذا الطابع المرجعيّ الجماعي، فإنّها تُحدث انطباعاً ما بين مضحك ومخجل في نظر من يعدّ الإشارة إليها كافية كيمـا يحـسّ بنفسه مُسوَّغاً ومدعّماً. حسن: وهذا ما يزال يحدث حتّى اليوم بكثرة مفرطـة في

إنكلترا والولايات المتحدة[1]. وقد وقفنا حائرين لمّا لمحنا ذلك. أيعني هذا السلوك خطأ، أم هو وهم متعمّد؟ أهو براءة أم تكتيك؟ ولا ندري علامَ نعوّل، لأنّ وظيفة التعبير أو "القول" عند الأنغلوسكسوني ربّما تمثّل دوراً مختلفاً عمّا هي عليه لدى الشعوب الأوروبية الأخرى. لكنّي أحسّ بأن يكون هذا السلوك أياً كان مغزاه، شؤماً على صاحب النزعة السلميّة. ربما وجب فوق ذلك، أن ننظر إن كان أحد العوامل التي ساهمت في الحطّ من سمعة القوى النافذة الأوروبية، تصرّفَ إنكلترا بها عادة تصرّفاً خاصاً. ويجب دراسة المسألة ذات يوم بعمق. لكن، ليس الآن، ولا أنا من يصنع ذلك[2].

ذلك أن صاحب النزعة السلمية يحتاج إلى أن يدرك أنه يجد نفسه في عالم يغيب عنه أو هو ضعيف جداً، الشرطُ الرئيس لتنظيم السلام. ففي تعامل الشعوب مع بعضها البعض، لا حاجة بها للجوء إلى مرجعيات عليا لأنها غير موجودة. فقد قُضي على جوّ حسن المعاشرة الذي كانت تعوم فوقه والذي كان يقف كإثير نافع، ويسمح لها بتواصل لطيف. ظلّت إذاً، متباعدة وفي موجهة بعضها بعضاً. فبينما كانت الحدود منذ حوالي ثلاثين عاماً لا تزيد في نظر المسافر عن خطوط وهميّة، فها نحن نرى اليوم كيف أخذت تزداد قسوة بسرعة متحوّلة إلى مادة قرنيّة تلغي مساميّة الأمم وتجعلها منغلقة على نفسها. والحقيقة البحتة هي أن أوروبا وجدت نفسها منذ أعوام في حالة حرب، حرب هي جوهرياً أشدّ من كل حروب ماضيها. ويبدو لي أنها الأصل الذي عزوته إلى هذا الوضع، تعزّزه واقعة أنه ليس فقط توجد حرب فعلية بين الشعوب وإنّما يوجد نزاع خطير معلن أو في طريق الإعداد داخل كلّ شعب منها. إنه لسخف تفسير

(1) مثال على ذلك: الإشارات إلى "عالم متحضّر" مفترض، أو إلى "ضمير العالم الخلقي"، التي كثيراً ما تظهر على شكل مضحك في الرسائل الموجّهة إلى مدير صحيفة التايمز The Times. ـ المؤلف.

(2) منذ حوالي مئة وخمسين عاماً وإنكلترا تخصّب سياستها الدولية بتعبئة المبدأ الميلودرامي عن النساء والأطفال de Women and children ـ كلّما ناسبها ذلك، فقط كلما ناسبها. ـ المؤلف.

تجلّيات لا خيار فيها لحالة الحرب المدنية التي تجد كـل البلـدان نفـسها تقريبـاً منخرطةً فيها. ونرى اليوم كيف أن تماسك كل أمّة داخليّاً كان يتغذّى في جانـب كبير من قوى النفوذ الأوروبية.

وإن إضعاف الصلة المشتركة بين شعوب الغرب فجأة يساوي تباعداً روحيّاً ضخماً. وأصبح التعامل فيما بينها في غاية الصعوبة. فقد كانت المبادئ المشتركة تشكّل نوعاً من لغة تتيح لهم أن يتفاهموا. إذاً، لم تكن توجد ضرورة ملحّة حتى يعرف كل شعبٍ الشعوبَ الأخرى معرفة جيّدة، وشعباً شعباً Singulatim. لكننـا بهذا نختتم حلقةً أفكارنا الأوّلية.

الحديث جارٍ منذ قـرن تقريبـاً عـن أن وسـائل الاتـصال الحديثـة ـ كتنقّـل الأفراد، ونقل المنتجات، وبثّ الأخبار ـ قرّبت الشعوب من بعـضها ووحّـدت الحياة على وجه الأرض. لكن هذا القول كالعادة، مبالغـة. لأن الأمـور البـشرية تبدأ دائماً تقريباً بكونها أساطير، ثمّ تتحوّل إلى وقائع في وقت لاحـق فحـسب. وفي هذه الحالة نرى اليوم بوضوح أن الأمر ما كان يعدو كونـه توقّعـاً متحمّـساً. فبعض هذه الوسائل التي كان ينبغـي لهـا أن تجعـل هـذا التقـارب فعليّـاً، كـان موجوداً مبدئياً، كالسكك الحديدية والسفن البخاريـة والـبرق والهـاتف.. لكـنّ صنعها لم يكن قد أُتقن بعد، ولم تكن موضوعة في الخدمة على نطـاق واسـع، ولم تكن اختُرعت المخترعات الأكثر حـسماً كـالمحرك الانفجـاري والاتـصال بالراديو. وقد استعجل القرن 19، المنفعل إزاء الفتوحات التقنية العلمية الكـبيرة الأولى، في بثّ سيول من البلاغة حول "التحسينات" و "التقدّم المادي"، الخ..، حتّى أخذت النفوس حوالي نهاية ذلك القرن تـسأم هـذه الأفكـار الـشائعةَ علـى الرغم من اعتقادها بصحّتها، أي على الرغم من أنها وصلت إلى قناعة أن القـرن 19 كان أنجز بالفعل ما كانت تلك الثرثرة اللفظية تعلنه. وقد تسبّب هذا في خطـأ طريف في الرؤية التاريخية حال دون فهم كثير من الصراعات الحالية. لـئن كـان الإنسان العادي على قناعة أنّ القرن الماضي قد بلغ الذروة في مجـالات التقـدّم الكبرى، فإنّه لم يُدرك أن عصر الابتكارات التقنية الفريد، وإنجازها، كان هـذه السنوات الأربعين الأخيرة. فقد تجاوز تجاوزاً كبيراً عددُ الاكتشافات وأهميّتها،

وإيقاع استعمالها الفعلي في هذه المرحلة القصيرة للغاية، كلَّ ما أُنجز في ماضي البشرية مأخوذاً بجملته. وهذا يعني أنّ تحوّلَ العالم تحـوّلاً تقنيّاً فعليّـاً، واقعـة حديثة للغاية، وأنّ هذا التغيّر آخذ في إنتاج نتائجه الهامّـة [1] الآن، الآن ولـيس منذ قرن. وكان ذلك في كلّ المجالات. وإن عدداً غـيرَ قليـل مـن الاضـطرابات العميقة في الاقتصاد الحالي يجيء من التغيّر المفاجئ الذي أحدثته المبتكرات في عمليّة الإنتاج، تغيّر لم تجد المؤسسة الاقتصادية فسحة من الوقت لتمثّله. افرض معملاً واحداً قادراً على إنتاج كل المصابيح الكهربائية أو الأحذيـة الـتي يحتـاج إليها نصف قارّة؛ فهذه واقعـة سـعيدة للغايـة، بـدلاً مـن أن تكـون مفرطـة في شذوذها. وهذا الأمر بعينه حدث مع وسائل الاتصال. فكل شعب من الـشعوب يتلقّى في هذه الأعوام الأخيرة من غير تفكير حقاً في الساعة والدقيقة كميّة ما من الأخبار جدّ حديثة حول ما يحدث لدى الشعوب الأخرى حتى أثارت فيه الوهم أنه فعلاً وسط الشعوب الأخرى، أو بجوارها المطلق. أو فلْنقل بـصيغة أخـرى: إن حجم العالم نـسبةً إلى محتويـات الحيـاة العامّـة العالميـة قـد انكمـش فجـأة وتقلّص. وقد وجدت الشعوب نفسها بغتة أنها أقرب إلى بعـضها الـبعض علـى شكل ديناميكي. ويحـدث هـذا تحديـداً في الوقـت الـذي تـزداد فيـه الـشعوب الأوروبية في البعد روحياً عن بعضها.

ألا يُلاحظ القارئ، من ثمّ، خطر وضعٍ كهـذا الوضـع؟ معلـوم أن الكـائن البشري لا يستطيع من غير شيءٍ ما أن يقترب مـن كـائن آخـر. وإذا جئنـا أحـدَ العصور التاريخية حيث كان التقارب يبدو أسهل ظاهريّاً، فإنّنا نميل إلى النـسيان أن احتياجات كبيرة كانت لازمة دائماً للاقتراب من هذا الضاري الطـامح إلى أن يكون ملاكاً، ألا وهو الإنسان. لذلك يحدث طيلة التـاريخ كلّـه تطـوّر في تقنيـة الاقتراب الذي جانبه الأبرز والمرئيّ، التحيّة. وربّمـا أمكننـا القـول بـشيء مـن التحفّظ إن أشكال التحيّة تعبير عن كثافة السكان؛ بالتـالي، تعـبير عـن المـسافة

(1) يظل خارج هذه الاعتبارات ما نستطيع أن نسمّيه "مخترعات أوّلية" كالبلطة والنار والعجلة والسلة والحَلّة، الخ. ويبدو صعباً جداً مقارنتها بالمخترعات الموجّهة أو التاريخية، بالضبط لكونها شيئاً لازماً للمخترعات الأخرى كلّها، ولكونها مكتسبة منذ فترات سحيقة. ـ المؤلف.

الطبيعية التي تفصل بعض الناس عن بعض. فلكلّ فرد من الطوارق في الصحراء نصف قطر من الوحدة يبلغ عدّة أميال. وتبدأ تحيّة الفرد من الطوارق من مئة ياردة وتدوم ثلاثة أرباع الساعة. وقد تعقّدت التحيّة والتعامل في الصين وفي اليابان، وهما شعبان كثيفا السكان حيث البشر يعيشون إن صحّ القول، فوق بعضهم بعضاً أنفاً لأنف في عشّ نمال متماسك، يتعقّدان في أدقّ تقنيات المجاملة وأعقدها؛ هي جدّ دقيقة حتى يُحدث الأوروبي في ابن الشرق الأقصى انطباعاً أنّه كائن فظّ ووقح لا يصحّ معه غير القتال في الواقع. وكلّ شيء في هذا التقارب الفائق جارح وخطير: حتى الضمائر الشخصية تصبح مزعجة. لذلك توسّل الياباني إلى إلغائها من لغته. فعوضاً عن أن يقول: "أنت"، يقول شيئاً شبيهاً بـ"الحضور المدهش"، وعوضاً عن أن يقول "أنا"، يحيّي تحية خضوع فيقول: "الفقر الحاضر هنا".

فإذا كان تغيّر بسيط في المسافة بين رجلين يحمل في طيّاته أخطاراً كهذه، فتصوّروا الأخطار التي يولّدها التقارب الفجائي الذي حصل بين الشعوب في السنوات الخمسة عشرة أو العشرين الأخيرة. أحسب أنه لم يُمْعَنِ النظر كما يجب في هذا العامل الجديد الذي يجب أن يُولى انتباهاً.

لقد جرى كلام كثير هذه الأشهر حول تدخّل أو غياب تدخّل بعض الدول في حياة بلدان أخرى، لكنّ الكلام لم يجرِ على الأقلّ بتأكيدٍ كافٍ، عن التدخّل الذي يمارسه ممارسة واقعيّة رأي أمم في حياة أمم أخرى بعيدة جداً عنها أحياناً. وهذا التدخل أخطر اليوم في رأيي من التدخّل الآخر، لأن الدولة في نهاية المطاف، جهازٌ "مُعقلن" نسبيّاً داخل كلّ مجتمع. أمّا أنشطتها فتدبّرها وتقنّنها إرادة أفراد معيّنين من رجال السياسة، رجال لا يمكن أن يفوتهم القدْر الأدنى من التفكير في المسؤولية والإحساس بها. لكنّ رأي شعب كامل أو فئات اجتماعية كبرى هو سلطة أوّلية، عفوية وغير مسؤولة، ويُبدي فوق ذلك ضعفه وعطالته إزاء تأثير المؤامرات كلّها. ومع ذلك، إذا ما انصبّ الرأي العام بالمعنى الدقيق للكلمة في بلد على الحياة في بلده ذاته، فهو "على صواب" دائماً، بمعنى أنه لم يكن قط غير ملائم للوقائع التي يرتأي فيها. والسبب في ذلك واضح. لأن

الوقائع التي يرتأي فيها هي ما قد حدث فعلاً للذات التي ترتأي فيها، ذاتها. فإذا ما أبدى الشعب الإنكليزي رأيه في المسائل الكبرى التي تمسّ دولته، فإنه يبدي رأيه في الأحداث التي حدثت له، الأحداثِ التي جرّبها في جسمه ذاته، وفي روحه ذاتها، والتي عاشها؛ وعلى الأغلب هي هو ذاته. فكيف يضلّ ضلالاً جوهرياً؟ وإن تفسير هذه الأحداث تفسيراً مذهبيّاً قد يتسبّب في أكبر الخلافات النظرية، وقد تثير هذه الخلافات آراء عامّة متحيّزة تدعمها فئات خاصة بعينها. لكنّ الوقائع غير القابلة للمغالطة، التي كانت من نصيب الأمّة أو قاستها تدفع بين يدي الأمّة ومن خلف ظهر هذه الخلافات "النظرية"، "بحقيقة" حيوية، هي الحقيقة التاريخية نفسها والتي لها قيمة وقوّة تعلوان على المذاهب كلّها. وهذه "العلة" أو "الحقيقة" الحيوية التي ينبغي لنا أن نقر لها أنها سمة من سمات كلّ "رأي عام" حقيقي تكمن كما نرى، في ملاءمتها. وإذا قلنا ذلك بكلمات أخر نحصل على هذه القضية: من غير المحتمل حتى المدى الأقصى أن يخلو "الرأي العام" لبلد في الأمور الخطيرة، من الحدّ الأدنى من الاطلاع الضروريّ لكيلا يكون حكمه غير ملائم عضويّاً للواقع محلّ الحكم. سوف يعاني أخطاء ثانوية وفي التفاصيل، لكنه إذا أُخذ برؤية كُبرى، فلا يُصدّق أن يكون تفاعله غير ملائم للواقع، أو غير منتظم بالنسبة له. وبالتالي لا يُصدّق أن يكون سامّاً.

والعكس يحدث بالضبط، إذا انصبّ الرأي العام في بلد على ما يحدث في بلد آخر. فمن المحتمل حتى الحدّ الأقصى أن يكون هذا الرأي بدرجة كبيرة غير ملائم. فالشعب A يفكّر ويرتأي الرأي انطلاقاً من عُمق تجاربه الحيوية الخاصة به، التي تختلف عن تجارب الشعب B. أو يمكن أن يقود هذا إلى شيء آخر غير إلى لعبة مغالطات؟ ها هنا إذاً، العلّة الأولى لغياب التلاؤم المحتوم الذي لا يمكن مناهضته إلا بشيء صعب جدّاً وهو: اطّلاع (أو إعلام) كافٍ. وإذْ تغيب هنا الحقيقة الحيوية فكان لا مناص من إحلال حقيقة معرفية محلّها.

ما كان يهتمّ أحدٌ منذ قرن بأن يكون للشعب الأمريكي رأي حول ما كان يحدث في اليونان، وما كان هامّاً أن يكون هذا الرأي سيّء الاطلاع. أمّا وإن الحكومة الأميركية لم تكن ناشطة في المسألة، فإن هذا الرأي لم يكن ذا تأثير

على مصائر اليونان. وكان العالم حينئذ "راشداً" وأقل صلابة، وكان مرناً. وكانت المسافة الديناميكية بين شعب وشعب جدّ كبيرة حتى كان الرأي غير الملائم يفقد سمّه عند اجتيازها [1]. لكن الشعوب دخلت هذه الأعوام الأخيرة مرحلة تقارب دينامي كبير، وصار رأيُ فئات اجتماعية أمريكية كثيرة مثلاً، يتدخّل في الحرب الأهليّة الإسبانية تدخّلَ رأيٍ عام مباشر، وليس تدخّلاً حكوميّاً. والأمر عينُه يُقال عن الرأي العام الإنكليزي.

لا شيء أبعد عن طموحي في أن أحاول تقليم خيار الإنكليز والأمريكيّين بمنازعتهم حقّهم في إبداء الرأي الذي يعجبهم حول كلّ ما يلذّ لهم؛ ليست المسألة مسألة "حقّ"، ولا الثرثرة الكلامية المزدراة التي تستظلّ بظلّ هذا العنوان. وإنّما هي ببساطة مسألة إدراك سليم. وأنا أؤكّد أنّ تدخّل الرأي العام لبعض البلدان في حياة بلدان أخرى هو اليوم عامل مزعج وسامّ ومولّد عواطف حربيّة، لأن هذا الرأي لمّا يُحكمْ بتقنية موائمة لتغيّر المسافة بين الشعوب. وللإنكليزي أو الأمريكي ملءُ الحقّ الذي يريد، في إبداء الرأي حول ما قد حدث وكان ينبغي له أن يحدث في إسبانيا، لكنّ هذا الحقّ ضارّ إذا لم يرتضِ التزاماً مقابلاً: وهو أن يطّلع اطّلاعاً جيّداً على واقع الحرب الأهلية الإسبانية التي فصلُها الأوّل والأهم هو أصلها والأسباب التي أنتجتها.

لكن وسائل الاتصال الحالية أعطت نتائجها هنا، وهي ضارّة في ساعتنا هذه. لأن كميّة المعلومات التي يتلقّاها باستمرار شعبٌ حول ما يحدث لدى شعب آخر، هي كميّة ضخمة. فكيف يكون سهلاً إقناع الرجل الإنكليزي أنه ليس مطّلعاً على الظاهرة التاريخية التي هي الحرب الأهليّة الإسبانية أو حدث بارز مماثل؟ هو يعلم أن الصحف الإنكليزية تنفق مبالغ هائلة لدعم مراسليها في البلدان كافّة. ولئن يكن بين هؤلاء المراسلين عدد غير قليل يمارس وظيفته بطريقة حماسية ومتحيّزة، فهو يعلم أنّ فيهم كثيرين آخرين نزاهتهم ليست موضع سؤال، ودقّتهم في نقل الأخبار الصحيحة ليس سهلاً تجاوزها. كل ذلك حقيقة،

(1) يُضاف إلى ذلك أن القوى النافذة العامة في الغرب كله، تلعب دائماً دوراً كبيراً في هذه الآراء. ـ المؤلف.

ولأنه كذلك يبدو خطيراً جداً[1]. في الواقع، إذا تذكّر الإنكليزيّ بلمحة سريعة هذه السنوات الثلاث أو الأربع الأخيرة، يجد أن أموراً ذات أهمية كبرى لإنكلترا قد حدثت في العالم، وقد فوجئت بها. فإذا كان لا يحدث شيء بارز في التاريخ فجأة فقد لا يكون إفراطاً في الشك في أن يقبل الإنسان الإنكليزي فرضيّة أنه أقلّ اطّلاعاً كثيراً مما يُظنّ عادة، وإن هذا الاطّلاع (أو الإعلام) الغزير جداً مكوّن من معطيات خارجية من غير رؤية دقيقة، يفرّ منها أصدق ما في الواقع فعلاً. والمثال الأصحّ على ذلك بأبعاده الضخمة، الواقعة الكبيرة التي جعلها هذا المقال نقطة انطلاق له، أي إخفاق الحركة السلميّة الإنكليزية بعد عشرين عاماً من السياسة الدولية الإنكليزية. وهذا الإخفاق المذكور يعلن على شكل مدوٍّ أن الشعب الإنكليزي كان يعلم قليلاً عمّا هو جارٍ حقاً لدى الشعوب الأخرى على الرغم من مراسليه العديدين.

فلنتمثّلْ بشكل إجمالي تعقيد العملية الجارية بغاية فهمها جيّداً. فالأخبار التي يتلقّاها هذا الشعب A عن الشعب B، تثير فيه حالة من رأيٍ عامّ، سواء أكان لدى فئات عريضة أم في البلد كلّه. لكن، إذْ تصله الأخبار اليوم بسرعة فائقة وغزارة ووفرة، فإن الرأي العام لا يظلّ في مستوى "تأمّلي" إلى حدّ ما، كما كان الحال منذ قرن، وإنّما يُحمّل لا محالة بنوايا ناشطة، ويتّخذ من ثمّ طابعاً تدخليّاً. وفضلاً عن ذلك، يوجد دائماً دسّاسون ينشغلون عن عمد لأسباب خاصة بهم، بتأجيج هذا التدخّل، والعكس بالعكس: يتلقّى الشعب B أيضاً بغزارة وسرعة ووفرة أخباراً عن هذا الرأي العام البعيد وعن نرفزته وحركاته، ولديه انطباع أن هذا الأجنبيّ قد غزا بلده بإزعاج لا يغتفر، وأنه ناشط ثمة،

---

(1) في شهر نيسان هذا، أرسل مراسل التايمز في برشلونة لصحيفته تقريراً قدّم فيه أدق المعطيات وأصحّ الأرقام لوصف الموقف، لكن منطوق المقال كلّه الذي يعبّئ هذه المعطيات الدقيقة والأرقام الصحيحة ويعطيها معنى ينطلق من فرضيّة كون أجدادنا عرباً، وكأنها شيء معلوم يفسر كلّ شيء. يكفي هذا كيما يبيّن أن هذا المراسل مهما يكن اجتهاده ونزاهته عاجز عجزاً كاملاً عن الإفصاح عن واقع الحياة الإسبانية. وواضح أن تقنية جديدة لتبادل المعرفة بين الشعوب تتطلب إصلاحاً عميقاً في الجسم الصحفي. ـ المؤلف.

وحاضر تقريباً. لكنّ ردّ الفعل الغاضب هذا يتضاعف حتّى الغيظ، لأن الشعب B يلاحظ في آن واحد عدم ملاءمة الرأي في B لما هو حادث في A فعلاً. وممّا يثير الغيظ أنّ الغير يزعم التدخّل في حياتنا. لكنه إذْ يكشف فوق ذلك، عن جهلٍ كامل بحياتنا، فإن جرأته تثير فينا القشعريرة.

فبينما الشيوعيون وأعوانهم في مدريد يرغمون كتّاباً وأساتذة تحت وطأة التهديد، لتوقيع بيانات وللتحدّث في الإذاعة، الخ..، فإذا ببعض من الكتّاب الإنكليز الهامّين يوقّعون وهم جالسون براحة في مكاتبهم وفي نواديهم بعيدين عن كلّ ضغط، بياناً آخر يُضمن فيه أن هؤلاء الشيوعيّين وأعوانهم كانوا حماة الحريّة. فلْنتحاشَ الإفراط في الانفعال وكثرة الكلام. لكن، دعوني أدْعُ القارئ الإنكليزي أن يتصوّر كيف كانت حركتي الأولى إزاء حدث مماثل يتأرجح بين الفظاظة والمأساة. لأنه ليس سهلاً أن يجد المرء نفسه بهذه الدرجة من عدم التوافق الكبير. لحسن الحظ، حرصت طيلة حياتي كلّها أن أركّب في جهازي النفسجسمي نظاماً قويّاً جداً من النواهي والكوابح. وربّما لم تكن الحضارة شيئاً آخر سوى هذا المركّب، وكما قال دانتي: إن سهماً متوقّعاً يجيء أبطأ

Che saetta previsa vien piú lenta

فلم تُسهم المفاجأة في إضعافي. وأنا مشغول منذ سنين كثيرة، بتبيان طيش المفكّر الأوروبي ولا مسؤوليته الشائعين اللذين شهّرتُ بهما أنهما عامل من الحجم الكبير من عوامل الفوضى الراهنة. لكن هذا الاعتدال الذي أستطيع التباهي به لحسن الحظّ، ليس "طبيعيّاً" فيّ. فلربّما كان الطبيعيّ أن أشنّ حرباً شعواء على هؤلاء الكتّاب الإنكليز. لذلك هو مثل معيّن عن الميكانيزم الحربي الذي خلقه الجهل المتضايف بين الشعوب.

وقد حسب ألبرت إينشتاين منذ أيام عدّة أن له "الحقّ" في إبداء رأيه في الحرب الأهليّة الإسبانية واتّخاذ موقف منها. والحال أنّ إينشتاين يستثمر جهلاً متجذّراً بما قد حدث في إسبانيا الآن، وبما قد حدث فيها منذ قرون ودائماً. وإن الروح التي قادت إلى هذا التدخّل المهين هي ذات الروح التي كانت سبباً منذ زمن طويل في سقوط سمعة رجل الفكر سقوطاً شاملاً، رجل فكر عمل بدوره

على أن يسير العالم اليوم سيرة هوجاء لخلوّه من السلطة الروحية Pouvoir spirituel. وليلاحَظْ أني أتكلم عن الحرب الأهليّة الإسبانية كمثال بين أمثلة كثيرة، المثال الذي يعنيني على وجه أصحّ، وأقتصر على حمل القارئ الإنكليزي أن يقبل للحظة إمكانية أنه ليس حسَنَ الاطّلاع على الرغم من "معلوماته" الغزيرة. ولعلّ ذلك يحرّكه لتصحيحِ نقص معرفته بالأمم الأخرى على فرض أنه الأكثر حسماً كيما يسود النظام العالمَ مرّة أخرى.

لكن، هاكم مثالاً آخر أعمّ منه. إذْ رفض مؤتمر حزب العمال منذ قليل بأكثرية 2.100000 صوت مقابل 300.000 الاتّحاد مع الشيوعيّين، أي تشكيل "جبهة شعبية" في إنكلترا. لكنّ هذا الحزب ذاته وكتلة الرأي التي يرعاها يهتمّان بأدقّ شكل وأكثره فعاليّة بتحبيذ وتشجيع "الجبهة الشعبية" التي تشكلت في بلدان أخرى. إني أترك من غير مناقشة مسألة إن كانت "جبهة شعبية" شيئاً نافعاً أو كارثيّاً، وأقتصر على مقارنة سلوكين لفئة رأيٍ واحدة، وأبرز عدم توافقهما الضارّ. وإن الفرق العددي في الأصوات هو من تلك الفروق الكميّة التي تتحوّل آليّاً حَسَب هيغل إلى فروق نوعية. إذْ تدلّ هذه الأرقام على أن الاتحاد مع الشيوعيين وتشكيل جبهة شعبية في نظر كتلة حزب العمال ليس مسألة أخْذٍ وردّ، بل تعدّهما مرضاً رهيباً قد يصيب الأمّة الإنكليزية. لكنّ هذه الفئة من أصحاب هذا الرأي تهتمّ في آن واحد برعاية هذا الميكروب ذاته لدى بلدان أخرى. وهذا تدخّل، بل يمكننا القول إنّه تدخّل حربي، لأنّ له خصائص غير قليلة من حرب كيماوية. فإذا كانت تحدث ظواهر كهذه، فإنّ كلّ الآمال بأن يسود السلام العالمَ، هي ـ وأكرّر ـ آلام حبّ ضائع. لأن هذا السلوك المهتزّ، أو هذه الازدواجية في الرأي لدى حزب العمال لا يمكن لها أن تثير غير الغضب خارج إنكلترا.

وربّما بدا لي عبثاً الاعتراض على أن هذه التدخّلات تثير غضب جانب من الشعب موضوع التدخّل، لكنها تُفرح جانباً أخر منه. وهذه ملاحظة مُفرطة في وضوحها حتى يبرهن على صحّتها،

والجانب من البلد الذي يحظى مؤقّتاً برضا الرأي العام الخارجي سيحاول

بالطبع الإفادة من هذا التدخّل. وهذا شيء آخر كان حماقة بحتة. لكن، من تحت هذا العرفان بالجميل الظاهر، والمؤقّت تجري القضية الحقيقية التي يعيشها البلد كله. فلا تلبث الأمّة حتى تستقرّ في "حقيقتها"، فيما قد حدث فعلاً، حقيقة يتّفق عليها الفريقان المتحاربان كلاهما، أعلنا ذلك أم لم يعلناه. ولـذلك ينتـهيان إلى الاتحاد في مواجهة خلخلة الرأي العام الخارجي. ويمكن لهذا الـرأي أن يتوقّـع عرفانـاً بالجميـل قـابلاً للـدوام فقـط بمقـدار مـا يتّفـق بمـصادفة مـع هـذه "الحقيقة"الحيّة"، أو يكون أقلّ بعداً عن التوافق معها. كل واقع مجهـول يحـضّر ثأره. وهذا أصل الكوارث في التاريخ البشري ولا شيء آخـر. لـذلك قـد يكـون شؤماً كلُّ محاولة لتجاهل أن شعباً بصفته شخصاً وإن يكن شخصاً بشكل آخـر، هو "باطن" intimidad، بالتالي هـو منظومـة مـن الأسـرار لا يمكـن كـشفها مـن الخارج دون أي اعتبار. ولا يفكّرنّ القارئ في شيء غـامض ولا في شـيء صـوفي. خذْ أي وظيفة جماعيّة، ولتكن اللغة مثلاً. إذ يبدو واضحاً جدّاً استحالة معرفـة لغـة أجنبيّة عملياً بعمق مهما ندرسها. ألا تكون حماقة الاعتقاد أن معرفة الواقع السياسي في بلد أجنبي، أمر سهل؟ وأؤكّد إذاً، أن بنية العالم الجديدة تحوّل تحرّكات الرأي العام في بلدٍ ما حول ما يحدث في بلدٍ آخر، إلى مغازٍ حقيقية. وهي حركات كانـت من قبلُ غير ضارّة تقريباً. وهذا يكفي لتبيان السبب في أن الأمم الأوروبيـة إذا بـدت أقرب إلى وحدة أعلى، تأخذ فجأة بالانكماش على نفسها، وتغلق وجودهـا، كـلّ منها إزاء الأخرى، و تتحوّل الحدود إلى آلات غوص.

وأحسب أن هنا مشكلة جديدة من الطراز الأول في وجه النظام الدولي تسير بموازاة مشكلة القانون التي عالجناها من قبل، وإذا كنّـا طالبنـا مـن قبـل بتقنيّـة قانونيّة جديدة، فإننا نطالب هنا بتقنية جديدة في التعامل بين الشعوب. فقد تعلّم الفرد في إنكلترا الحفاظ على بعض الحذر إذا أبـدى رأيـه في فـرد آخـر. هنـاك القانون المكتوب وهناك ديكتاتورية "آداب السلوك الحسنة"، الرهيبة. ولا يوجـد سبب حتى لا يخضع رأي شعب في شعب آخر على تنظيم مماثل.

بالطبع، يفترض، ذلك اتفاقاً على مبدأ قاعدي. وعلى هـذا المبـدأ فلـتكن الشعوب والدول. لأن "الدولية" القديمة والرخيصة التي ولّدت الهموم الحاضرة

كانت تفكر في الأساس عكس ذلك. ولا يمكن فهم أيّ من مذاهبها وأنشطتها إذا لم يُكتشف في جذرها جهلها بما هي الدولة القومية. وإن ما نسميه دولاً قومية يشكل واقعاً ضخماً في العالم وعليه التعويل. ولقد كانت دولية طريفةً تلك التي تنسى في حساباتها دائماً ذلك التفصيل: وجود دول قومية[1].

ولربما طالبني القارئ الآن بمذهب إيجابي. ولا عقبة لديّ في إعلاني ماهيّة مذهبي معرّضاً نفسي لكل مخاطر تعبير مُجمْل.

لقد دافعت وأعلنت في كتابي "تمرّد الجماهير" المقروء جيّداً في اللغة الإنكليزية عن مجيء شكل من التعايش الأوروبي أكثر تقدّماً، وهو خطوة إلى الأمام في التنظيم القانوني والسياسي لوحدتها. وهذه الفكرة الأوروبية ذاتُ دلالة معاكسة لتلك الدولية الغامضة. أوروبا ليستْ ولن تكون التدويل[1]، لأنّ ذلك يعني بتصوّرات تاريخية واضحة، ثغرة وفراغاً وعدماً. بل ستكون أوروبا ما فوق دولة قومية ultra- nación؛ وسيظلّ الإلهام ذاته الذي شكل أمم الغرب ينشط في الأعماق السفلى ببطء تكاثر المرجان، الصامت . وقد منع الانحراف المهني الذي تمثّله الدولية رؤية إمكانية بلوغ وحدة معينة وتامة في أوروبا ما خلا مرحلة من المشاعر القومية المتطرّفة . لأن شكلاً جديداً لا يستطيع الاستقرار على وجه الأرض حتى يُجرّب الشكل السابق والتقليدي في حدّه الأقصى. والآن بلغت الدول الأوروبية نقاط تلاقيها، وسيكون اللقاء اندماج أوروبا الجديد. لأن هذا هو المقصود، وليس اصطفافها إلى جانب بعضها بل اندماجها متيحة للغرب كامل ثراء بروزه. وفي هذا الوقت الذي أنهيت بحثي فيه، يبدو المجتمع الأوروبيّ قد تبخّر. لكن، كان خطأ الاعتقاد أن ذلك يعني اختفاءه أو تشتّته النهائي. وإن حالة الفوضى الراهنة والتفكك الفائق في المجتمع برهان آخر على واقع هذا المجتمع. لأنه إن كان يحدث هذا في أوروبا، فذلك لأنّها تعاني أزمة إيمان مشترك، إيمان أوروبي، أزمة القوى النافذة التي تقوم عليها جمْعَنتها. والمرض الذي تمرّ بها هو إذاً، مرض مشترك أو عام.

---

(1) la internación.

ولا يعني ذلك أنّ أوروبا مريضة بل إن بعضاً من أممها تتمتّع بكامل صحّتها، ولا يعني بالتالي احتمال اختفاء أوروبا وإحلال واقع تاريخي محلّها، مثلاً: أمم مفكّكة أو أوروبا شرقية منفصلة عن أوروبا الغربية انفصالاً جذرياً. لاشيء من هذا يلوح في الأفق، لأنه إن كان المرض مشتركاً وأوروبيّاً، فلسوف يكون كذلك الشفاء منه أيضاً. والنتيجة، سيكون في أوروبا وضعان مختلفان من الحياة العامة: شكل جديد من الليبرالية، وشكل اعتدنا تسميته اسماً غير ملائم (التوتاليتارية = الشمولية). وسوف تتبنّى الشعوب الصغرى أشكالاً انتقالية ووسيطة. وهذا ما سوف ينقذ أوروبا. ولسوف يتّضح مرة أخرى أن كل شكل من الحياة يحتاج إلى نقيضه. "فالشمولية" سوف تنقذ "الليبرالية" بإزالة البقع السود منها، وتنقيتها. ونتيجة ذلك سنرى سريعاً ليبرالية جديدة تُوازن الأنظمة المستبدّة. وسوف يُفسح هذا التوازن الميكانيكي البحت والمؤقّت المجال لمرحلة جديدة، لاستراحة دنيا لا غنى عنها كيما ينبع مرة أخرى من عمق غابة النفوس ينبوع إيمان جديد. هذي هي قوة الإبداع التاريخي الحقيقية، لكنها لا تنبع وسط التغيّر، وإنما في حضن الانكفاء على النفس.

**باريس كانون الأول 1937**

* * *

# إضافة[1]

كرّس الملحق الأدبي في صحيفة التايمز the Times الصادر في 27 تشرين الثاني الأخير مقالاً افتتاحياً كبيراً لتحليل كتب شتّى جمعها تحت عنوان عام: إسبانيا التي لا تتغيّر، وبين هذه الكتب كتابي. وهذا تكريم أعرف أن أشكر عليه. ولا ضرورة للقول إن الناقد في التايمز المجهول الاسم كقوى الطبيعة، يمارس في هذه الحالة باستفاضة، القيمَ التقليدية التي يقرّ بها الناس جميعاً لهذه الصحيفة ويقدّرونها. وإن فحصه الكتبَ جادّ وصحيح.

وقد أفاد محرّر التايمز ـ كما هو طبيعي ـ من هامش الحريّة التي تتطلّبها مهنة الناقد، عند توزيعه الإشارات التي يؤكد بها على صفحات من الأعمال المحلّلة. والمؤلِّف الذي هو أنا في هذه الحالة سيوزّع هذه الإشارات بلا ريب، بشكل مختلف جدّاً، ولن يبرز بعض الجمل بعزلها عن السياق كما فعل الناقد. لكن ذلك ليس اعتراضاً ذا صلاحية أثيره في وجه المقال. وإنّما هو على الأغلب ما صار معروفاً باستفاضة: وهو أن كتاب المؤلف شيء، ومقال الناقد شيء آخر، حتّى إذا اتّفقا اتفاقاً شاملاً فإن أحدهما قد يكون نافلاً.

كذلك لا يسعني أن أشكو أيضاً أدنى شكوى بسبب بعض النتائج المقلقة التي تؤدّي إليها في العادة لا محالة هذه المقالاتُ الافتتاحيّة الكبرى في الملحق الأدبي. ويظهر فيها كتب شتّى تعالج أموراً متماثلة وفي هذا الأمر فائدة كبرى للقارئ الذي يجد نفسه بذلك مزوّداً وهو مستريح، بمسردٍ يعرّفه بكتب صادرة

(1) [ قام أورتغا في كانون الثاني 1945 بتصحيحات شتّى في نصّ الطبعة العاشرة من تمرّد الجماهير، التزمت بها الطبعات التاليات مباشرة؛ وتقوم هذه التصحيحات على لمسات خفيفة أو إضافة جملة ما أو مقطع قصير، وعلى ملاحظات أدنى الصفحات وحذف الصفحات الأولى من بحث "أمّا الحركة السلمية..". ولا يبدو لهذا الحذف سبب آخر سوى مناسبة هذه الصفحات الواضحة. وفي هذه الطبعة الجديدة من الكتاب التي ضممت إليها ملاحق أُخر، أعيد طبع هذه الصفحات كإضافة كان يتلوها في الأصل بداية البحث المذكور، الحالية ]. ـ الناشر.

حديثاً تدور حول موضوع بعينه. لكنّ النتيجة التي أشير إليها بعيدة بعداً لا سبيل لرتقه عن هذه الفائدة. ذلك أن الناقد مضطرّ إلى الإطلاق على سرب كامل من الكتب، والمقال الذي يكتبه يمثّل في سلاح النقد شيئاً يشبه الرشاش أو البندقية الآلية. والنتيجة المحتومة التي لا يُسأل عنها كاتب المقال، أنّ هذا الكاتب يجد نفسه مرغماً على استخلاص معدل متوسط بين الأعمال المدروسة، أو يردّها إلى مقام واحد. وبذلك يفقد كل كتاب لا محالة فرادته ويصاب بعدوى الكتب الأخرى التي وضعتها مصادفة النشر إلى جانبيه. وهذه العدوى قد تكون في مناسبة كالمناسبة الحالية خطيرة ومضلّلة.

ويُلاحظ مع ذلك كله أني لا أوجّه أدنى لوم إلى الناقد في التايمز ما دام لم ينزلق في مقاله غيرُ خطأ واحد بمعنى الخطأ. وهذا الخطأ هامّ جداً. لكن الناقد غير مسؤول عنه كما سنرى. إذاً، يجب ألا يُفهم من كل ما يلي أنه شكوى أو تصحيح، بل محاولة صغيرة للتعاون.

وإن الموضوع الذي ينصبّ عليه هذا التعاون ليس صغيراً، مع ذلك. وإني أجرؤ على تسميته ضخماً أو عملاقاً، ويمكن الزعم أنه هامّ للغاية لإنكلترا تحديداً. لأني سأتحدّث قليلاً عن إسبانيا التي لا تتغير. لكن الحالة المعيّنة لبلدي تصلح في الواقع مثالاً فريداً لمسألة أوسع كثيراً، وهي حالة المعرفة المتبادلة بين الشعوب في الوقت الراهن. هناك علامات كثيرة توحي بالشك في أن معرفة الشعوب أو جهلها ببعضها البعض بلغت أن تكون عاملاً من الطراز الأول في سياسة العالم.

وجدير بالاهتمام أن نكرّس بعض الأفكار لهذا الأمر. وأنا أستطيع دخوله من أماكن شتّى. وإني أختار أحدها فنصل من خلاله بأسرع ما يكون إلى لبّ المشكلة.

لكن، يلزمني أن أصحّح الخطأ المذكور أعلاه، الذي ارتكبه من غير إرادة منه المحرّر في التايمز. وهذا الخطأ مثال جيّد يبيّن كيف أنّ تفصيلاً طباعيّاً، إذا سمّيناه هكذا، يمكن أن يثير الاضطراب في تصوّر كامل. في الواقع، تقول التايمز: "يختصر السيد أورتِغا تاريخ إسبانيا بصورة متشائمة، إلى أنه تفكّك

وانحطاط منذ العام 1580 حتى الوقت الحاضر. لكنه يسأل نفسه في بحث آخر: إن كانت "انحطاط" المفردة الملائمة بحقّ لتسمية عمليّة جدّ طويلة". إذاً، أكون كتبت حسبَ هذا الزعم، بحثاً لأقول إن تاريخ إسبانيا هو في انحطاط منذ العام 1580، ثم كتبت مقالاً آخر أعبّر فيه بشكل غامض إلى حدّ ما، عن الشك في أن هذه العملية الطويلة لا يمكن تفسيرها بدقّة أنها انحطاط.

والخطأ كامن ببساطة في أنّ الأمر لا يتعلّق ببحثين بل ببحث واحد، أي بفصلين في كتاب واحد كُتب عام 1921 بعنوان: إسبانيا اللافقرية. لكنّ الكتاب الذي نُشر في إنكلترا تحت هذا العنوان ذاته، ليس هو ذلك الكتاب. إنه إعادة طبع مع بعض التعديلات، لكتاب ظهر في نيويورك لم يساهم المؤلّف في إعداده. لأن الكتاب الأمريكي ألّفه مترجمه إلى جانب دراسات أخرى، مقتبساً قطعاً من الكتاب الأصيل، متجاوزاً قطعاً أخرى، مشكّلاً فقرات جديدة بجمل من نص بعيدة عن بعضها البعض؛ أي بحذف الجمل الوسيطة. لكنّ المترجم صنع ما هو أشنع من ذلك: لقد سمح لنفسه بجرأة واضحة أن يضع بعض الملاحظات من عنده، وبتوقيعه أدنى بعض الصفحات محاولاً أن يستنبط مما كتبته منذ حوالي سبع عشرة سنة آراء مقلّصة جداً حول ما يحدث اليوم في إسبانيا، آراء هي آراء المترجم السياسية، لكنها ليست آرائي ولا هي سياسية ولا نظرية. ومن الواجب القول كيما تكون الأمور في نصابها، إن الناشر الأمريكي لا يتحمّل أية مسؤولية عن وجود هذه الأشياء. وفيها يقول مثلاً:

foreign aid came to the support of the " pronouncing" generals and )
turned this relatively hormless exercise into deadly civil war "

"إن المساعدة الخارجية ذهبت لدعم "انقلاب" الجنرالات، وحوّلت مناورتهم غير المؤذية نسبيّاً إلى حرب أهلية مميتة". إن الجهل الإرادي أو غير الإرادي بأبسط الوقائع وأوضحها الذي تكشف عنه هذه الكلمات، مضحك، ويمكن أن يكون مثلاً على الطريقة الطائشة التي يزعم الرأي العام في بلدان نائية، أن يؤثر بها على أماكن أخرى من الكرة الأرضية يجهل مسارها وهمومها وآمالها جهلاً عميقاً. ولا يملك المترجم حتى فكرة غامضة عمّا هو حادث في إسبانيا منذ

سنين كثيرة. ومع ذلك، يحسب أنّ له حقّاً كاملاً في إبداء رأيه حول أخطر المسائل في بلدي بشكل جازم قاطع. ومادام هذا الأمر يحدث، فإن كلّ كلام عن حركة سلمية عذاب حبّ ضائع. وإن تقديم ما حدث في إسبانيا في تموز 1936 على أنه "انقلاب" غير مقبول ولو كان إشارة بسيطة إلى الأحداث. وليكن القارئ على ثقة بأني لن أسقط في السذاجة فأعرض عليه رأياً إيجابياً في الحرب الأهلية الإسبانية، وإنّما أقتصر بالضبط على نبذ ما أُريدَ اعتصارُه من نصّ لي كُتب منذ سبعة عشر عاماً. ولربما ليس نافلة صنع ذلك، لأنه قد يخدم الإنكليزي الشريف كمثال معيّن يجعله على حذر من نقص معلوماته. فنحن نُفاجأ منذ ثلاثة أعوام بأشياء كثيرة في العالم قد تثير الريبة في المواطن الإنكليزي غير المطّلع جيّداً. وفي ذلك خطورة كبيرة على إنكلترا وعلى العالم. وإنّ واقعة بسيطة، وإنْ تكن غير مسوّغة، تشير إلى أن الشعوب الأخرى أخذت تعتقد أن الإنكليز ليسوا على اطّلاع جيّد تكفي لإحداث خلل في هذا الكوكب القلق.

لكن، إذا ما تبيّن الظرف المادي بشكل ما، الذي تسبّب في خطأ كاتب التايمز المجهول الاسم، فسوف نرى أين يكمن هذا الخطأ. ودعْنا من أني كتبت بحثاً لأقول إن إسبانيا في حالة انحطاط منذ 1580، ومقالاً آخر لأقول، ربّما لم تكن كذلك، فإنّ كتابي الحقيقي ـ إسبانيا اللافقرية ـ لا يزعم شيئاً آخر سوى تصحيح المنظور الخاطئ الذي يظهر به تاريخ إسبانيا في القرون الثلاثة الأخيرة بمظهر انحطاط.

وليتخيّلْ القارئ الإنكليزي بجهد كريم، الموقف الحيوي لشابّ إسباني في العقد الأوّل من هذا القرن لمّا فقدت إسبانيا منذ قليل آخر مستعمراتها إثر حرب مع الولايات المتحدة في عام 1898.

"الفرد يغرق في شعبه كقطرة الماء في السحابة العابرة"[1]. وإذا كان لا يريد أن يعيش في تناقض خالص، فعليه أن يعوّل في كلّ حركة من حركاته على المسار الذي يتّخذه جمهور الأمة العريض، التي ينتمي إليها. في عام 1820 تقدّم

(1) تأمّلات الكيخوته - 1914. ـ المؤلف.

باري Parry مكتشف القطب الشمالي يوماً كاملاً باتجاه القطب جاعلاً كلاب زحّافته تركض بشجاعة. لكنه استطاع أن يتحقّق عند حلول الليل من أنه كان أبعدَ إلى الجنوب مما كان عليه في الصباح. فقد كان يجري طيلة النهار كله على قطعة هائلة الضخامة من الجليد كان تيار المحيط الأطلسي يجرفها باتجاه الجنوب. وكلّ إنسان يوجّه قبل كل شيء عند تخطيطه أعماله نظرة إلى بلده، إلى الجماعة التي يندرج فيها. وهذه النظرة قد تكون واعية وواضحة إلى هذا الحدّ أو ذاك، لكنّها لا تخطئ قطّ سواء أكان الإنسان فلاحاً أم مفكّراً.

ولو أنّ شابّاً إنكليزياً تأمل شعبه في حوالي عام 1910، لرأى هذا الشعب يتقدّم في تصاعد crescendo للسلطة لا ينقطع منذ أصوله الأولى حتّى ذلك التاريخ. والخسارة الوحيدة في التكامل الكبير الذي هو إنكلترا كان انفصال بعض المستعمرات الأمريكية الشمالية، وهي خسارة خصبة لأنها علّمت الإنكليز الطريقة التي لا يفقدون بها شيئاً مرة أخرى. لكنّ شاباً إسبانيّاً إذا نظر في ذلك التاريخ إلى ماضي إسبانيا، لوجد نفسه إزاء مشهد مناقض للمشهد الإنكليزي بشكل حادّ، لرأى أن شعبه شكّل على عجلٍ إمبراطورية كبرى في القرن 16، وأنّ إسبانيا منذ ذلك الوقت حتى اليوم لم تصنع شيئاً سوى أن تفقد أراضي وسلطة وإيماناً بذاتها. ويسأل من حوله فتقول له الكتب والبشر كلمة واحدة فقط: "انحطاط! انحطاط!" فما يصنع الشابّ حينئذ؟! إذا كان خجِلاً فلربّما أحس برغبة في الموت. وإذا كان صافي الذهن، فسوف يقول لنفسه: "فلْنسر بهدوء!" أصحيح، كما سمعتهم يقولون، إن تاريخ إسبانيا كان تاريخ الانحطاط؟ أليس في الأمر خطأ في الرؤية؟ أولا تتيح أحداث ماضينا ـ إن أتاحت ـ تفسيراً آخر، أم ألا تفرضه فرضاً؟ لنقتصر على أهمّ المعطيات الأساسية فيها، وعلى أقلّها تمحيصاً، وأقلّها قابليّة للتغيير إذا غيّرها باحث لاحق. ألا تصرخ هذه المعطيات بالحقيقة المعاكسة للرأي المستقر، للرأي doxa الشعبي؟ ألا توحي إلينا أن النشاز في تاريخنا كان تحديداً لحظة ذروته وانتصاره الظاهري؟ فقد كانت الهيمنة الإسبانية خديجاً. ولقد رأى شعبنا نفسه لأسباب ثانوية، يدعوه القدر ليؤدّي مهمة عملاقة تحتاج إليها أوروبا، وهي خلْق أول دولة بالمعنى الحديث للكلمة.

ولم يكن شعب من شعوب أوروبا جاهزاً لذلك، ولا إسبانيا أيضاً. ومع ذلك قبلت الواجب المعدّ لها دون رفّة جفن. وأنشأت الدولة العصرية بكل ما يعنيه ذلك. فأنشأت أول جيش دائم، وأول بيروقراطية من نمط قومي، وأول سياسة عالمية Waltpolitik، وأوّل اقتصاد دولة، وأول مشروع كولونيالي ذي مدى واسع، إلى جانب البرتغال. فأيّ شعب آخر استطاع حينئذ أن يصنع ذلك، أو حاول صنعه، أو بدأه؟ ولا شعب يومئذ، أي في حوالي العام 1500. ربّما استطاعته فرنسا بعد قرن، ثم إنكلترا بعد قرنين من ذلك. ولنتذكّر جيّداً الفوضى التي كانت تسود الأمم الأخرى في القرن 16 وفي النصف الأوّل من القرن 17. ولو لم تفرض إسبانيا النظام حينئذ، فإن تاريخ أوروبا قد يكون تخلّف ما يزيد على مئة عام. وقد كسر هذا المشروع المدمّرُ لها نفسِها، والخصبُ للغاية للمجموعة الأوروبية إيقاعَ تاريخ إسبانيا.

ويُسأل لِمَ وقعت هذه الرسالة على عاتق إسبانيا إن كانت غير ناضجة لذلك كما الشعوب الأخرى. والجواب عن هذا السؤال كان بحثي: إسبانيا اللافقرية España invertebrada. وسيكون جوابي متناقضاً ظاهرياً إزاء الرأي القائل بالانحطاط. لأن ما جعل إسبانيا متقدّمة على سائر الأمم كان عيباً وليس فضيلة. إنه عيب لا يعود إلى الطابع الذي فسّر به تفكيري خطأً كاتبُ مقال التايمز، وإنّما إلى تكوين الماضي الإسباني السحيق ذاته. ويُحتمل أني استعملت ذات مرّة مصطلح "الطابع الإسباني"، كيلا نختلق مصطلحات جديدة، لكن إذا انتُبه إلى ما أقول، يُرى أنّي أفهم من هذه المفردة ليس استعداداً فطرياً ـ وهو شيء سحري لا أؤمن به ـ بل ما قد حدث في الماضي. وإن ما منح إسبانيا قوّة مبكّرة كان وحدتها الوطنية المبكرة التي نجمت عن ضعف الفئات الداخلية. وهنا المفارقة paradoxa. والقاعدة هي أن شعباً يصل الزعامة إذا بلغت قواه الداخلية ذروتها كمّاً ونوعاً. ويدلّ الانحطاط الذي يتلو ذلك عادة على أن ذلك الشعب قد استنفد طاقاته ولا يُحتمل أن يستردّ قواه، وإن يكن ذلك غير مستحيل. ولقد عُنيت بأن أبيّن أن الأمور لم تحدث في بلدي بهذا النهج. فقد كانت الهيمنة الإسبانية بشكل ما ظاهرية ولا تتوافق مع ما بلغته القوى الإسبانية أقصى درجة فعلية لها. لكن،

نتج عن ذلك أنْ كان الانحطاط ظاهرياً أيضاً فحسب. أكرّر إنّ هذا يبدو تناقضاً ظاهرياً. لكنّ القارئ قد يتورّط حينئذ في أن يفسر لنفسه بطريقة أخرى نشاز الحالة الإسبانية الأساسي وهو: إنه البلد الوحيد في أوروبا، الذي انكمش حتّى الحدّ الأدنى الممكن تخيّله، على كونه ذات يوم سيد العالم، ومن لا يجد هذه الواقعة الكبيرة جداً والبسيطة، غريبةً، ليس له حق بإبداء رأي في إسبانيا. وتفسيري يحطّ من شأن ماضي إسبانيا كيما يحرّر المستقبل. وإذا رأينا الأشياء بهذه الطريقة فإن الشبان الإسبان يستطيعون أن يتعلّموا من كتابي شيئاً جديداً ومشجّعاً: إن "إسبانيا المثلى" ليست في الماضي وإنّما في المستقبل. ولم يكن كتابي الصغير غير محاولة شجاعة لأفتح ثغرة في الأفق المغلق الذي يمثّل به التاريخ بلدي.

وهذا ما سمّاه كاتب التايمز الغُفل تشاؤماً. "السيد أورتِغا هو لا شيء إن لم يكن متشائماً.."

" Señor Ortega , Who is nothing if not pessimist …"

وإني أرتعد إذا سمعت إنكليزياً يلفظ هذه الكلمة. وأخمّن في أن يكون المراد بها أشياء جمّة أكثر مما تعنيه في القارّة، وربما كانت إحدى العبارات الملطّفة الكثيرة التي يستعملها البريطاني كيما يجعلنا نشكّ في أننا بشر غير أسوياء وسيّئو التربية. وأنا أقترح على كاتب التايمز وسط الشك تسويةً: أن يتخلّى هو عن نعتي بالمتشائم وأنا سأقبل بسرور كبير أن أكون لا شيء.

وإن الحاجة إلى التعليق على كتابي إلى جانب كتب أخرى التي هي نقيض هذا الكتاب تقريباً، قد حثّت الناقد الحصيف على أن يعزو إليّ جملة من الآراء معها غير موجودة في الواقع. وهكذا أصبحُ غيرَ مؤمن ببغض الإسبانيّ الأجانبَ، وغير مؤمن بقسوته إذا تكلّمنا بدقّة وإن بدا غريباً للقارئ الإنكليزي أن يجرؤ أحد اليومَ، تحديداً اليوم، على القول إن الإسباني غيرُ قاسٍ. ومع ذلك، هكذا هو الوضع. وسوف يجد القارئ في بحثي المشارك الأسباب الدقيقة التي اعتمدها لأبرِّئ الإسبانَ من القسوة النوعية التي تُعزى إليهم. وسيرى لِمَ تثير فيّ الفزعَ السهولةُ التي تُرتكب فيها الفظائع في الأيام الأخيرة في إسبانيا، والتي تُعزى

كوقائع لا تُدحض إلى "الطبع الإسباني" من غير تروّ. وإذا سمعت ذلك أفكر أن من يقول ذلك ليس لديه أدنى فكرة حول ما هو حادث منذ عشرين عاماً ليس في إسبانيا، وإنّما في العالم. وأخيراً: هناك كثير مما يجب قوله إنْ أردنا أن نتفاهم بجدّ وبطء. وقد أصبح التعايش فيما بين الشعوب أكثر متانة لأسباب سنراها فيما بعد، أرادت هذه الشعوب هذا الأمر أم لو ترده. فإذا لم تُخترع تقنيات جديدة في التعايش والتقارب المادي، فإن الأعوام القادمة ستكون رهيبة، وفيها حروب لا تنقضي. وإن إحدى هذه التقنيات تقوم على تعارف متبادل أكمل وأقلّ أسطرة وابتذالاً وطفولة.

أتريدون مثالاً لا يشير إلى السياسة، وبالتالي يكون أقل استهواء؟ وهو أنّ ناقد التايمز المجهول الاسم لم يشأ أن يتخلّى في مقاله عن إسبانيا التي لا تتغيّر عن ذكر "سوء التفاهم" القائم بين الإنكليز والإسبان حول مصارعة الثيران. وأحسبني لمحتُ أنه يصنع ذلك عَرَضاً وبشيء من التردّد. ولِمَ الكلام مرة أخرى وبشكل تقليدي عن أمر صعب للغاية؟ إن صداقة الإسبان الدراميّة للثور الوحشي مستمرّة منذ ثلاثة آلاف عام. وقد تكون مناسبة ممتازة للجوء إلى ما يسوّغ ذلك خيراً من كل قاعدة أخرى، حسب بروك، ألا وهي التقادم prescription. لكنّ السيدة الإنكليزية التي تشهد مرة واحدة مصارعة ثيران تحسب أن ذلك يكفيها كيما تفهمها، وتحكم على سرّ هذه العلاقة القائمة منذ ثلاثة آلاف عام بين الإنسان الإسباني والدابّة الرائعة [1]. ولْيُعلمْ أن شعباً ما يقوم قبل كلّ شيء على جملة من الأسرار التي تحتاج إلى بعض الجهد كيما تُلحظ وتُدرك. وليس صحيحاً تمام الصحة أن العالم يتكوّن من الزبدة والمدافع فقط. بل هناك شيء ثالث إنّها المعرفة التي تُعطي أحياناً نتائج طيّبة.

* * *

(1) الحقيقة أن الثيران تشكل موضوعاً تاريخيّاً من الطراز الأول حوله يجب قول كل شيء. وما إن تنجلي الأمور في إسبانيا سأدفع إلى المطبعة بكتابي: باكيرو أو حول مصارعة الثيران، حينئذ آمل أن تتوضّح بعض الأمور الكثيرة الموجودة داخل هذا الرقص. (menuet = minuet). ـ المؤلف.

# ملحـــق I

## ديناميـة العـصر(1)

## واجهات المحلات تحكم

يقال إن المال القوّة الوحيدة التي تؤثّر في الحياة الاجتماعية. ولو نظرنـا إلى الواقع بمنظار شبيْكتُه دقيقة، لبدت هذه العبارة أميل إلى الزيف منها إلى الحقيقة. لكنّ الرؤية بشبيكة غليظة لها حقوقها أيضاً. حينئـذ لا توجـد عقبـة لقبـول هـذا الحكم الرهيب.

ومع ذلك، يجب أن تُنزع منه عناصر، وتوضـع فيـه عناصـر أخـرى كيمـا تصبح الفكرة واضحة. لقد قيل ذلك القول في عصور تاريخيـة كـثيرة كمـا يُقـال اليوم؛ وهذا يدعو إلى الشك في أنه: لم يكـن حقيقـة قـط، أو أنّـه كـان حقيقـة بمعاني جد مختلفة. لأنه نادراً ما اتّفقت عصور تاريخية مختلفة أشـدّ الاخـتلاف على نقطة رئيسة جداً. ولا ينبغي لنا بعامة أن نأبه كثيراً بما قالته العصور الماضـية

(1) كتب أورتغا سلسلة من المقالات في عام 1927 تحت هذا العنوان، وبـدأها بمقـال "الجمـاهير" الذي جعله فصلاً أولَ في "تمرّد الجماهير". ولذلك لم أعمد إلى إعادة نسخه هنـا دفعـاً للتكـرار خلافاً لما فعله الناشر الذي يقول:
[ لقد حوّل أورتغا الفصل الأول من هذه السلسلة المعنون: جماهير، إلى فصل افتتاحي في تمرّد الجماهير. لذلك يُنسخ هنا مع بقيّة فصول السلسلة المعنونة "دينامية العصر". وقد بدا لأورتغـا أن هذه السلسلة من المقـالات المنـشورة في صـحيفة El sol أيـام 5 و 7 أيـار، ثم 9 و 19 و 26 حزيران و3 تموز 1927، قيّمة على شكل كاف كيما يخطّط لجمعهـا في كتـاب، وهكـذا أُعلـن عنها بين كتبه التي هي "تحت الطبع". وأشدّد على القول أنها قد تألّفت في كتاب، لأني وجـدت بين أوراقه ملازم حرةً مطبوعة من هذه الصفحات. أمّا صلة الفصل الأوّل من هذه السلسلة بتمرّد الجماهير، فقد كانت بمعنى ما إرهاصاً به. لذلك رأيت مناسباً أن أضعها ملحقاً لهذا الكتـاب. ــ الناشر. ].

عن نفسها؛ لأنها، ومن الضروري إعلانه، كانت قليلـة الـذكاء في الأمـور ذات العلاقة بها. أمّا هذا الذكاء المنصبّ على الطريقة الخاصّة في الوجـود، وحسنُ البصيرة هذا المنصبّ على المصير الخاص هو شيء جديد نسبيّاً في التاريخ.

وقد كان المثل الـسائر "المـرءُ، المـرء مالـه ـ Khrémata , khrémata aner" يسري في القرن السابع قبل الميلاد، في أنحاء شرقي المتوسّط كلّهـا. وفي زمـن قيصر كان يُردّد القول ذاته. وفي القرن 14 نظمـه في رباعيـة راهبنـا ده هيتـا De Hita، المثير للاضطراب. وجعل منه غونغورا قـصائد غنائيـة. مـا النتيجـة الـتي نستنبطها من هذا الإلحاح الرتيب؟ أكان المال منذ اختراعه قوّةً كـبرى؟ وهـذا لا حاجة بنا إلى إبرازه، وإلا سيكون تحصيل حاصل. لكنّنا نلمح في هذه الشكاوى كلها شيئاً آخر. ومن يستعملها يعبّر بها على الأقل، عن دهشته من أنّ للمال قوة أكبر مما يجب أن تكون له. ومن أين جاءنا هذا الاعتقاد بأن المال يجب أن يكون له نفوذ أقلّ مما يملكه فعلاً؟ وكيف لم نألف الواقعة الثابتة الدائمة منـذ قـرون، قرون كثيرة، والتي تفاجؤنا دائماً؟

ربّما كان المال القوّة الاجتماعية الوحيدة التي نـشعر بـالاشمئزاز إذا أقررنـا بها. لكنّ القوّة الفجّة ذاتها التي تثير غضبنا عادة، تجـد فينـا صـدى أخـيراً مـن التعاطف والاحترام. وتحثّنا على نبذها بخلق قوة أخرى مماثلة لكنّها لا تثير فينـا الاشمئزاز. وقد يُقال إن هذه أو تلك من مسبّبات العنف تثير حنقنـا. لكـن هـذه القوّة الأخرى ذاتها تبدو لنا علامة صحّة، وصفةً رائعة من صفات الكائن الحيّ. ونحن نعلم أن الإغريق قد ألّهوها في هرقل.

وأنا أحسب هذه الدهشة المتجدّدة دائماً من قوّة المال تثير جانباً من مشاكل طريفة لم تتضح بعد. وإن العـصور الـتي شـكا فيهـا النـاس هـذه القـوّة أصـدق شكوى، وبصرخات أشدّ ألماً، جـدّ متباينـة فيمـا بينـها. ومـع ذلـك يمكننـا أن نكتشف فيها فكرة عامة، وهي أنهـا كانـت عـصور أزمـة خلقيـة دائمـاً، كانـت عصوراً انتقاليّة بين مرحلتين. إذ تفقد المبادئ الاجتماعية التي حكمت عصراً ما، قوّتها، ولمّا تتضّح المبادئ التي ستهيمن على العصر التالي. وكيف؟ أم أنّ المال لا يملك السلطة التي تُعزى إليه على الرغم من التـذمّر منـها، وأن تـأثيره يكـون

حاسماً فقط إذا انسحبت قوى المجتمع الأخرى المنظّمة؟ وإذا كان كذلك، فسوف نفهم أفضل قليلاً هذا المزيج من الخضوع والاشمئزاز الذي تحسّ به الإنسانية إزاءه؛ مزيج من الدهشة والإيحاء الدائم بأنّ القوّة الممارسة لا تتناسب وهذا المال. ولا ينبغي له أن يملكها، كما يُرى، لأنها ليست له، وإنّما هي مغتصبة من القوى الأخرى الغائبة.

والمأساة معقّدة غاية التعقيد. وإن أمر حلّها لا يكون بكلمات قليلة. وكلّ قولي هذا ما هو غير إمكانية بالتفسير. والمهم أن نتحاشى التصوّر الاقتصادي للتاريخ الذي يبسّط المشكلة بجعله التاريخ كلّه نتيجة رتيبة للمال. لأنه واضح غاية الوضوح أن قوّة المال الاجتماعية كانت مقلّصة جداً في عصور تاريخية كثيرة، وأن قوى غريبة عن الاقتصاد أعطت التعايش البشري شكله. وإذا كان اليهود يملكون المال اليوم، وهم سادة العالم، فقد كانوا يملكونه أيضاً في العصور الوسطى، وكانوا حثالة أوروبا. ولا يعني ذلك أنّ المال لم يكن الشكل الرئيس للثروة وللواقع الاقتصادي في عصور الإقطاع. لكن، وإن يكن كذلك حقّاً، ويقيس بالرقم المطلوب الثقل الاقتصادي البحت للمال في هرم الاقتصاد القروسطي، فلا يوجد تطابق بين ثروة هؤلاء اليهود وموقعهم الاجتماعي. والماركسيون يبخسون بإفراط أهميّة النقد في مرحلة ما قبل الرأسماليّة من التطوّر الاقتصادي كيما يدبّروا الأشياء انسجاماً مع قاعدة نظريّتهم. وكان لزاماً إذاً، إعادة صنع تاريخ تلك العصور الاقتصادي لتبين أهميّة المال العبري في الدولة القروسطية.

لا يستطيع أحد، ولا أكبر المثاليّين، أن يشك في الأهميّة التي للمال في التاريخ. لكنه ربّما يستطيع أن يشك في أن يكون القوّة الأولى والجوهرية. وقد لا ترتبط القوّة الاجتماعية بشكل طبيعي بالمال، وإنما، على العكس يتوزّع هذا المال حسب توزّع القوة الاجتماعية. فيذهب إلى جيب المقاتل في المجتمعات الحربية، لكنه يذهب إلى جيب الراهب في حكم رجال الدين. وعلامة كل سلطة اجتماعية هي أن تخلق تراتباً هرميّاً، وأنها من يُبرز الفرد ضمن الجسم العام. فمهما يكن عند اليهودي من مال في القرن 16، يظلّ رجلاً أدنى؛ ولم يكن "الفرسان" في عصر قيصر يصعدون قمّة الهرم الاجتماعي على كونهم الأغنى طبقيّاً.

ويبدو أقرب إلى الصحّة أن يكون المال عاملاً اجتماعيّاً ثانويّاً عاجزاً بذاته عن أن يوحي ببناء المجتمع بناء كبيراً. إنه إحدى القوى التي تؤثّر في توازن كلّ بناء جماعي، لكنه ليس ملهم الأسلوب المعماري. وعلى العكس، إذا تراجعت القوى التاريخية الحقيقية والطبيعية ـ كالعرق والدين والسياسة والفِكَر ـ فإنه ـ أي المال ـ يمتصّ الطاقة الاجتماعية الشاغرة كلها. نقول إذاً، إذا تبَخّرت القوى الأخرى، يظلّ دائماً المال الذي لا يمكن له أن يتبخّر لكونه عنصراً مادياً. أو بشكل آخر: إن المال لا يحكم إلا إذا كان لا يوجد مبدأ آخر يحكم.

وهكذا تُفهم هذه الملاحظة العامّة في كل العصور الخاضعة للسطوة المالية التي تكمن في كونها عصوراً انتقالية: إذا مات تكوين سياسي وأخلاقي يخلو المجتمع من سبب كيما يتراتب البشر هرميّاً. وهذا مُحال. ومن اللازم لمواجهة سذاجة المساواة أن نبيّن أن التسلسل الهرمي هو دافع الجمعنة الأساسي. فحيثما يوجد خمسة رجال في حالة طبيعية، تحدث آلياً بنية متسلسلة هرميّاً. أمّا ما هو مبدأ هذه البنية، فهذه مسألة أخرى. لكن، لا مفرّ من وجود مبدأ دائماً. حتى إذا غابت المبادئ الطبيعية، فإن مبدأ مستعاراً يتولّى أمر تشكيل التسلسل وتحديد الطبقات. فمن كان يملك كمية من التوليبان النادر في هولندا في وقت ما من القرن 16، يُعدّ أكثر الأشخاص إثارة للحسد. والخيال البشري يخترع دائماً موضوعاً جديداً من عدم المساواة، تحثّ عليه غريزة لا تُكبح في التسلسل الهرمي.

لئن حدّدت بهذا الشكل الجملة البدئية التي كانت سبباً لهذه الفكرة، فإني أسأل نفسي إنْ كان يوجد سبب لأؤكّد أن المال يتمتّع في عصرنا بقوّة اجتماعية أكبر مما كانت في كل عصر سابق. لكن هذا الفضول خطر أيضاً ويصعب إشباعه. وإذا سمحنا لأنفسنا بالاسترسال، فإن كل ما يحدث في وقتنا يبدو لنا فريداً واستثنائيّاً في سلسلة العصور. ومع ذلك، يوجد، في رأيي، إمكانيّة واضحة في أن تكون قوّة المال في عصرنا أعظم مما كانت في كل العصور. لأنه عصر أزمة أيضاً: فقد فقدت القوى النافذة منذ سنين فعاليّتها. فلا الدين ولا الأخلاق تهيمن على الحياة الاجتماعية، ولا قلب الجمهور. وصارت الثقافة الفكريّة والفنية تقدّر بأقلّ من قدرها منذ حوالي عشرين عاماً. وظلّ المال وحده في الميدان.

لكن هذا ما حدث، كما بيّنت، عدّة مرّات في التاريخ. والجديد والمطلق في الحاضر هذا الوضعُ الآخر. وقد كان للمال في فرض سيطرته حدّ آلي قائم في ماهيّته ذاتها. لأن المال ما هو غير وسيلة لشراء أشياء. فإذا كانت توجد أشياء قليلة للشراء فإن نفوذ المال سيكون ضئيلاً مهما يكن حجمه، ومهما تكن حرّيته في العمل في صراعه مع القوى الأخرى. وهذا يتيح لنا أن نشكّل سلّماً للعصور ذات الاقتصاد النقدي، ونقول: إن قوّة المال الاجتماعية، إذا ظلت العوامل والعناصر الأخرى من غير تغيير ceteris paribus تكون أكبر كلّما كانت كميّة الأشياء المعدّة للشراء أكثر، وليس كلما كانت كمية المال أكبر. والآن، لا يوجد شك في أن التصنيع العصري في تشكيله مركّباً مع التقدّم التقنيّ الأسطوري، قد أحدث في هذه السنوات كومة جدّ كبيرة من الأغراض القابلة للتسويق ومن كلّ صنف ونوع حتى يستطيع المال أن يطوّر ماهيته بشكل خيالي، وهي الشراء.

وقد كانت توجد في القرن 18 ثروات ضخمة أيضاً، لكنّ ما يُعرض للشراء كان قليلاً. وكان ينبغي للثريّ الذي يريد شيئاً آخر غير جملة البضائع الصغيرة الموجودة أن يبتكر رغبة وغرضاً يشبع هذه الرغبة. وكان يبحث عن آلة تحقق له ذلك، ويفسح لها مجالاً لصنعه. وفي هذا التشابك المعقّد كله فيما بين المال والأشياء، كان المال يختلط بأشكال روحية أخرى (من فانتازيا تخلق الرغبات لدى الثري، واختيار الآلة وعملها التقني، الخ..) أشكال صار مقيّداً بها من غير أن يريد.

واليوم إذا جاء المدينة رجل فإنه يمكنه أن يكون أشهر ساكن فيها وأبعثه على الحسد من غير شيء آخر سوى أن يتجوّل أمام واجهات المحلاّت ويختار خير الأشياء ـ خير سيّارة وخير قبّعة وخير قدّاحة، الخ... ويشتريها. ولَكَ أن تتخيّل إنساناً آليّاً مزوّداً بجيب يضع فيه يده آليّاً حتى يصبح أبرز رجل في المدينة.

**إل صول El sol - 15 أيار 1927**

* * *

# شبيبة

## I

إن التغيّرات التاريخيّة لا تأتي قطّ من أسباب خارج العضوية البشرية، على الأقلّ خلال حقبة واحدة من تاريخ الحياة الطبيعي. لئن وُجدت كوارث أرضية كالفيضانات وغرق القارّات والتغيرات المفاجئة والمتطرّفة في درجات الحرارة، كما تذكّرنا به الأساطير المتهافتة بشكل غامض، فإن الأثر الناجم عنها تجاوز حدود ما هو تاريخي وغيّر النوع كنوع. والأرجح أن الإنسان لم يشهد كوارث مماثلة لهذه قطّ. وقد كان الوجود، كما يُلاحظ، عاديّاً جداً دائماً. وإنّ أعنف التغيّرات التي عرفها نوعنا كالحقبة الجليدية، لم يكن لها طابع شديد الغرابة. إذْ يكفي أن تهبط درجة الحرارة المتوسّطة السنوية خمس درجات أو ستّاً خلال فترة ما، حتى يحدث التجلد. أو يكفي أخيراً، أن تزداد برودة الأصياف قليلاً. وإن بطء هذه العملية وهدوءها يتيح فسحة من الوقت للعضوية كيما تُبدي ردّ فعلها، وردّ الفعل هذا من داخل العضوية على التغيّر الطبيعي في المحيط، هو التغيّر التاريخي الحقيقي. إذاً، يجب طرح فكرة أنّ الوسط يكيف الحياة ميكانيكيّاً، وبمقتضاه تكون الحياة عمليّة من الخارج باتجاه الداخل. إنّما التبدّلات الخارجية تعمل عملها كحاثّات للتغيّرات ضمن العضوية فقط. بالحريّ، هي أسئلة ينبغي للكائن الحيّ أن يجيب عنها مع هامش عريض من الأصالة التلقائية. وكلّ نوع، حتّى كلّ صنف، وحتّى كلّ فرد يبتسر جواباً مختلفاً إلى هذا الحدّ أو ذاك، لكنه غير متطابق مع غيره قطّ. والحياة، باختصار، عمليّة تحدث من الداخل باتجاه الخارج. لذلك كان واجباً البحث عن أسباب تغيّراتها أو مبادئها في داخل العضويّة.

وبهذا التفكير يظهر أثر الاختلافات البيولوجيّة الأوّليّة، الحاسم، بوضوح قليل أو كثير في أعمق أغوار الظاهرة التاريخية وأوسعها. والحياة هي مذكّرة أو مؤنّثة، شابّة أو عجوز. وكيف يمكن التفكير في أن التغيّرات الأوليّة للغاية

والمختلفة، في الطاقة الحيوية ليست قوى توليد عملاقة من قوى التاريخ؟ لقد كان في رأيي ما حدث منذ ثلاثين عاماً أحدُ أهمّ اكتشافات علم الاجتماع، لمّا لوحظ أن التنظيم الاجتماعي البدائي الأول ما هو غير البصمة التي تتركها على الكتلة الجماعية الفئاتُ الحيوية الكبرى: الأجناس والأعمار. وتقتصر أكثر بُنى المجتمع بدائيّة على تقسيم الأفراد الذين يشكّلونه إلى رجال ونساء، وكل فئة من هذه الفئات الجنسية [1] إلى أطفال وشبان وشيوخ، إلى فئات أعمار. وقد كانت الأشكال البيولوجية ـ إذا صحّ القول هكذا ـ أولى المؤسسات.

ذكورة وأنوثة، شباب وشيخوخة هي أزواج من القوى المتعارضة. وكلّ قوّة من هذه القوى تعني تعبئة الحياة كلّها في اتّجاه مخالف للاتّجاه الذي يسلكه نقيضها، حتى تصبح أشبه ما تكون بأساليب مختلفة للعيش. وإذْ كانوا جميعاً يتعايشون في أية لحظة من التاريخ، يحدث بينهم صدام، وجهد يحاول فيه كلّ منهم أن يجرّ الوجود الإنساني كاملاً باتّجاهه. وإذا أردنا فهم عصر فهماً جيّداً، يلزمنا أن نحدّد المعادلة الديناميكية التي تلتقي فيها هذه القوى الأربع ونسأل: من له الكلمة العليا؟ أهم الشبّان أو الشيوخ أي الرجال الناضجون؟ أهو العنصر المذكّر أم المؤنّث؟ وأنّه لهامّ للغاية أن نتابع عبر القرون انتقال السلطة صوب هذه أو تلك من القوى. حينئذ يُلاحظ ما كان يجب أن يُلحظ مسبقاً. أمَا وإنّ كلّ حياة إيقاع، فكذلك هي الحياة التاريخية. وإن الإيقاعات الرئيسة هي تحديداً الإيقاعات البيولوجيّة، أي هناك حقبات يهيمن عليها العنصر الذكري، وهناك حقبات أخر تسود فيها غرائز الأنوثة، وإن هناك عصوراً للشباب و عصوراً للشيوخ.

وتزدوج الحياة لدى الكائن الحيّ لأنّ الوعي عند تغلغله في الحياة الأولى ينعكس عليها: وتترجمه هي بشكل أفكار وصور ومشاعر. وإذْ كان التاريخ قبل كل شيء العقل والروح فقد يكون المهمّ وصف انعكاس هذه السيطرة الإيقاعية

(1) توجد لدى بعض الشعوب البدائية لغتان، إحداهما يتكلّمها الذكور، وأخرى تتكلّمها الإناث فقط. ـ المؤلف.

على الوعي. وإن الصراع الخفيّ القائم في مكاتب العضوية السريّة بين الشبيبة والشيوخ، بين الذكورة والأنوثة، ينعكس في الوعي تحت ضرب من التفضيل والازدراء. فيأتي عصر يفضّل ويقدّر أكبر تقدير صفات الحياة الشابّة، ويهمل ويزدري صفات حياة الكهولة، أو أنه يجد الجمال الأكبر في طرائق عمل الإناث في مقابل عمل الذكور. لكن، لِمَ تحدث هذه التغيّرات المفاجئة في الأفضليّات أحياناً؟ ها هنا مسألة لا نستطيع حيالها أن ننطق بكلمة واضحة واحدة (1).

أمّا ما يبدو لي واضحاً، فهو أن عصرنا يتميّز بهيمنة الشباب القصوى. ومدهش أن تلبس الحياة فجأة لبوس الشبيبة المنتصرة لدى شعوب جدّ قديمة كشعوبنا وبعد حرب حزينة أكثر مما هي بطولية. وسطوة الشباب هذه كما أشياء أُخرَ كثيرة، هي في طور الإعداد منذ العام 1890، منذ نهاية القرن 19. وقد أُخلي الكهول والشيوخ من هذا الموضع اليوم، ومن ذاك في اليوم التالي، وحلّ محلّهم الإنسان الشاب بصفاته المميّزة.

ولا أدري إن كان انتصار الشبيبة هذا سيكون ظاهرة عارضة أم وضعاً عميقاً اتّخذته الحياة الإنسانيّة وسيسم عصراً بميسمه. ويجب أن يمرّ وقت ما كيما نغامر بهذا التشخيص. لأنّ الظاهرة حديثة جدّاً، ولم نستطع حتى الآن أن نرى إن كانت هذه الحياة الجديدة بلبوس الشباب modo iuventutis قادرة على ما سوف أقوله؛ ومن غير ذلك لا يمكن لانتصارها أن يدوم. لكنّا إذا لم نلتفت إلا إلى مظهر اللحظة الراهنة، فإننا سنجد أنفسنا مضطّرين إلى القول: لقد كان في التاريخ عصور أخرى هيمن فيها الشباب، لكن الهيمنة لم تكن قطّ في خير ما

(1) يوجد بلا ريب، عامل يسهم في هذه التغيرات كما كلّ تغيرات في العضوية الحيّة، لكنّي أرفض عدّه حاسماً. إنه التضادّ. وللحياة وضع لا محيد عنه، في أن تتعب وتكلّ من حافز، وتعيد تكييف نفسها في آن واحد من أجل حافز معاكس. فإذا كانت تظهر الأشكال في وضع عمودي في أسلوب للرسم، فمن المرجّح للغاية أن يظهر بعد فترة أسلوب آخر تظهر فيه الأشكال في وضع مائل (تغيّر فن الرسم الإيطالي 1500 ـ 1700). ـ المؤلف.

نعرف من هذه العصور[1]، بهذه الشدّة والشمول. وكانت الحياة كلّها تنتظم في العصور الكلاسيكية الإغريقية فيما حول الشاب efebo، لكن إلى جانبه وكقوّة معادلة كان الرجل الكهل يثقفّه ويوجهه. وكان الثنائي سقراط وآلثيبيادِس يرمز جيّداً جدّاً إلى المعادلة الديناميكية: شبيبة وكهولة منذ القرن الخامس[*] حتى عصر الإسكندر. فينتصر الشاب آلثيبيادِس على المجتمع، لكن، بشرط أن يخدم الروح التي يمثّلها سقراط. وبهذا الشكل كان جمال الشباب وقوّته موضوعين في خدمة شيء يتجاوزهما، ويصلح أن يكون قاعدة ومحفّزاً وكابحاً لهما. أمّا روما، فعلى العكس من ذلك، آثرت الشيخ على الشباب وخضعت لصورة (السيناتور)، لصورة ربّ العائلة. و" الابن "، الشاب مع ذلك يعمل دائماً إزاء الشيخ على شكل معارض. كلا الاسمين اللذين يعلن عنهما فريقا الصراع القديم يشير إلى ازدواجية القوى: باتريثيوس[2] وبروليتاريا. وكلاهما يعني "الأبناء". لكن الأوّلين هم أبناء مدني متزوّج وفقاً لقانون الدولة، لذلك هم وارثو الأملاك، بخلاف البروليتاري الذي هو ابن بالمعنى الجسدي، وليس ابن "ذات" معروفة، أنه مُجرّد سليل أو خلْف[3] وليس وارثاً، إنه بروِله prole. (والترجمة الصحيحة لـ patricio، كما يُرى، ابن ذات أو شريف).

وكان لزاماً علينا أن ننحدر إلى عصر النهضة تحديداً كيما نعثر على عصر شبيبة كعصرنا. وليُراجعِ القارئ بسرعة سلسلة الأوضاع الأوروبية، إذْ تبدو الرومانسية التي طبعت بهذه الشدّة أو تلك، القرن 19 كلّه بطابعها، عصرَ شبيبة

---

(1) لا يُفسّر في رأيي أصلُ بعض الأمور البشرية، ومنها الدولة إذا لم تُفترض مرحلة في عصور بدائية جداً هيمن فيها الشباب هيمنة كبرى تركت في الواقع كثيراً من الآثار الإيجابية في شعوب الحاضر البدائية. - المؤلف

* المقصود القرن الخامس قبل الميلاد. لم يحدد المؤلف قبل أو بعد الميلاد، لأن السياق يدل عليه. ـ المترجم.

(2) هم المنحدرون من أعضاء مجالس الشيوخ الأولى التي أقرّها رومولو. ومجموعهم كان يشكل طبقة النبلاء صاحبة الامتيازات في روما القديمة. ـ المترجم.

(3) الخلْف بتسكين اللام النسل غير الصالح، بخلاف الخَلَف ـ المترجم

في بدايتها. ونجد فيها فعلاً تمرّداً على الماضي، وهي محاولة كيما تؤكّد الشبيبة نفسها. فقد كانت أتت بالثورة على الجيل السابق وسمحت لرجال شبّان جداً أن يحتلّوا طيلة خمسة عشر عاماً المراكز الاجتماعية العليا. وقد كان اليعاقبة ونابليون شبّاناً. ومع ذلك، يضرب هذا العصر مثالاً على انتصار الشبيبة الزائف، وبيّنت الرومانسيّة بجلاء افتقارها إلى الصدق. والشاب الثوري ما هو غير منفّذ للأفكار القديمة الجاهزة في القرنين السابقين.. أمّا ما كان يؤكّده الشاب حينئذ، فليس شبابه وإنما مبادئ تلقّاها: ولا شيء يمثّل ذلك كما يمثّله روبسبيير الشيخ بالولادة. وإذا كانت الرومانسية أبدت ردّ فعل على القرن 18 فذلك كيما تعود إلى ماضٍ أقدم. وكان الشبان إذا نظروا إلى داخلهم، أحسّوا بفتور همّة حيوي فحسب. إنه عصر "البَشِمين[1] Blasés" والمنتحرين وذوي الطبع المتهافت مبكراً في الهيئة والإحساس. ويقلّد الشابّ في نفسه الشيخَ ويؤثر مواقفه المُتعَبة ويسرع في التخلّي عن شبابه. لقد تطلّعت الأجيال كلُّها في القرن 19 كيما تكون كهلة أسرع ما يمكن، وكانت تحس بخجل غريب من شبابها ذاته. قارنوهم ذكوراً وإناثاً بشباب اليوم الذين يميلون إلى إطالة مدّة شبابهم من غير حدّ، والاستقرار فيه فيما يشبه استقراراً نهائياً.

ولو خطونا خطوة أخرى لسقطنا في القرن الهرِم القميء Vieillot بامتياز، ألا وهو القرن 18 الذي كان يكره كلّ ما له صفة الشباب ويبغض الشعور والعاطفة والجسم الرشيق والعادي. إنه عصر الحماس للمشلولين، الذي يرتعد عند مرور فولتير الجثّة الحيّة، الذي يمضي ضاحكاً في سرّه بضحكة غضون وجهه التي لا توصف. وقد تصنّعوا في الرأس ثلج العمر مغالاة منهم في هذا الأسلوب من الحياة. وكان الشعر المستعار المغبرّ يغطّي جبهة كلّ شاب ـ ذكراً كان أم أنثى ـ مفترضين أنّه بلغ من العمر سبعين عاماً.

وعند بلوغنا القرن 17 في سير القهقرى المفترض هذا، نُضطرّ إلى سؤال أنفسنا دهِشين ببراءة: أين ذهبت الشبيبة؟ وكلّ ما له قيمة في هذا العصر يبدو أنه

(1) جمع بَشِم وهو من تخِم من الطعام وسئِمه. ـ المترجم نقلاً عن المعجم الوسيط.

بلغ الأربعين من عمره: فالبزّة والعرف والسلوك لا تلائم غير أناس في هذا العمر. وكان يُقدّر في نينون[1] Ninón الكهولة وليس الشباب الغامض. لقد هيمن على القرن ديكارت الذي كان يلبس السواد على الطريقة الإسبانية، وكان يبحث حيثما كان عن العقل La Raison، ويهتمّ أكثر ما يهتمّ باللاهوت: جزويت ضدّ الجانسينيّين. وباسكال الطفل العبقري، هو عبقري لأنه استبق شيخوخة المهندسين.

**إل صول El sol 9 حزيران 1927**

* * *

(1) هي نينون ديلانكلو: إحدى نساء ذلك العصر المشهورات بجمالهن وفكرهن. كان لها صالون أدبي. ـ المترجم.

## II

كل سلوك حيوي، إمّا أن يكون سلوكاً للسيطرة أو للعبودية، ولا مُعطى ثالث له Tertium non datur. وسلوك المعركة الذي يبدو مستقطباً بينهما كليهما ينتمي في الواقع إلى هذا الأسلوب أو ذاك. فالحرب الهجومية مستوحاة من الثقة بالنصر واستباق السيطرة. أمّا الحرب الدفاعية فتستعمل في العادة تكتيكات تافهة لأنّ المُهاجَم يقدّر في قرارة نفسه المهاجِم أكثر مما يقدِّر ذاته. هذا هو السبب الذي يقرّر هذا الأسلوب في السلوك أو ذاك.

وسلوك العبوديّة هو كذلك لأن الكائن لا يتمحور حول نفسه، وليس واثقاً بقيمته الذاتية، ويعيش في كل لحظة مقارناً نفسه بآخرين. إنه يحتاج إليهم بهذا الشكل أو ذاك. يحتاج إلى رضاهم كيما يطمئنّ قلبه، إن لم يحتجْ إلى حُسْن نيّتهم وعفوهم. لذلك، يرجع في سلوكه دائماً إلى الغير. والخضوع هو أن نملأ حياتنا بأفعال ليس لها قيمة إلا لأنّ كائناً آخر يرتضيها ويستغلّها. ولها معنى ما إذا نظرنا إليها انطلاقاً من حياة هذا الكائن الآخر، وليس بالانطلاق من حياتنا. وهذي هي العبوديّة من جهة المبدأ، أي العيش انطلاقاً من الآخر وليس من الذات.

وعلى العكس منه، أسلوب السيطرة الذي لا يستلزم ضمناً النصر. لذلك يظهر بنقاء أكبر من كلّ نقاء آخر في بعض حالات الحرب الدفاعيّة التي تنتهي بهزيمة المدافع هزيمة تامّة. وحالة نومانثيا Numancia مثال على ذلك. كان النومانثيّون يمتلكون إيماناً لا يتزعزع بأنفسهم. وقد بدأت حربهم على روما حرباً هجوميّة. وكانوا يحتقرون العدوّ، وقد هزموه فعلاً مرّة بعد أخرى [1]. ولمّا استجمعت روما قواها المتفوّقة والأحسن تنظيماً وشدّدت الخناق على نومانثيا، قِيْل إن هذه اتّخذت موقف الدفاع لكنّها لم تكن تدافع بالمعنى الصحيح. بل بالحري كانت تُفني نفسها وتمّحي. فقد دعت الواقعة المادية في تفوّق قوى الخصم، الشعبَ ذا الروح المحبّة للسيطرة إلى أن يؤثر فناءه ذاته. لأنه ما كان

---

(1) من أراد أن يقصّ علينا بشيء من التفصيل حرب نومانثيا والنتائج التي جلبتها إلى الحياة الرومانية والتغيّرات السياسية وإصلاح المؤسسات، الخ.. فإنّه يقوم بعمل طيب. لأن شبهها باللحظة الراهنة في إسبانيا مدهش ومضيء. ـ المؤلف.

يعرف العيش إلا انطلاقاً من نفسه؛ وما كان يستطيع أن يتصوّر الوجود الذي كان يعدّه له القدر، وهو العبودية، وكان يعلمه نفياً للحياة ذاتها؛ وهو الموت بالنتيجة.

كانت الشبيبة في الأجيال السابقة تعيش مشغولة بسنّ الكهولة. كانت معجبة بالكبار وتتلقّى منهم قواعد الفنّ والعلم والسياسة والعادات ونظام الحياة، وتنتظر رضاهم وتخشى غضبهم. وما كانت تهتمّ بنفسها، وهو أمر خاصّ بهذه السنّ، إلا خلسة وعلى الهامش. وكان الشبّان يحسون بشبابهم كأنه خرق لما يجب أن يكون. ويتجلّى ذلك موضوعياً في واقعة أن الحياة الاجتماعية لم تكن منتظمة حسب نظرتهم. وقد كانت العادات والتسليات العامّة مطابقة لنموذج الحياة الخاص بالكهول. وكان عليهم هم أن يكتفوا بالفضلات التي يخلّفها هؤلاء الكبار أو يندفعوا في الحماقة. وكانوا يرون أنفسهم مضطرّين إلى تقليد الشيوخ حتّى في اللبس. فقد كان مستوحى من ذوق الكبار. وكانت الفتيات يحلمن باللحظة التي يرتدين فيها "الثياب الطويلة"، أي لحظة يتبنّين فيها بزّات أمّهاتهنّ. باختصار، كانت الشبيبة تعيش في خضوع للكبار.

وقد كان التغيّر الحادث في هذه النقطة خياليّاً. وتبدو الشبيبة اليوم سيّدة الموقف بلا جدال، وحركاتها كلّها مشبعة بالسيطرة. ويُستشفّ من سلوكها بوضوح كبير أنّها لا تهتمّ أدنى اهتمام بالسنّ الأخرى. ويسكن الشابّ الحالي اليوم شبابه بتصميم وشجاعة واستسلام وثقة حتى يبدو أنه موجود فيه فحسْب. لقد جلبه إليه بشكلٍ كامل من غير حرص على ما يفكّر فيه الكبار؛ بل أزيد: إن لهؤلاء في نظره قيمةً أقرب إلى الهزْل.

لقد تبدّلت الأدوار. والرجل والمرأة الكهلان يعيشان بخجل تقريباً مع انطباعٍ غامض أنْ ليس لهما حقّ في الوجود. إنهما يلاحظان الشبيبة تغزو العالَم بشبابها: فيبديان علامات الخضوع. لذلك، هما يقلّدانها في الملبس. (ولقد أكدتُ مرات عدّة أنّ الأزياء ليست واقعة تافهة. وإنما ظاهرة ذات أهميّة تاريخية كبرى، وخاضعة لأسباب عميقة. والمثال الحالي يوضّح بإفراط هذا التأكيد).

والأزياء الحاليّة مصمّمة من أجل الأجسام الشابّة. وأنها لمأساة ـ ملهاة موقف الآباء والأمّهات الذين يرون أنفسهم مرغمين على تقليد أبنائهم وبناتهم في الملبس. أمّا نحن الذين بلغنا القمّة في الحياة، فإنّنا نجد أنفسنا أمام الحاجة غير المسبوقة إلى أن نسير القهقرى في الدرب الذي سلكناه، وكأننا قد تهنا، وإلى أن نصبح ـ برضانا أم بغير رضانا ـ أكثر شباباً ممّا نحن عليه. وليس الأمر أمر تكلّف شباب يغيب عن شخصنا، وإنّما المعيار الذي تبنّته الحياة الموضوعية معيار شباب يرغمنا على التعلّق به. وما يحدث بشأن الثياب يحدث أيضاً لسائر الأشياء الأخرى. فالأعراف والمتع والعادات والآداب قد فُصّلت على مقياس الشباب.

وإنها لظاهرة طريفة هائلة تدعو إلى هذا التواضع والخشوع إزاء قوّة الحياة الخلاّقة واللاعقلانية في آن واحد، قوّة حياة طالما أثنيت عليها بحماس طيلة حياتي كلّها. لاحظْ أن الوجود الاجتماعي في أوروبا كلّها منظّم اليوم كيما يستطيع أن يعيش شبّان الطبقات الوسطى فقط كما يهوون. أمّا الكبار الأرستقراطيّون فقد ظلّوا خارج دورة الحياة، وهو عَرَض يتشابك فيه عاملان (شبيبة وجمهور) مختلفان مهيمنان على ديناميكية هذا العصر. لقد تحسّن نظام الحياة العادية ـ كالملذّات مثلاً ـ بينما الأرستقراطيّون لم يعرفوا أن يخلقوا ملذّات راقيةً جديدة تبعدهم عن الجمهور. ولم يبقَ لهم سوى شراء أغراض أغلى ثمناً، لكنها من ذات الطراز العام الذي يستعمله الإنسان العادي. لقد هوجمت الأرستقراطية سياسياً منذ عام 1800، واجتماعياً منذ 1900. وقانون التاريخ هو أن الأرستقراطيّات لا يمكن مهاجمتها إلا إذا سقطت من قبلُ في تدهور لا علاج له.

لكنّ هناك واقعة تبرز أكثر من أيّة واقعة أخرى انتصار الشبيبة هذا، وتكشف إلى أيّ مدى هو عميق تحوّل القيم في أوروبا. أشير إلى الاحتفاء بالجسد. فإذا فكّرنا في الشبيبة فإنّنا نفكّر قبل كل شيء في الجسد، ولأسباب شتّى: في المقام الأوّل، إن للروح طراوة أكثر بعداً وامتداداً حتى تبلغ أحياناً فتزيّن شيخوخة المرء؛ في المقام الثاني، إن الروح تكون أكثر كمالاً في لحظة معيّنة من الشيخوخة وليس في سنّ الشباب. ذلك أن الروح ـ العقل والإرادة ـ هي بلا

ريب أقوى ما تكون في أوج الحياة، وليس في مرحلة الصعود. وعلى العكس منها الجسد الذي يكون ازدهاره ـ آكمه Akmé ـ على قول الإغريق، في سنّ الشباب حصراً، ثم يأخذ بالانحدار حتماً إذا زال عنه الشباب. لذلك إذا انطلقنا من وجهة نظر تتجاوز تذبذبات التاريخ، أو بقول آخر تحت مظهر الأبدية sub specie aeternitatis، فلا جدال أن الشباب يُحدث أكبر لذّة إذا نُظر إليه، والشيخوخة إذا أُنصت لها. والمُعجِب في الشاب مظهره، والمُعجِب في الكهل مخبره.

إذاً، الأفضليّة اليوم للجسد على الروح. ولا أحسب وجود علاقة أهمّ منها في الوجود الأوروبي الحالي. ولعلّ الأجيال السابقة قدْ بجّلت الروح كثيراً، واحتقرت الجسد بإفراط، وأستثني إنكلترا. وقد صار ملائماً أن يُنبّه الكائن البشري ويذكّر أنه ليس روحاً فقط وإنما اتحاد سحري من الروح والجسد.

والجسد بذاته طفولة. والحماس الذي استيقظ اليوم قد أغرق حياة القارّة بالطفولة، وأضعف التوتّر بين الفكر والإرادة الذي كان يتلوّى فيه القرن 19، هذا القوس المشدود للغاية صوب شعارات إشكاليّة بإفراط. فتعالوا نسترح قليلاً عند الجسد. لمّا وجدت أوروبا نفسها إزاء مشاكل مفزعة، استسلمت لعطلها. وراح الجسد العاري ذو العضلات المرنة يقفز وراء كرة تعلن بصراحة احتقارها لخطورة هذه المشاكل طائرةً في الهواء بهواء في داخلها.

ولقد طالبت روابط الطلاب الألمانية بقوّة أن يُختصر برنامج الدروس الجامعية. والسبب الذي أبدوه لم يكن نفاقاً. فهناك ضرورة إلى إنقاص ساعات الدروس، لأنهم كانوا يحتاجون إلى الوقت من أجل ألعابهم وتسلياتهم، كيما "يعيشوا الحياة".

وهذا السلوك المهيمن الذي تقوم به الشبيبة اليوم يبدو لي رائعاً. لكن، يخطر لي تحفّظ عقلي واحد. إن انكباب الشبيبة انكباباً كاملاً على لحظتها الخاصة عدْلٌ مادام يؤكّد حقّ الشباب كشباب في مواجهة خضوعهما القديم. لكن، أليس في ذلك تجاوز؟ إن الشبيبة مرحلة من مراحل الحياة، ولها حق بذاتها. لكن، لكونها مرحلة، فإنها متأثّرة لا محالة بطابع انتقالي. فإذا انغلقت

على نفسها، وقطعت الجسور وأحرقت السفن التي تقود إلى المراحل التالية، بدت أنها تعلن عن تمرّدها على بقيّة الحياة وانفصالها عنها. فإذا كان زيفاً ألا يعمل الشابّ شيئاً آخر سوى إعداد نفسه ليكون شيخاً عجوزاً، كذلك أيضاً ليس خطأً يسيراً إلغاء هذا التحفّظ إلغاءً كاملاً. لأن الحياة في الواقع تحتاج موضوعياً إلى الكهول؛ وبالتالي، تحتاج الشبيبة إليهم أيضاً. ومن اللازم تنظيم الوجود: فالعلم والتقنية والثروة والمعرفة الحيوية والإبداع في كل مجال، مطلوبة كيما تستطيع الشبيبة أن تستقر وتلهو. وشبيبة اليوم، على مجدها، معرّضة لخطر الوصول إلى سن الكهولة وهي عاجزة. وهي الآن تتمتّع بالفراغ المزدهر الذي خلّفته لها أجيال من غير شباب [1].

وإن حماسي للمظهر الشبابي الذي اتّخذته الحياة لا يقف أمام شيء إلا أمام هذا الخوف. فماذا سيصنع لاعبو الكرة الأوروبيّون في سنّ الأربعين؟ لأن العالم حقّاً كرة، لكنه كرة بشيء آخر غير الهواء في داخلها.

* * *

(1) من وجهة نظر أعمّ لا تُناقِض ما قيل الآن، هناك معنى للقول إن الحياة ما هي غير الشباب، أو إن الشباب يتوّج الحياة، والعيش أن تكون شابّاً، وما عدا ذلك ليس حياة. لكنّ هذا يصلح من أجل تصوّر أدقّ للشباب من التصوّر المتعارف عليه والذي يتبنّاه هذا البحث. - المؤلف.

# ذكـورة أم أنـوثة

## I

لا ريب في أن عصرنا عصر شباب. لقد ارتقت ساعة التـاريخ القلقـةُ دائمـاً سماء "الشبيبة". وقد بدأ أسلوب الحياة الجديدة منذ مدّة ليـست بالبعيـدة؛ ومـا حدث هو أن الجيل الذي قارب الأربعين كان أتعس الأجيال التي وُجدت. لأنـه لمّا كان شابّاً، كان ما يزال الـشيوخ يهيمنـون علـى أوروبـا. والآن، لمّـا دخـل الكهولة، يجد السلطة قد تحوّلت إلى الشباب. لقد فاتته ساعة النصر والسيطرة، فاتته ساعة النضج ذات التوافق الحسن مع النظام المهيمن في الحياة. لقد عاش، باختصار، عكس ما يعيش العالم، وكان عليه أن يسبح من غير راحة كما سمـك الحفْش، عكس تيار العصر. فالشيوخ الأكبر سنّاً، والشبّان الأحدث سنّاً يجهلون هذا المصير القاسي، مصير من لم يطْفُ قـط، أعـني مـصير الـشخص الـذي لم يحسّ قطّ أنه مدفوع بعامل مشجّع، وإنما وجب عليه أن يعيش يومـاً إثـر يـوم، ونصف عقد إثر نصف عقد معلّقاً في الهواء مستنداً إلى راحته فقط عند مـستوى سطح الوجود. لكن، لعلّ هذه الاستحالة في الانهماك في اللذّة لحظة واحدة قد هذّبته وطهّرته تطهيراً كبيراً. إنه الجيل الذي قاتل أكبر قتال، وكـسب في الواقـع أكثر المعارك بأقلّ نصر [1].

لكن، لندعِ الآن موضوع هذا الجيـل الوسـيط مـن غـير أن نمـسّه ولنقـصر الاهتمام على اللحظة الراهنة. إذْ لا يكفي القول إننا نعيش في عصر من الشباب. وبذلك لم نصنع شيئاً سوى تحديده ضمن إيقاع الأعمار. لكن إلى جانـب ذلـك هناك إيقاع الجنسين الذي يؤثّر في مادّة التاريخ. عصر الشباب! لا بـأس. لكـن،

---

(1) ومثال على هذه المعارك التي لم يُعطِ الانتصار الفعلي فيها مع ذلك، النصر للمقاتـل، يمكـن أن نراه في النظام العام. فقد كان "مفكرو" هذا الجيل، من قاتل وهزم فعلاً السياسة البرلمانية المزيّفة القديمة. ومع ذلك يتمتّع بثمار النصر من لم يقاتل هذا النظام لما كان قوياً، وذلك لأسـباب ذات طبيعة تاريخية طريفة مُضلِّلة. ـ المؤلف.

أهو عصر ذكور أم إناث؟ والمشكلة أخفى وأدقّ من ذلك، وتكاد لا تنفصل عن بعضها. والقصد توصيف جنس عصرنا.

وإذا أردنا أن نوفَّق في ذلك، كما في كلّ مشاريع علم النفس التاريخي، يجب علينا أن نتّخذ وجهة نظر دقيقة، ونتحرّر من الأفكار العريضة حول ما هو التذكير والتأنيث. وهناك قبل كلّ شيء، ضرورة للتخلّص من الخطأ التافه الذي يفهم الذكورة أساساً في علاقتها بالمرأة. وفي نظر من يفكر هذا التفكير فإنه ذكر شديد الذكورة السيّدُ المتبجّح الذي يهتم أوّلاً بمغازلة السيدات ومحادثة الإناث الجميلات. وكان نموذج الذكر المهيمن حتى العام 1890 من: يلبس بزّة غريبة الشكل، وسترة فضفاضة تداعب بأطرافها الريح وصداراً، ويطلق لحيته على طريقة الفرسان، ويقرنص شعره، ويقوم بمبارزة واحدة في الشهر. (ويكتشف المتفرّس الجيّد في الأزياء سريعاً الفكرة التي كانت توحي بهذا الزي: وهي إخفاء الجسد الذكري تحت غطاءٍ مفرط من بلادة الملبس والشعور، ويظلّ منه بادياً للعيان يداه وأنفه وعيناه. وما تبقّى منه تزييف، وأدب منسوج وشعر مستعار. إنه عصر من غياب الصدق عميق: سواء أكان في الخطب البرلمانية أم في نثر حول "مادّة هامّة")[1].

فإذا برزت عند التفكير في الرجل رغبته في الأنثى أوّلاً، فتلك واقعة تكشف دون اعتبار ما، أنّ القيم الأنثوية هي المهيمنة على هذا العصر. وإذا كانت المرأة تتمتّع بالسحر والتقدير الأوفى فهذا معناه تقدير الذكر لقاء الخدمة التي يؤدّيها لها ولقاء الحبّ الجم الذي يوليها. ولا توجد علامة أوضح من أن الذكورة بهذا الشكل، مفوّتة ولا تقدير لها. لكنّ المرأة إذا كانت لا تستطيع في كلّ حال أن تُعرف من غير إحالتها إلى الذكر، فلهذا الذكر الامتياز بأن الجانب الأعظم والأفضل فيه مستقلّ استقلالاً تامّاً عن وجود المرأة من عدمه. فالعلم والتقنية والحرب والسياسة والرياضة، الخ.. أشياءُ تشغل لدى الرجل المركز الحيوي من

(1) إذا كُتب ذات يوم تاريخ القرن 19 بجدّ، فسوف يُرى أن هذا الجيل مسؤول فعلياً عن الفوضى الحالية في أوروبا. ـ المؤلف.

شخصه، من غير أن يكون للمرأة تدخّل جوهري فيها. وهذا الامتياز للذكر الذي يتيح له بمقياس كبير أن يكفي نفسه بنفسه، ربما بدا مثيراً للغيظ. ويحتمل أن يكون كذلك. وأنا لا أثني على هذا الوضع، ولا أذمّه، لكنّي لم أخترعه أيضاً. إنه واقع من المقدار الأوّل تُرغمنا الطبيعة على التعويل عليه بإرادتها التي لا تنثني.

والصدق يجبرني إذاً، على القول إن العصور الذكرية التاريخية كلها، تتميّز بغياب الاهتمام بالمرأة. وقد أُرجِعت هذه إلى الخلفية حتى يكاد لا يلمحها المؤرّخُ المضطرّ إلى مدّ بصره بعيداً. وظهر الرجل وحده على وجه التاريخ. وكان الرجال في الواقع يعيشون حينئذ مع رجال فقط. وقد استُبعدت المرأةُ في التعامل العادي من منطقة النهار والضوء، التي يحدث فيها أثمن ما في الحياة، وانكمشت إلى منطقة الظلمة، إلى الساعات السفلية المكرّسة للغرائز البحتة ـ شهوة وأبوّة وتبذّل ـ. وقد كان عصر بِريْكلِس Pericles فرصة رائعة للذكورة، وعصراً للرجال فحسْب. كان الناس يعيشون حياتهم العامّة: في الآغورا، والجيمنازيوم والمعسكر وأماكن التدريب. وكان الكهل يشهد ألعاب الشبّان العراة، ويتعوّد تمييز أرقّ صفات الجمال الذكري الذي سيكشف عنه النّحات في الرخام. وكان الشابّ الإثّيني يشرب في الهواء فيض الكلمات الذكيّة التي تنبع من أفواه الشيوخ المتحاورين جالسين عند بوّابات بيوتهم وعكاكيزهم تحت آباطهم. والمرأة؟... نعم، تظهر في الساعة الأخيرة من مأدبة الذكور تحت صنف عازفات الناي، وراقصات يمارسن مهارتهن المتواضعة في الخلفيّة، في آخر خلفيّة المشهد كدعامة للمحادثات التي تخفت، أو كوقف لها. وقد تتقدّم المرأة قليلاً في بعض الأحيان كأسباسيا Aspasia. ولِمَ؟ لأنّها تعلّمت ما يعلمه الرجال، لأنها استرجلت.

لئن عرف الإغريقي أن ينحت أجساداً مشهورة للمرأة، فإن فهمه الجمالَ الأنثوي لم يستطع أن يتخلّص من الأفضليّة التي يحسّ بها اتجاه الجمال الذكري. وفينوس ده ميلو Venus de milo شكل ذكري ـ أنثوي، هي ضرب من لاعب قوى بثديين. وإنه لمثال مضحك من عدم الصدق أن تُرشّح تلك الصورة لإثارة حماسة الأوروبيين خلال القرن 19 لمّا كانوا يعيشون سكارى بالرومانسيّة،

ومولعين بالأنوثة الخالصة المتطرّفة. وكان قانون الفنّ الإغريقي قد حلّ في صور الشاب الرياضي، حتّى إذا لم يكْفِه ذلك آثر أن يحلم بالخنثى. (من الملاحظ أن شهوة الطفل الأوّلية تجعله يحلم بشكل طبيعي بالخنثى. وإذْ يميّز في وقت لاحق الذكر من الأنثى، يعاني للحظة ـ خيبة أمل مُرّة. فقد صار الشكل الأنثوي يبدو له بتراً للذكورة؛ بالتالي شيئاً غير كامل وضعيف)[1].

قد يكون خطأً أن ننسب هذه النزعة الذكورية التي توّجت عصر بِريْكلِس إلى عمى فطري عند الرجل الإغريقي اتجاه قيم الأنوثة، ومعارضتها باستسلام الجرماني لها. والحقيقة هي أن الأنوثة انتصرت في بعض عصور اليونان القديمة، كما انتصرت الذكورة في بعض العصور الجرمانية. ولعلّ المثال الذي يوضّح خير توضيح الفرق بين عضو جنسي وآخر، ما حدث تحديداً في القرون الوسطى التي تنقسم بذاتها إلى قسمين: الأوّل ذكري والآخر أنثوي منذ القرن 12.

فقد كان للحياة في العصور الوسطى أخشن المظاهر. فكان المرء مضطرّاً إلى أن يحارب يومياً، حتى إذا حلّ الليل انصرف إلى موازنة هذا الجهد بالانهماك في اللذة ونشوة القصف. وكان الرجل يعيش دائماً تقريباً في المعسكرات مع رجال آخرين فقط، وفي تنافس مستمرّ معهم حول مواضيع الرجولة: كالمبارزة والفروسية والصيد والشرب. فالرجل لا ينبغي له حَسَب نصّ من ذلك العصر "أن ينفصل حتى الموت عن ناصية الفرس، وأن يقضي حياته كلها في ظلّ الأسنّة". بل كان بعض النبلاء من آل لامبيرتي وسولداديري ما يزالون في عصر دانتي يحافظون في الواقع على امتيازهم بأن يدفنوا ممتطين صهوة الحصان. ولم يكن للمرأة في هذا الجوّ الخلقي من دور، ولا تتدخّل فيما نسمّيه حياة الطبقة الأولى. ولنفهم: أن المرأة كانت مرغوباً فيها في كلّ العصور، لكنها لم تكن تلقى الاحترام فيها كلّها، ولم تكن كذلك في هذا العصر الخشن. وكانت المرأة غنيمة حرب. وإذا كان الجرماني في هذه العصور يهتمّ بجعل المرأة

---

(1) لديّ فكرة عن اهتمام فرويد Freud بدقّة بهذه الواقعة. وقد قرأت هذا المؤلّف منذ ستة عشر عاماً. فلا أتنكّر جيّداً في أيّ عمل من أعماله يعالج الموضوع. لكني أوجّه القارئ مع بعض الاحتمال إلى ما كان عنوانه حينئذ: ثلاثة بحوث حول النظرية الجنسية. ـ المؤلف.

مثالاً أعلى، فإنه كان يتصوّرها والكيريا Walkiria ، أي امرأة محاربة وعذراء ذات عضلات تمتلك مواقف الرجل ومهارته.

وقد خلق وجود هذا النظام الجاف القواعد الأُوَل، وأرضيّة المستقبل الأوروبي، وقد أُمكن بفضله مراكمة بعض الثروة في القرن 12، والاعتماد على قليل من التنظيم والسلام والرفاهية. وهكذا تغيّر وجه التاريخ سريعاً، كما يتغيّر وجه النهار في بعض أيام الربيع. وأخذ الرجال يهذّبون ألفاظهم وخلُقهم. وأصبح السلوك الفظّ لا يحظى بالاحترام، وإنما السلوك المعتدل والظريف. وحل محلّ العراك الدائم التسلية والرياضة Solatz e deport التي تعني المحادثة واللعب. وتعود هذه الطفرة إلى دخول المرأة مسرحَ الحياة العامّة. فقد كان بلاط الكارولنجيّين ذكورياً محضاً. لكن سيّدات المجتمع الراقي في بورغونيا وبروڤانس كان لهنّ الجرأة المدهشة في تأكيد قيمة الأنوثة النوعية الخالصة في مواجهة دولة المحاربين وفي مواجهة كنيسة الإكليروس. وهذا الشكل الجديد من الحياة العامّة، الذي تحتل المرأة مركزه، يحتوي على بذرة ما سوف يُسمّى بعد قرون طويلة "مجتمعاً" في مواجهة الدولة والكنيسة. وكان يُسمّى حينئذ "بلاطاً" Corte، وهو ليس كبلاط الحرب والعدالة القديم، وإنما "بلاط الحب".

**إل صول El Sol . 26 حزيران 1927**

***

## II

إننا بصدد أسلوب جديد للثقافة وللحياة ولا شيء أقلّ من ذلك. لأنّه حتى القرن 12 لم تكن توجد طريقة لتأكيد لذّة العيش (الوجود)، لذّة الدنيوي لقاء "التابو" القويّ الذي كانت الكنيسة تلقي به على كل ما هو أرضي. والآن ظهرت La Cortezia (آداب السلوك) المنتصرة على La clerezia الإكليروس. والكورتزيّا هي قبل كل شيء نظام حياة مستوحى من التحمّس للمرأة التي كان يُرى فيها قاعدة الخلق ومركزه. وقد ترقّت الأنوثة بعذوبة كبرى إلى أقصى سلطة تاريخية من غير عنف ولا خصام. فكيف يقبل المحارب والكاهن هذا النير وفي أيديهم الوسائل كلها للصراع؟ ولا يوجد مثال أوضح من القوّة الجامحة التي يمتلكها "الشعور بالحياة". في الواقع هو قويّ جداً حتى لا يحتاج إلى القتال. ولمّا جاء ممتطياً متن أعصاب جيل جديد استقرّ في العالم ببساطة كأنه ملكية لا يُنازع فيها.

وفقدت حياة الذكر معيار مرحلة الذكورة وامتثلت للأسلوب الجديد. وآثرت أسلحتُها المسايفةَ ومصارعةَ الثيران التي تُنظّم كيما تشاهدها النساء، على خوض المعركة. وأخذت بزّات الرجال تقلّد خطوط البزّة النسائية، فضاقت عند الخصر، وفُتحت عند العنق. وتخلّى الشاعر قليلاً عن شعر الملاحم الذي كان يغنّي فيه البطل الذكري، وعالج المقطوعة المبتكرة

**Sol per domnas lauzar[1] .**

وصار الفارس يتحاشى أفكاره الإقطاعية اتجاه المرأة، وعزم على أن "يخدم" سيّدته التي وضع رمزها على رايته أو مجنّه. وقد جاءت من هذا العصر عبادة مريم العذراء، التي كانت تعكس على المناطق الهامّة تنصيبَ الأنوثة على العرش الحاصل في مجال ما تحت القمر[2]. وأصبحت المرأة المثال الأعلى للرجل، وبلغت أن تكون نموذج كل مثال أعلى. لذلك امتصّ الشكل الأنثوي في

(1) "كيما أثني على السيّدات فحسب"، على قول الشاعر التروبادوري جيرو ديبورنِه. ـ المؤلف.

(2) أيْ الكرة الأرضية. والكاتب يستعمل تعبيراً طالما استعمله القدماء قائلين: "فلك ما تحت القمر". ـ المترجم.

عصر دانتي الوظيفة المجازيّة لكل ما هو سامٍ، وكل ما هو مرغوب فيه. وأخيراً، يؤكّد سفر التكوين Génesis أن المرأة لم تُخلق من طين كالذكر، وإنما هي مخلوقة من حلم الرجل.

وبعد هذه التلمذة على خطط التاريخ الموجزة التي نستطيع أن نضاعف منها بسهولة، نعود إلى البانوراما الحالية ونعترف فوراً أن عصرنا ليس فقط عصر الشباب وإنما هو عصر الشباب الذكري. والشاب هو سيّد العالم اليوم. وهو كذلك لا لأنه غزاه غزواً وإنما بقوّة الازدراء. والشبيبة الذكرية تؤكّد نفسها بنفسها وتستسلم لأذواقها ورغباتها ولممارساتها وأفضلياتها من غير أن تهتمّ بالبقية، ومن غير أن تخضع لشيء، أو تبجّل شيئاً سوى شبابها ذاته. وإنه لمدهش عزم الشبّان وإجماعهم على قرار هو ألا "يخدموا" شيئاً أو أحداً ما عدا فكرة الشباب ذاتها. ولا أرى اليوم شيئاً مهجوراً كما هو السلوك الخاضع والملتوي الذي كان السيّد مدّعي الرجولة يتقرّب به عام 1890 من المرأة، كيما يقول جملة غزل ملتوية كقشرة الخشب. وقد فقدت الشابّات العادة في أن يكن محطّ الغزل؛ وإن هذا السلوك الذي كانت ترشح منه منذ ثلاثين عاماً كل صموغ الرجولة له اليوم عندهن رائحة الخنوثة.

لأن كلمة "مخنّث" لها معنيان مختلفان جداً. أحدهما يعني الرجل غير الطبيعي، الذي هو فيزيولوجيّاً امرأة بعض الشيء. هؤلاء الأفراد المشوّهون موجودون في كل العصور كانحراف فيزيولوجي في النوع، ويمنعه طابعه المرضيّ من أن يمثّل الحالة السويّة في أي عصر. لكن "المخنّث" يعني في معناه الآخر ببساطة homme à femmes، أي هو تِبْع أو زير نساء، أي الرجل المنشغل جداً بالمرأة، ويدور حولها ويُعدّ سلوكه وشخصه بالنظر إلى جمهور نسوي. ويبدو هؤلاء الرجال في عصر هذا الجنس sexo، رجالاً جداً. لكن، إذا حلّت مراحل من الذكورة، يُكتشف ما فيهم من خنوثة فعلية على الرغم من مظهرهم المتبجّح.

واليوم كما في كل عصر سادت فيه قيم الذكورة، يقدّر الرجل شكله أكثر مما يقدّر شكل الجنس النقيض؛ والنتيجة، أنه يرعى جسده ويميل إلى التباهي به. وقد يسمّي "المخنّث" القديم حماسة الشباب الجديد للجسد الذكري،

والعناية التي يوليها له "تخنيثاً"، بينما الواقع عكس ذلك تماماً. والفتيان يعيشون معاً في الملاعب وأماكن التريّض. ولا يهمّهم شيء سوى لعبهم وإتقانهم الكبير أو الصغير وضعَهم أو مهارتهم. هم يعيشون إذاً، في سباق وتنافس دائم ينصبّان على صفات الرجولة. ولفرط إمعانهم في التمارين الرياضية حيث الجسد يبدو بريئاً من كل تزييف ممكن، يكتسبون إدراكاً دقيقاً بالجمال الجسدي الذكري الذي يحظى في أعينهم بقيمة ضخمة. ولاحظ أن الروعة لا تقدّر إلا في الأشياء المتفّق عليها. وهذه الروائع المُدركة بوضوح، تشدّ الروح وتأسرها.

لذلك مالت الأزياء الذكرية هذه الأعوام إلى إبراز بنيان الرجل الشاب، الذكري، مبسّطةً نموذج بزّة قليلة الملاءمة جداً لهذا الغرض، كما كانت البزّة الموروثة من القرن 19. فكان ضرورياً أن يؤكّد على جسد لاعب كرة القدم من تحت طيّات النسيج الإسطوانية الشكل، الذي تقوم عليه هذه البزّة الرهيبة.

ولعلّ الجمال الذكري لم يحظَ بالتقدير منذ العصور الإغريقية كما يُقدّر اليوم. ويلاحظ المراقب الجيّد أنّ النساء لم يكنّ يتكلّمن كثيراً بمثل هذه الصفاقة كما يتكلّمن اليوم عن الرجال الجميلين. بل كنّ يعرفن من قبل أن يُسكتن حماسهنّ لجمال ذكر، هذا إنْ كنّ يحسسن بهذا الجمال. لكن، من المناسب أن نبيّن فوق ذلك، أنهن كنّ يحسسن به إحساساً يقلّ كثيراً عن إحساسهنّ به اليوم. وإنّ عالِم نفس عجوزاً أَلِف النظر في هذه الأمور يعلم أن حماس المرأة لجمال الرجل الجسدي خاصّة الجمال القائم على الصحّة الرياضية، ليس تلقائيّاً قطّ تقريباً. فإذا سمِعَ اليوم بشكل شائع جدّاً إطراء الرجل الجميل إطراءً ماجناً نابعاً من أفواه نسوية فإنه بدلاً من أن يستنتج ببراءة ودون خلفية أخرى: "المرأة عام 1927 معجبة بالرجال الجميلين إعجاباً فائقاً"، يكتشف شيئاً أعمق: "المرأة عام 1927 قد تخلّت عن صوغ قيمها بنفسها، وصارت تقبل وجهة نظر الرجال في ذلك التاريخ حول الحماس لروعة الشكل الرياضي". ويرى في ذلك علامة من الطراز الأوّل تكشف عن هيمنة وجهة النظر الذكريّة.

ولا يشكّل اعتراضاً على ما قلناه أن تعترف قارئة ما شديدة التدقيق بصدق في نفسها، أنها لم تشعر متأثّرة في تقييمها الجمال الذكري بالتقدير الذي يكوّنه

الشباب عنه. ونحن لا نشعر بكل ما هو حافز جماعيّ ويدفع الحياة التاريخية كلّها بهذا الاتجاه أو ذاك، كما لا نشعر بالحركة الفلكيّة التي تقود كوكبنا ولا بالعمل الكيميائي الذي تنهمك فيه خلايانا. وكلّ امرئ يحسب أنه يعيش باستقلال لأسباب يفترضها شخصية للغاية. والواقع أنّ القوى الكبرى المجهولة ورياح التاريخ العاتية وهبّاته الكبيرة التي تحركنا كما تهوى، كلّها تعمل عملها من تحت سطح وعينا.

فلا المرأة تعرف اليوم أيضاً لِمَ تدخّن، ولا لِمَ تلبس كما تلبس، ولا لِمَ ترغب في الرياضة البدنية. وكلّ امرأة يمكن لها أن تُبدي سبباً مختلفاً فيه شيء من الحقيقة، لكنها ليست حقيقة كافية. وإنها لمصادفة كبيرة أن يكون نظام المساعدة النسوية الراهن يتطابق في مختلف المجالات دائماً مع: مماثلة الرجل. فإذا كان الرجل يلبس في القرن 12 كما المرأة ويكتب بعض الأشعار الحلوة بإلهام منها، فإن المرأة اليوم تقلّد الرجل في ملبسه وتتبنّى ألعابه الخشنة. وتحاول أن تجد في بنيتها الجسدية خطوط الجنس الآخر. لذلك كانت أهم ميزات الأزياء الحاليّة ليس ضآلة ما تستره، وإنما على العكس من ذلك تماماً. إذ يكفي أن نقارن بزّة اليوم بالبزّة المستعملة في عصر حكومة المديرين Directorio الثانية الكبرى حوالي عام 1800، حتى نكتشف الماهيّة المتغيّرة التي تكون أكثر تعبيراً كلّما كان التشابه أكبر. وقد كانت البزّة إبان حكومة المديرين حلّةً بسيطة جد قصيرة أيضاً، تكاد تشبه بزّة اليوم. ومع ذلك كان ذلك العري عُرْي امرأة فاسد. أمّا اليوم فإنّ المرأة تسير عارية كشاب. وكانت السيّدة في عهد حكومة المديرين تبرز الصفة الأنثوية بامتياز وتحيط بها وتُعلن عنها. وكانت تلك الحُلّة أكثر الحلل تقشّفاً لتثبيت الثديين. أمّا البزّة الحالية الكريمة في العري ظاهرياً فهي تحجب وتُلغي وتخفي في المقابل الثدي الأنثوي.

إنه لخطأ علمنفسيّ تفسير الأزياء الدارجة برغبة مفترضة في إثارة حواسّ الذكر، التي أصبحت فاترة إلى حدّ ما. وهذا الفتور واقع، وأنا لا أنفي أن هذا المسعى الأولّي يؤثّر في تفصيل علم الأزياء والسلوك. لكن الخطوط العامّة للصورة النسوية الحاليّة مستلهمة من نيّة معاكسة: وهي أن تتشبّه بالرجل الشابّ شيئاً قليلاً. وإن تهتّك المرأة ووقاحتها المعاصرين ليسا تهتّك ووقاحة أنثى، أكثر

مما هما تهتّك ووقاحة شاب يعرّض لعوامل الجو جسده المرن؛ إذاً، هما نقيض استعراضٍ داعر فاسد. وأرجّح أن العلاقات بين الجنسين لم تكن صحية وسعيدة ومعتدلة في أي وقت أكثر مما هي عليه اليوم. والخطر، بالحريّ، هو في الاتجاه المعاكس. لأنه حدث دائماً في العصور التاريخية الذكرية التي أهملت المرأة، أنْ مجّدت الحبّ الدوري Dóricó تمجيداً عجيباً. وهكذا كان الوضع في عصر بريْكلِس وقيصر، وعصر النهضة.

من الغباء إذاً، ملاحقة قِصَر التنّورات الدارجة باسم الأخلاق. إذْ لدى الكهنة هوس عريق مناهض لأَصحاب الأزياء. ففي بدايات القرن 13 ـ كما لاحظ لوشير ـ "لم يتوقّف الوعّاظ عن فرض العقوبات على الطول المبالغ فيه في التنّورات التي هي بزعمهم اختراع شيطاني"(1). علامَ حصلنا؟ وما هي التنّورة الشيطانية؟ أهي القصيرة أم الطويلة؟

فمن قضى شبابه في عصر أنثوي، يحزنه أن يرى الخنوع الذي تحاول به المرأة المُزاحة عن العرش اليوم أن تستلهم مجتمع الرجال وتنال السماح منه. وترضى في سبيل هذه الغاية بالحديث عن المواضيع التي يؤثرها الفتيان، وتتكلّم عن الرياضة والسيارات، وتشرب شرب شابّ جسور إذا وُزّعت كؤوس الكوكتيل. وإن النقص في سلطة المرأة على المجتمع هو السبب في أن يكون التعايش في أيّامنا عسيراً جدّاً. وإن انسحاب المرأة مبدعة قواعد آداب السلوك La cortezia من المستوى الاجتماعي الأوّل، جرّ هيمنة انفلاش الآداب. واليوم لا تُفهم واقعة كالتي حدثت في القرن 16 بسبب تطويب بعض القديسين الإسبان، ومنهم سان إيغناثيو، وسان فرنسيسكو، وخابيير وسانتا تريسا ديخيسوس. والواقعة هي أن التطويب عانى فترة تأخير طويلة بسبب الجدل المثار بين الكرادلة حول من يجب أن يدخل التطويب الرسمي أوّلاً: السيدة ثِبْيدا، أم الجزويت الذكور.

**إل صول El sol 3 تموز 1927**

* * *

(1) آشيل لوشير، المجتمع الفرنسي في عصر فيليب أوغست ـ ص 376.

# ملحـق II

## حول تمرّد الجماهير[1]

كنت أؤثر ألا أتكلّم أمام أيّ جمهور في رحلتي القصيرة هـذه إلى إنكلتـرا. وكنت أؤثر أن تكون رحلتي صامتة. ويهمّني إذاً أن أبيّن أنها رحلـتي الأولى إلى إنكلترا، مهما يبدُ ذلك غريباً. وأسـباب هـذا التـأخّر المـدهش ليـست في وارد الإعلان عنها الآن وهنا. وإني أقول فقط إن رحلتي الأولى إلى إنكلترا تنتمي إلى جملة من البكارات النقيّة التي احتفظت بها كيما أسوّغ لنفسي استمرار وجودي، ذلك لكون كلّ بكارة شيئاً إن فُقد في أيّ لحظة، يعني وعداً بالمستقبل.

لكن القضيّة هي أنّ كانّينغ هاوس ألحّ كيما أتكلّم إليكم بشكل غـير رسمـي خلال فترة ما. وإنّـي وإنْ حاولـت أن أمتنـع عـن تنفيـذ الاقتـراح، انتـهيت إلى الاستسلام له كيلا يستاء منّي السيد ليـڤرمور Livrmore. لسوء حظّ مـساعي هـذا الأخير، كنتُ هذه الأيام قطعة في آلة الاحتفال القويّة، لكنِ، القاسـية، احتفـال أقامته جامعة غلاسكو بمناسبة عيدها المئوي الخامس. ولم أحظَ خلالـه بدقيقـة واحدة لألتقط أنفاسي قليلاً، وأفكّر كما يجب في هذه المحاضرة. وكنت مضطرّاً إلى ارتداء ملابس الجامعيين زاهيـةِ الألـوان، الـتي جعلـت منّـي عـصفوراً مـن عصافير الجزر البريطانية؛ وكان عليّ أن أستمع إلى خطب لا نهاية لها، وأواجـه مناقشات لا تُحصى. لذلك كلّه جئت إليكم مُتعباً ومُفرغاً. فلا تنتظروا منّـي إذاً، شيئاً ثميناً من هذه المحاضرة. وسوف أتكلّم قليلاً عن كتـاب لي حظـي باهتمـام القرّاء المتكلّمين بالإنكليزية. ولا أدري إن كان ذلك لحسن حظّه أو لـسوئه. أمّـا الشيء الوحيد الفريد في القضية فهو أني أتكلّم لأوّل مرّة في حيـاتي عـن كتـاب معروف جدّاً. وهذه بكارة أخرى سأفقدها في هذه الجزيرة صعبةِ الإرضاء.

---

(1) بمناسبة إقامة أورتِغا في إنكلترا لتلقّي شهادة الدكتوراه من جامعة غلاسـكو في حزيـران 1951، ألحّ عليه معهد هيسبانيك ـ لوسو ـ كونسيل في لندن لإلقاء محاضرة حول كتاب تمرّد الجمـاهير. والنصّ الذي أنسخه ـ وهو غير مطبوع ـ جاء من المخطوط التحضيري لمداخلته. – الناشر.

وإذْ كان كثير ممّن يستمعون إليّ، لن يسمعوا بسهولة، وإن كانوا من دارسي الإسبانية فسوف أبذل جهدي لأقول قولي ببطء فارداً كلمةً عن أخرى. وسيغفر لي الهسبانو ـ أمريكيون الحاضرون هنا التعبَ الذي يفترضه هذا الأمر. أمّا الإسبان فقد سئموا سماعي حتى أنّهم يستطيعون أن يتحمّلوني جيّداً مع تضحية خفيفة كجانب من الدعاية. وهذا بالطبع ينزع من البلاغة سرعتها ولحنها.

ويجب أن أؤكّد أن موضوع هذه المحاضرة بشكل مونولوج، قد فرضه السيّد ليفرمور عليّ وإن يكن على شكل لطيف. لقد أراد أن أتكلّم عن وضع المشكلة الحالي؛ مشكلة سمّيتها منذ ربع قرن "تمرّد الجماهير". وسوف أقوم بذلك بشكل متقشّف لأن الموضوع، أي: ما حدث لجماهير اليوم مقارنة بما حسبتني لمحته منذ ما يزيد على عشرين عاماً، يحتاج إلى بحوث مستفيضة كيما يُعالج بعمق.

وهناك تحذير أخير توضيحي أحتاج إلى أن أعبّر عنه بصراحة. اعلموا أنّي دُعيت إلى الكلام حسب واقع الأشياء اليوم عمّا ينبغي لي أن أقول حول كتاب قديم، بالتالي أنا مضطرّ إلى الكلام عن شيء خاصّ بي، وعنّي أنا نفسي. وإني أعلم جيّداً أن الأعراف الإنكليزية تحظر الحديث والكتابة عن النفس. إنهم يؤثرون الإغفال. وحول الموضوع ينبغي لي أن أقول ما يكفي. لكن ذلك سيرغمني على صنع شيء غير ملائم يتجاوز الحديث عن نفسي: أي لا بدّ لي من أن أتحدّث عن الإنكليز وأتحدّث بعمق. وهو شيء ـ وأجرؤ على البوح به ـ ربّما لم يتم قطّ من قبل. فالإنسان الإنكليزي وطريقة وجود إنسان نشأ في هذه الجزيرة ـ وهو أحد أعجب أشكال البشرية الغربية وأغربها ـ ما يزال بحاجة إلى أن تُوضّح صورته إيضاحاً كاملاً، ونحتاج إلى محاولة فهمه إن كان ذلك في متناول اليد.

لنبدأ إذاً، بكتابي وبي نفسي. ومتى أصنع ذلك تروا كيف أني أحاول أن أخرج من المأزق لأبتعد عن ذاتي وأتحوّل إلى موضوع، إلى حادثة وقعت بعيداً في عرض العالم الكبير؛ وإني سأشير إلى شخصي كما يمكن أن يشار إلى زرافة أو إلى خلد الماء.

لقد بُدئ بنشر كتابي تمرّد الجماهير عام 1927. لكن جانباً كبيراً من أفكاري كانت متضمّنة في كتاب آخر ظهر عام 1921 تحت عنوان: إسبانيا اللافقرية. نحن إذاً، بصدد أفكار ومداخلات تعود إلى ثلاثين عاماً خلت. بالتالي، بصدد أفكار

صارت قديمة جداً. وما يدهشني هو أن ذلك الكتاب ما يزال مقروءاً أكثر من أيّ وقت مضى. وأحسب أنه بيع منه حتى الآن، وقد تُرجم إلى لغات شتى، أكثر من نصف مليون نسخة. لكن ذلك لا يصيبني بالغرور في شيء. بل على العكس، لأنّ الحظوة التي لقيها في العالم كله تعني في نظري، صدّقوني، اعتراضاً على العالم، لأنها تكشف أن أحداً في تلك السنوات لم يعرف أن ينظر خيراً مني فيكتب أنضج وأكمل عمّا كان في أوّل نشوئه. ولم يكن لكتابي المعنون تمرّد الجماهير، في رأيي، الطموح ليكون كتاباً مشهوراً. بالحري لم يكن له الطموح حتى ليكون كتاباً. بل هو ببساطة سلسلة من المقالات منشورة في يومية شعبية ذات انتشار واسع تسمّى إل صول El sol (الشمس)، وهذه المقالات التي تشكّل اليوم فصول الكتاب، أنشئت على عجل ـ عجلة مبرّرة، لأنها كانت ستذهب إلى المطبعة مباشرة، وأحياناً وريقة إثر وريقة كيما تظهر في اليوم التالي. ولهذه العجلة بدورها، سبب غير مألوف في حياة المفكرين الإنكليز، وهي الحاجة كيما أقبض فوراً الدريهمات الثمينة التي كانت تُدفع لي عن المقال، وبها كنت أغذّي بعض الخلَف الذي ساهمت بوضعه على قشرة الكوكب الأرضي. ربّما رأيت أن المفكّر، على الأقل المفكر الذي رسالته في أن يمتلك رأياً ويخلق أفكاراً، يجب ألاّ يعامل برقّة. وربّما كانت رسالته تتطلّب أن يعاني قسوة ضغط محيطه، وأن يُضطرّ إلى العمل لمواجهته ومصارعته. ولعلّ فرصةً تُتاح لي بعد اليوم فأبين كيف نشأت ضمن هذا الشكل أوّل تظاهرة للفكر بالمعنى الحقّ في التاريخ، أي في بلاد اليونان منذ عشرين قرناً.

لا ريب في وجوب حماية العلوم والآداب، لأن الإنتاج العلمي والأدبي هو ويجب أن يكون، في جانب كبير منه، عمل راجع للدأب المستمر واليومي، وليس عمل العقل الخلاّق. لكنّ العقل بالمعنى الصحيح لا يمكن له أن يتحوّل إلى وظيفة، إلى مهنة. لأن العقل بطبيعته ذاتها ليس عملاً ولا يمكن له أن يكون منصباً. إنه قائم على رؤى ولمحات مفاجئة وتلقائية لا يدري أحدٌ متى تحدث، أو إن كانت ستحدث. وجمال العقل الأكبر، وهو شرط لممارسته في آن واحد، أنه ليس واثقاً بنفسه قط. والإنسان العاقل ولأنه بالضبط عاقل، لا يعلم إن كان في اللحظة التالية سيكون عاقلاً. ومن يؤمن باطمئنان بدوام العقل هو الأحمق بعينه. لأنّ العقل يضع نصْب عينيه إمكانية الحماقة التي قد تطرأ عليه، لذلك هو يتحاشاها.

وإذا كان بالإمكان أن نقول عن أحد إنه عاقل بحقّ فهو ديكارت العظيم، لقوله إنّه إنْ كان وصل إلى هذه النتائج العبقرية في الرياضيات والفلسفة، فذلك لأنه كان يكرّس أسابيع قليلة جداً في العام للتفكير في مسائل رياضية، وساعات قليلة جدّاً للتفكير في الفلسفة. وهذا راجع إلى فكرته عن bon sens- bona ment، عن أنّ العقل (أو الإدراك) السليم لا يعطي ثماره الحقيقية إلاّ في ملاحظات سريعة وفي التماعات مفاجئة. وهذا أمر لم يُبرز على شكل كاف. لذلك، أقول، يا سادة: لا يمكن للعقل أن يكون منْصباً ولا بيروقراطيّاً، وإنّ إرادة حمايته غير عملي، وإنه هو بنفسه يحاول أن يتلقّى وسْط خشونة الحياة ومصاعبها الإلهامات الدائمة غير المنتظرة مستقلاًّ عن كل شيء وحرّاً حتى من حماسته ذاتها، مستنداً إلى خير رسالة يمكن أن تكون له، وأهمّها.

ويعود النفوذ الذي حصل عليه كتابي في العالَم من غير ادّعاء منّي، إلى أنّ فيه نبوءاتٍ خطيرةً تحقّقت لسوء الحظ في هذه الأيام.

ولقد أحسّ الناس بإعجاب يمتزج فيه الاحترام بالضيق، نحو الرجال الغريبين الذين يتنبّؤون بالمستقبل. لأن المستقبل منطقة من الزمن يعيش فيها الناس فعلاً. ولا ننسَ أن الحياة شغل يتمّ باتجاه الأمام. وإن ما يهمّنا ويشغل بالنا ما يمكن أن يحدث في اللحظة القادمة المباشرة أو البعيدة. والإنسان يُلقى به كلّ لحظة باتجاه هذا الفراغ المخيف الذي هو المستقبل. حسن! أنا أقول إن المستقبل الآتي شيء فارغ يقف أمامنا، إنه بُعْد الحياة الإشكالي. ولا ندري ماذا يجلب علينا، وماذا سيحدث لنا. وهذا هو عدم اليقين بشكل جوهري.

نحن ندرك أن الناس يريدون الكشف عن المستقبل، ونفهم أنهم لعجزهم عن ذلك يهتمّون بكلّ ما يشبه النبوءة والكهانة والعرافة. وإلى ذلك يعود الاهتمام بكتابي، لكن، هنا تتأكد أكثر ما تتأكد عدم فائدة المتنبّئين. والأذهان الإغريقية التي تمتّعت بصفاء واضح وضوح النار، جعلت العرّافة الأولى كاساندرا تقول بلسان أسخيلوس: إن العِرافة عملية أشدّ عبثاً من العمليات الأخرى كلها، لأنها إحدى شيئين: إذا كانت النبوءة بمستقبل رديء، تنفع البشر، فيتجنّبون هذا

المستقبل، وتظل النبوءة من غير تحقّق، وبالتالي لن تكون نبوءة؛ لكنها إن تحقّقت، فهذا يعني أنها لم تنفع شيئاً في الكشف عن المستقبل القاسي؛ لذلك منح أبولو كاساندرا موهبة رؤية المستقبل شرط ألا يأبه بها أحد.

يُضاف إلى ذلك أنّ ما قمت به منذ ثلاثين عاماً ويمكن أن يكون قد لمح ما سوف يحدث في الأعوام التالية، ليس فيه شيء مُميّز.

وقد كان طبيعيّاً أن يتمّ التنبّؤ بالتاريخ. والتاريخ البشري، على الرغم من تدخّل المصادفة الدائمة، شيء يشبه لحناً. فمن يعرف أن يتلقّى في نفسه بتركيز وصفاء قطعة التاريخ التي عُزفت حتى ذلك الحين، فإنه يحسّ ببقيّة اللحن الذي سيصدح باتجاه المستقبل ينبثق في داخله. ويحتاج من أجل ذلك إلى أن تكون جذور كيانه حرّة حريّة مطلقة فقط. لكن، لئن تكنِ الشعوب كبيرة في ظرف معيّن، فإنها تصبح أسيرة الحاضر بإفراط، وتُفرِط في انشغالها بشؤون الحاضر ونزاعاته، فمن غير المألوف أن يوجد بينهم رجال أحرار بشكل جذري، ومنفتحون انفتاحاً كافياً على رؤى المستقبل الأثيرية هذه. لذلك كانت النبوءات أكثر شيوعاً لدى الشعوب المحيطة التي كانت كبيرة، ثم كفّت عن أن تكون كذلك، والتي تخلّت عن التجارب كلها، وكانت رأت منها من كل لون، والتي فُتنت بنار أشكالٍ من السعادة والشقاء. ولا ننسَ أننا ـ البرتغاليين والإسبان ـ صينيّو الغرب القدماء. ونحن ـ الإسبان ـ لنا مزيّة بأن كنّا أولَ شعب حكم في الغرب كما كانت إنكلترا الأخير فيه. ومن يكن ذكيّاً يكتشف في الرجل الماثل أمامه إن كان ينتمي إلى شعب حكم ذات مرّة. وهذي هي حالة الإسباني.

أريد القول إن نبوءاتي، على الرغم من ذلك كله، ليست عملاً شخصياً، وإنما هو عِرقي العريق من أوحى بها إليّ. وأنا لم أضع في ذلك غير قليل من الاهتمام وهذا ما لم يعتد مواطني الأعزاء على وضعه في شيء.

وكانت تتخلّل نبوءتان ما يشبه أن يكون كتابي: وقد بيّنت في إحداهما أن الجماهير، وليس الجماهير العمالية بشكل رئيس فقط، سوف تعلن استقلالها عن الأقليّات التي كانت توجّهها حتى ذلك التاريخ، وأنها ستفرض هيمنتها في

كل المجالات. لكـن في كتـابي جـزءاً ثانيـاً لم يُـبرز إبـرازاً كافيـاً في الطبعـات الإنكليزية بسبب عنوانه. وكان العنوان: "من يحكم في العالم؟" لأن هناك ضرورة دائمة أن يحكم العالم أحد ما. وإذا قلنا السبب أن هذا الأمر لا خيار فيه، فسوف يقودنا إلى بعيد قليلاً. لكن، يمكن أن يُختصر إلى ما يلـي: إن تـسمية مجموعـة هامّة من البشر مجتمعاً ـ مهما يكن هذا المجتمع ـ تُخفي عنّا الواقع الحقيقي في العادة، وهو: لا توجد أية جماعة أو تجمع متعايش من البـشر، يكـون مجتمعـاً بالمعنى الحقّ. وإن الفكرة التي تلقّيناها من أرسطو القائلة إن الإنـسان اجتمـاعي بالطبع، فكرة زائفة، لأنها لا تعبّر إلا عن جانـب مـن الحقيقـة وتتـرك الجانـب الآخر محجوبـاً. والحقيقـة أنّ في كـلّ تعـايش بـشريّ، بـالطبع، قـوى وميـولاً للجمعنة، ـ وبكلمة أخرى قد يعيش البشر مبعثرين ـ، لكن، توجـد إلى جانبـها قوى وميول للفرقة والابتعاد عن المجتمع، بل ولمعاداة المجتمع. ومـا المجـرم غير حالة أكثر فظاظة، وأقل أهميّة على ذلك. إذاً، كل مجتمع هو في آن واحـد نقيض مجتمع di-sociedad، أو بتعبير آخر: إن كلّ مجتمع بشري مـادام يتطلّـع ليكون مجتمعاً هو إخفاق، أي واقع مريض. لذلك يجب على التعايش والجماعة أن تناهض القوى والميول المضادّة اجتماعياً بقوّة صـنعية منظّمـة، هـي الـسلطة العامّة، أو الدولة باختصار. وإنهـا لـسذاجة مـن الفوضـويّين الاعتقـاد بإمكانيـة الاستغناء عن الدولة أو السلطة العامّة؛ لكنها طوباويـة ويوتوبيـة مـن القـانونيّين الظنّ أن الدولة بذاتها شيء حسن وسليم. ولا تحت أيّ شكل: لأن وجود الدولة وحتميّتها يأتي من أن المجتمع هو إلى هذا الحدّ أو ذاك، مريض دائمـاً ويحتـاج إلى أن يبرأ علاجيّاً بوساطة سلطة عامّة تقمـع وتكـبح انتـصار القـوى المناهـضة اجتماعيّاً. والدولة جهاز تقويميّ تضعه الجماعة لنفسها كيما تستطيع البنـاء. وإنّ جهازاً تقويميّاً هو بذاته ومن غير شيء آخر شرّ وناقص مهما يكن متقناً. لكنه، إذْ خُلق من أجل تفادي الصراعات داخل المجتمع ولفرض النظام، فإنه يجعل كـل فئة تتطلّع إلى أن تصبح سيّدة السلطة على السلطة العامة، أي الدولـة، وبـذلك تولّد صراعات جديدة. والصراع من أجل السيطرة علـى الـسلطة العامـة هـو مـا يُسمّى في الواقع بكلمة غامضة يكاد لا يفهمها أحد، وهـي: سياسـة. ومـن هنـا

ينتج أن الدولة إذا كانت عرضاً لمرض لا مفرّ منه وتكويني في الجسم الاجتماعي، فإن السياسة مرض آخر يُضاف إلى الأمراض الأوّلية. وقد انشغل المفكرون بطيش لا يُصدّق بتعريف ما هي السياسة الحسنة في مقابل السياسة الرديئة. لكن، لم يشرع أحد، حسب علمي، في التفكير مباشرة ومن غير زوغان، فيما هي السياسة في ذاتها، سواء أكانت حسنة أم رديئة. ولو صنعوا ذلك لتنبّهوا إلى أنه لا يمكن أن توجد سياسة حسنة، وإنما توجد فقط سياسة أقلّ سوءاً، ذلك لكون السياسة شيء مقرون بالمرض الدائم في كلّ مجتمع. هذي هي التجربة الإنسانية الثابتة. ولا أفهم كيف لم يعرف المفكرون أن يصوغوا هذه التجربة التي عمرها عدّة آلاف من السنين.

إذاً، هذا يجعلنا أن نرى ـ وإن يكن بشكل مختصر ـ أنّ في كل مجتمع لا مفرّ من أن يحكم أحدٌ ما؛ فإذا تعايشَ دائماً عدد يكثر أو يقلّ من المجتمعات مشكلة مجتمعاً أوْهى لكنه أوسع، فقد كان في كلّ وقت "عالم"، وكان لا مناص من أن يحكم أحد في العالم(1).

***

(1) [ إن بقيّة المخطوط تضمّ ملاحظات وجملاً طليقة اتخذّها أورتغا دليلاً ثم طوّرها شفويّاً. لكن مضمونها يقوم أساساً وبمقدار ما يبدو غير ملتبس، على التالي: كان أورتغا يعتقد عام 1920 أنّ أوروبا إنْ كانت ما تزال تحكم العالم، فلم يبق من ذلك الحكم سوى دوام العطالة. وتستعدّ الجماهير في كل بلدٍ ومن كل طبقة لأخذ السلطة وتصبح سيّدة الدولة. وفي كل عصر كانت جماهير، لكن دورها الطبيعي كان في اتّباع إيحاءات عليا تأتي من أقليّات معينة. الحياة في نظر الأقليات تقوم على الالتزام. وكان لا بدّ لها من أن تطلب من نفسها الكثير. وكانت رسالتها الإبداع. لكن الإبداع أخذ ينتشر ويتحوّل إلى شيء ميكانيكي، ويُورّث ويُتلقّى. حتى الثقافة صارت ميكانيكية وتحوّلت إلى "عادة" وإلى فكر مكرور. وقد جعل هذا التلقّي الميكانيكي الجماهير تحسب نفسها أنها كالأقليات، فلا يوجد سبب لديها كيما تطيع، وأنها تستطيع أن تحلّ محلّ تلك. وانحنى El Demos (الشعب) للطغيان. وهاجمت الجماهير كلّ ما يعترض سبيلها. ولا سبيل لتقويمها إلا بما تفرضه الكوارث. وكان أورتغا يعلن عنها، وقد حدثت وما تزال تحدث. لكن الجماهير ستصاب بالسأم وتفقد الإيمان بنفسها. وقد يحدث تمرّد آخر وسط المجتمعات، وتشقّ عصا الطاعة الشعوبُ التي كانت ترضى من قبل أنْ تُقاد. وخاتمة المحاضرة تشير إلى إنكلترا، وإلى التغيّرات التي خبرتها، ويختتم بسؤال لصالح المستقبل في "الجزر ذات اللطائف".] ـ الناشر.

# ملحــق III

## [ القـرن 18 ][1]

لقد كان فخر القرن 19 أنْ فرض بعض المبادئ التي خلقـت حيـاة جديـدة جدّة جذرية، وهي مناقضة في الأساس للحياة في كل العصور. ومـا كـان علـى الإنسان الذي حكم هذا القرن، أن يكتشف هذه المبـادئ، حتّـى ولا الأشـكال الجنينيّة الأولى لتطبيقها. أمَا وإنّه تثقّف بثقافة القرن 18 فقد تلقّى منه هـذا الكـنز كلَّه فضلاً عن الدافع المثالي الذي يحرّك روحه من الداخل. ليس لـه إذاً، فـضل كبير في الاندفاع بقوّة في تنفيذ برنامج حيوي جدّ رائع. لكن إنسان القرن 19 هذا كان يستطيع في حالة واحدة فقط أن يبيّن عبقريّته وسمّو روحـه في العنايـة الـتي بذلها لتحقيق المشروع، وفي اليقظة والإحساس بالمسؤولية الذي يتقدّم مسيرته. وقد انقضت ثلاثة قرون ـ هي في الواقع تاريخ أوروبا ـ لفهم أسرار هذا المشروع العجيب الذي وُضع بين يديه. ولا شيء كان أسهل من التعجيل بـذلك. ومـا إن بُدئ بغرسه حتى أخذ يُعطي نتائج باهرة.

ولم يرَ ابنُ القرن 18 الديمقراطيّـة ولا التجريـب ولا التـصنيع الـتي أبـدعها تعمل بكامل قوّتها. فكان إذاً، يجهل انعكاس عملها على الطبيعة البشرية. ووقع الالتزام على القرن 19 بإكمال تلك المنظومة من المبادئ بمنظومة من التعديلات والإضافات المستلهمة من الممارسة. والطريف أن نلاحظ إخـلال ذلـك القـرن بهذا الالتزام إخلالاً ثابتاً. ولم يدرك أن البشر عنـد تثقـيفهم بنظـام ديمقراطـي، يجب تعليمهم شيئاً ما يتجاوز الديمقراطية، أي شيئاً ما يتجاوز حقـوقهم، وهـو

(1) لم يظهر مخطوط "تمرّد الجماهير" الأصلي بين أوراق أورتِغا ما خلا تلك الصفحات التي تتضمّن توضيحات حذفت من الكتاب. لكنه، مع ذلك، احتفظ بها، على الأرجح، تطلّعاً إلى استعمالها في سياق آخر. وإني أنقل هنا هذه الصفحات غير المطبوعة كملحق III، يكمـل بعـض الأفكـار المُضمَّنة في الفصل VI من الكتاب. ـ الناشر.

واجباتهم. ولم يدرك أن العلم إذا سلك طريق التجريب يميل لا محالة إلى أن ينحلّ في تخصصية ميكانيكية، وكان لزاماً معادلته بطريقة ما للحفاظ على جوهر هذا العلم الكامن في وحدته. لم يُدرك أن التصنيع المتروك على سجيّته يجعل من البشر عبيداً للإنتاج معطياً بذلك الشأن الاقتصادي الهيمنة على الحياة العامّة والحياة الخاصّة، التي تعني تشويهاً مخيفاً للعضوية البشرية. أو بقول خير من ذلك: إنه كان يدرك ذلك، إذْ لا يمكن له إلا أن يُدرك، لكنه لم يؤدّ الواجبات التي يحدّدها هذا الإدراك آلياً.

وكلّما أفضنا في تحليل القرن الماضي، يظهر بوضوح أكثر أنّ خير ما فيه تقريباً، ليس له ولا هو منه، وإنما جاءه من القرن السابق عليه. أمّا ما كان له حقّاً فقد كان مراوغة تاريخية عنيدة. ولقد أخلّ عن وعي بكلّ ما في رسالته من إلزام بوجوب الإبداع. فلم يضف شيئاً جوهرياً إلى ما تلقّاه، بل أخذ يسير على المنحدر الذي تشير به عليه المبادئ الموروثة. ولم يظلّ من فوقها لمّا استعملها كما ينبغي لكل إنسان مسؤول أن يصنع، محتفظاً بالسيطرة على عملها وبذلك يصبح سيّد مصيره ذاته، وبالتالي سيد مستقبله التاريخي. ولا عذر له أنه لم يستطيع أنْ يرى من داخل هذا القرن ما كان غائباً عنه، لأنّ الأفراد الأفذاذ حقاً في ذلك العصر، (وهم بعض الرجال العُمُد عميقيّ التفكير)، وقد تنبّؤوا بذلك بكل وضوح وأعلنوه بكلّ قوّة.

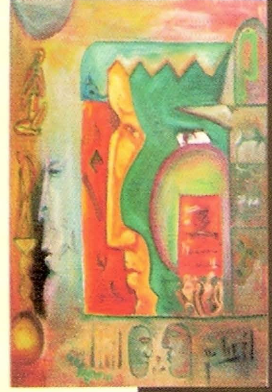
ولعل حِجاجاً شديد التبسيط كان يقود إلى هذا التوقّع. لأن من أرسى الديمقراطية لم يكن مثقّفاً بثقافة ديمقراطية، وإنما "بثقافة النظام القديم"، أو بالثمالة التي ما تزال باقية من جوّه الخلقي. ومن بدأ التخصّص لم يكن هو من جانبه اختصاصيّاً. بل كان ما يزال علمه موسوعياً. أمّا الصناعة الظافرة فكانت تتغذّى من جوّ عامّ لم تبدعه هي، وإنما كانت تنتفع بكل ما كان باقياً في المجتمع من المبادئ ما قبل الصناعية. إذا كان القرن 19 يجمع مزايا المبادئ الجديدة إلى المبادئ التي كانت ما تزال صالحة وحيّة من القرن السابق. هو قرن لم يكن ابن ذاته. أمّا ما كان إبداعاً جذريّاً في عمله (وهو تنظيم الحياة تنظيماً جديداً) فلم يكن له تأثير على حياته. وكان واضحاً أن بقايا القرن 18 راحت

تتبخّر جيلاً بعد جيل وصارت المبادئ الجديدة عارية معزولة. والإنسان المولود في ظلّ سريان هذه المبادئ سرياناً كاملاً كان بها وحدها ابنَ الثورة، وآدمَ الجديد. فكيف لم يُسأل إنْ كان هذا النموذج من البشر يتمتّع بالشروط ليتابع الخطّة التاريخية التي بدأ بها القرن 19 مسيرته؟ وكيف لا يُسأل إن كان المثقّف بثقافة ديمقراطية خالصة سيكون قادراً على أن يكون ديمقراطيّاً وهو يفتقر إلى أخلاق مكمّلة لها؟ أو إن كان الاختصاصي البحت يستطيع أن يكون حقّاً "رجل علم"، أو بالحريّ سيفقد كلّ احتكاك بجذور المعرفة ذاتها؟ وأخيراً، إن كان التصنيع المتروك إلى جاذبيّته الخاصّة لا يُلغي ـ لأسباب شتّى نفسه؟

إن القرن 19 لم يشأ الإجابة عن هذه الأسئلة، لذلك كله تسير الأجوبة الآن على أقدامها في الشارع. إنها مشكلة ضخمة لا نظير لها في التاريخ ما خلّفه لنا ذلك القرن. وهو ابن الديمقراطية الليبرالية وقد كان ذا مقاصد معادية لليبرالية، وبالضرورة معادية للديمقراطية (وقد يكون الأمرين كليهما في آن واحد). وهو ابن التخصّص العلمي، ولم يكن يحسّ بالحماس للعلم. والتصنيع المنحدر من ذلك القرن المنتصر أحذ يفقد رأسه ذاته. وقد كان الإنسانُ الجديد ذلك كلَّه بأناقة ومجون وتقزّم. لأنه لم يُبدِ حتى الطموح في أنه تجاوز هذه الأمور في نظام جديد من القواعد الحيويّة الأدقّ والأصحّ. ويبدو أنّه مستعدّ للعيش مجرّداً من القواعد والمشاريع من أي صنف.

***

# الفهرس



# تمرّد الجماهير

إن التسييس الشامل، وامتصاص السياسة الأشياء كلها، والإنسان كله، يستوي وظاهرة تمرّد الجماهير الموصوفة. لقد فقد الجمهور المتمرّد كل قدرة على التديّن والمعرفة. ولم يعد صدره يتسع إلا للسياسة، لسياسة مفرّطة، مجنونة خارجة من ذاتها، لأنها تطمح إلى أن تحلّ محل المعرفة والدين والحكمة، وأخيراً محلّ الأشياء الوحيدة التي بجوهرها معدّة كيما تحتلّ مركز ذهن الإنسان. والسياسة تنتزع المرء من فردانيّته وتحدُ من حميميته. لذلك كان التبشير بالتسيّيس الشامل إحدى التقنيات التي تستعمل لتشريكه. وإذا سألَنا أحدٌ ماذا نحن في السياسة، أو إذا استبقَنا بالوقاحة التي تنتمي إلى أسلوب عصرنا، فيُلحقنا بسياسة ما، ينبغي لنا أن نسأل المزعج عوضاً عن أن نجيبه: ماذا يحسب هو الإنسان والطبيعة والتاريخ، وما المجتمع والفرد، والجماعة والدولة والعرف والحق. لأن السياسة تبادر إلى إطفاء الأضواء كيما تبدو هذه القطط كلها رمادية قاتمة.

تمرّد الجماهير أكثر أعمال أورتغا إي غاسّيت شهرة. وموضوعه يتناول: "أهم واقعة في عصرنا". وهذه الواقعة جليّة وثورية: "إنها وصول الجماهير إلى سدّة السلطة الاجتماعية". حتّى تحوّل إلى أهمّ كواشف عصرنا.

إن تمرّد الجماهير هو أكثر وقائع القرن العشرين إيجابية، لكن قوّته غير المسبوقة قد جلبت في آن واحد وبالقوّة، مخاطر هامّة وجديدة جداً. وإنّ تحقّق توقّعات أورتغا حالياً – وهي توقّعات تعود إلى نصف قرن – يمكن أن تُسهم في قراءة الكتاب اليوم بإمعان أكبر لفهم اللحظة التاريخية التي نعيشها، لأن جوهره يقوم على "مذهب حول الحياة البشرية".

www.attakwin.com

لوحة الغلاف للفنان إبراهيم العواد